

الدكتور بدوي طبّانيه

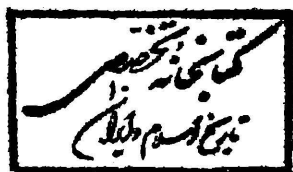
مَعْلَقَاتُ الْعَرَبِ

دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعراء الجاهليين

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦ شارع محمد زمر الحامدي

مُعَلِّقَاتُ الْعَرَبِ

دراسة نقدية تاريخية في عيون السمر الجاهلي



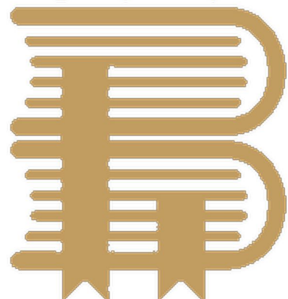
تأليف

دكتور بدوي طه بانه

أستاذ النقد الأدبي المساعد
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (ممار الزين سابقا)

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطه يديل < mktba.net

الطبعة الأولى

١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مَطْبَعَةُ السَّالَةِ
٢ شارع حمودة المكاول - عابدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه دراسة جديدة في « معلقات العرب » وهى تلك القصائد الطوال المأثورة عن أعلام الشعراء في العصر الجاهلى .

وللشعر الجاهلى مكانته المرموقة بين المأثور من أدب العرب طوال حياتهم التاريخية منذ ذلك الزمن البعيد الذى عاشوا فيه فى حدود جزييرتهم أو أطرافها لا يتجاوزونها إلا لاسمًا ، إلى العصور التى انتشروا فيها فى الأرض حاملين أضواء الإسلام الذى حملوا مشاعله إلى مختلف البقاع ، وتقاليد العروبة التى ربوا فى ظلها ، والتى ورثوها عن أسلافهم الأجداد .

وكأنما ورث العرب طبيعة الحرص على هذا التراث الأدبى ، حتى أصبحت تجرى فى دماهم وتنتقل فى أصلابهم ، فلم يفقدوها فى عصر من عصورهم ، أو فى مصر أمصارهم ، فما من عصر من عصور التاريخ الطويلة التى عاشت فيها الأمة العربية إلا وقد برزت العناية فيه بالشعر الجاهلى برزواً واضحاً ، على الرغم من الأحداث التى كانت تستهدف لها هذه الأمة ، فتفرق صفوفها ، وتعثب بوحدتها ، وتعود بها القهقرى فى ميادين السياسة والاجتماع ، وميادين العلم والمعرفة ، حتى صارت أوطانهم مطعماً للغزاة الذين كانوا ينتهزون فرص الضعف فيستغلونها ، ومواطن النقص فى صفوفهم فيعملون على اقتحامها .

ولم تستطع تلك الأحداث الكثيرة والخطوب الميرة أن تفسى على ذلك التراث الأدبى الحافل ، ولا أن تفسى العرب تعهد هذا الأدب بالرواية والحفظ

والمدرسة ؛ لأنهم وجدوا هذا الأدب ركنا من أركان حضارتهم الفنية ، وثقافتهم الأدبية .

ولا يزال الشعر الجاهلى يحظى بهذه المنزلة فى زماننا ، فى جميع البلاد الناطقة بالضاد ، وغيرها من البلاد التى تعنى بتاريخ هذه الأمة ، ودراسة حضارتها ومقوماتها ، سواء أكانت تلك الدراسة تستهدف المعرفة المجردة ، والبحث الذى يراد به استتمام حلقات المعرفة بالشعوب ، والحضارة الإنسانية ، أم كانت ترمى إلى تحقيق غرض مادى من أغراض السيادة والاستغلال .

ذلك أن الشعر الجاهلى — وهو أبرز فنون الأدب العربى — يعد أهم مصدر من المصادر التى يستمد منها الباحثون فى تاريخ هذه الأمة وحضارتها ، ولذلك عنت السكليات الجامعية ، ومعاهد التعليم العالى فى الحواضر العربية وغيرها بدراسة هذا الأدب ، وأصبحت دراسته تقليداً فى مدارس التعليم العام ، تشغل مكانا ملحوظا بين مناهج تاريخ الأدب .

وكان من أسباب تلك العناية أيضاً أن النظام الذى سلكه أولئك الشعراء الأولون فى نظم ذلك الشعر ، ظل هو الطراز الذى تتطلع إليه أنظار الشعراء فى العصور التالية ، وظل هو النظام المتبع والطراز المحمذى فى التعبير الشعرى عند أمة العرب منذ أقدم العصور إلى الوقت الذى نعيش فيه ، ولم يستطع الشعراء مع تباعد الزمن واختلاف البيئات أن يخرجوا على تلك النظم والتقاليد التى سنّها الشعراء الأولون فى ذلك الزمن البعيد . فأوزان الشعر لا تزال هى تلك الأوزان القديمة التى نظم الجاهليون شعرهم عليها ، ونظام القافية الموحدة لا يزال كما هو ، إذا استثنينا بعض محاولات لتخفيف من قيود تلك الوحدة التى تكلف للشعراء بصناعة الشعر ثقافة لغوية ، ومعرفة بعدد كبير من مفردات اللغة ومترادفاتها يصلح لاختيار ما يلائم المعانى ، وما يلائم حروف القافية المختارة . وإذا استثنينا محاولات

أخرى للتخلص من هذه القافية أصلاً ، وللتخفيف من قيود الوزن ، فيما يسمى بالشعر للرسل أو الشعر الحر أو الشعر المنثور . وإن كانت تلك المحاولات لم تستطع أن تطنى على التقاليد الأصيلة فى بناء القصيدة ، تلك التقاليد التى سنّها الأولون ، وجرى عليها الشعراء فى المصور التالية التى ازدهر فيها الشعر والأدب .

ولسكل هذا عظمت العناية بالشعر الجاهلى فى أيامنا ، كما عظمت فى المصور السابقة ، بعد الإحساس بالصلة الوثيقة التى تصل حلقات هذا الشعر بعضها ببعض ، وأن على دراس الأدب الحديث أن يقف على تلك التقاليد ، حتى يستطيع أن يحدد محاولات التجديد ، ويعرف مجالات التقليد .

ولقد كانت « المعلقات » هى الصورة الأخيرة التى انتهت إليها تجارب الجاهليين فى التعبير الشعرى ، ولذلك فاقت شهرتها شهرة ماسواها من الشعر الجاهلى ، بل الشعر العربى على الإطلاق ، وأصبح لأصحابها من الذكر فى تاريخ الأدب العربى ما لم يظفر به غيرهم من الشهرة وذىوع الصيت .

ومن الممكن اعتبار تلك الصورة التى وصلت بها إلينا المعلقات الصورة الكاملة للشعر العربى ، بما اجتمع لها من حسن الوزن ، وجودة القافية ، وقوة المعانى ، وجزالة الألفاظ ، ومتانة الصياغة . وكانت تلك الصفات هى السبب فى أن ينظر الشعراء العرب دائماً إلى تلك الصورة المثالية التى رأوها فى المعلقات ، وأن يحاولوا محاكاتها فى تعبيرهم الشعرى عن عواطفهم وآلامهم وآمالهم ووصف مجتمعاتهم ، كما عبرت تلك المعلقات أقوى تعبير عن أمانى النفس وعواطفها وانفعالاتها ، وكانت أصدق صورة للمجتمع الذى عبرت عنه فى ذلك الشعر القوى الرائع ؛ كما كانت مجتمعاً لألفاظ اللغة العربية ، وأساليب التعبير بها .

وبهذه النظرة نظر إليها علماء اللغة وعلماء الأدب الذين اتخذوا منها مواطن

الاستشهاد على صحة اللفظ وصحة الأسلوب ، ومقياساً من مقياس التشريع اللغوى وكانوا على حق فيما ذهبوا إليه ، إذا كانت صحة ذلك الشعر مما لا يقبل الجدل ، لصدوره عن أصحاب اللغة الأصليين ، الذين وضعوا ألفاظها ، واصطلحوا على مفهوماتها فى الاستعمال ، ودلالاتها إن هى ركبت ، ووضع بعضها إلى جوار بعض ، واختلاف تلك المفاهيم إذا تغير الوضع ، أو اختلف الضبط . ولم يكن لأولئك الذين جاءوا من بعدهم أن يغيروا عليهم ما وضعوا وما ارتضوا من تلك الدلالات أو تلك الاستعمالات ، وهم الذين أخذوا تلك اللغة عنهم بالتلقى والتلقين . وكذلك نظر نقاد الأدب إلى هذه الملاحظات ، لأنهم إنما يضعون مقياسهم وفقاً لمجموعة التقاليد التى سبقتهم الأدباء ، وينظرون إلى الظواهر المشتركة والخصائص الفنية ، ليقيسوا ما ينشأ فى عصورهم بما كان قبلهم ، ومعنى ذلك أنهم لا يبتعدون جديداً فى تلك المقياس ، وإنما يستكشفون من طبيعة التراث الأدبى تلك المقياس بما يجمعون منه من أسباب الجمال أو القوة أو الوضوح . وقد رأوا الإجماع ينقصد على توافر تلك الأسباب فى شعر المعلقات ، باعتراف البيئة التى أنشئت فيها ، واعتراف الخبراء بعميق تأثيرها فى نفوس الذين عاصروا قائلها ، ورأوا بأنفسهم التجارب التى عبرت عنها تلك الملاحظات .

ويبدو أن هذا التقديس - وإن كانت له أسبابه الوجيهة - كان خطراً على الشعر العربى فى عصوره كلها . ذلك لأن اعتراف العلماء والنقاد ، بل واعتراف الشعراء أنفسهم ، بعظمة تلك الملاحظات ، وجودة الفن الشعرى فيها ، كان هو الذى دعا الشعراء فى سائر العصور إلى محاكاتها ، والأخذ بنظامها فى طريقة النظم ، وفى تعدد الأغراض فى القصيدة الواحدة ، بل وفى بدء قصائدهم بوصف الدمن والأطلال ، وجوب الفلوات على ظهور الإبل والمطايا ، وغير ذلك مما كان حقيقة واقعة بالنسبة لجاهليين فى بداوتهم ، وكان كذباً وتدليساً بالنسبة لغيرهم من الشعراء الذين سكنوا الحواضر العاصرة ، وعاشوا فى الأمصار التى تعج

بصنوف الحياة والألوان الحضارة . ومن هنا فقد كثير من هذا الشعر سمات الأصالة ، وبدا تعبيراً عن عواطف مصطنعة ، وتجارب كاذبة ، وفقد تبعاً لذلك تأثيره في نفوس الأفراد والجماعات من يسمونه أو يقرءونه ، إلا بالقدر الذي يسترجعون به ذكريات الشعر القديم ، وذكريات الأسلاف الذين عبروا بهذا الشعر ، أو عبر عنهم ذلك الشعر .

وأياً ما كان الأمر فإن هذه المعلقة قد حظيت بتقدير علماء العرب وقادهم ، بما تعهدوا به من الحفظ والرواية ، وبما تولوه من شرح الغامض من مفرداتها وتراكيبها . وقد عهد إلى قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم القيام بإلقاء بعض المحاضرات في موضوع من موضوعات الأدب الجاهلي ، فاخترت « المعلقة » موضوعاً لتلك المحاضرات ، التي كانت خلاصتها هذا البحث الذي أنشره اليوم في هذا الكتاب .

وقد نظمت البحث في المعلقة في أربعة فصول :

ففي الفصل الأول شرحت مدلول لفظ « المعلقة » الذي أصبح مصطلحاً من المصطلحات الأدبية ، وذكرت أسماءها المختلفة التي عرفت بها في العصور ، وقد عنيت في هذا الفصل بتوثيق المعلقة ، واستعرضت الآراء التي دارت حولها ، وفندت الأقوال التي تشكك في صحة ثبوتها ، أو في نسبتها إلى أصحابها ، بما اطأنت إليه من الحجج والأسانيد .

وفي الفصل الثاني عرضت لأصحاب المعلقة ، وذكرت تاريخ حياتهم ومنزلتهم بين الجاهليين ، وموضوع كل معلقة ، وأغراضها ، وأهم خصائصها ، وأثبتت ذلك بالنصوص السكاملة لكل معلقة ، معتمداً على أصح الروايات ، حتى لا يضطر القارئ إلى التماس تلك النصوص في مصادر أخرى قد لا تيسر له . واقتصرت من هذه المعلقة على السبع التي اتفق عليها معظم الرواة ، وصرفت

النظر عن القصائد التي كانت موضع خلاف بين الرواة في اعتبارها من المعلقة .
وخصصت الفصل الثالث لدراسة المجتمع العربي والحياة العربية في شتى
مظاهرها ، كما صورتها المعلقة ، وفي هذا الفصل ذكرت ما في المعلقة من أسماء
المواضع والجبال والرياح والسحاب والمطر والمياه والنبات والحيوان ، وأيام العرب
وحياة الحرب والسلام ، وأدوات القتال ، ومنزلة المرأة عندهم ، ومظاهر الحضارة
في الحياة الجاهلية ...

وكل ذلك استخرجته من نصوص المعلقة نفسها ، ولم ألتجأ إلى مصدر
آخر سواها .

وفي الفصل الرابع درست الفن الشعري في المعلقة ، وعرضت فيه لنظام
المعلقة وأوزانها وقوافيها ، وألفاظها وأساليبها ، ومعانيها وأخيلتها ...

وقد حرصت على أن تكون هذه الدراسة دراسة موضوعية ، تعتمد على
النص وحده ، وتأخذ منه ما استطاع أخذه في غير تعمل ولا إسراف في التأويل ،
أو تحميل للألفاظ ما فوق طاقتها من الاحتمال ؛ ولذلك لم أجاوز شعر المعلقة
إلى غيره من المأثور من الشعر الجاهلي ، حتى تكون دراسة موضوعية عميقة
متخصصة . وقد استعنت ببعض شروح المعلقة وفي مقدمتها كتاب «نهاية الأرب
من شرح مطلق العرب» للنعساني ، وكتاب « شرح القصائد العشر » للتبريزي .

وأرجو بعد ذلك أن أكون قد وفقت إلى خدمة هذا اللون من ألوان
الأدب الذي اعتز به العرب دائماً ، على درجة قريبة من الكمال .

وما توفيق إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ؟

بروق محمد طيانه

مصر الجديدة { ربيع الأول ١٣٧٨ هـ
أكتوبر ١٩٥٨ م

الفصل الأول

المعلقات

- ١ -

يعبر الدارس للأدب العربي والمتتبع لمراحل تطوره ، بمجموعة من المصطلحات التي كان لها بأصل وضعها اللغوي دلالاتها الخاصة ، وكانت - في هذا الأصل اللغوي - صفات صالحة لأن يوصف بها كل شيء اجتمع فيه ما يجعله صالحاً للوصف بها .

ولكن تلك الحقائق اللغوية في دلالة تلك الألفاظ على معانيها توارت في عرف هذا الأدب وفي عرف دارسيه ، وأصبح لها مدلولات خاصة عندهم ، ومفاهيم محدّدة ، لا يكادون يقصدون سواها عند إطلاقها ، ودخلت بسبب هذا الاستعمال في باب « الحقيقة العرفية » ؛ وأصبحت مصطلحات تدل على معانٍ خاصة معروفة عند دارسي هذا الأدب وعند مؤرخيه .

وقد أصبحت تلك المصطلحات تطلق عندهم على مجموعات من الأعمال الأدبية ، تصلها روابط من الوحدة في أغراضها أو أفكارها أو أسلوب تأليفها . فأنات تجدد في هذه المجموعات ما أطلقوا عليه أمثال مصطلحات « الحوليات » و « الاعتذاريات » و « النقائض » و « الهاشميات » و « السيفيات » ... وأشباه هذه الألقاب والمصطلحات مماله معنى خاص في الأدب العربي وتاريخه .

ومن أقدم هذه المصطلحات التي عرفها تاريخ الأدب العربي لفظ (المعلقات)

الذى كان فى الأصل اللغوى وصفاً صالحاً لكل شىء يعلق ، ثم أخذ اللفظ طريقه إلى الأدب ، وأصبح يطلق على مجموعة معروفة من أقدم القصائد التى أثرت عن لحول الشعر العربى ، فى العصر السابق لعصر الإسلام ، الذى يعرف فى تاريخ الأدب العربى بالعصر الجاهلى ..

وأصحاب هذه (المحقات) عند بعض الباحثين سبعة من الفحول المقدمين ، وهم كما أحصاهم ابن عبد ربه ، صاحب « العقد الفريد » ^(١) :

(١) امرؤ القيس ، ومعلقة قصيدته التى أولها :

فَقَانَبُكِ مِنْ ذِكْرِى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بَسِيطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فِى الْخَوَلِ

(٢) زهير بن أبى سلمى ، ومعلقة قصيدته التى أولها :

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةُ لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَلَّمِ

(٣) طرفة بن العبد ، ومعلقة قصيدته التى أولها :

خَلْوَةَ أَطْلَالٍ بَرَقَ شَهْمِدِ تَلُوحُ كِبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

(٤) عنتره بن شداد العبسى ، ومعلقة قصيدته التى أولها :

هَلْ غَادَرَ الشَّعْرَاءَ مِنْ مُتَرَدِّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفَتِ الدَّارَ بَعْدَ تَوْحَمِ ^(٢)

(٥) عمرو بن كلثوم ، ومعلقة قصيدته التى أولها :

(١) العقد الفريد ٩٨/٣ (المطبعة الأزهرية المصرية — القاهرة ١٣٢١ هـ)

(٢) الذى ذكره صاحب المقد أن معلقة عنتره هى قصيدته « يادار عبله . . » يشير

إلى بيته :

يادار عبله بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبله واسلمى

وهو نائى أبيات المعلقة ، أما مطلعها فالشهور ما ذكرته . ولعل وهم صاحب المقدير يرجع إلى ما فى هذا البيت من التصريح .

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خَوَرَ الْأَنْدَرِينَا

(٦) ليبد بن ربيعة العامري ، ومعلقته قصيدته التي أولها :

عَفَّت الدِّيارُ محلَّها فَمَقَامُها بِمَنَى تَأْبُدُ غَوْلُها فَرِجَامُها

(٧) الحارث بن حلزة ، ومعلقته قصيدته التي أولها :

أَذْنَتْنَا بَيْنَها أَسْماءُ رَبِّ نَارٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

و« الزوزني » شارح المعلقات يوافق ما ذكره ابن عبدربه في المعلقات وأصحابها وعددها على النحو السالف .

أما أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، صاحب « جهرة أشعار العرب » فإنه يجعل أصحاب المعلقات ثمانية فحول ، يسقط من هؤلاء السبعة الحارث بن حلزة ، ويضيف النابغة الذبياني ، ويجعل معلقته قصيدته التي أولها^(١) :

عُوجُوا فحِثُوا لِنُعْمِ دَمْنَةِ الدَّارِ مَا ذَاتُ حِثُونَ مِنْ نُؤْيٍ وَأَحْجَارِ

كما يضيف الأعشى ، ويجعل معلقته قصيدته التي أولها^(٢) :

مَا بَكَاءُ الْكَبِيرِ بِالْأَطْلَالِ وَسُؤَالِي وَمَا تَرُدُّ سُؤَالِي

أما سائر المعلقات ، وهي الست الباقية ، فإنه يشارك فيها غيره من الشراح والرواة ، في أصحابها ومطالعها على النحو الذي سبق .

ويضيف أبو زكريا التبريزي إلى هؤلاء التسعة عبيد بن الأبرص ، ومعلقته : قصيدته التي أولها :

(١) جهرة أشعار العرب ٢٧ (المطبعة الرحمانية — القاهرة ١٩٢٦ م)

(٢) المصدر السابق ٨٧٠

أفقر من أهله ملحوبُ فالتَّطَبُّياتُ فالتَّوْبُ

وذكر أبو جعفر النحاس (٥٣٣٨) وهو من شراح المعلقات أنها سبع ، وأن بعضهم أضاف إليها قصيدتي النابغة والأعشى ، وإن لم يعدها من المعلقات .

أما ابن خلدون ، فلا يبدو في كلامه أثر الجزم والتثبت من أصحاب المعلقات ، بل يختار من مجموع الأقوال السالفة أقوالا يلفقها ، ويضيف إليهم اسما ينفرد بذكره ، في قوله : « . . . كما فعل امرؤ القيس بن حُجْر ، والنابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى » .

والناظر في هؤلاء يجدهم سبعة ، ويجد أن ابن خلدون أسقط من حسابهم شاعرين انعقد إجماع الرواة على عدّهما من أصحاب المعلقات ، وهما : عمرو بن كلثوم ، ولبيد بن ربيعة .

كما يجده قد زادهم شاعراً ، لم يذكره غيره - فيما نعلم - بين أصحاب المعلقات وهو علقمة بن عبدة ؛ ولم يذكر قصيدته التي عدّها من أصحاب المعلقات .

ودلالة فقد التثبت عنده في إحصاء المعلقات ، أنه بعد أن أحصى أولئك السبعة الذين اختارهم ، عطف عليهم بقوله^(١) . « وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع » . فكيف يكونون سبعة ؟ ويخصيهم سبعة ؟ ثم يشير إلى غيرهم من السبعة ؟ !

* * *

على أن هذا الاضطراب الذي يبدو من اختلافهم في المعلقات وفي عددها

وفى أصحابها أو إحصائهم ، لا يهولنا ، فإبما منشؤه فى الواقع هو الاعتماد على الروايات الشفوية ، ووعياها يعمد أولاً وأخيراً على ملكة الحفظ . والرواة أو جملهم يدورون فى فلك العدد ، ومن شذ عنه منهم شيء ، فقد يجد من اليسير عليه أن يبدله بديلاً ؛ ولا سيما إذا كان ذلك البديل الذى وضع موضع ما شذ عن الذكر مشهوراً متداولاً ، يجرى على ألسنة الرواة ، ويحملونه فى متخيرهم ، وله فى النفوس مكانة مرموقة ، مثل مكانة المتفق عليه أو ما يقرب منها ، بما فيه من الصفات والخصائص ، التى تجعل مجال الخلاف بينهما ضيقاً محدوداً .

وربما يكون بعض هذه القصائد موضوعاً تحت ألقاب أو مصطلحات أخرى عند بعض العلماء ، وهذه الألقاب والمصطلحات تدل على الجودة ، ومن أمثلة ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص ، التى عدّها بعضهم من المعلقات ، فقد ذكرها أبو زيد القرشى صاحب الجهرة تحت لقب « الجمهرات » وتلك « الجمهرات » نلى فى ترتيب ذكرها « المعلقات » عنده .

والتسليم بجواز مثل هذا التصرف فى تلك الحدود المشار إليها ، بسبب ما يعترى الذاكرة من الغفلة والنسيان ، لا يفضى حتماً إلى إنكار هذه المعلقات أو رفضها جملة . أو رفض ما اتفق عليه منها ، كما سيأتى بيان ذلك تفصيلاً .

ولم تسكن كلمة (المعلقات) وحدها هى التى أطلقت على تلك القصائد المشهورة ، بل إن لها ألقاباً أخرى تدل عليها ، وتشارك فى عرف الأدب لفظ (المعلقات) فى مدلولها الأدبى ؛ وإن كانت أقل منها ذيوها وجرياناً على الألسنة .



فقد أطلق عليها بعض العلماء لفظ (السبع الطوال) . ذكر ابن خلكان

في ترجمة حمّاد الراوية مانصه : كان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ، وهو الذي جمع (السبع الطوال) ، فيما ذكره أبو جعفر بن النحاس^(١) وعنه نقل ياقوت أيضاً قوله : إن حمّاداً هو الذي جمع (السبع الطوال)^(٢) . وفي جمهرة أشعار العرب يروى أبو زيد القرشي عن المفضل أن امرأ القيس وزهيراً والناخبة والأعشى وليبدأ وعمراً وطرفة ، أصحاب (السبع الطوال)^(٣) . ووصف ابن قتيبة طرفة بن العبد بأنه « أجودهم طويلاً »^(٤) . ونقل ابن سلام مقالة أصحاب الأعشى عنه : هو أكثرهم عروضاً ، وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلاً جيدة^(٥) .

وهذه التسمية وصف لتلك القصائد بأظهر صفاتها وهو الطول ، وهالك عدد أبيات السبع المشهورة كما وردت في شرح المطلقات السبع للزوزنى :

- (١) معلقة امرئ القيس ، وعدة أبياتها ٨١ بيتاً .
- (٢) معلقة طرفة ، وعدد أبياتها ١٠٣ .
- (٣) معلقة زهير ، وعدد أبياتها ٦٢ .
- (٤) معلقة كبيد ، وعدد أبياتها ٨٨ .
- (٥) معلقة عمرو بن كلثوم ، وعدد أبياتها ١٠٣ .
- (٦) معلقة عنتره ، وعدد أبياتها ٧٤ .
- (٧) معلقة الحارث بن حلزة ، وعدد أبياتها ٨٢ .

(١) وفيات الأعيان ٥/١٢٠ (طبعة الحلبي — القاهرة)

(٢) معجم الأدباء ١٠ / ٢٢٦ (طبعة دار المأمون — القاهرة)

(٣) جمهرة أشعار العرب ٤٥

(٤) الشعر والشعراء ١/١٣٧ (طبعة دار إحياء الكتب العربية — القاهرة ١٣٦٤ هـ)

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٣٠ (طبعة السعادة — القاهرة)

ولا شك أن هذه الأعداد تسترعى النظر ، ونجمل تلك القصائد جديرة بتلك التسمية ، وتدلّ على خاصة من خصائصها أو خصائص قائلها ، ألا وهي « طول النفس » التي يمتاز بها عدد قليل من لحول الشعر في سائر بيئاته ، ويختلف عصوره . وتدلّ على قدرتهم الفريدة على هذا الفن الشعري ، وتمكنهم من زمام القوافي ، يصرفونها حيث يشاءون .

ويقال إن تسمية هذه القصائد (السبع الطوال) من فعل حماد الراوية ، وأنه نقلها من الحديث النبوي الشريف : « أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعَ الطُّوْلَ » وهي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف . واختلفوا في السابعة أنها يونس ، أو يوسف ، أو الكهف ^(١) .

وقد تسمى تلك القصائد (المذهبات) إشارة إلى أنها كتبت بماء الذهب وقد ذكر ابن رشيّق سبب هذه التسمية في قوله : وكانت العلقات تسمى (المذهبات) وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر ، فكتبت في القبايطي ^(٢) بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال : مُذْهَبَةُ فلان ، إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء .. ^(٣)

وقريب من ذلك قول ابن عبدربه « .. حتى لقد بلغ من كلف العرب به (الشعر) وتفضيلها له ، أن عمدت إلى سبع قصائد خيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القبايطي المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة ، فند يقال مذهبه امرئ القيس ، ومذهبه زهير . والمذهبات سبع .. ^(٤) »

(١) انظر تاريخ آداب العرب للرازي ١٨٩/٣ (مطبعة الاستقامة - القاهرة ١٩٤٠م)

(٢) القبايطي : بفتح القاف وضمها جمع قبطة بضم القاف ثياب من الكتان تنسب إلى

أهل مصر القبط بكسر القاف ، وضمها في النسبة على غير قياس .

(٣) المصدة ١/٦١ (مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٠٧ م)

(٤) المقد الفريد ٣ / ٩٨

وقال ابن قتيبة في عنقرة : فكان أول ما قال قصيدة :

* هل غادر الشعراء من متردّم *

وهي أجود شعره ، وكانوا يسمونها (المذْهَبَة)^(١)

وقال البغدادى صاحب « خزنة الأدب » في قول عنقرة :

وَكُنَّ رَبًّا أَوْ كُحَيلاً مُعَقِّدًا حَشْرَ الْوَقُودِ بِهِ جَوَابَ قُفْمٍ
يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرِى غَضُوبِ جَسْرِى زِيَّافَةً مِثْلَ الْفَنِيقِ الْمُسَكِّدِ^(٢)

هذان البيتان من معلقة عنقرة ، وهى من أجود شعره ، وكانت العرب تسميها (المذْهَبَة) بصيغة اسم المفعول - من الإذهاب أو التذهيب - وهما بمعنى التويه والتظلية بالذهب^(٣)

وهذا كلام صريح في أن (المعلقات) هى (المذْهَبَات) ذكر العلماء في بعضه علة هذه التسمية .

ولكن لفظ (المذْهَبَات) يطلقه أبو زيد القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب على مجموعة أخرى من القصائد ، أو ينقل هذا الإطلاق عن الفضل الضبي . قال : وأما المذْهَبَات فللأوس والخزرج خاصة ، وهنّ : لحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة

(١) الشعر والشعراء ١/ ٢٠٦ (دار إحياء الكتب العربية — القاهرة ١٣٦٤ هـ)

(٢) الرب : ما بقى من عصارة التمر ، والسكجيل : القطران ، ومعقداً : أوقد تحته حتى انقصد ، وحش : احتش بمعنى اتقد ، ووقود : الحطب ، والققم : القدر الصغير ، ينباع : ينبع ، والذفرى العظم الناقع خلف الأذن ، والغضوب : الناقة العيوس ، والجسرة الماضية في سيرها ، الزيافة : المسرعة المبتخرة في سيرها ، والفنيق الفحل ، والمسكدم : المعضض والسكدم المعض

(٣) خزنة الأدب ١/ ٨٧ (طبعة دار المصور — القاهرة)

بن الجلاح ، وأبى قيس بن الأسلت ، وعمرو بن امرئ القيس^(١) ..

وليس واحد من هؤلاء صاحب معلقة ، بل إن جميع هؤلاء الذين ذكرهم القرشى في أصحاب المذاهب من طبقة أخرى ، أو من جيل آخر ، يختلف عن السابقين .

ولكن ذلك لا ينفي أن « المذاهب » هي « المعلقات » . ومن المحتمل جداً أن يكون الذين سماهم صاحب الجهرة « أصحاب المذاهب » قد بنيت تسميتهم بذلك على أساس التشبيه بأصحاب المعلقات أو المذاهب المتقدمين في الإجابة ، أو الإبداع ، أو تشابه الأغراض ، وطريقة النظم .

ومن الأسماء التي سميت بها تلك القصائد (السموط) قال صاحب الجهرة في تقديم أصحاب المعلقات : والقول عندنا ما قال أبو عبيدة : امرؤ القيس ، ثم زهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو ، وطرفة . وقال المفضل : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب (السُّمُوط) فن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة^(٢) وقد روى عنه ذلك القول ابن رشيقي ، ولكنها في روايته (السَّمَط) مكان (السُّمُوط)^(٣) وكذلك هي في كتاب المزهر للسيوطي^(٤)

وأصل التسمية بالسَّمَط أو السُّمُوط عن حماد الراوية ، ففي بعض أخباره قال : كانت العرب تعرض أشعارها على قريش ، فاقبلوا منها كان مقبولا ، وماردوا منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة ، فأنشدهم :

* هل ما علمت وما استودعت مكتوم *

(١) جهرة أشعار العرب ٤٥

(٢) جهرة أشعار العرب ٤٥

(٣) انظر كتاب العمدة ٦١/١

(٤) المزهر للسيوطي ٢ / ٢٩٧ (طبعة صبيح — القاهرة)

فقالوا : هذه « سَمَط » الدهر ، ثم عاد عليهم في العام المقبل ، فأنشدهم :

* طحباك قلبٌ في الحِسانِ حُرُوبُ *

فقالوا : هاتان « سَمَطا » الدهر . والسَّمَطُ عندهم خِيطُ النظم ، والخِيطُ مادام فيه الخرز فهو سَمَطٌ ، وإلا فهو سِلْكٌ ، والسَّمَطُ أيضا القِلادة . والأمر في التسمية قائم على التشبيه .

ومن أسمائها (المشهورات) أو (القصائد المشهورة) وصاحب التسمية الأولى هو حماد ، روى ذلك أبو جعفر النحاس في قوله : إن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم : هذه هي « المشهورات » فسميت « القصائد المشهورة » . كما سيأتى .

ونخلص من هذا بأن أهم الألقاب التي وضعت للدلالة على هذه المجموعة الخاصة من الشعر القديم هي :

- (١) المعلقة - وسيأتى القول مفصلا في هذه التسمية .
- (٢) السبع الطوال ، وقد تسمى المطوولات .
- (٣) المذهبيات : لكتابتها بالذهب أو بمانه .
- (٤) السُموط ، وقد تسمى السَّمَط .
- (٥) المشهورات ؛ وتسمى القصائد المشهورة .
- (٦) وقد انفرد الباقلائي صاحب إعجاز القرآن بتسميتها (السبعيات)^(١)
- (٧) كما انفرد ابن الأنباري في شرحها بتسميتها (السبع الجاهليات)^(٢)

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١٣٠ (طبعة السلفية - القاهرة ١٩٣٤٩)

(٢) شرح ابن الأنباري ٢ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ز ١٩٩٠٧)

أما تسمية هذه القصائد بالمعلقات ، وهو أشهر أسمائها ، فإن سببه عند أكثر الباحثين ، هو تعليقها على الكعبة .

قال ابن السكبي (٥٢٠٤ هـ) : أول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس ، علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم ، حتى نظر إليه ، ثم أخدر ، فعلمت الشعراء ذلك بعده . وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية ، وعدوا من علق شعره سبعة نفر ؛ إلا أن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم ، وأثبت مكانه أربعة .

وقال ابن عبدربه (٥٣٢٨ هـ) : كان الشعر ديوان خاصة العرب ، والمنظوم من كلامها ، والمقيّد لأيامها ، والشاهد على حكمها ، حتى لقد بلغ من كلف العرب به ، وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد خيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة ، فنه يقال : مُذهبة امرئ القيس ، ومُذهبة زهير ، والمذهبات سبع ؛ وقد يقال لها (المعلقة) . قال بعض المحدثين قصيدة له ، ويشبهها ببعض هذه القصائد بقوله :

برزتْ تَذَكَّرُني الحُسْنُ من الشَّعرِ المعلقِ كلُّ حَرْفٍ نادرٍ منها له وَجْهٌ مُعَشَّقُ
والمعلقات لامرئ القيس « قفائبك » ولزهير « أَمِنْ أَوْفَى » ولطرفة « لخولة أطلال » ولعنتر « يادار عبلة » ولعمرو بن كلثوم « ألا هُبِّي » وللبيد « عَفَّتْ الديار » وللاحارث بن حلزة « آذَنْتُنَا بِبَيِّنِهَا أَسْمَاءُ »^(١).

وقال ابن رشيقي (٤٦٣ هـ) : وكانت المعلقة تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر ، فكتبت في القباطي بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره . ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة لشاعر يقول : عثَّوا لنا هذه ، لتكون في خزائنه^(١) .

وقال ابن خلدون (٨٠٨ هـ) : اعلم أن الشعر كان ديوانا للعرب ، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم ، وكان رؤساء العرب منافسين فيه ، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإشادته ، وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله ، حتى انتهوا إلى المناغة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم ، كما فعل امرؤ القيس بن حجر ، والنايفة الديباني ، وزهير ابن أب سلمى ، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى ، وغيرهم من أصحاب المعلقة السبع . فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبية ومكانه في مضر ، على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقة^(٢) .

وقال البغدادي (١٠٩٣ هـ) في خزنة الأدب : ومعنى (المعلقة) أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض ، فلا يعاب به ، ولا ينشده أحد ، حتى يأتي مكة في موسم الحج ، فيعرضه على أندية قريش ، فإن استحسنوه روي وكان فخراً لقائمه ، وعلق على ركن من أركان الكعبة ، حتى ينظر إليه ، وإن لم يستحسنوه طُرح ولم يُعاب به .

قال : وأول من علق شعره في الكعبة امرؤ القيس ، وبعده علق

(١) المدة لابن رشيقي ٦١/١

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٨١

الشعراء . وعدد من علّق شعره سبعة : ثانيهم طرفة بن العبد ، ثالثهم زهير بن أبي سلمى ، رابعهم لبيد بن ربيعة ، خامسهم عنقرة ، سادسهم الحارث بن حلزة ، سابعهم عمرو بن كلثوم التغلبي . هذا هو المشهور .

قال : وقد طرح عبد الملك بن مروان شعراً أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة .

قال : ورؤي أن بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار ، فسامها (المعلقات) ^(١) .

ونسكتفي بهذه النصوص ، التي تتفق في المضمون ، وإن اختلفت عباراتها . وخلاصتها أن هذه القصائد المشهورة سميت (المعلقات) بسبب تعليقها على الكعبة ، بعد كتابتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وهي ثياب إلى الرقة والدقة والبياض ، كانت تتخذ بمصر من الكتان ، ومعنى المدرجة المطوية .

ولا نجد من الأسباب الظاهرة أو الخفية ما يدعو إلى الشك في صدق هذه الروايات ، ولا نرى سبباً معقولاً يدعو إلى نفي هذه المعلقة ، أو تكذيب هذه الروايات التي توارد عليها الرواة في مختلف العصور .

— ٤ —

نعم ذكر أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس النحوي (٣٣٨ هـ) أنهم اختلفوا في جمع هذه القصائد السبع ، وقال : وقيل إن العرب كان أكثرهم يجتمع بعكاظ ، ويتناشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علّقوها وأثبتوها

في خزائني . فأما قول من قال إنها علقت في الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة ، وأصلح ما قيل في هذا أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم : هذه هي « المشهورات » فسميت « القصائد المشهورة »^(١) .

ونقل عن أبي جعفر بعض الرواة ، ومنهم أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (٥٧٧ هـ) صاحب نزهة الألباء ، فإنه قال في ترجمة حماد : وأما حماد الراوية فإنه كان من أهل الكوفة مشهوراً برواية الأشعار والأخبار ، وهو الذي جمع السبع الطوال ، هكذا ذكره أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة^(٢) .

ومثل ذلك ما نقله ياقوت (٦٢٦ هـ) وذكر أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس أن حماداً هو الذي جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة^(٣) .

وقد أخذ بعض الباحثين من المعاصرين بفكرة الشك التي تبدو في كلمة أبي جعفر النحاس « أما قول من قال إنها علقت على الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة » فراحوا يرددونها في كتبهم ، ومنهم معتدلون ، وقف شكهم عند خبر تعليقها ، ووجدوا في كلمة أبي جعفر ما يؤيدهم في إنكار خبر التعليق وحده مع التسليم بصحة هذه القصائد جملة ، والتسليم أيضاً بتسميتها المشهورة « المعلقة » مع محاولة اختراع سبب آخر لإطلاق هذا الاسم أو اللقب عليها .

ومن هؤلاء الذين وصفناهم بالاعتدال في الشك مصطفى صادق الرافعي الذي

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرى زيدان ١/٩٠ (مطبعة الهلال — القاهرة ١٩٣٦م)

(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ٤٤ (القاهرة ١٢٩٤ هـ)

(٣) معجم الأدباء ١٠/٢٦٦

يقول : « وأما خبر السكتانة بالذهب أو بمانه ، والتعليق على الكعبة ، ففي روايته نظر . وعندى أنه من الأخبار الموضوعة التي خفى أصلها ، حتى وثق بها المتأخرون ، وإنما استدرجهم إلى ذلك أن هذه القصائد تسكاد تكون الصفحة المذهبة من ديوان الجاهلية ؛ وأن العرب قوم لم يصح من أديانهم إلا دين الفصاحة ، وهو الذى دانوا به أجمعين ، فلو أنهم فعلوا ذلك لكانوا قد أتوا بشيء غير نكير .

ويذهب إلى أن خبر التعليق من الأخبار الموضوعة ، وأن طرح عبد الملك لشعر أربعة من أصحاب المعلقات وإثبات شعر أربعة آخرين مكابهم من الأخبار الموضوعة أيضاً ، خصوصاً وقد أغفل أبو زيد بن أبي الخطاب القرشى صاحب جمهرة العرب (١٧٠ هـ) . وقد أغفل ابن قتيبة صاحب الشعر والشعراء (٢٧٦ هـ) رواية ابن الكلبي بحملتها .

قال : ولم ير أحداً ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق ، ولا متى تلك القصائد بهذا الاسم ، كالجاحظ ، والمبرد ، وصاحب الجمهرة ، وصاحب الأغاني ، مع أن جميعهم أوردوا في كتبهم تنقلاً وأبياتاً منها : وقد ذكر أبو الفرج صاحب الأغاني (٣٥٦ هـ) أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيباً بسوق عكاظ ، وقام بها في موسم مكة ، فلو كان خبر التعليق صحيحاً لما ضره أن يقول : فكتبتها العرب وعلقتها على ركن من أركان الكعبة ..

ويخلص من ذلك وغيره إلى أن حماداً هو أول من اختار السبع الطوال ، وشهرها في الناس ، وقد ذكر ذلك قبله أبو جعفر النحاس ، وأن ابن الكلبي

وهو الذى ذكر خبر تعليقها على الكعبة ، وهو قد علل ذلك بأن العرب ينظرونها فى الموسم ، ثم ينزلونها أو يسقونها ، وأن من عدا ابن الكلبي ممن هم أوثق فى رواية الشعر وأخباره ، لم يذكروا من ذلك شيئاً ، بل جملة كلامهم ترمى إلى أن القصائد لم تخرج عن سبيل ما يختار من الشعر ، وأن المتأخرين هم الذين بنوا على خبر التعليق ما ذكروه من أمر الكتابة بالذهب أو عائه فى الحرير أو فى القباطى ..

قال : وقد رأينا من ينكر أن هذه القصائد صحيحة النسبة إلى قائلها ، مرجحاً أنها منجولة وضعها مثل حماد الرواية ، أو خلف الأحمر ، وهو رأى فائل ، لأن الروايات قد تواردت على نسبتها ، وتجد أشياء منها فى كلام الصدر الأول ، وإنما تصحح الروايات بالمعارضة بينها ، فإذا اتفقت فلا سبيل إلى ذلك ، غير أنه مما لا شك فيه عندنا أن تلك القصائد لا تخلو من الزيادة وتمازى الأسنة ، قل ذلك أو كثر . أما أن تكون بحملتها مولدة فدون هذا البناء نقض التاريخ ^(١) .

ويرجع المستشرق « تيودور نولدكى » أن (المعلقات) معناها (المنتخبات) وإنما سماها حماد الراوية بهذا الاسم تشبيهاً لها بالقلائد التى تعلق بالنحور ، واستدل على ذلك بأن من أسمائها (السموط) ومن معانى السموط القلائد . وشايه على هذا الأستاذ « كليمان هيار » الفرنسى ، مؤرخ كتاب الأدب العربى بلفته ^(٢) . وهذا من غير شك وهم من نولدكى ومن شايه يدل على قلة دراية بفهم النصوص ، فإن حماداً لم يسمها « المعلقات » وإنما قال لهم : هذه هى « المشهورات » فسميت : القصائد المشهورة .

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ١٩٣ / ٣

(٢) تاريخ الأدب العربى للزيات

وهناك فريق آخر من الباحثين كان نفي خبر التعليق على الكعبة أهون ما قالوا في شعر المعلقات ، بل في الشعر الجاهلي كله ، فإنهم تجاوزوا ذلك إلى إنكار هذا الشعر برأيه ، ورفضه جملة ، بل إلى الشك في وجود من نسب إليهم هذا الشعر . وزعيم هؤلاء المنكرين الدكتور طه حسين وكتابه الذي سماه « في الأدب الجاهلي » يقوم كله على هذا الإنكار الذي حاول به نقض الشعر الجاهلي جملة وتفصيلا ، بل هدم تاريخ العرب قبل الإسلام ، ووصف في سبيل ذلك كل مأثور من القول ، وكل محمداً يتباهى بها العرب ، بالوضع والانتحال . وينتهي به البحث إلى أن أكثر هذا الشعر الذي يضاف إلى امرئ القيس ، شيخ الشعراء ، وزعيم أصحاب المطلقات ، ليس من امرئ القيس في شيء ، وإنما هو محمول عليه حملاً ، ومختلق عليه اختلاقاً ، حمل بمضه العرب أنفسهم ، وحمل بعضه الآخر الرواة الذين دونوا الشعر في القرن الثاني للهجرة ، ثم يقول عن المعلقة :

« ولننظر في المعلقة نفسها ، فلسنا نعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل أكثر مما يظهران في هذه القصيدة ؛ لأنحفل بقصة تطبيق هذه القصائد السبع أو العشر على الكعبة أو في الدفاتر ، فما نظن أن أنصار القديم يحفلون بهذه النصبة التي نشأت في عصر متأخر جداً ، والتي لا يثبتها شيء في حياة العرب وعنايتهم بالآداب ... وهم بعد هذا يختلفون اختلافاً كثيراً في رواية القصيدة في ألفاظها وفي ترتيبها ، ويضمون لفظاً مكان لفظ ، وبيتاً مكان بيت . وليس هذا الاختلاف مقصوراً على هذه القصيدة ، وإنما يتناول الشعر الجاهلي كله . وهو اختلاف شنيع يكفي وحده لمحلنا على الشك في قيمة هذا الشعر ^(١) .

(١) في الأدب الجاهلي ٢١٤ (مطبعة فاروق — القاهرة ١٩٣٣ م)

ونعود إلى القول في نفي خبر هذا التعليق ، وأقدم الأقوال في ذلك فيما نعلم هو كلمة أبي جعفر النحاس^(١) التي تتضمن عدة أمور .

(١) إثبات الاختلاف في جمع القصائد السبع ، في قوله « اختلفوا في جمع هذه القصائد السبع » . وهي عبارة لا تفصح تماماً عن المقصود منها في مجال التثبت والتحقيق ، فهل هو يقصد أن اختلافهم كان في الجمع أو عدمه ؟ أم يقصد الاختلاف فيمن قام بهذه الجمع من العلماء أو الرواة ؟ أم في الطريقة التي جمعت بها تلك القصائد ؟

ولو أخذنا بظاهر اللفظ لكان المراد أن اختلافهم كان منصبا على الجمع نفسه ، والمقابل لهذا الجمع هو عدم الجمع ، ومعناه أن تكون تلك القصائد موجودة أو مجموعة حين وصلت إلى العلماء والرواة ، فلم يكن لأحد منهم شيء من الفضل في هذا الجمع ، بل وجدوها معروفة ومعروفا أصحابها على نحو ما ؛ ولم تكن هنالك حاجة إلى الجمع من جديد ؛ وإنما يكون مجال الحاجة أو مجال الجمع محصوراً في تنسيق ما وجدوه مجموعاً ؛ إما باستبعاد بعض هذه القصائد التي كانت ثمانياً أو تسعاً أو عشرأ ؛ وحصرها في تلك السبع . أو إضافة قصيدة أو أخرى إلى السبع أو ما دونها صححت روايتها عند الذين قاموا بهذا الجمع .

وأنا أميل إلى هذا الرأي ، إذ به نشعر أننا لسنا في حاجة إلى التأوّل ، أمام صريح النص وألفاظه ، وأعتقد أن أبا جعفر كان يعنى ما يقول ، ويدقق في اختيار اللفظ الذي يدل على ما يريد أن يقول ؛ حتى لا يوقع الدارسين بعده في عيباء .

(٢) أن المسألة هنا ، كما هو واضح من العبارة ، مسألة جمع لأكثر ، وهذا

يقضى على كل شبهة ، بل لا يجد القارىء مجالاً للشبهة مطلقاً ، فليس أمامنا ما يمكن أن يستدل منه على الوضع أو الانتحال أو الاختراع أو زيادة فى الناقص ، أو حذف مما هو مأثور . وهذا يدل دلالة واضحة على التسليم المطلق بصحة ذلك المأثور .

(٣) نقله ما قيل من أن العرب كان أكثرهم يجمع بسوق عكاظ ، ويتناشدون الأشعار . وهى حقيقة معروفة من عادات العرب وتقاليدهم ، ولم ينكر ذلك واحد من المؤرخين ، أو من أخذ عنهم تاريخ العرب فى الجاهلية .^(١) والاحتكام إلى النابغة أمر معروف ، وقصته مع الأعشى وحسان والخنساء مشهورة .

والذى يستفاد من ذلك أن هذه القصائد كانت من جملة ما أنشد فى عكاظ ، وفى هذا يتفق أبو جعفر النحاس مع ابن خلدون وغيره فى رواية هذا التقليد عن عرب الجاهلية .

(٤) مارواه من أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : عذقوها وأثبتوها فى خزائنى .

ولم يذكر من هو هذا الملك حتى يمكن تتبع تاريخه ، وتحقيق

(١) قال ياقوت فى (عكاظ) هو نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، كانت تقام سوق للعرب بموضع منه يقال له « الأبداء » ، وبه كانت الفجار . وهناك صخور بطونون بها ويحجون إليها ، وكانت العرب أسواق تقام بمواضع حول مكة ، فعكاظ بين نخلة والطائف ، وذو الحجاز خلف عرفة ، ومجنة بحر الظهران . ولم يكن فيها أعظم من عكاظ ، وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال ، ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوماً من ذى القعدة ، ثم تنتقل إلى سوق ذى الحجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج (مرصد الاطلاع ٢ / ٩٥٣) وقال الفيروز ابادى . عكاظه يعكظه حبسه وعركه وفهره ورد عليه نفره . وعكاظ كغراب سوق بصحراء بين نخلة والطائف كانت تقام هلال ذى القعدة وتستمر عشرين يوماً ، تجتمع قبائل العرب ، فيتعاكظون ، أى يتفاحرون ويتناشدون (القاموس المحيط ٢ / ٣٩٦)

هذا الاستحسان ، ومعرفة ما استحسنت ، وما اشتملت عليه خزائنه .

وما أعرف من ملوك العرب القدماء من كان عنده شيء من ذلك إلا النعمان بن المنذر ، قال ابن سلام الجعفي (٢٣٢ هـ) في طبقات الشعراء : وقد كان عند النعمان بن المنذر منه « من الشعر » ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح فيه هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بني مروان ، أو ما صار منه ^(١) .

ولكن النعمان بن المنذر كان من ملوك الحيرة ؛ فهل كان حريصاً على حضور هذه المواسم في عكاظ لا يفوته موسم منها ؟ ذلك ما نشك فيه . أو نقول إن النابغة الذياني المحكم في عكاظ ، وكان أثيراً عند النعمان ، هو الذي كان ينقل إليه ما يستحسن فيأمر بتعليقه في خزائنه ؟ نشك في ذلك أيضاً ، لأنه لم يثبت أن النابغة أنشد هذه المعلقات أو أكثرها ، ولم تعرف صلة بينه وبين أصحابها ؛ ولم يسمع أنه أنشد هذه المعلقات أو استمع إلى أصحابها ، اللهم إلا ما روى من قصة تحكيه بين الأعشى والخنساء وحسان بن ثابت .

وكل ما يمكن أن يقال إن مثل هذا الملك العربي ، الذي كان يقدر الشعر وأصحابه حق قدرهم ، كان حريصاً على أن ينقل إليه ما أنشد وما ينشد في هذه المواسم ، فإذا استحسنت منه شيئاً أمر بتعليقه في خزائنه ، إلى جوار ما مدح فيه هو وأهل بيته .

حتى هذا لا يمكن أن يتعارض مطلقاً هو وما روى من كتابتها بالذهب أو بمانه وتعليقها على الكعبة ، فقد يكون تعليقيها في خزائنه تقليداً للتبع من تعليقيها على الكعبة . والروايات يتم بعضها بعضاً ، كما يصحح بعضها بعضاً . وعلى هذا يكون قول ابن سلام : « فصار ذلك إلى بني مروان أو ما صار منه »

(٢) طبقات فحول للشعراء لابن سلام ٢٣ (طبعة دار المعارف — القاهرة ١٩٥٢ م) .

متمما وموضعا لما قال ابن الكلبي إن عبد الملك بن مروان « طرح شعر أربعة منهم ، وأثبت مكانه أربعة »

ومن البين أن الكلام هنا يتصل بشعر مجموع كأن ، انتقل من ملك إلى ملك ، أو من مالك إلى مالك ، حتى آل إلى عبد الملك بن مروان في رواية ابن الكلبي ، أو بنى مروان على التعميم في رواية ابن سلام .

وهذا شيء آخر ، أو كلام عن شعر آخر ، يخالف مارواه البغدادى صاحب خزانة الأدب من أنه روى أن بعض أمراء بنى أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فسمها « المعلقات » ^(١) ..

ذلك أن هذه المعلقات كما يتضح من هذا النص ، معلقات جديدة ، أو مختارات جديدة ، تخالف تلك المعلقات المشهورة للأتورة التي اصطلاح على تسميتها بهذا الاسم . وقد نقل الراجزى ^(٢) رواية أخرى عن غير الخزانة : أنه سماها « المعلقات الثوانى » وهذه التسمية وحدها حجة قاطعة ، وعبرة ، فسترة ، كفيظة بأن تدحض كل شبهة ، وتفضى على كل شك في نفس من يزعمون أن هذه « المعلقات الثوانى » هي « المعلقات السبع » .

وعلى هذا يكون أمير بنى مروان قد استعار لمختاراته التي اختارها له أحد رواة الشعر لفظ (المعلقات) أو (المعلقات الثوانى) تشبيها لها في الجودة أو أو الأسلوب أو التصرف الفني بالمعلقات السبع .

وليس من الغرابة في شيء أن يختار أى باحث القلب الذى يروقه ليكون

(١) خزانة الأدب للبغدادى ١/ ٨٨

(٢) تاريخ آداب العرب للراجزى ٣/ ١٨٧

علماً على ما يكتب أو يؤلف أو يختار . وقد اختير كثير من الألقاب لكثير من المجموعات المختارة . ومن ذلك ما روى أبو زيد عن المفضل قال : قد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعد هنّ — يعنى المعلقات أو الشُّنوط — سبماً ماهنّ بدونهنّ ، ولقد تلا أحمأهنّ أصحاب الأوائل ، فاقصروا ، وهنّ (الجمهرات) لعبيدين الأبرص ، وعنترة بن عمرو ، وعدى بن زيد ، وبشر بن أبي خازم ، وأمّية بن أبي الصّات ، وخداش بن زهير ، والنمر بن تَوَّاب .

وأما (منتقيات العرب) فهنّ للمسيّب بن عَلس ، والمرقش ، والمتلمس ، وعروة بن الورد ، والمهلhel بن ربيعة ، ودريد بن الصّمة ، والمتنخل ابن عويمر .

وأما (المذهّبات) فلأوس والخزرج خاصة ، وهنّ لحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيعة ابن الجلاح ، وأبي قيس بن الأسلت ، وعمرو بن امرئ القيس .

و (عيون المرائى) سبع : لأبى ذؤيب الهذلى ، وعلقمة بن ذى جدن الحميرى ، ومحمد بن كعب الغنوى ، والأعشى الباهلى ، وأبى زيد الطائى ، ومالك بن الرب النهشلى ، ومتم بن نيرة البربوعى .

وأما (مشوبات العرب) وهنّ اللاتى شأهنّ الكفر والإسلام : فلنابغة بنى جعدة ، وكعب بن زهير ، والقطامى ، والحطيئة ، والشماخ ، وعمرو ابن أحر ، وابن مقبل .

وأما (الملحّات السبع) فهنّ : لافرزذق ، وجريز ، والأخطل ، وعبيد الراعى ، وذى الرّمة ، والكمييت بن زيد ، والطريمّاح بن حكيم .

فهذه التسعة والأربعون قصيدة عيون أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ،
ونفس شعر كل رجل منهم ^(١) .

(٥) وتأتى بعد ذلك عبارة أبي جعفر النحاس التى يقول فيها : فأما قول
من قال إنها علقت فى الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة .

وهذه العبارة تستدعى وقفة طويلة عندها ، لأن فيها خبر النفى الذى
تشبَّث به الطاعنون على خبر التعليق . ونحنُ نسأل أبا جعفر : إذا كان
تعليق تلك القصائد على الكعبة لا يعرفه أحد من الرواة فمن ذا الذى قاله له ؟
أو من ذا الذى اخترعه ؟

ولا يخلو الأمر من أحد ثلاثة افتراضات : إما أن يكون القائل بالتعليق
المذكور رجلاً من الرواة الذين لا يثق أبو جعفر بروايتهم ، ولا يؤمن بنقلهم ؛
ومن ثمَّ لا يكون عنده أهلاً للرواية لما عرف عنه من الكذب أو التلفيق
أو الوضع ، ولا يكون صالحاً بسبب ما عرف به لأن يؤخذ عنه قول ، أو يروى
له رأى .

وإما أن يكون الذى قال بذلك التعليق رجلاً من عامة الناس الذين
لا يعدون من أهل الرواية .

وإما أن يكون القول بالتعليق فكره شائعة بين أوساط الناس ، ولكنها
لم تثبت فى مجال التحقيق عند أبي جعفر النحاس .

وفى كلِّ قول !

فإذا كان القائل بالتعليق رجلاً من الرواة غير أولى الثقة ، فقد يكون

ذلك رأياً شخصياً لأبي جعفر، وليس ما يمنع من أن يعدّله غيره ؛ وكان عليه أن يذكر اسم هذا الراوية حتى نستطيع أن نعرف رأى غيره فيه .

وإذا كان الذى انفرد بهذا القول رجلاً من عامة الناس فأحرى بأبي جعفر وغيره ألا يأبهوا بمثل قوله فى معرض التأييد أو معرض التنفيد .

وإذا كان القول بالتعليق فكرة شاعت فى أوساط الناس ، وهذا ما نرجح أن أبا جعفر يقصده ويعنيه ، فلا بد لهذه الفكرة من أصل ، ولن يكون هذا الأصل سوى الرواية ، وكان على أبي جعفر أن يبحث عن هذا الرواية الذى ذاعت روايته فى الناس ويبحث عن الأسانيد التى اعتمدها فى روايته هذا الرأى الذى أخذ به عامة الناس .

أقد ذكر خبر التعليق على الكعبة رواة مختلفون منهم من هو أقدم عهداً من أبي جعفر النحاس كابن السكلي (٢٠٤ هـ) ومنهم من يعد معاصراً له كابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) الذى توفى قبل أبي جعفر (٣٣٨ هـ) بعشر سنوات ، ومنهم من كان بعده كابن رشيق صاحب العمدة ، وابن خلدون صاحب المقدمة ، والبغدادى صاحب الخزانة .

وأكثر هؤلاء ممن عرفوا بالرواية ، واشتهروا بتحقيقها وتمحيصها والفحص عن صحة كل خبر مما يكتبون .

وإذا كان أبو جعفر يقول : إن قول من قال بتعليقها لا يعرفه أحد من الرواة فإن ابن رشيق الذى عرفناه ثقة صدوقاً ، يقول فى أمر التعليق على الكعبة « ذكر ذلك غير واحد من العلماء ^(١) » .

ونحن برغم هذا التعارض الذى أثبتناه فى عبارة أبي جعفر ، لا تنهيه فيما يقول بالهوى أو محاولة الغض من شأن الذين نفي مقالتهم ، أو الرغبة فى

الانفراد بالرأى الذى يعرف به ويذكر به فى الناس . ولكن فى وسعنا أن نصدق فيما قال ، ونقول إنه لم يعرف أو لم يلق من الرواة من حدثه بمحدث التعليق ولكن غيره عرف ، ولقى أكثر من واحد أخبره بخبر التعليق ، ومن عرف حجة على من لم يعرف . ولا سبب إذا كان ذلك فى أمر مرجعه إلى السماع والرواية الشفوية عن الرواة والعلما . وفى ذلك يقول المستشرق « تيودور نولدكي » فى مقام الإعجاب برواية العرب وقوة حافظتهم : إن الشعر العربى نقل بواسطة الرواية الشفوية والتواتر السماعى ، ولا غرابة فى هذا بالنسبة للمقطوعات والقصائد القصيرة ، أما المطولات فقد كان من التوفيق فى حفظها وتداولها وجود فريق من الرجال اختصوا بالحفظ ، فوعوا أشعار شاعر واحد أو جملة شعراء ، كما كان للشعراء أنفسهم رواة يروون أشعارهم ، فكان لكل شاعر راويته ، وقد يكون ابنه أو ربيه أو نسيبه أو حبيبه . « والسبع الطوال خالية بالتأكيد من التزييف والتزوير ، فلا يشك فى صحتها . وقد تنشأ بعض الاختلافات اللفظية عن اختلاف بعض قواعد النحو فى النطق والقراءة بحسب آراء العلماء الذين وضعوها ولقنوها ، والناظر فى مجموع هذا الشعر البدوى بعين الانتقاد يمكنه استخراج صورة شعرية كاملة من حياة هذا الشعب العربى فى بداوته .

« وقد يسأل الناقد نفسه : كيف وقع الاختيار على المطولات دون سواها من مئات بل ألوف القصائد التى قالها الشعراء وحفظها الرواة ، والرد على ذلك أن الانتخاب يرجع إلى سعة الشهرة التى تمتع بها أمثال امرئ القيس وزهير وطرفة ، كما أن قصيدة مفردة لشاعر مثل عمرو بن كلثوم حازت سمعتها لأسباب خاصة أدت إلى سرعة انتشارها^(١) .

(١) قلاعى (الشهاب الراصد) لحمد لطفى جمعة ٣٠٠ (مطبعة المقتطف والمعلم — القاهرة ١٩٢٦ م) .

٦ — ثم قول أبي جعفر : وأصلح ما قيل في هذا أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم : هذه هي المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة .

ولست أرى أن هذا التعقيب في محله ، وأقصد حكمه بصلاحيه هذا الرأي ، فإن جمع حماد الراوية لتلك القصائد شيء آخر ، غير القول بالتمليق على الكعبة ، الذي سيق الكلام من أجله . فإن حماداً — كما يقرر أبو جعفر نفسه — قال للناس : هذه هي « المشهورات » ، ولو كان قد قال لهم : هذه هي « المعلقة » لكان التعقيب في محله ، ولكن أصح رأي أو أصلحه من وجهة نظر أبي جعفر ، ولكنه قال اسماً بعيداً كل البعد عن المعنى الذي حاول أبو جعفر أن ينفيه .

ثم متى رأى حماد زهد الناس في الشعر ؟ لقد كانت ولادته في سنة خمس وتسعين وتوفي سنة خمس وخسين ومائة^(١) . وفي هذه المدة لم ينقطع تيار الشعر العربي عن التدفق ، وأقبل الرواة على رواية الشعر ، وأكب الكاتِبون على تدوينه ، والعلماء على نقده وإحصاء المآخذ عليه ؛ فالفترة التي عاصرها حماد تعدّ من أخصب فترات التاريخ العربي بالشعر والشعراء والرواة والمدونين والنقاد ؛ ولا يكون شيء من هذا في زمن زهد الناس فيه في الشعر !

إن الشاعر لا يقول إلا إذا وجد ما يقول ، ووجد من يقول له ، ومن يبي قوله ويقدره حق قدره ، ويوازن قوله بالمأثور من أقوال من قبله ، ومن حاصره ليشهد له بالإجادة أو التقصير . والراوية لا يروي إلا إذا وجد الراغبين في روايته . والناقد لا ينقد إلا إذا أحس حاجة الذين يروي لهم إلى معرفة ما عنده .

وقد كان الأمر كذلك في هذه البيئة ، وفي هذا الزمان ، اللذين عاش فيهما حماد الراوية ، ولقد كان شأن حماد شأن غيره من الرواة الذي عاشوا في خصب بما يدّر عليهم فنّ الرواية الذي كانوا ممتعين به ، من صلات الخلفاء والسراة الراغبين في هذا الفن الجميل ، والقادرين على تقديره ، وتمييز القيم الفنية الصحيحة فيه .

وليس في شيء من النصوص التي استشهدنا بها فيما سبق ، ما يمكن أن يؤخذ منه الخط من شأن حماد ؟ أو الغرض من رواياته ، أوردته بالكذب أو الوضع أو الانتحال ، بل إن المدائني يقول : إنه كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وكانت ملوك بني أمية تقـدّمه وتؤثره وتستزيه ، فيفد عليهم ويسألونه عن أيام العرب وعلموها ، ويمجزلون صلته . وقال الهيثم بن عديّ : قال الوليد بن يزيد لحمد الراوية : بسم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية ؟ فقال : بأنّي أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن أعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميّزت القديم منه من الحديث . فقال : إن هذا لعلم وأييك كبير ، فكلم مقدار ما تحفظ ؟ قال كثيراً . وقال الهيثم بن عديّ : ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد^(١) . .

نظن بعد كل هذا أن رجلاً يوصف بهذه الصفات ، ويرسل في طلبه من أقصى الأرض ليُسأل عن شعر ، أو يستفتى في شاعر ، لا بد أن يكون بعيداً عن شبهات الوضع والكذب والانتحال .

وعليّنا أن نقرأ بحذر ما قال بعض الرواة في حقّ هذا الرجل الذي فاقهم علماً ورواية لكلام العرب ودراية به ، ومن ذلك ما قال ابن سلام : كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير مونتوق به ، كان ينحل شعر

للرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد في الأشعار^(١) . وقال الأصمعي :
كان حماد أعلم الناس إذا نصح ، يعنى إذا لم يزد وينقص في الأشعار
والأخبار ؛ فإنه يقول الشعر ، وينحله شعراء العرب . وقال المفضل الضبي :
قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ، ف قيل له :
وكيف ذلك ؟ أخطىء في رواية أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل
العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، واسكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها
ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ،
ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ،
ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك^(٢) .

قلت : إن أمثال هذه الأقوال ينبغي أن تقرأ على حذر ، وألا تؤخذ على
علاتها ؛ فإن المعاصرة حجاب يحول في كثير من الأحيان دون تقدير المعاصرين ،
والتنافس بين أولئك الرواة أمام الخلفاء والسراة ، لا تجعل المنافس يشهد لمنافسه
بالحق كله ، ولا سيما إذا كان الذى يوجد عند المنافس دون ما عند غيره من رجال فنّه .
ولم يكن حماد أول راوية جمع شعر العرب فقد سبقه كثير من الرواة ،
وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه .
فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلو بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت
عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب
بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يثولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب
وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، لحفظوا أقل ذلك ،
وذهب عنهم منه أكثره^(٣) .

قال ابن سلام : ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار ، وليس يشكل
على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولّدون^(٤) .

(١) طبقات غول الشعراء ٤١ . (٢) مجمع الأدباء ١٠/٦٦٢ .
(٣) طبقات غول الشعراء ٢٢ . (٤) طبقات غول الشعراء ٤٠ .

ومع هذا لم يستطع واحد ممن يعدون أنفسهم عدولا ، أو يعدم الناس عدولا ، أن يضع أيدينا على زيادة في المعلقة أو بعضها ؛ ادّعاها حماد أو غيره ، وقام الدليل الثابت على افتعالها أو زيادتها ، أو النقص الذي تعمد من الأصل . لقد كان هنالك رواة آخرون ، لعله لم يقل فيهم شيء مما قيل في حماد ، من أمثال أبي عمرو بن العلاء الذي يقول فيه يونس بن حبيب : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك^(١) . ومن أمثال خلف ابن حيان أبي محرز الأحمر ، الذي يقول فيه ابن سلام : أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس بيت شعر وأصدق لسانا ، لابن أبي إذا أخذنا عنه خبراً ، أو أنشدنا شعراء الأناسمه من صاحبه . قال ابن سلام : وكان أبو عبيدة والأصمعي من أهل العلم ، وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي ، ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين ، فزلفناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدناه له من حجة ، وما قال فيه العلماء^(٢) .

إنما كان لواحد من هؤلاء النفاة أن يدّ لنا على موضع واحد في المعلقة حصل فيه التعديل بالزيادة أو النقصان ؟ وما كان ينبغي لواحد من أولئك العدول أن يسكت على ضلال يراه ، ولا سيما إذا كان ذلك الضلال متصلا بتراث هذه الأمة التي يروون أدبها وينقلون أخبارها ؟

إن الذي نعتقده ، بعد كل هذا ، أن حماداً هو جامع المعلقة بالمعنى الذي أوضحناه آنفاً ، وفي الحدود التي فُتّلناها ، وأنت لم نقرأ طعناً صريحاً أو غير صريح في روايته للمعلقة بزيادة عليها أو نقصان منها . .

(١) راجع طبقات غول الشعراء لابن سلام ١٥ (٢) ص ٢١ .

وعلى هذا تكون تلك الملاحظات قد وصلت إلينا سليمة في مجموعها . ولا يؤثر في تلك السلامة الاختلاف اليسير في ألفاظ قليلة منها ، أو ترتيب الآيات في القصائد الذي قد يختلف نادراً بين الرواة المختلفين . وذلك الاختلاف طبيعي — كما أسلفنا — في أمر مرجعه كله إلى السماع .

— ٥ —

وقد حاول بعض المعاصرين من باحثي المستشرقين ومقلديهم من العرب الاستعانة ببعض الأدلة النظرية يؤيدون بها حجتهم في نفي تعليق تلك القصائد على السكبة ؛ وفي أوائك يقول جرجي زيدان : وإنما استأنف إنكار ذلك بعض المستشرقين من الإفرنج ، ووافقهم بعض كتابنا رغبة في الجديد من كل شيء^(١) . . .

ومن الأدلة التي استندوا إليها في نفي التعليق :

(١) أن العرب كانوا أمة أمية يندر فيها القارئون والكتابون ، وقد بنوا ذلك على وصف العرب قبل الإسلام بالجاهلية ، ونسبهم عصرهم السابق للإسلام بالعصر الجاهلي ، ذاهبين إلى اشتقاق ذلك من الجهل الذي هو ضد العلم ، وليس هذا سر التسمية ، وإنما السبب « هو السفاهة المؤدية إلى الممجية ، وانتشار الضلالة ، وعبادة الأوثان ، والإسراف في القتل ، واستباحة الزنا والحمر ، وانهاء ذلك كله إلى تأريث العداوة ، وقيام الحروب ، وتفرق القبائل^(٢) » . . .

وقد ثبت أنه كان في العرب من كانوا يكتبون ، وليس ذلك إلى حد الندرة كما يزعم الزاعمون ، وكيف يمكن أن يكون العرب أمة من الأميين مع أن الحروف المكتوبة بها النقوش العربية الجنوبية قد تكون هي الحروف

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١/٩١ .

(٢) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ٦ (مطبعة العلوم — القاهرة ١٩٣٢م) .

الأصلية التي بنيت عليها المجاثية الفينيقية ، فهي لذلك أم الكتابات المجاثية في هذا العالم ^(١) .

وإذا استبعدنا ما قال به رواة الملقات أو مؤرخوها عن كتابتها بهذه الدعوى — دعوى أمية العرب وعدم معرفتها القراءة والكتابة — فإن هناك أدلة أخرى ، وباحثين مدققين ، أثبتوا معرفتهم القراءة والكتابة ، وإذا ثبتت الكتابة في غير الملقات ، فثبوتها في الملقات أخرى . ومن هذه الأدلة أن العرب كانوا يكتبون عهودهم ومواثيقهم وما يعطون من أمان ، ومن ذلك ما قال الحارث ابن حِلْزة ، وهو أحد أصحاب الملقات ، في شأن بكر وتغلب :

واذكروا حِلْزَةَ ذِي الْحِجَازِ وَمَا قَدْ دَمَّ فِيهِ الْعُيُودُ وَالْكَفَلَاءُ

حَذَرَ الْجَوْرِ وَالْتِمَدُّى وَهَلْ يَنْدُ قُضُ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ ؟

يقول : إذا كانت أهواؤكم زينت لكم الغدر والخيانة بعد ماتفاقنا على الكف عن القتال ، فكيف تصنعون بما هو مكتوب في الصحف عليكم من المواثيق ^(٢) . قال الجاحظ : والمهاري ليس يراد بها الصحف والكتب ، ولا يقال للكتب مهاري حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود وميثاق وأمان ^(٣) .

والحديث في ذلك يطول ، وليس ذلك المجال مجال بحثه ، ففي ذلك بحوث طويلة لا ينقصها التحقيق أو التدقيق ، وفيها من الأدلة النظرية ما تؤكدها الأدلة المادية ^(٤)

(١) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث ١٩٤ قلا عن :

The Background of Islam, p. 10.

(٢) نهاية الأرب من شرح مملكات العرب للنسائي ١٨٨ (مطبعة السعادة — القاهرة

١٩٠٦ م) .

(٣) كتاب الحيوان للجاحظ ٣٥/١ — طبعة الساسي (المطبعة الحميدية — القاهرة

١٣٢٣ هـ) .

(٤) من ذلك على سبيل المثال الفصل الأول من الباب الثاني « اعتماد حركة إحياء القديم =

ولكننا نجتزئ ببعض الإشارات التي تثبت وقائع مادية لم ينظر إليها الذين نشبوا بالإنكار معتمدين على دعوى جهل العرب القراءة والكتابة ؛ فنقول لهم : ألم تقرأوا ما كان من أمر قريش ، في حربها النبي والمسلمين ، لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً (الحبشة) أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد من منع لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا واثمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب ، على ألا ينفكحوا إليهم ، ولا ينفكحهم ، ولا يبيعهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم . فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتوافقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، تؤكداً على أنفسهم .

ولم يفتر رواة هذا الأثر — وكأنهم يتنبئون بما يكون في آخر الزمان من جحود وإنكار — أن ينصوا على اسم كاتب هذه الصحيفة ، فقالوا : وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسل بعض أصحابه ^(١) ..

ولست أعتقد أن واحداً من أولئك المنكرين كتابة العرب يستطيع أن يحدد تاريخ السيرة النبوية ورواياتها التي استفاضت بها كتب التاريخ ، وتواترت بها الأخبار ، وتوارد عليها الرواة ، الذين بلغ بهم التمهيص والتدقيق درجة لم يجتزئوا

= على أصول مكتوبة « من كتاب تاريخ العصر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري صفحة ١٩٤ وما بعدها (طبعة دار الكتب المصرية — ١٩٥٠ م) .

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، لعبد السلام هارون ١٠٥/١ (مطبعة سعد مصر — القاهرة ١٩٥٥ م) .

معمها بالأخبار الخطيرة والأحداث الجسام يروونها ويتناقضونها ، بل حرصوا حرصاً على رواية التفاصيل التي تتناول كبار الأحداث وما دونها وفي هذه السيرة النبوية كثير من كتب النبي صلى الله عليه وسلم التي بعثها إلى الملوك والرؤساء والجماعات بنصوصها وكتابتها ، وفيها كثير من عهود النبي ومواثيقه التي قطعها الرسول صلوات الله عليه على نفسه ومن معه من المسلمين ، وفيها كثير من وثائق الصلح والمهادنة بينهم وبين غيرهم من المخالفين أو المخاربين من قريش وغيرهم . . . و صلح الحديبية بواقعه وأحداثه مشهور معروف ، ويعتينا منه في هذا المقام أن قريشاً بعثت سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى النبي ، وقالوا له : ائت محمداً فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . وجاء سهيل فلما رآه النبي مقبلاً قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل . فلما انتهى إلى النبي تكلم فأطال ، ثم جرى بينهما الصلح ، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر فأتى أبا بكر فقال : أليس برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : فسلام نعطى الدنيا في ديننا ؟ فطمأنه ثم ذهب إلى النبي فقال له نحواً مما قال عمر ، فقال النبي : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني !

ودعا رسول الله علي بن أبي طالب ، فقال : اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب « باسمك اللهم » . فأمره الرسول بموافقته . ثم قال اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقائك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال النبي : اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، واصطلحنا على وضع الحرب عن الناس

عشر سنين يأمنُ فيهنّ الناس ، ويكفّ بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة^(١) ، وأنه لا إسدال ولا إغلال^(٢) . وأنه من أحبّ أن يدخل في عهد محمد وعقده دخل فيه ، وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه^(٣) .

والذى لا شك فيه أن تاريخ البعثة النبوية هو الحلقة التالية للجاهلية في تاريخ العرب ، وأن الكتابة في صدر الإسلام لم يتعلمها العرب في يوم وليلة أو شهر أو شهرين ، ولكنها معرفة متتابعة متسلسلة لا ينكرها باحث منصف . ولا أريد بهذا القول أن أثبت أن العرب في مجموعهم كانوا أمة كاتبة ، فإن ذلك محال ، بل شأن العرب في ذلك شأن غيرهم من الأمم التي يوجد فيها الكتّابون وغير الكتّابين ، ولا تزال هذه الظاهرة ظاهرة حتى في عصر الحضارة الذى نعيش فيه ؛ ففي مصر وسائر البلاد العربية والمواطن الإسلامية وغيرها ملايين لا تحصى من الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، على الرغم من تقدم وسائل العلم وأسباب المعرفة ، ولا توصف هذه الأمم بالأمية الجامعة ، كما يراد وصف العرب بذلك في حياتهم الجاهلية قبل الإسلام . ولكن الإنصاف الذى تقتضيه هذه الأدلة وعشرات من أمثالها ، يدعونا إلى القول بأنه كان في العرب من يكتب ، كما كان فيهم من لا يكتب ، مع الاعتراف الطيبي بكثرة الذين كانوا يجهلون القراءة والكتابة منهم . وعلى هذا لا يمكن أن يبنى الطعن في كتابة المعلقات على جهل العرب بغير الخط أو الكتابة ؛ ولا شك أن التأنيق في كتابة أمثال هذه الروائع المعدودة عندهم على الحرير أو القباطى بالذهب شيء لا يحكم

(١) أى صدوراً منطوية على ما فيها لا تبدو منها عداوة .

(٢) خيانة .

(٣) تاريخ الفتح الإسلامى لمحمد فخر الدين ١٣٥ (مطبعة الطلبة — القاهرة ١٩٣٢ م)

العقل باستحالته ولا تمنع العادة حصوله ؛ فإن لذلك الشعر المختار منزلته ،
والكعبة محلها من الاحترام ، وهذان السببان يقتضيان ما يستطاع من التأنق
والإبداع حتى تجتمع الأسباب التي تدعو إلى الإعجاب بكتابتها وتذهيبها
وما تكتب عليه ، كما اجتمعت أسباب الإعجاب بالفن الشعرى التي رزت في
تلك القصائد .

وقد أورد صديقنا الدكتور أحمد الحوفي في كلمته الموجزة التي كتبها عن
المعلقات في كتابه « الحياة العربية من الشعر الجاهلي » تساؤل الأستاذ
نيكلسون الذي يقول فيه : هل من المعقول أن يقبل أبناء الصحراء
الأبيون أن يقدموا نمرات قرائهم التي تشيد بشرف قبائلهم — وهم جدّ
حريصين عليه — ليحكم فيها محكمون من قبائل أخرى ؟ أو يقبلوا عن طيب
خاطر حكم طائفة من الرجال من القبائل المجاورة لمسكة من الصعب أن يحكموا
حكماً عادلاً في مصلحة منافسيهم من قبائل أخرى ^(١) ؟

واست أدري موضع هذا الكلام في الحديث عن المعلقة أو نفي تعليقها أو
إثباته ، وقد استشهد به المؤلف في مقام نفي تطبيق تلك القصائد على الكعبة مستظهراً
به على ذلك النفي . وأنا لأرى في ذلك النص شيئاً من الحديث عن المعلقة ، ولا إشارة
إلى القول بتعليقها بالتأييد أو بالتفنيد ، وإنما هو كلامٌ في التحكيم ، أو الاحتكام
إلى القحول ، طلباً لرأيهم في الشعر أو في صاحبه ؛ في الأسواق أو ماشاء كلهم ،
واستبعاد نيكلسون ينصب على هذا الاحتكام بما ذكر من الأسباب ، ولا يستحق
هذا القول تعقيماً عليه منا ، لأنه يتصل بكلام آخر ، وبموضوع يخالف ما نحن

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ١٤٩ (مطبعة نهضة مصر — القاهرة ١٩٥٢م)

بصدده من البحث في المملقات . اللهم إذا كان الاحتكام متصلاً بإحدى
القصاصات المملقات ؛ وهذا ما لم يذكره أحد من الرواة فيما نعلم ؛ ولو كان الأمر
كذلك جديلاً ، لكان البحث خاصاً بصحة القصيدة أو القصائد ، وهذا شيء
لم يحاول الدكتور الحوفي أن ينفيه أو يثبتته ، فسكانت هذه العبارة عبارة نيكاسون
أشبه بالكلام المقحم في غير موضعه ؛ لأنه كما أسلفنا كان بصدد الحديث عن
المملقات ، ونفى خبر تعليقها على الكعبة ، منضمّاً إلى جماعة المنكرين .
فلننظر بعد ذلك في غير هذه الحجة من الحجج التي تذرع بها أولئك
المنكرون .

ومن هذه الحجج أن الذين نقلوا تعليق هذه القصائد على الكعبة لم يذكروا
تفصيلاً شافياً عن كيفية تعليقها ، ولا عن الذين كتبوها ، والذين أمروا بتعليقها
من الملوك والأشراف والقضاة^(١) . وهي أيضاً حجة واهية لا تنهض دليلاً مقنعاً
على النفي ، لأن كيفية التعليق ، وذكر أسماء الكتّابين ، وأسماء الملوك
أو الأشراف أو المحكمين ، أمور لا تتعلق بالفرض بها ، كما يقول البلاغيون ،
وإنما تتعلق بالفرض بهذه القصائد وعظم شأنها ، وخطورة منزلتها في الشعر
الجاهلي ، ومفاخر الذين أنشدوها ، والقبائل التي ينتسبون إليها ؛ وكما أن
الإغفال ليس دليلاً على الحصول ، فهو كذلك لا ينهض دليلاً على المنع ،
فالجبتان متقاومتان في السلب والإيجاب ، لا تهدم إحداها الأخرى . على أننا
وجدنا فيما كتب المحققون ما يشير إلى شيء من هذا ، في كلمة ابن خلدون
التي سبقت ، وأعني بها قوله : إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها (بالكعبة)
من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر^(٢) .

(١) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ١٢٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٨١ وانظر صفحة ٢٠ من هذا الكتاب .

ومعنى ذلك أن الذين قاموا بتعليق القصائد هم أولئك الذين كانوا يتعصبون للشعراء ، والذين كان لهم منزلة في نفوس أولئك الذين كانوا يعنون بأمر الكعبة والبيت الحرام ، من قريش ومن بوالههم من الذين كانوا يقدرون هذا الفن الشعري ، وكانوا حراساً على صونه من عبث الرواة ، وتضييع الأحداث ، وسطوة الزمان ، غيره عليها أو على قائلها .

وقالوا : إن الكعبة هدمتها قريش بسبب سيل أصابهم فهدمها ، أو نار أحرقتها ، أو لأنهم أرادوا رفعها وتسقيفها ، وإنما كانت رضماً^(١) فوق القامة فنقضوها ، وجددوا بناءها وسقفوها ، ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود موضعه ، وكان إذ ذاك ابن خمس وعشرين سنة ؛ ولم يذكر رواية خبر الهدم والبناء شيئاً عن المعلقات .

قلت : لم أقرأ في كتب السيرة أو أخبار مكة شيئاً مما عثر عليه فيها عند هدم الكعبة وبنائها عن المعلقات أو غيرها من المخلفات ؛ فإذا لم يذكر المؤرخون شيئاً عن غنورهم على المعلقات ؛ فإنهم لم يذكروا شيئاً عن غيرها ، وليس عدم ذكرهم لهذه الآثار بمانع من وجودها .

ولنعد النظر في الأخبار التي اتصلت بهدم الكعبة وبنائها . قال الحافظ القاسي ، صاحب « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » في ذلك :

« وهو صلى الله عليه وسلم الذي وضع الحجر الأسود موضعه من الكعبة حين اختلفت قريش في ذلك ، وكان سبب بنائهم لها لوطنها من الحريق الذي أصابها حين جرت ، والسيل العظيم الذي دخلها وصدع جدرانها ، بعد توهنها بالحريق ، وجعلوا ارتفاعها من خارجها من أعلاها إلى الأرض ثمانية عشر ذراعاً منها تسعة أذرع زائدة على طولها حين عمرها الخليل عليه السلام ، واقتصروا من عرضها أذرعاً جعلوها في الحجر لقصر النفقة الحلال التي أعدوها لمارة الكعبة

(١) الرضم : أن تضد الحجارة بعضها على بعض من غير ملاط .

عن إدخال ذلك فيها ، ورفضوا بابها ليدخلوا من شاءوا ، ويمنعوا من شاءوا ، وكبسوها بالحجارة ، وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفين ^(١) .. فالسبب في هدم الكعبة ذلك الوهن الذى أصاب بناءها من الحريق الذى أصابها ، والسييل العظيم الذى دخلها وصدع جدرانها ، بعد توهنها بالحريق .. وأعتقد أن في ذلك السبب الذى أجمع عليه المؤرخون وكتاب السيرة حجة مقنعة ودليلا كافيا على أن هذه الآثار التى كانت معلقة على جدران الكعبة ، أو موصولة بأستارها ، قد أتى عليها الحريق ؛ فإن حريقاً يوهن البناء ، وسيلا يحمل أركانها تتداعى ، من المعقول جداً ألا يبقى ولا يذر شيئاً من تلك العروض العالقة بذلك البناء ، بله نسيجاً من الحرير أو الكتان يحرقه أدنى لهب ، وتأتى إليه أضعف نار .

ألم يفكر واحد من أولئك المنكرين ، والمتذرعين بمثل هذه الحجة الواهية ، فى شيء من هذا ، حتى يكون تفكيرهم تفكيراً منطقياً علمياً ؟ وحتى لا يقال إنهم يقلّدون فى تفكيرهم ، أو أنهم ينكرون لجرد الإنكار ؟ وقالوا : إنه ما كان للعرب الذين يوقرون هذه البنية أن يدنسوها بمثل مجون امرئ القيس ولا فسوق طرفة .. !

وكأنى بأولئك المتذرعين بهذه الحجة يقيسون العرب فى جاهليتهم بالعرب أو بالمسلمين وقد طهّروا الكعبة ، وقصدوها حجاً تائبين عابدين ، لارث ولا فسوق ولا جدال ، وإنما رجال يحبون أن يتطهّروا فى بيت شريف وفى مقام كريم ، ونسوا الهوة العميقة التى تفصل بين الجاهلية والإسلام ، وبين عادات العرب فى الجاهلية وتقاليدها ، وعادات الإسلام وتقاليده ، وكأنهم يصفون الأولين بالورع والتقوى إلى درجة التخرج والتأثم من قراءة مثل مجون امرئ

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٩٥/١ (دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٦ م).

القيس أوفسوق طرفة، في شعر كتب بالذهب وعلق بالكعبة ، وكأن مجون امرئ القيس أوفسوق طرفة أشدَّ خطراً وأعظم فتكاً بأخلاقهم ومثلهم العليا من عبادة الأوثان والسجود للأصنام ، وقد روى أنه كان من أولئك المتحرجين المتأتمين في زعم المنكرين من صنع إله ، لأنه حال بينه وبين ما كان يريد من موافقته على الأخذ بثأره .

على أن كثيراً من المسلمين ، ومن الذين لم يعرف عنهم مأثم ، ولم يطعن في صحة دينهم ، كانوا لا يتأتمون من رواية الشعر للماجن الخليع ، بل وقرضه في بيوت الله ، ولم يطعن ذلك في دينهم وورعهم ، وهل تقاس كعبة الشرك والأصنام في ظلمات الجاهلية بمساجد العبادة والتوحيد في نور الإسلام ؟

وقد قيل لابن سيرين : إن قوماً يرون أن إنشاد الشعر ينقض الوضوء ، فقال :

نُبِّئْتُ أَنْ فِتَاةً كُنْتُ أُخْطِبُهَا عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطَّوْلِ
ثُمَّ قَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، ودخل في الصلاة .^(١)

ورواية ابن رشيقي في هذا ، أن ابن سيرين قال : الشعر كلام عقد بالقواي ، فإِ حَسُنَ فِي الْكَلَامِ حَسُنَ فِي الشَّعْرِ ، وكذلك ما قبح منه .. وسئل في المسجد عن رواية الشعر في شهر رمضان ، وقد قال قوم إنها تنقض الوضوء ، فقال :

نُبِّئْتُ أَنْ فِتَاةً كُنْتُ أُخْطِبُهَا عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطَّوْلِ
ثُمَّ قَامَ فَأَمَّ النَّاسَ . وقيل بل أنشد :

(١) جمع الجوامع لأبي إسحق المصري القيرواني ٣٩ (دار إحياء الكتب العربية —

القاهرة ١٩٥٣ م)

لقد أصبحت عرسُ الفرزدق ناشراً ولو رُضيتْ رُمُحُ استه لا استقرتْ

... وسئل ابن عباس : هل الشعر من رَفَثِ القول ؟ فأنشد :

وَهْنٌ يَمِشِينَ بَنَا هَمِيسًا إِنَّ تَصَدُّقُ الطَيْرِ

وقال : إنما الرَفَثُ عند النساء ، ثم أحرم للصلاة ^(١) .. وسئل ابن سيرين عن ذلك مرة أخرى ، وقد استفتح الصلاة ، فأنشد للأعشى :

وتسخنُ ليلَةَ لا يستطيعُ نباحَها السكَبُ إلا هَرِيرًا
وتبردُ بردَ رداءِ العـرو من بالصيف رقرقت فيه العـميرَا

ثم كبر وصلى . وقال جرير بن حازم : كنت في مسجد الجهاضم فقرضتُ بيت شعر ، فقالوا : ما نراك إلا قد أحدثت فتوضاً ، فذعرتي قولهم ، فأثبت ابن سيرين ، وقد قام إلى الصلاة ، فقلت : رويديك يا أبا بكر ! فقال منهم ^(٢) ؟ فقرضته ، فقال : هلا رددت عليهم :

ديارٌ لومـلةٌ إذ عيشنا بها عيشة الأثـم الأفضـلِ
وإذ وُدّها فارغٌ للصدـيق ق لم تغـيـرْ ولم تبدلِ
كأن الثلوجَ وماء السـحـا ب والقرقـرة ^(٣) بالفلـقـلِ
وماء القرنفلِ والزنجـيـة ل شيب به ثمرُ الشـنـبـلِ ^(٤)

(١) العدة لابن رشيقي ١/١

(٢) كلمة استفهام ، أى ما حالهم ؟ وما شأنك ؟

(٣) القرقف : الحمر يرعد منها صاحبها .

(٤) الشنبل : نبات طيب الرائحة ، ويسمى سنبل العنابر ، وأجوده السورى وأضعفه

يُصَبُّ عَلَى بَرْدِ أَنْيَابِهَا قَبِيلَ الصَّبَاحِ وَلَمْ يَنْجَلِ
نَمْ قَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! وَقِيلَ لِابْنِ سِيرِينَ : أَنْشُدِ الْقُدْعَ مِنَ الشَّعْرِ
وَأَصْلِي ؟ فَقَالَ :

وَأَنْتَ لَوْ بَاكَرْتَ مَشْمُولَةً صَفَرَاءَ مِثْلَ الْفَرَسِ الْأَشْفَرِ
رُخْتَ وَفِي رَجْلَيْكَ مَا فِيهِمَا وَقَدْ بَدَّاهُنَّكَ ^(١) مِنَ الْمُنْزَرِ ^(٢)

تلك آراء صريحة ، وروايات صحيحة ؛ عن عالمين كبيرين أحدهما
ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يلقب بحجر هذه الأمة ، أنشد هذا
الشعر وفيه ما فيه من وصف ومجون في بيوت الله ، والمسلمون أشد إعظاماً
لها من الجاهليين لكعبتهم . وقد كان لعبد الله بن عباس مجالس في مسجد
رسول الله يسمع فيها شعر عمر بن أبي ربيعة في ديبه وغزله ، وما كان له مع
إسلامه وقرابته من صاحب هذه الروضة المباركة ، أن يسمع بمثل ذلك في هذا
المكان ، لولا أن استجادة العرب للشعر لم تكن تتوقف على شرف
معناه كما يزعم أصحاب هذه الشبهة الواهية ^(٣) .

وفي كتاب ابن المعتز إلى أبي بكر ابن الأنباري جواباً عن كتابه إليه الذي
قال فيه : جرى في مجلس الأمير ذكر الحسن بن هاني ، والشعر الذي قاله
في المجون ، وهو يؤمّ قوماً في صلاة ... فكان حقّ شعر هذا الخليع ألا يتلقاه
الناس بالسنتهم ، ولا يدونونه في كتبهم ، ولا يحمله متقدمهم إلى متأخرهم

(١) الهن : اسم لما يستقبح ذكره

(٢) جمع الجواهر للحصى الفيرواني ٤٠

(٣) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ١٢٣

لأن ذوى الأقدار والأسنان يجلّون عن روايته ، والأحداث يغشّون بحفظه ، ولا ينشد في المساجد ، ولا يتحمل بذكره في المشاهد .

فكان مما كتب ابن المعتز إليه : ولم يؤسّس الشعر بانيه على أن يكون المبرز في ميدانه من اقتصر على الصدق ، ولم يفوّ بصبوة ، ولم يرخص في هفوة . ولم ينطق بكذبة ، ولم يفرق في ذم ، ولم يتجاوز في مدح ، ولم يزور الباطل ويكسبه معارض الحق . ولوسلك بالشعر هذا المسلك لكان صاحب لوائه من المتقدمين أمة بن أبي الصلت النقي ، وعدى بن زيد العبادي ، إذ كانا أكثر تذكيراً وتحذيراً ومواعظ في أشعارهما من امرئ القيس والنابعة . . . وهل يتناشد الناس أشعار امرئ القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وشار وأبي نواس على تمبيرهم ، ومهاجة جرير والفرزدق إلا على ملأ الناس ، وفي حلق المساجد ؟ وهل يروى ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم^(١) . . .

وأظننا بهذا القدر من الموازنة بين احترام عرب الجاهلية للكعبة واحترام المسلمين لمساجدهم ، قد أبطلنا تلك الحجة من حجج المنكرين تعليق المعلقات على الكعبة .

* * *

وقد روى أن بعض شيوخ الأدب الذين يصح التعويل على آرائهم في هذا الموضوع يرى أن السبب في تسمية هذه القصائد بالمعلقات أن العرب لم تسكن

تكتب في دقاف ، وأنها لم تكتب قبل القرآن كتاباً مدقفاً^(٢) ، وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد ، يوصل بعضها ببعض ، ثم تطوى على عود أو خشبة ، وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة ، بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من قرض فأرة أو عُث أو نحو ذلك من دواب الأرض قال : وذلك تأويل قوله تعالى « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِّلِ »^(٣) للكتاب إذ يظهر أن السجل ومعناه الصحيفة أو الكتاب الذي كان يعلق للسجل أو يطويها ، لعله كان يستعمل مثل هذا العود في طي الكتاب وتعليقه^(٤)

وموقفنا من هذا الرأي لا يخالف موقفنا من غيره من الآراء السابقة ، التي لا تخرج في حقيقتها عن افتراضات وظنون ، والظن لا يفي من الحق شيئاً .

بل ربما كان هذا الرأي يحمل أسباب الشك فيه ، والنفي فيه يتعلق بنفي التعليق على الكعبة بالذات لا يمدوه إلى نفي الكتابة أو نفي التعليق ، أى تعليق . وقوله : إن العرب لم تكتب قبل القرآن كتاباً مدقفاً ، لعله قول جديد ، لم نعرف قائله ، لأن بحثنا الطويل في أمر المعلقات ، ومحاولة استقصائنا لما كتب فيها بالنفي أو بالإثبات ، لم يصل بنا إلى هذا القول ، ولم نجد واحداً من الرواة ذهب إلى أن المعلقات كتبت في كتاب مدقفاً أو زعم ذلك ، حتى يكون ذلك موضع تعليق أو تعرض لنفيه أو إثباته ، ونحن مع ذلك نؤيد ما ذهب إليه صاحب الرأي من أن العرب لم تكتب كتاباً مدقفاً ، ولم نعرف كتاباً مدقفاً قبل

(٢) دفنا المصحف : ضامته

(٣) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ١٢٣ ولعل صاحب هذا القول هو المرحوم الأستاذ أحمد الإسكندري .

المصحف ، وذلك أن أهم خصائص الكتاب الواحد الوحدة بين عناصره وأجزائه ، ولا يكون ذلك إلا في عصور الحضارة .

وقول صاحب رأى : إن العرب كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ، ثم تعاوي على عود أو خشبة « وهذا القول لا يتعارض مطلقاً مع ما روى عن المعلقات ، فإن الذى قيل هو أنها كتبت على الحرير أو القباطى المدرجة ، وهى نسيج من الكتان من صنع مصر وليس فى هذا القول أى خلاف لذلك رأى ، بل إن قوله ثم تطوى على عود أو خشبة ، يتفق مع آراء الرواة فى وصف القباطى بالمدرجة .

وذهب صاحب رأى إلى أن تعليقها كان فى جدار الرواق أو الخيمة ، بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من قرض فأرة أوعث أو نحو ذلك من دواب الأرض ، لا نجد مانعاً من قبوله ولكن يبقى بعد ذلك سؤال ، وهو فكيف عرفت العرب أمرها ؟ وكيف تعلقت الرواة بحفظها ؟ ذلك بأن الخيمة أو الرواق مهما يقل فى أمرها ، فلها حرمة الخصوصية عند صاحب الخيمة أو الرواق ، أو عشيرته الأدين . اللهم إلا أن يقال إن كل رواية كان لا يروى إلا لشاعر واحد أو قبيلة واحدة ، ومن مجموع روايات الرواة اجتمع هذا التراث الفنى من الشعر الجاهلى ؛ وهذا القول لا يخلو من شك ، وأنى لنا التسليم بأن أولئك الرواة لم يكونوا يروون إلا ما علق بجدر الخيام أو الأروقة فى منازل رؤساء العرب ؟ لاشك أنهم سيروون كل ما يحلوهم من شعر القبيلة ، ولن تقتصر الرواية على ذلك الشعر المعلق .

وأيسر من هذه الافتراضات التى لا تخلو من ضعف ، التسليم بصحة الروايات التى تقول بكتابتها وتعليقها على الكعبة ؛ ما لم تقم الأدلة القاطعة على نفيها أو تكذيبها ؛ وقد فصلنا القول فى أسباب الشك فى الكلمات السابقة ، مما نعتقد

أن فيه الكفاية على إثبات عدم جدّيتها ؛ وأنها لا تنهض بنقض الروايات التي سارت في الزمن ، ورضيها الثقة المحققون من العلماء .

وليس تعليق الآثار النفيسة التي يحرص عليها على جدران الأماكن ذات القداسة والإجلال بدعاً من العمل ، فإن الأمم قديمها وحديثها تعودت أن تصون نفائسها في مثل تلك المقدسات . والأفراد من أولى الحول والطول اعتادوا أن يتقربوا إليها بما يقدمونه إليها من الألفاظ والهدايا والتحف التي يؤثرونها بها على وراثتهم وبيوتهم ، لأنهم يرون وراثتهم عرضة للتضييع ، وبيوتهم هدفاً لسهام الزمان ، أما الأماكن المقدسة فإن في تقديس الناس لها وعنايتهم الدائمة بها ما يجعل هذه النفائس في مأمن من عاديات الأحداث ، وتقلبات الزمان ؛ وقد يلتمسون بذلك الزلفى والثوبة ؛ وبذلك جرت العادة في الجاهلية ، وبقيت في الإسلام ، وكانت في غير العرب ، كما كانت في العرب ، وعند غير المسلمين . قال المسعودي في أخبار الفرس : وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر ، وقد كان ساسان ابن بابك أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً فدفن في زمزم . ولما فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدائن أسرى كان مما بعث إليه هلالان ، فبعث بهما فعلقهما في الكعبة . وبعث عبد الملك بن مروان بالشمسيتين وقدحين من قوارير . وبعث الوليد بن عبد الملك بقدحين . وبعث الوليد بن يزيد بالسريير والكرسي وهلالين . وبعث أبو العباس السفاح بالصفحة الخضراء . وبعث أبو جعفر المنصور بالقارورة الفرعونية . وبعث المأمون بالياقوتة التي تعلّق كل سنة في وجه الكعبة في الموسم بسلسلة من ذهب . وبعث المتوكل بشمسية عملتها من ذهب مكحلة بالدر الفاخر والياقوت . . . الخ^(١)

وأنت إذا زرت مسجداً من المساجد المأهولة أو معبداً أو مزاراً من المزارات التي لها

شأن في نظر الناس في أيامنا أقيمت الدليل ما ثلا ، سترى خير آيات الفن والصناعة وقد زينت جدرانها ، وترى الرسوم والقصور والشعر والخط والفرش والتماثيل التي تقدم بها أصحابها في هذه العصور التي تسمى عصور النور والحضارة ، والماضي أشبه بالحاضر من الماء بالماء .

لقد سبق أن قرشنا كتبوا صحيفتهم التي تعاهدوا فيها على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب على ألا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ؛ ثم تعاهدوا وتوافقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم ، ويستخلص من هذا أن الكعبة كانت مكانا لمثل هذه المواثيق التي يدعى إلى احترامها ، ولم تكن مقصورة على العباداة والنسك ، كما يظن بعض المعاصرين . وبذكر التاريخ الذي لا يشك فيه أولئك المنسكرون أن الرشيد حج ومعه الأمين والمأمون وقواده ووزراؤه وقضاته ، وهناك كتب المأمون كتابين أشهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيها ، أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه ، والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة ، والشروط للمأمون على الأمين ، وجعل الكتابين في البيت الحرام ، فعلقا في أستار الكعبة ، ليزداد العهد بذلك نفاذاً وهيبة ، ويزداد الناس له إذعانا وتسليما . فأية غرابة في أن يتقدم فحول شعراء العرب أو أولياؤهم أو المعجبون بهم ويفهم بهذه الآيات من الإبداع لتصان في هذا المقام الكبير ، وليقرأها الزائر والحاج والطائف ، فيذيعوا من أمرها في أحياء العرب ما شتهى أصحابها من المجد وذبوع الصيت إذا رجعوا إلى قومهم ؟ وهم أمة ليس لها من الدين إلا هذا الفن الذي هاموا به وسحروا ، حتى كانت الفصاحة والتباهي بالبيان أصدق أدبانهم ؛ وكانوا أشد إخلاصا لها من إخلاصهم لأنفسهم وأصنامهم . أما كيف علفت تلك القصائد ؟ ومتى علفت ؟ ولم ظلت معلقة ؟

فهى تفصيلات لايجدى الحرص على معرفتها من خبر مأثور ، أو منطلق يوجب التسليم . وليس ما يمنع من تعليقها أعواما أو عاما من الموسم إلى الموسم ، أو أيام الموسم وحدها دون أيام العام ، أو تعليق إحداها حتى يتحقق الغرض من تعليقها ، ثم ترفع ليطلق مكانها أخرى ، وهكذا .

وقد كان لهذا الأمر نظائر فى أدب الإغريق ، فإن القصيدة التى قالها (بندار) زعيم الشعر الفنائى يمدح بها (دياجوراس) قد كتبوها بالذهب على جدران معبد أثينا فى لمنوس^(١)

* * *

نستطيع بعد ذلك أن نوضح بعض معالم هذا الفصل فى النقاط الآتية :

(١) أن هذه القصائد (المعلقات) كانت آية للفن الشعرى عند عرب الجاهلية ، وكان أصحابها المقدمين عندهم ، وقد بقيت لهم ولقصائدهم تلك المنزلة فى نفوس العرب منذ عصر الإسلام حتى يومنا هذا ، وكان فى هذه القصائد مادة تواتر علماء الدين وعلماء الكلام والمؤرخون والرواة والنحاة واللغويون والبلاغيون على الانتفاع بها فى دراساتهم القرآنية والنحوية واللغوية والبلاغية ، واتخذوها مصدراً للفحص عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، ولا يمكن عقلا وعادة أن تكون هذه العناية بأثر من الآثار التى يشك فيها ؛ وليس من المسلم به أن تجتمع هذه الأجيال على ضلالة ؛ أوزيف من التاريخ .

(٢) إن القول بكتابة هذه القصائد وتعليقها على السكبة ، أسرروا النفاة

(١) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٣٤ (مطبعة الرسالة — القاهرة ١٩٥٥ م) .

المحققون في مختلف العصور العربية ، وأخذ به الباحثون الذين لم يجدوا ما يدفعه من الأدلة العلمية أو العقلية .

(٣) وأن أبا جعفر النحاس هو وحده الذى انفرد بالشك في تعليق هذه القصائد على السكبة من بين القدماء ، وقد فصلنا القول في رأيه ، وأبداً عما فيه من آثار التهافت ، وأنه إذا كان قد قال : أما تعليق هذه القصائد على السكبة فلا يعرفه أحد من الرواة ؛ فإن غيره من الذين عرفوا بالتحقيق والتحريص قال : ذكر ذلك غير واحد من العلماء !

(٤) وأنه كان في العرب الكاتبون ؛ وأن القول بأمية العرب المطلقة قول فاضل ، لا يثبت أمام الأدلة القاطعة والأخبار الصحيحة التي لم يشك أحد فيها مما فصلناه في موضعه ، ويتصل بهذا قولهم إن الشعر العربي لم يدون إلا أواخر عصر بني أمية أو أوائل العصر العباسي ، وهو زعم باطل ؛ فقد ثبت أن العرب في الجاهلية وفي وقت قريب منها كانت تكتب شعرها ، وليس ما يمنع ذلك من المعرفة أو العادات والتقاليد . وقد روى صاحب الأغاني أن عبد الله بن الزبير السهمي وضرار بن الخطاب الفهري أنشدا حسان بن ثابت شعراً حتى فاروصا كالمرجل غضبا ، فشكاهما حسان إلى عمر ، فقال عمر لمن حضره : إني كنت قد نهيتكم أن تذكروا بما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً ، دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم . فأما إذ أبوا فاكذبوه ، واحتفظوا به . فدوتوا ذلك عندهم . قال خلاد بن محمد : فأدركته والله ، وإن الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بلاه^(١) . ومعنى ذلك أن التدوين مخافة الدور كان تقليداً عرفه المسلمون كما عرفه عرب الجاهلية ، وكما تعرفه كل أمة تحرص على بقاء ماتمخشي سطوة الأيام عليه .

(٥) وأن الحجاج التي تذرع بها المنكرون لنفى التعليق ، حجب ظنية لاتقوى على هدم المأثور ، ولاتلبث أن تتبدد أمام البحث العلمى النزيه والتفكير المستقيم .

* * *

و بعد : فقد طالما قن بعض الباحثين من الشباب بكثير من الدعاوى التي يروجها أعداء هذه الأمة باسم التجديد فى البحث ، بما يلقون إليهم من الشكوك والأباطيل حول هذا التراث الأدبى وغيره من خصائص العروبة قديماً وحديثاً ، ليفقدوهم الثقة بماضى أسلافهم ، وليخدعوهم عن الحقائق الماثلة من تراثهم ومقوماتهم فى الفن والمعرفة ، وأصبح بعض المحدثين ممن غرهم السراب يحرون فى خدمة تلك الآراء المبتسرة التي تهدف إلى هدم كل رأى صالح ، ورفض كل مأثور من الأخبار الصحيحة عن أدب هذه الأمة وأخلاقها وتقاليدها ، ويرفضون الاعتراف بمجهودهم فى العلم والتفكير .

وقد آن للشباب أن يفتح عينيه ليميز الخبيث من الطيب ويتدبر ما يلقى إليه غير مخدوع بالتضليل ، ولا مفتون بالآراء المتهاففة ، والدعاوى الباطلة التي تعمل على ثل مجد أمته وتراثها فى الأدب وشتى فنون المعرفة التي يعترف لهم بالأصالة فيها المنصفون من رجال الفكر فى العالم ، ومن لا تشوب آراءهم شوائب التعصب والهوى . وأما غيرهم من المبطلين فقد أضلهم الهوى أو أعماه الجهل ؛ إن وجدوا منقصة عند العرب تعلقوا بها وأذاعوها ، وزعموا أن النقص شيمتهم ، والخلط طبيعتهم ؛ وإن رأوا عندهم فضيلة فى خلق أو علم أو تفكير ، نسبوها إلى غيرهم ، وعدوهم عيالا عليهم فى تلك الفضيلة ؛ فإن لم يستطيعوا أحاطوها بسياج من الشك لايتهدى الباحث إلى رؤية ما وراءه إلا بالفكر الثاقب والتأمل الطويل .

الفصل الثاني

شعراء المعلقات

المشهور عند الرواة أن المعلقات سبع وأن أصحابها هم : امرؤ القيس بن حُجر ،
وطرفة بن العبد البكري ، وزهير بن أبي سلمى ، ولبيد بن ربيعة العامري ،
وعمر بن كلثوم التغلبي ، وعنترة بن شداد العبسي ، والحارث بن حلزة
اليشكري . وكلهم جاهليون ، عاشوا في الجاهلية ، وماتوا قبل البعثة النبوية ؛
ما عدا لبيد بن ربيعة الذي عاش في الجاهلية وصدر الإسلام ، ومات في أواخر
خلافة معاوية بالكوفة .

وعند أبي زيد القرشي أن أصحاب المعلقات هم : امرؤ القيس ، وزهير ،
والنابغة الذبياني ، والأعشى ، ولبيد ، وعمر بن كلثوم ، وطرفة بن العبد ، وعنترة
ابن شداد . فهؤلاء ثمانية ، هكذا ذكرهم في جمهرة أشعار العرب . وعلى هذا
يكون قد حذف من المشهورين واحداً هو الحارث بن حلزة ، وأضاف إلى الستة
الباقيين شاعرين هما : النابغة الذبياني والأعشى .

أما أبو زكريا العبري فإن أصل تلك الفصائد عنده سبع ، وأصحابها هم :
امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن أبي سلمى ، ولبيد بن ربيعة ، وعنترة
العبسي ، وعمر بن كلثوم ، والحارث بن حلزة . وهم المشهورون عند الرواة .

ولكنه أضاف إلى هذه السبع ، قصيدة النابغة الذبياني التي مطلعها :

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلِيَاءِ فَالْسَّنْدِ أَقْوَتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبَدِ

وقصيدة الأعشى أبي بصير ، التي أولها :

وَدَغْ هُرَيْزَةَ إِنْ الرِّكْبَ مَرَّحَلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرُّجُلُ
وقصيدة عبيد بن الأبرص ، التي أولها :

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ فَالْقَطَبِيُّاتِ فَالذَّنُوبُ

ومفهوم كلامه أن قصيدتي النابغة والأعشى ، قد زادها أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل ، وأنه — أى التبريزى — هو الذى أضاف قصيدة عبيد بن الأبرص لتسكون تمام العشر . ونص كلامه فى خطبة كتابه (شرح القصائد العشر) : سألتنى ، أدام الله توفيقك ، أن أخلص لك شرح القصائد السبع ، مع القصيدتين اللتين أضافهما إليها أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوى : قصيدة النابغة الذبياني الدالية ، وقصيدة الأعشى اللامية — وقصيدة عبيد ابن الأبرص البائية تمام العشر ^(١) .

والذى يدل عليه هذا الكلام أنه يتفق مع جمهور الرواة فى السبع ، وأن قصيدتي الأعشى والنابغة أضافهما أبو جعفر ، وأنه أى التبريزى هو الذى أضاف قصيدة عبيد ، ولم ينقل عن أحد الرواة هذه الإضافة . ويؤكد موافقته لجمهور من كلام الرواة فى اعتبار المعلقة سبعة ، أنه قال فى نهاية شرحه لمعلقة الحارث بن حلزة : هذه آخر القصائد السبع ، وما بعدها المزيد عليها ^(٢) .

وابن خلدون يذكر أصحاب المعلقة سبعة هم : امرؤ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وعنترة ، وطرفة ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى ، ثم يقول : وغيرهم من أصحاب المعلقة السبع ^(٣) فهو لاء قد علق قصائدهم ، كما أن غيرهم (من أصحاب المعلقة السبع) قد علق قصائدهم ؛ وهى عبارة يبدو فيها التناقض كما أسلفنا ، وكل ما يمكن أن يفهم من هذه العبارة ، ويحاول به إزالة التناقض الظاهر فيها ، أن من بين الذين ذكر أسماءهم مَنْ عُلِّقت له قصيدة ، وإن لم يذكره

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢ (المطبعة المنيرية — القاهرة ١٣٥٢ هـ) .

(٢) المصدر نفسه ٢٨٧ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ٥٨١ . وانظر صفحة ١٢ من هذا الكتاب .

الرواة والمؤرخون بين أصحاب المعلقات ، ويكون المقصود بقوله (وغيرهم) من يتم السبعة الذين انفق الرواة عليهم .

وليس في مرجع مما بين أيدينا ما يدل على أن علقمة بن عبدة من أصحاب المعلقات ، ولم يذكر ابن خلدون من أخذ عنه القول ، ولم يذكر اسم قصيدته التي علقت كذلك . ولا يمكن أن نأخذ بكلام ابن خلدون فيما يخالف ؛ ولكننا من غير شك لا يسعنا إلا الأخذ بكلامه فيما يوافق ، لأن هذا أمر مرجعه أولاً وأخيراً الرواية والأخذ عن العلماء ، وهو لم يذكر السند أو الراوى الذى أخذ عنه .

ومن هذا الذى سبق يتبين :

١ — أن الجمع على عدم أصحاب المعلقات ستة من الشعراء هم :

(١) امرؤ القيس (٢) طرفة بن العبد (٣) زهير بن أبى سلمى

(٤) لبيد بن ربيعة (٥) عمرو بن كلثوم (٦) عنقرة بن شداد

٢ — وعند أكثر الرواة أن سابع هؤلاء هو الحارث بن حنزة ، ولم يغفل

منهم — فيما نعلم — إلا صاحب جمهرة أشعار العرب .

٣ — أن أبازيد القرشى ، أضاف إلى الستة السابقين الجمع عليهم النابغة

الذياني ؛ وجعل معلقته القصيدة التي مطلعها :

عُوجُوا لِحَيِّوَا لِنُعْمَ دِمْنَةَ الدَّارِ مَاذَا تَحْيُونَ مِنْ نُؤْيٍ وَأَحْجَارِ

وأضاف إليهم أيضاً الأعشى ، وجعل معلقته قصيدته التي أولها :

مابكاه الكبير بالأطلالِ وسؤالى وما تردُّ سؤالى

٤ — وأن أباجعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوى يتفق مع أبى زيد

في عدد النابغة والأعشى من أصحاب المعلقات ، ولكنه يخالفه في القصيدة

المعتبرة لسكل منهما ، فعلقة النابغة عنده هي قصيدته الدالية التي مطلعها :

يادارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

ومعلقة الأعشى عنده ، هي قصيدته اللامية التي أولها :

ودّع هُرَيْرَةَ إنَّ الركب مرّحَلُ وهل تطيقُ وداعاً أيّها الرّجلُ

٥ — وأن أبا زكريا التبريزي أضاف إلى هؤلاء عبيد بن الأبرص ليكون

تمام العشرة .

٦ — وذهب بعضهم إلى أن معلقة الأعشى هي قصيدته الدالية التي مدح

بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي أولها :

ألم تفتمض عيناك ليلةً أرْمَدَا وبتّ كما بات السليمُ مسهّدا

كما يضيف إلى المعلقات قصيدة النابغة « يادارمية .. » ويسقط قصيدتي

عنتره والحارث بن حلزة ، ويزيد « أقفر من أهلهم ملحوب .. » لعبيد بن الأبرص^(١)

وأنا أستبعد أن تكون قصيدة الأعشى المذكورة من المعلقات بسبب

ظروفها التاريخية كما سيأتى في ترجمة الأعشى .

٧ — وأن ابن خلدون انفرد بعدّ علقمة بن عبدة من أصحاب المعلقات ،

ولم يذكر القصيدة التي اعتبر بها واحداً منهم .

ويقضى منهجنا في هذه الدراسة أن نكتب عن كل واحد من أولئك

الفحول المتقدمين كلمة نعالج فيها التعريف بالشاعر وببشئته وفنّه الشعري في حدود

ما يسمح به نطاق هذه الدراسة ؛ حتى يتحقق لها الجانب التاريخي إلى المنهج

الفني الذي نؤشده .

امرؤ القيس

رأس الطبقة الأولى من فحول الجاهلية ، وهى عند ابن سلام أربعة شعراء :
امرؤ القيس ، ونابعة بنى ذبيان ، وزهير بن أبى سلمى ، والأعشى ميمون
ابن قيس ^(١) .

وهو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عمرو بن حُجْر آكل المرار بن
عمرو . . السكندى . وأمه فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير ، أخت كليب
ومهلل ابني ربيعة التغلبيين ، وكليب هو الذى تقول فيه العرب « أعزّ من
كليب وائل » وبمقتلة هاجت حرب بكر وتغلب ^(٢) .

واسم امرؤ القيس حُنْدُج ، والحندج الرملة الطيبة تنبت نباتا حسنا ، ومعنى
« امرؤ القيس » رجل الشدة . ويكنى أبا الحارث ، وأباهوب . ويلقب
بالمك الضليل ، كما يلقب بذي القروح .

وهو من قبيلة كندة ، وكندة قبيلة يمنية ، كانت تسكن قبل الإسلام
غربى حضر موت ، وكانت على اتصال بالحييريين .

وفى عهد حسان بن تبع ملك حمير ، كان حُجْر بن عمرو سيّد كندة
فى حاشية حسان ، وقد فتح حسان فتوحاً كثيرة فى جزيرة العرب . فولّى
حُجْر بعض قبائلها ، ودانت كلها لحجر السكندى ، كما دان حجر بالولاء
لحمير ، ونزل حجر نجداً ، وكان اللخميون ملوك الحيرة قد بسطوا نفوذهم على
تلك البلاد وخاصة بلاد بكر بن وائل ، فخارب حجر اللخمين ، وأزال
نفوذهم .

(١) طبقات فحول الشعراء ٤٣ (دار المعارف — القاهرة ١٩٥٢ م)

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٢/١ .

وفى عهد الحارث بن عمرو بن حجر اتسع سلطان كندة ، واتصل الحارث بقباز ملك الفرس ، فولاه الحيرة مكان اللخمين ، ونشر نفوذهم وسط الجزيرة على كثير من قبائل العرب ، وفرق الملك فى آبائه الأربعة ، فولى ابنه حجراً — أبا امرئ القيس — بنى أسد ، وابنة شرحبيل بكر بن وائل ، وابنه معد يكرب قبيلة قيس وكفانة ، وابنه سلمة قبيلتي تغلب والنمر بن قاسط . ولكن هذه السلطة لم تدم طويلا ، فقد عاد اللخميون إلى نفوذهم فى الحيرة وقربهم من ملك فارس ، ودسّوا الدسائس لأولاد الحارث ، فقتل سلمة وشرحبيل ، وتنكر بنو أسد لحجر ، ونبذوا طاعته ، وأمسكوا عن دفع الإنابة له ، واستعان حجر بجند من ربيعة ، وأعمل فى أسد السيف ، واستباح أموالهم ، وحبس أشرفهم ، ثم رقى لهم وأطلق سراحهم ، فخذوا عليه واغتالوه . وقد جاء فى أخبار الرومان أن حُجراً هذا (Ogdros) وأخاه معد يكرب قاما ببعض غزوات على حدود المملكة البيزنطية فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وبموت حجر تضاءلت سلطة كندة ^(١) .

وروى ابن قتيبة أن حُجراً — أبا امرئ القيس — مُلِّك على بنى أسد ، فكان يأخذ منهم شيئاً معلوماً ، فامتنعوا منه ، فأخذ سَرَاتهم فقتلهم بالعصى ، فسمّوا « عبيد العصا » وأسر منهم طائفة ، فيهم عبيد بن الأبرص . فقام بين يدي الملك فقال :

يا عينِ ما فابكى بنى أسد مُمُّ أهلُ الندامةِ
أهل القبابِ الحمرِ والـ تَنَعَّمُ المؤبِّلُ والمـدَامَةُ
مهلا أبيت اللعنَ مهلا إن فيما قلتَ آمنة

(١) الفصل فى تاريخ الأدب العربى ١/ ٥٠ (مطبعة مصر — القاهرة ١٩٣٤ م)

في كل واد بين ية ربّ والقصور إلى اليمامة
تطربُ عانٍ أو صياحُ محرقٍ وزُقاء^(١) هامة
أنت المليك عليهم وم العبيد إلى القيامة

فرحمهم الملك وعفا عنهم وردم إلى بلادهم ، حتى إذا كانوا على مسيرة يوم
من تهامة ، تسكن كاهنهم عوف بن ربيعة الأسدي ، فقال : يا عباد ، قالوا
لبنيك ربنا ! فقال : والعلاب غير المغلب ، في الإبل كأنها الربرب ، لا يقلق
رأسه الصخب ، هذا دمه يشمب ، وهو غداً أول من يُسلب ! قالو : من هو
ربنا ؟ قال : لولا تبحش نفس جاشية ، أنباتكم أنه حُجر ضاحية ! فركبت
بنو أسد كل صعب وذلول ، فما أشرق لهم الضحى حتى اتهموا إلى حجر ، فوجدوه
نائماً فذبجوه ، وشدوا على هجائنه فاستاقوها^(٢) .

قال ابن قتيبة : إن حجرا لما ساءت سيرته ، جمعت له بنو أسد ، واستعان
حُجر ببني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، فقال امرؤ القيس :

تميمُ بنُ مُرٍّ وأشياعُها وكندةٌ حولى جميعاً صُبرُ

فبعث بنو أسد إلى بني حنظلة نستكفها ، وتسألها ان تخلص بينها وبين كندة ،
فاعترلت بنو حنظلة ، والتقت كندة وأسد ، فانهزمت كندة ، وقتل حجر ،
وغنمت بنو أسد أموالهم ، وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص الأسدي :

هلاً سألت جموع كندة يوم ولوا هاريننا

وكان قاتل حجر هو علباء بن الحارث الأسدي ، وأفلت امرؤ القيس يومئذ ،
وحلف لا يغسل رأسه ، ولا يشرب خمرأ حتى يدرك ثأره ببني أسد^(٣) .

(١) المؤبلة الكثرية المجتمعة ، الآمة العيب ، يترب مدينة بمضرموت نزلتها كندة .

(٢) الشعر والشعراء ٥٤/١ .

(٣) الشعر والشعراء ٦٣/١ .

وقيل غير ذلك ، وأنهم أخذوه أسيراً في حرب بينهم وبينه ، فوثب عليه ابن أخت علباء فطعنه ، ولم يجهز عليه ، فأوصى ودفع كتابه إلى رجل وأمره أن ينطلق إلى أولاده ويستقرهم واحداً واحداً ، حتى يأتي امرأ القيس ، وكان أصغرهم ، فأيهم لم يجزع دفع إليه سلاحه وخيله ووصيته ، وكان بين فيها من قتله ، وكيف كان خبره ، فانطلق الرجل بوصيته إلى نافع ابنه ، فأخذ التراب ووضع على رأسه ، ثم استقرهم واحداً واحداً ، فكلهم فعل ذلك ، حتى أتى امرأ القيس ، فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه بالنرد ، فقال له : قتل حُجر ! فلم يلتفت إلى قوله ، وأمسك نديمه ، فقال له امرؤ القيس : اضرب ، فضرب حتى إذا فرغ قال : ما كنت لأفسد عليك دستك ! ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله ، فأخبره ، فقال : الخمرُ على والنساء حرام ، حتى أقتل من بنى أسد مائة ، وأجز نواصي مائة !

وكان امرؤ القيس طرده أبوه لما صنع في الشعر بفاطمة ما صنع ، وكان لها عاشقاً ، فطلبها زمانا ، فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرةً ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان فقال * قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * فلما بلغ ذلك حُجراً أباه ، دعا مولى له يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس ، وائتني بعينيه ، فذبح جوذراً فأتاه بعينيه ، فندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن إنى لم أقتله . قال : فأتى به ، فانطلق فإذا هو قد قال شعراً في رأس جبل ، وهو قوله :

فلا تتركنى ياربِيعُ لهذه وكنتُ أرانى قبلها بك واثقا

فردّه إلى أبيه ، فهناه عن قول الشعر ؛ ثم إنه قال :

* ألا انعمُ صباحاً أيها الطللُ البالى *

فبلغ ذلك أباه فطرده . وروى البغدادي في خزانة الأدب أن السبب في طرد أبيه إياه أنه كان يشبب بهراً ، وهي أم الحويرث ، وكانت زوجة والده ؛ فلذلك كان طرده وهم بقتله من أجلها^(١) فبلغه مقتل أبيه وهو بدمون ؛ فقال :

تطاول الليلُ علينا دَمُونُ دَمُونُ إِنَّا معشرُ يمانونُ
وإِنَّا لأهلنا محبُونُ

ثم قال : ضيَّعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لاصحو اليومَ ولا سُكر غداً
اليومَ خمر ، وغداً أمر ! ثم قال :

خليلي ما في اليوم مَصْحَى لشاربٍ ولا في غدٍ إِذْ كَانَ ما كَانَ مَشْرَبُ
ثم آلى لا يأكل لحماً ولا يشرب خمرأ حتى يثار لأبيه ، فلما كان الليل
لاح له برق فقال :

أرقتُ لبرقٍ لبَّيلِ أَهْلُ يضيءُ سناهُ بأعلى الجبلِ
بقتلِ بني أسدٍ ربِّهمْ أَلَا كُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ جَلَلِ

وأتى امرؤ القيس إلى ذي جَدَنَ الحِمْيَرِ فاستمده فأمده ، وبلغ الخبر بني أسد ، فانقلوا عن منازلهم ، فبرزوا على قوم من بني كنفانة بن خزيمه ، والكنانين لا يعلمون بمسير امرؤ القيس إليهم ، فطرقهم في جند عظيم ، فأغار على الكنانين ، وقتل منهم ، وهو يظن أنهم بنو أسد ، ثم تبين أنهم ليسوا منهم ، فقال :

أَلَا يالْهَفَ نَفْسِي إِثْرَ قَوْمِ هُمُ كَانُوا الشَّعَاءَ فَلَمْ يُصَابُوا
وَقَامَ جَدُّهُمْ بَيْنِي أَيْبَهُمْ وَبِالْأَشَقَيْنِ مَا كَانَ الْعِقَابُ

وأفلتتهنَّ عِلْبَاءَ جَرِيضاً^(١) ولو أدركتهُ صَفِيرَ الوِطَابِ
ثم تبع بنى أسد فأدرَ بهم ، وقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وقال :

قولا لدُودَانٍ عبيدِ العصا ماغرَكم بالأسدِ الباسلِ
قد قَرَّتِ العينانِ من وائِلٍ ومن بنى عَمْرٍو ومن كاهِلِ
نظعنهم سُدُكِي وَخَلُوجَةً كَرَكْ لَأَمَينٍ على نابلِ
حَلَلْتُ لى الخُرِّ وكنتُ امرأً عن شربها فى شُفْلِ شاغلِ
فاليومَ أشربُ غيرَ مستعجبٍ^(٢) إنما من الله ولا واغلِ

ثم إن المنذر بن ماء السماء غزا كنفذة فأصاب منهم ، وأسر اثني عشر فتى من
ملوكهم ، فأمر بهم فقتلوا بمسكان بين الحيرة والسكوفة يقال له « جَعَرُ الأملاك »
وكان امرؤ القيس يومئذ معهم ، فهرب حتى لجأ إلى سعد بن الضباب الإيادى ،
سيد إياد ، فأجاره .

وكان ابن السكبي يذكر أن أم سعد كانت عند حجر أبي امرئ القيس ،
فتزوجها الضباب ، فولدت سعداً على فراشه ، واستشهد على ذلك قول امرئ
القيس :

يفكّهنّا سعدٌ وينعم بالنّسا ويفقدو علينا بالجفانِ وبالجزُرِ
ونعرفُ فيه من أبيه شمائلاً ومن خاله ومن يزيدٍ ومن حُجُرِ
ثم تحوّل امرؤ القيس إلى جبلى طيء^(٣) ، فنزل على قوم ، منهم عامر بن

(١) أفلتتهن : يعنى الخيل التى كانت تطليه فلم تدركه ، المرض والحريص غصص الموت ،
يريد أفلتتهن مجهودا يكاد يقضى ، صفر خلا ، والوطاب جمع وطب وهو سقاء اللبن ، يريد أنه
مات فلم تملأ وطابه ، أو بقى جسمه صفرا من حيائه كما يخلوا الوطب من اللبن .

(٢) الساسى : الطعنة المستقيمة تلقاء الوجه ، الخلوحة : غير المستقيمة ، كرك لأمين .
مثنى لأم ، يقال سهم لأم أى عليه ريش لؤام يلاثم بعضه بعضاً ، والذابل : الراى بالنبل
يريد يذهب الطعن فيهم ويرجع كما ترد سهمين على رام رى بهما .

(٣) هما جبلا أجا وسلمى .

جُوَيْنَ الطائي ، ولم يزل ينتقل من قوم إلى قوم بجبلى طيء ، حتى سميت به نفسه إلى ملك الروم ، فأبى السموءل بن عاديا اليهودى ، ملك تيماء ، وهى مدينة بين الشام والحجاز ، فاستودعه مائة درع وسلاحا كثيراً ، ثم سار ومعه عمرو بن قيثة ، أحد بنى قيس بن ثعلبة ، وكان من خدم أبيه ، فبكى ابن قيثة ، وقال له : غررت بنا ، فأنشأ امرؤ القيس يقول :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأبى أن أنا لا حقان بقيصراً
فقلت له : لا تبك عينك إنما نحاولُ مُلكاً أو نموت فنعدّراً
وإني أذن إن رجعت مملّكاً بسير ترى منه الفرائق أزوراً
على ظهر عادى تحاربهُ القطا^(١) إذ أسافه العود الديّافى جرّجراً

وبلغ الحارث بن أبى شير الغساني ، وهو الحارث الأكبر ، ما خلف امرؤ القيس عند السموءل ، فبعث إليه رجلاً من أهل بيته ، يقال له الحارث بن مالك ، وأمره أن يأخذ منه سلاح امرئ القيس وودائع ، فلما انتهى إلى حصن السموءل أغلقه دونه ، وكان للسموءل ابن خارج الحصن يتصيد ، فأخذ الحارث ، وقال للسموءل : إن أنت دفعت إلى السلاح وإلا قتلته ، فأبى أن يدفع إليه ذلك ، وقال له : اقتل أسيرك فإنى لا أدفع إليك شيئاً ، فقتله . وضربت العرب المثل بالسموءل فى الوفاء ، وقد ذكره الأعشى فى قصة له .

وصار امرؤ القيس إلى ملك الروم ، فأكرمه وناداه ، واستمده فوعده ذلك ، وفى هذه القصة يقول امرؤ القيس :

(١) الأذن . الزعيم والكفيل ، الفرائق : سبع يصيح بين يدى الأسد كأنه ينذر الناس به ، ويقال إنه شبيه بأذن آوى ، وأزور : مائل العنق ، العادى : الطريق القديم ، سافه : شمه ، الديافى : نسبة إلى الدياف ، وهى قرية بالشام تنسب إليها النجائب ، العود : الجمل المسن وفيه بقية . يقول : إذا ساف الجمل تربة هذا الطريق جرّجراً من بعده وفلقامته .

ونادمتُ قيصر في مُلكِهِ فَأَوْجَهَنِي وَرَكِبْتُ الْبَرِيدَا
إِذَا مَا ازْدَحَمْنَا عَلَى سِكَتَةٍ سَبَقَتْ الْفُرَاقُ سَبَقَا بَعِيدَا

ثم بعث معه جيشاً فيهم أبناء ملوك الروم ، فلما فصل قيل لقيصر : إنك أمددتَ بأبناء ملوك أرضك رجلاً من العرب ، وهم أهل غدر ، فإذا استمكن مما أراد وقهر بهم عدوه غزاك ! فبعث إليه قيصر رجلاً من العرب كان معه يقال له الطلاح بن قيس الأسدي ، وكان امرؤ القيس قتل أخاه ، فاندس حتى أتى بلاد الروم ، فأقام مستخفياً ، وكان قد اتصل ببعض أصحاب القيصر ، وألقى إليهم ما أوغر صدورهم على امرئ القيس ، وحمّله القيصر إلى امرئ القيس حلة منسوجة بالذهب مسمومة ، وكتب إليه : إني قد بعثت إليك بحلتي التي كنت ألبسها يوم الزينة ، ليُعرف فضل منزلتك عندي ، فإذا وصلت إليك فالبسها على اليمن والبركة ، واكتب إلى من كل منزل بخبرك . فلما وصلت إليه الحلة اشتد سروره بها ، ولبسها ، فأمرع فيه السم وتنفّط جلده . والعرب تدعوه ذا القروح لذلك ، وأقوله :

وُبدلتُ قرحاً دامياً بعد صحّةٍ فيالكُ نَعْمَى قد تحوّلن أبؤُسَا
وقال الفرزدق :

وهبَ القصائد لي النوايحُ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجروُلُ

أبو يزيد : هو الحبل السعدى ، وذو القروح : هو امرؤ القيس ، وجروُل : هو الحطيئة .

ولما صار إلى مدينة بالروم تدعى أنقرة ثقل ، فأقام بها حتى مات ، وقبره هناك ، ورأى قبيل موته قبراً لامرأة من بنات ملوك الروم هلكت بأنقرة ، فسأل عن صاحبه ، فخبّر بخبرها فقال :

أَجَارَتْنَا إِنَّا الْمَزَارَ قَرِيبُ وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَاسِبُ
أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلٌّ غَرِيبٌ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ

وعسيب : جبل هناك . ولما بلغ السموءل موت امرئ القيس دفع
ما خلف عنده من السلاح وغيره إلى عصبته ^(١) .

وذكر صاحب كتاب « شعراء النصرانية » أن ذكر امرئ القيس جاء
في تواريخ الروم مثل نونوز وبركوب وغيرهما ، وهم يسمونه (قيساً) . وقد ذكروا
أنه قبل وروده على القيصر يوستينيانس أرسل إليه وفدًا يطلب منه النجدة على
بنى أسد ، وعلى المنذر ملك الحيرة ، وكان مع الوفد ابنه معاوية سيده امرؤ القيس
إلى قيصر ليبقى عنده كرهن ، فكتب قيصر إلى النجاشي بأمره أن يجند الجنود
ويسير إلى اليمن ، ويعيد الملك لصاحبه ؛ قال : ولعل هذا الوفد أرسله امرؤ القيس
لما كان عند بنى طيء وطال مكثه عندهم . ثم أخبر المؤرخون أن امرأ القيس
لم يلبث أن سار بنفسه إلى قسطنطينية فرغبه قيصر ووعدته . وقد ذكر نونوز
المؤرخ أن يوستينيانس قلده إمرة فلسطين ، إلا أنه لم يسمع في إصلاح أمره وإعادة
ملكه ، فضجر امرؤ القيس وعاد إلى بلده ، فتوفى في طريقه . أصابه مرض
كالجدري في الدرب كان سبب موته . قال : وذكر في كتاب قديم مخطوط
أن ملك قسطنطينية لما بلغه وفاة امرئ القيس أمر أن ينحت له تمثال وينصب
على ضريحه ففعلوا . وكان تمثال امرئ القيس هناك إلى أيام المأمون ، وقد شاهده
عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة ^(٢) .

وذكر ابن قتيبة أن امرأ القيس كان في زمن أنو شروان ملك العجم . قال
لأنني وجدت الباعث في طلب سلاحه الحارث بن أبي شمر الغساني ، وهو الحارث

(١) الشعر والعراء لابن قتيبة ٦٩/١ .

(٢) لويس شيخو اليسوعي : شعراء النصرانية : ٣٥/١ (مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين —

بيروت ١٨٩٠ م) .

الأكبر ، والحارث هو قاتل المنذر بن امرئ القيس الذي نصبه أنوشروان بالحيرة ووجدت بين أول ولاية أنوشروان وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم أربعين سنة^(١) وكانت وفاة امرئ القيس في نحو سنة ستين وخمسمائة الميلادية^(٢) .

* * *

ذلك تاريخ امرئ القيس ، أو تلك قصة حياته ، قد يكون فيها بعض الثغرات التي أغفلها المؤرخون أو الرواة لعدم معرفتهم بها ، ونلاحظ أن مجال الاتفاق بين الروايات واسع ، وأن مجال الاختلاف ضيق ، ويأتي هذا الخلاف في أمور ترجع إلى السماع أو تأتي عن الاجتهاد والاستنباط ، كاختلافهم في سبب وقعة القيصر به مما كان سبباً في هلاك امرئ القيس ، فمنهم من يرجع ذلك إلى شعر هجاء به بعد أن رأى امرؤ القيس منه ما ينكر ، ومنهم من يرجع ذلك إلى أن امرأ القيس قتل ابنة القيصر ، فهامت به وهام بها ، وطبن الطماح لهما ، فوشى به إلى الملك ، فخرج امرؤ القيس متسرعاً ، فبعث قيصر في طلبه رسولا ، فأدركه دون أنقرة بيوم ، ومعه حلة مسمومة فلبسها في يوم صائف .. ويروي ابن الكلبي في ذلك أن الطماح قال لقيصر : إن امرأ القيس غوى عاهراً ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يرسل ابنتك ويواصيها ، وهو قاتل في ذلك أشعاراً يشهرها في العرب فيفضحها ويفضحك^(٣) . كما يروي خلاف هذين السببين ، وأن الواشى قال لقيصر : إنك أمددت بأبناء ملوك أرضك رجلاً من العرب ، وهم أهل غدر ، فإذا استمكن مما أراد وقهر بهم عدوه غراك^(٤) . وفي هذه الأخبار أن امرأ القيس خرج من لدن القيصر راضياً يقود جيشاً من أبناء ملوك الروم ليعيد سلطانه ويأخذ

(١) الشعر والشعراء ١/ ٧٣ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ١/ ٩٢ .

(٣) شرح ديوان امرئ القيس للسندوني ٢٣ (مطبعة الاستقامة — القاهرة ١٩٣٩ م) .

(٤) الشعر والشعراء ١/ ٦٨ .

بثأره ، وفي بعضها أنه كتب إلى الفساسنة ملوك الشام من العرب ليعينوه بالسلاح والرجال ، وفي بعضها أن تلك الكتابة كانت إلى النجاشي ملك الحبشة . وفي رواية أن القيصر ولّى امرأ القيس إمرة فلسطين . ومفهوم هذه الأخبار أن امرأ القيس قد ظفر بما كان يريد من عون القيصر ، على حين تأتى رواية أخرى تقول إن امرأ القيس خرج متسرعاً خائفاً على نفسه من وشاية حسّاده ، وأنه مات بارتدائه حلة مسمومة غره بها رسول القيصر ، أو أصابه الجدري ، أو غير ذلك من الأسباب التي أدت إلى هلاكه وموته غريباً في أنقرة أو قريباً منها . وهذا كما يبدو اختلاف في التفاصيل لا غير ، وأن في هذه التفاصيل ما يمكن أن يكون مقبولا ، ومنها ما يستبعد . ولكن الذي لا خلاف فيه عند الرواة ما كان من ملك كندة ، وفتك بنى أسد بججر أبى امرئ القيس ، بتحريض ملوك الفرس أو ولايتهم على الحيرة ، وعبث امرئ القيس في صباه وقبل مقتل أبيه ، واستنجاهه بالقبائل لنصرته على الأخذ بثأره ، وأنه نجح في بعض ذلك ، وأخفق في الإجهاز عليهم ، وهو ما كان يشتهي لينبئ ملكاً لنفسه ، يصله بملك أبيه وأعمامه وجده ، وأن ذهابه إلى القيصر واستنجاهه به أمر لم يشك فيه واحد من الرواة ، ولا يصح الشك فيه ، فإن رجلاً من العرب كامرئ القيس لا بد أن يفتن إلى العداوة التقليدية بين الروم والفرس ، وبين المناذرة والفساسنة ، بدافع المنافسة التي أدت إلى وقائع حرابية يعرفها المؤرخون ، ويعرفها العرب أيضاً ، ولا بد أن يتجه امرؤ القيس في طلب العون إلى ملوك الروم وأشياهم من الفساسنة ، لينال من أعدائه وأعدائهم ملوك الفرس وأتباعهم من المناذرة ملوك الحيرة .

والخلاصة أن هذه الأخبار فيها ما تضافرت الروايات عليه ، وفيها ما هو محل للخلاف ، ومجال الاتفاق كما أسلفنا أوسع من مجال الخلاف أو نقط الخلاف . ومن التعسف أن ترفض الروايات الصحيحة لأنه يوجد إلى جانبها روايات ضعيفة أو مختلف عليها . وإنما البحث الصحيح يفضى إلى قبول ما اتفق عليه ، والأخذ

من وجوه الخلاف بأقربها إلى الفهم ، وأقربها شها بطبيعة الأشياء ، فأما أن ترفض الصحيح لأن بجانبه ما هو سقيم أو ما هو محل خلاف ، فليس من طبيعة البحث المستقيم ، وليس من الإنصاف في شيء ، وإنما هي الرغبة في الهدم لسبب أو لآخر من الأسباب التي لاتتصل بالبحث الحر ، ولاتمت إلى التحقيق بسبب من الأسباب .

فصاحب « الأدب الجاهل » على مذهبه في الشك أو الإنكار ، لا يمنع بمحاولة لإثبات انتحال الأشعار ، وإنما يحاول على عهده في الفترة التي ألف فيها كتابه إثبات انتحال الأخبار ، لينتهي إلى نفي الشعر والتاريخ جملة وتفصيلا ، فقصه السموءل مع امرئ القيس في نظره منتحلة ، لأنه قرأ في الأغاني أن أبا الفرج يشك في نسبة إحدى القصائد إلى امرئ القيس ، ويتخذ من هذا الشك ذريعة لهدم القصة من أولها إلى آخرها ، بسبب قصيدة واحدة قبل إنها منحولة . والمعجب من أن يذهب إلى أن القول بانتحال قصيدة واحدة يكفي لإثبات زيف قصة امرئ القيس مع السموءل ، بل يذهب إلى ما هو أكثر من ذلك ، مما يتجاوز حدود تلك القصة ، فيقول : ثم كانت هذه القصة المنتحلة سبباً في انتحال قصة أخرى هي قصة ذهاب امرئ القيس إلى القسطنطينية وما يتصل بها من الأشعار . . . وإذا لم يكن بد من التماس الأدلة الفنية على انتحال هذا الشعر فقد نحب أن نعرف كيف زار امرؤ القيس بلاد الروم وخالط قيصر حتى دخل معه الحمام ، وفتن ابنته ، ورأى مظاهر الحضارة اليونانية في قسطنطينية ، ولم يظهر لذلك أثر ما في شعره ؟ لم يصف القيصر ولم يذكره ، لم يصف كنيسة من كنائس قسطنطينية ، لم يصف هذه الفتاة الأمباطورية التي فتنها ، لم يصف الروميات ، لم يصف شيئاً ما يمكن أن يكون رومياً حقاً . ثم يكفي أن تقرأ هذا الشعر لتحس فيه الضعف والاضطراب والجهل بالطريق إلى قسطنطينية .

ومهما يكن من شيء ، فإن السذاجة وحدها هي التي تعيننا على أن نتصور أن شاعراً عربياً قديماً قال هذا الشعر الذي يضاف إلى امرئ القيس في رحلته إلى بلاد الروم وقفوله منها^(١) .

وهي استنتاجات غريبة كما يبدو ، لأنها تخرج عن طبيعة الاستنتاج الذي ينبغي أن يبنى على مقدمات صحيحة موثوق بها ، لتكون أدلة منطقية في بحث على لا أدلة خطائية في مجال التأثير والتلاعب بالعواطف ، وأين الأدلة الفنية في إثبات انتحال هذا الشعر ، أو انتحال هذه القصص ؟ الواقع أنه لا توجد في هذا القول ولا في أمثاله المبثوثة في تضاعيف الكتاب وفي أكثر صفحاته أدلة يقينية عقلية أو مادية ، ولا توجد أدلة فنية أيضاً .

كيف زار القسطنطينية ؟ وكيف خالط القيصر ؟ وكيف فن ابنته ؟ كان واجباً على الرواة والمؤرخين أن يصحبوا امرأ القيس في غدواته وروحاته ، ليصفوا لنا هذه التفاصيل ، وكان على امرئ القيس أن يذيع ما أجمع عليه من السفر إلى القسطنطينية لاستنجد القيصر ، حتى يتبعه الرواة ويدونوا كل صغيرة وكبيرة من أنباء هذه الرحلة ، التي يعرف أقل الناس ذكاء أنها رحلة تتسم بطابع السرية ، حتى يتحقق ما ينشد لها من النجاح ؛ وأيه غرابة في أن تفتن ابنة القيصر بهذا السيد العربي ضيف أبيها وجاره ، ولعلها رأت فيه من صفات العرب التي لم ترها في قومها ما أخذ بلبها ، وهي تعلم أنه ملك وسليل ملوك ؟

كيف لا يصف امرؤ القيس مظاهر الحضارة اليونانية في القسطنطينية ؟ كيف لا يصف قصر القيصر ؟ كيف لا يصف كنائس القسطنطينية ؟ كيف لا يصف الروميات ؟

أسئلة عجيبة حقاً ! وكأن امرأ القيس ذاهب في رياضة أو سياحة إلى القسطنطينية ، ليستوحى شاعريته في وصف مظاهر الحضارة اليونانية ، وفخامة الكنائس ، وفتنة الفوانئ الروميات ، كما يفعل السراة من أولى الفراغ في أيامنا .

لم يقل واحد من الرواة بهذا أو بشيء من هذا ، وإنما قالوا جميعاً إن امرأ القيس رحل إلى القسطنطينية بعد أن أعوزه النصارى في بلاده ، وأنه ذهب يطلب النصرة على أعدائه الذين قتلوا أباه وضيعوا ملكه ، من أعداء أعدائه ، ولم يذهب لاهياً يطلب الأنس والمسرة والمتعة في بلاد الروم ، بل ذهب يطلب العون بالرجال والسلاح والمال ليدرك ثأره ؟ فكيف يصف القصر وزينته ، ومظاهر الحضارة والمدنية في بلاد الروم ، مما لا يجد له نظيراً في أرض العرب ؟

بهذه النظرة الجادة ينبغي أن يكون النظر إلى تاريخ امرئ القيس أو تاريخ غيره من الجاهليين ليقبل منه ما يستحق القبول ، ويرفض ما ينكره العقل ويأباه المنطق . فإننا لا نطلب التسليم المطلق إلا بما يستقيم مع العادة ويعتمد عليه العقل . ونحن لا ننكر أنه حل على امرئ القيس كثير من الأخبار وكثير من الأشعار ، ولكن تمييز ذلك لا يخفى على أهل النظر .

وعلى هذا لا يمكن أن يقبل قول يذهب فيه إلى أن امرأ القيس شخصية خيالية أو أسطورية صنعها مؤلفو الأساطير ليلهو بها الناس ، أو أبناء القبائل ليثبتوا لقبائلهم مجداً تليداً يباهون به معاصريهم ، فهذه أخبار العرب يرونها روايتهم ، وهذه روايات الأوربيين يذكرها مؤرخوهم في تقارب واضح واتفاق كثير ، ثم تأتي الأخبار الصحاح عن الذين يبتدئ بكل حرف مما يقولون ، من الذين لا يعرفون اللغو ، ولا يؤمنون بالأساطير .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر امرأ القيس فيقول :

هو قائد الشعراء إلى النار . وفي خبر آخر : معه لواء الشعراء إلى النار .
وقال ابن الكلبي : أقبل قوم من اليمن يريدون النبي صلى الله عليه وسلم ،
فضلّموا ووقعوا على غير ماء ، فكشّوا ثلاثاً لا يقدرّون على الماء ، فحمل الرجل
منهم يستدري^(١) بئى السّمّ والطلح ، فبيناهم كذلك أقبل راكب على بعير ،
فأنشد بعض القوم بيتين من شعر امرئ القيس . فقال الراكب : من يقول
هذا الشعر ؟ قال : امرؤ القيس ، قال : والله ما كذب ، هذا ضارج^(٢) عندكم
وأشار لهم إليه ، فأتوه ، فإذا ماء غدق ، فشربوا منه وارتووا ، حتى بلغوا النبي
صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه ، وقالوا : أحياناً بيتان من شعر امرئ القيس .
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسى
في الآخرة خامل فيها ، يحيى يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار .

وذكره عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : سابق الشعراء ، خسف لهم
عين الشعر^(٣) . ولا حاجة بنا إلى الاسترسال في ذكر امرئ القيس أو إثبات

(١) استدري بالحائط أو بالشجر وتدري : اكتن .

(٢) ضارج : ماء بأرض طيء ذكره امرؤ القيس في معلقته كما سيأتى ، وهو جبل أيضاً
ول هذين البيتين :

لا رأت أن الشريعة مهما وأن البياض من فرائصها دام

تيممت العين التي عند ضارج بئى عليها الظل هرمضها الطامى

والشريعة مقعرة الماء ، وهى مورد الشاوية ، والعرب لا تسميها شريعة حتى لا يكون
الاطعام له ، والفرائص جمع فريضة وهى لحمة عند نفخ الكنتف في وسط الجنب ، وهما فريستان
ترتمدان عند الفزع ، والعزمض يفتح العين والميم الطحلب ، والضمير في رأت للحجر ، يريد أن
الحجر لما رأت شريعة الماء خافت على أنفسها من الرماة وأن تدعى فرائصها من سهامهم عدلت
إلى ضارج لعدم الرماة على العين التي فيه والطامى المرتفع .

(٣) الشعر والشعراء ٧٦/١ . وفي حديث عمر أن العباس سأله عن الشعراء فقال :

امرؤ القيس سابقهم ، خسف لهم عين الشعر ، فافتقر عن معان عور أصبح بصراً . أى أنبطها
لهم وأغزرها ، من قولهم خسف البئر ، إذا حفرها في حجارة فنبعت بماء كثير ، يريد أنه
ذلل لهم الطريق إليه ، وبصرهم بمانيه ، وفن أنوعه وقصده ، فاحتذى الشعراء على مثاله ،
فاستمار العين لذلك .

أنه حقيقة تاريخية ؛ فإن المجال لا يتسع لأكثر من ذلك من الأدلة القاطعة والأقوال الثابتة ؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب لا يتحدثان عن خرافة أو أسطورة وإنما يتحدثان على رجل يعرفانه كما يعرفه العرب ويحكان عليه بشعره الذى رددته البوادر والحواسر .

* * *

وقد حظى شعر امرئ القيس فى سائر عصور العربية بما لم يحظ به شعر شاعر غيره ، وهذه كتب الأدب وكتب البلاغة وكتب النقد وكتب التاريخ تفيض بأخباره ، وتروى شعره ، وتتخذ من بلاغته شواهد وأمثالا يضمها البلاغيون أمام طالبي صناعة البلاغة والبيان ، ليجلدوا فيها نماذج يرونها جذيرة بالاحتذاء . وقد شغل به العرب فى الجاهلية ، كاشغل به المسلمون فى صدر الإسلام وبعده ، وشغل به الرواة والشعراء والنقاد فى كل عصر من عصور التاريخ ، وفى عصرنا هذا عظمت العناية بشخصية امرئ القيس وتحقيق أخباره وقد أشعاره ؛ وتجاوزت تلك العناية جمهور الدارسين من أبناء الأمة العربية إلى غيرهم من الأجانب والمستشرقين ، فى محاولاتهم لدرس التاريخ العربى والوقوف على مصادره ، وفهم العرب وحفظهم من المعرفة والفن ، ودراسة لغتهم وأغابها وطبيعة تراكيبها ، حتى لقد يكون من الممكن أن تملأ الدراسات التى كتبت عن امرئ القيس وحده مجلدات كثيرة ، تكون مرآة للحياة العربية والفن العربى منها بصفة خاصة .

*

والسبب فى هذه العناية للمحفوظة أنهم رأوا شاعرية ناضجة مكتملة النضج فى ذلك العصر المبكر ؛ ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حادثة ، وإنما قصّدت القصائد وطوّلت الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم

ابن عبد مناف .. فن قديم الشعر الصحيح قول العنبر بن عمرو بن تميم ، وكان جلور في بهراء فراه ريب فقال :

قد رايت من ذلوى اضطرابها والنأى في بهراء واغترابها
إلا نجيء ملأى يحى قرابها^(١)

.. وما يروى من قديم الشعر قول دويد بن زيد بن نهد حين حضره الموت :

اليوم يُبنى لدويد بيتُهُ لو كان للدهر بلىً أبليتُهُ
أو كان قرنى واحداً كفيتُهُ يارب نهبٍ صالح طويتُهُ
ورُب غنيل حسنٍ لويتُهُ ومعه من غنضب ثنيتُهُ
وقال أيضاً :

أتى على الدهر رجلاً ويداً
والدهر ما أصلح يوماً أفسداً
يصلحه اليوم ويفسده غداً

... وأمثال هذا من الشعر القليل ، أو الأبيات القليلة التي تعبّر عن انفعال خاص ، ولا تتجاوز التعبير عن غيره من الانفعالات ، ولا تحاول تصوير العواطف في غزارة واستطراد ، وانتقال من فكرة إلى فكرة ، ومن معنى إلى معنى ، كما وجدوا ذلك عند امرئ القيس . فإن معالم الشاعرية ، أو خصائص الفن الشعري عند العرب قد ظهرت في شعره المأثور ظهوراً واضحاً ، والجهود التي بذلت في سبيل استكمال تلك الخصائص قد بلغت أوجها ، وحقت أهدافها على يد ذلك الشاعر الكبير الذي وجدوا من شعره ثرائاً كافياً صالحاً للبحث والدرس ؛ وأن

(١) قرابها ما قارب قدر تمامها أو امتلائها .

تلك المعالم هام بها شعراء العرب ، واتخذوها إماماً لهم ، وهاذيا يهتدون به في التعبير الشعري عن حياتهم وآلامهم وأمانيتهم ، وغيرها من الأغراض التي يريدون العبارة عنها . وقد سبقت هذا الشعر أو ذلك الشاعر محاولات كثيرة ، وخطوات طويلة ، في سبيل التدرج في الفن الشعري حتى بلغت هذا المبلغ الذي أعجب به العرب وتناشدوه ، وعلقوا بمضه على الكعبة .

فلا عجب أن يظفر هذا الشاعر بهذا الاهتمام في يثبات الأدب المختلفة ؛ وأن تتعدد آراء الدارسين لفنّه ، وأن يشهد له أكثرهم بالبراعة والحدق ؛ وفتح أبواب ذلك الفن ، ليلجحه القادرون عليه ؛ ويكون من ثمراتهم تلك الثروة الأدبية الطائلة التي يزهبها الأدب العربي بين الآداب العالمية .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يقول من فضل امرأ القيس : إنه أول من فتح الشعر واستوقف وبكى في الدمن ، ووصف ما فيها . ثم قال « دع ذا » رغبة عن النسبة ، فتبعوا أثره ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا واللقوة^(١) والسباع والظباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف .. وقال أبو عبيدة : امرؤ القيس أول من قيد الأوابد ، يعنى في قوله في وصف الفرس :

وقد اغتدى والطير في وُكُنَّهَا بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فتبعه الناس على ذلك . وقال الباقلاني في إعجاز القرآن : قوله « قيد الأوابد » عندهم من البديع ومن الاستعارة ، ويروونه من الألفاظ الشريفة ، وعنى بذلك أنه إذا أرسل هذا الفرس على الصيد صار قيداً لها ، وكانت بحال المقيد من جهة سرعة عدوه . وقد اقتدى به الناس ، واتبعه الشعراء ، ف قيل : قيد النواظر ، وقيد

الألحاط ، وقيد الكلام ، وقيد الحديث ، وقيد الرهان . قال ابن ينفّر :
بمقلّص عتد جبير شدّه قيد الأوابد والرهان جواد
وقال أبو تمام :

لها منظر قيد الأوابد لم يزل يروح ويغدو في خفارتها الحب
وقال آخر :

الحاظه قيد عيون الورى فليس طرف يتمدّداه
وقال آخر :

* قيد الحسن عليه الحدقان ^(١) *

وقال غيره : هو أول من شبه النفر في لونه بشوك السّيال ، فقال :
منابته منل السّدوس ولونه كشوك السّيال وهو عذب يفيص ^(٢)
فاتبعه الناس ، وأول من قال « فعداى عدااء » في بيته :
فعداى عدااء بين نور ونعجة درا كا فلم ينضح بماء فيفسل
فاتبعه الناس . وأول من شبه الحمار « بمقلّاء الوليد » وهو عود النّلة
في قوله :

فأصدرها تلو النجاد عشية أقب كقلّاء الوليد خيص ^(٣)

(١) خزانة الأدب للبغدادي ٣١٢/١ .

(٢) السدوس : النبلج الأسود ، والسّيال : شجر سبط الأغصان عليه شوك أبيض ، أصوله مثل تنابا الضارى ، يفيص : يقطرويسيل أو يرق .

(٣) المقلّاء والقلة بضم القاف وفتح اللام مخففة : عودان يلعب بهما الصبيان ، فالمقلّاء العود الكبير الذى يضرب به ، والقلة الحبة الصغيرة التى تنصب ، وهى قدر ذراع ، والنجاد المرتفعات من الأرض ، والأقب الضامر ، والخميص الضامر البطن .

و « بكرت الأندري » والسكرت الحبل ، والأندري الحبل الغليظ . وشبه
الطلل « بوحى الزبورى فى العسيب » فى قوله :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط الزبورى فى عسيب يمانى^(١)

قال ابن سلام : فاحتج لامرئ القيس من يقدمه قال : ما قال ما لم يقولوا ،
ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنها العرب ، واتبعته فيها الشعراء ،
منها : استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبه
النساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالمقبان والعصى ، وقيد الأوابد ، وأجاد
فى التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى^(٢) .

وهذه الكلمات خلاصة الأقوال فى تقديم امرئ القيس ، وهى من
غير شك كلمات عاجلة ، لم تستوعب حسنات امرئ القيس كلها ، ولم تشمل كل
نواحى إبداعه فى هذا الفن الجميل . وعلى من يحاول استخلاص تلك الحسنات ،
واستخراج نواحى الإبداع عند شاعر كبير مثل امرئ القيس أن يقرأ شعره كله ،
وأن يحصى حسنات الذين سبقوه والذين اتبعوه وأفادوا مما ابتدع ، ودون ذلك
ما لا يخفى من الصعوبات ، وأهمها قدأكثر شعر الجاهلية ، ولا سيما شعر الذين
سبقوا امرأ القيس . وفى ذلك يقول أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم
مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير^(٣) . وامرؤ
القيس نفسه يذكر أن غيره من الشعراء قد بكى الديار فى قوله :

عوجاً على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حذام

قال ابن سلام : وهو رجل من طيء لم يسمع شعره الذى بكى فيه ،

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٨٣/١ .

(٢) طبقات خول الشعراء لابن سلام ٤٦ .

(٣) طبقات خول الشعراء لابن سلام ٢٣ .

ولا شعر غير هذا البيت ، الذى ذكره امرؤ القيس .

والناظر فى شعر امرئ القيس يجد خصائص الشعر العربى متمثلة فيما صحّ نقله من شعره ، ويرى فى شعره صورة لحياته المتقلبة بين اللهو والجد ، وصورة للمجتمع الذى عاش فيه .

وأعتقد أن نطاق هذه الدراسة المخصص للملقات لا يتسع للإفاضة فى تحليل شاعرية هذا الشاعر أو غيره من أصحابها ، ولعل شيئاً من ذلك يأتى فى الفصول التالية التى نعرض فيها للدراسة الملاحظات جميعاً ، ونفصل فيها القول فى خصائصها الفنية ، ودلالاتها الاجتماعية والتاريخية .

معلقة امرئ القيس :

أشهر الملقات وأولها ؛ وأهم ما خلف امرؤ القيس من الشعر ، وأصحّته رواية ، وفى استطاعة الدارس لشعر امرئ القيس أن يطمئن كل الاطمئنان إلى سلامة هذه القصيدة ، وأن يعتمد عليها فى استخلاص ما يريد من خصائص شعر الشاعر ، ودلالته على نفسه وفنّه وبيئته .

والذى يدعوننا إلى الاطمئنان إلى صحة هذه القصيدة هو إجماع الرواة عليها ، وإن اختلفوا اختلافاً يسيراً فى بعض ألفاظها ، أو فى ترتيب قليل من أبياتها المتعاقبة . ويدعوننا كذلك إلى الاطمئنان إلى صحتها كثرة الأبيات التى تمثلت الأجيال بها ، واتفاق أرباب الصناعات التى تتصل بهذا الفن على الاستشهاد بها فى صناعة النحو والإعراب ، واللغة والبيان ، من النفاة الذين بنوا صرح الدراسات العربية ، ثم المتكلمون والباحثون فى إيجاز القرآن الكريم ، وما وازنوا بين آيات الكتاب ونصوص من هذه المعلقة ؛ هى هذه النصوص التى بين أيدينا . وما كان أولئك جميعاً لينبؤوا هذه الدراسات على أساطير أو حديث

خرافة ، وهم أهل جد ، لا يروون إلا ماصح عندهم ، ولا يقيمون دراساتهم إلا على ما وثقوا منه ، وكان لهم خصوم يتمنون لهم مثل هذه السقطة ليهدموا آراءهم بهدم الأسس التي بنيت عليها .

ثم مافى هذه القصيدة من صور صادقة للعصر الذي نظمت فيه ، والبيئة التي قيلت فيها وتصويرها للحياة المادية التي تضطرب بها الحياة في مثل البيئة التي عاش فيها امرؤ القيس .

ثم طبيعة الألفاظ والتراكيب التي تمثل التراكيب الأدبية التي استخدمها أولئك الجاهليون في تعبيراتهم الأدبية في ذلك الزمن البعيد ، وغير ذلك من الخصائص الفنية التي نعالجها في الفصول التالية .

كل أولئك يدعوننا إلى الاطمئنان إلى هذه القصيدة ، وقبولها كما هي ، دون شك في صحتها ، أو طعن في صدق روايتها .

ومن العسير على باحث منصف أن يكفر بهذه الآيات الشاهدة ، ليستمع إلى مقالة لا تعتمد إلا على الظن ، وتقصيد كلمة من هنا أو من هناك ، لتخلق منها حجة كالسراب ، يظنه المخدوعون ماء حتى إذا جاءوه لم يجدوه شيئاً ، وتقف أمامهم الحقائق الماثلة ، والعقول الواعية ، والألسنة الصادقة ، والطبيعة المصدقة .

وقد ذكر الرواة السبب الذي من أجله نظم امرؤ القيس هذه القصيدة ، فقالوا إنه نظمها في وصف واقعة جرت له مع حبيبته وابنة عمه « عنبزة » بنت شرحبيل ، وكان قد حفر عليه لقاءها ، ولطمهم منعه منها لما عرفوا من رغبته في الشعر ، وخشيتهم أن يجرى ذكرها في أحياء العرب على ألسنة الرواة ، فيظن الناس بها الظنون ، أما هو فكان ينتهز الفرص للملاقاتها ، فاغتنم فرصة ظعن الحى ، وكانوا إذا ظعنوا مشى الرجال أولاً ثم النساء ، فتخلف امرؤ القيس عن الرجال ، وتربص حتى ظعن النساء ، وكان في طريق الظاعنين غدير يسمى

« دارة جلجل » في منازل كندة بنجد ، فسبقهم امرؤ القيس إلى ذلك الغدير ، وفيهن عنيزة ، فزعن ثيابهن وزلن في الماء ، فبرز هو من مخبئه وجمع الثياب وجلس عليها ، وحلف أنه لا يعطى الواحدة منهن ثيابها إلا إذا خرجت من الغدير ورآها عارية ، فحاصمته زمنا طويلا من النهار ، فأبى إلا إبرار قسمه ، فخرجت إليه أوقعهن ، فرمى بثيابها إليها ، ثم تتابعن حتى بقيت عنيزة ، وأقسمت عليه ، فقال : يا ابنة الكرام لابد لك من أن تفعل مثل ما فعان ، خرجت إليه فرآها مقبلة ومديرة ، فلما لبس ثيابهن أخذن في عدله ، وقلن ، قد جوّعتنا وأخرتنا عن الحى ، فقال لمن : لو عقرت راحلتى أنا كلن ؟ قلن : نعم ! فمقر راحلتها ، وجمعت الإماء الحطب ، وجعلن يشوين اللحم إلى أن شعبن ، وكانت معه ركوة فيها خر فسقاهن منها ، فلما ارتحلن قسمن أمتعته ، فبقى هو ، فقال لعنيزة : يا ابنة الكرام لابد لك من أن تحملينى ، وألحت عليها صواحبا أن تحمله على مقدم هودجها فحملته ، فحمل يدخل رأسه في الهودج يقبلها ويشمها ، فلما كان قريبا من الحى نزل فأقام حتى إذا جنة الليل أتى أهله ليلا . وذكر هذه القصة في أثناء القصيدة ^(١) .

وإذا نظرنا في هذه المعلقة لم نجد ما يمكن أن يكون متصلا بهذه القصة سوى تسعة أبيات من ستة وثمانين بيتا في رواية صاحب جمهرة أشعار العرب ، وستة أبيات من واحد وثمانين بيتا في رواية الزوزنى ، وتلك الأبيات في رواية أبى زيد هى :

الأرب يوم لى من البيض صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل
ويوم عقرت للعدارى مطيتى فيا عجباً من كورها للتحمل

(١) انظر شرح المعلقات السبع للزوزنى ، مطبعة حجازى — القاهرة ١٩٥٢ م
وشرح القصائد العشر للتبريزى ١٥ وانظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ٩٦/١
وتاريخ آداب العرب للرافعى ١٩٩/٣ .

فَظَلَّ العَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وشحم كهدّابِ الدَّمَقْسِ المَقْتَلِ
تدار علينا بالسَّديفِ صحافها ويؤتى إلينا بالعبيط المَثْمَلِ
ويوم دخلتُ الخدرَ خدرَ عُنيزةٍ فقالت لك الويلاتُ إنك مُرْجَلِي
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرتَ بعيرى يا امرأ القيس فانزلِ
فقلتُ لها سيرى وأرْخى زمامه ولا تبعدينى من جنّاك المَعْلَلِ
دعى البَكْرَ لا تَرْنِي لَهْمَن رِدافنا وهاتى أذيقينا جناةَ الفَرَنْفَلِ
بشعر كمثل الأخوان منوّرٍ نقي الثنايا أشنبِ غير أُمَلِ^(١)

ولا شك أن هذا المقدار لا يكفي لإثبات صحة هذا السبب، أو جملة وحده علة نظم هذه القصيدة الكبيرة، إذ لو كان هذا هو الغرض الرئيسى من نظمها لشغلت معالجته أكثر أبياتها، ولكان هذا الغرض صالحاً ليكون مطلقاً للمعلقة، إذ كان هو التجربة التى أثارت انفعال الشاعر، وهى التى دفعته إلى التعبير عنها فى هذه القصيدة الطويلة، ولذلك فنحن لا نطعن إلى كون هذه القصة كانت سبب إنشادها؛ فإنها تشتمل على أغراض أخرى، منحها الشاعر من عنايته أكثر مما منح ذلك الغرض الذى قيل إنه أنشدها من أجله.

على أن هذه القصة فى حدّ ذاتها -- وعلى الرغم من تعدد روايتها -- أشبه بعمل القصص وفيها حبكة القصة أو الحبكة المسرحية كما يقال، فإن نساء قبيلة يخرجن مجتمعات، دون رجال يحرسونهن، ثم يتخلفن النهار أو أكثره دون أن يفتن إلى ذلك رجالهن، ودون أن يعودوا لاستطلاع خبرهن، أمر لا يقابل بالتسليم المطلق. ثم كيف تخرج حرائر العرب من ذلك الغدير

(١) البيت الرابع والبيتان الثامن والتاسع لم ترد فى روايتي الزوزنى والتبريزى ولا فى شرح ديوان امرئ القيس للوزير أبى بكر عاصم بن أبوب، وتابم السندوني فى شرحه لديوان امرئ القيس رواية صاحب الجهرة فى إضافة هذه الأبيات، حتى لا يشذ عنه شئ مما ينسب إلى امرئ القيس.

عاريات أمام رجل عرفن عبثه ، وعرفن شعره ، ولو بقين الأيام والشهور ؟ وكيف بامرئ القيس يمتن كرامة نساء قومه ؟ وكيف يستسيغ أن يخذل حياء ابنة عمه ؟ اللهم إن هذا صنيع رجل لامرؤة له ، في بيئة تعرف الحفاظ على حرمها ، وتبذل كل غال في سبيل صيانة المرأة والذود عن كرامتها !

لقد وصف امرؤ القيس بأنه كان يتعهر في شعره ، فلم لا يكون ما ذكره في هذه الأبيات القليلة وفي بيتين بعدها من تعهره المعروف في شعره ؛ فبالغ هذه المبالغة الفاحشة ، استغفر الله ، بل بالغ القصاص في رواية هذه القصة على هذا النحو ، الذي يعد مخزاة لشعر امرئ القيس ، بل مخزاة لرجولته ومروءته ، وشحمه وإبائه .

ثم أين وصف هذه القصة في هذا الشعر ، وهي قصة مثيرة حقاً ، أين ذكره للتغدير ولنساءه العاريات ، وملايسهن التي جلس عليهما ، ثم أين وصف أجسادهن من شاعر عرف عنه أنه لا يتعفف عن ذكر السوءات ؟ ؟

لا شيء من ذلك في هذه القصيدة ، إلا ذكره يوم دارة جليل ، وعقره ناقته للعداري ، وترايبهن بلحمها ؛ ولا حديث بعد ذلك لمرى أو استحمام أو ثياب أو خروج من التدبير على هذه الصورة الخيالية ، التي رآهن عليها مقبلات ومدبرات . ولعلك موافق بعد ذلك على ما قدمت أن هذه القصة أشبه بعمل القصاص ، ولعلك تجد نظيراً بل نظائر كثيرة لها في قصص « ألف ليلة وليلة » .

وعلى الرغم من كل هذا فإن في هذه القصيدة نفسها أبياتاً فيها من الخلاعة والتبذل والجحون والكشف في القصة الشيء الكثير ، ولكنها لا تتصل بهذه الواقعة بالذات ، بل بوقائع أخرى ، وذكريات سابقة ماجنة لهذا الشاعر مع

عاشقات آخر ، أو في وقائع غير تلك الواقعة التي ذكر الرواة أن امرأ القيس نظم هذه القصيدة من أجلها .

وهاك مجمل الأغراض التي اشتملت عليها معلقة امرئ القيس :

(١) وقوفه واستيقافه صاحبه أو صاحبيه عند أطلال أحبته الطاعنين ، التي لا تزال آثارها باقية ، على الرغم مما يختلف عليها من الرياح ، ولم تعف ذكريات الراجلين عنها من قلبه ، ثم وصفه بعض الآثار التي يخلفها رحيل البدو عن مضاربهم ، وما يحس من الوجد بفراقهم والبكاء لرحيلهم ، وما واساه رفاقه به ، وما يفعل البكاء من التسرية عنه والتخفيف من وجده ، ثم ما ذكر به نفسه أو صاحبه بما كان يلقي من أم الحويرث وجارتها ، وبعض ما كان يعجبه منها . وهذا مطلع القصيدة الذي استغرق تسعة أبيات من أولها (١ — ٩) .

(٢) وانتقل بعد ذلك إلى يوم دارة جلجل ، الذي قيل إنه سبب إنشاد المعلقة ، والناظر فيما ذكر فيه ذلك اليوم أن امرأ القيس لم يذكر شيئاً عن الفدير ، أو ما كان من عبثه مع النساء في ذلك اليوم على النحو الذي قيل في القصة ، وإنما كل ما ذكر من أمر ذلك اليوم ، أو غيره من الأيام ، ما كان من عقره مطيته للحداري اللأئي لم يجدن طعاماً ، وترامين بلحمها وقطع سنابها ، وركوبه مع صاحبه مطيتها ، وما كان يجري بينهما من حديث العذل والنزل والركة والدلال ، وكل ذلك في تسعة أبيات من المعلقة (١٠ — ١٨) .

(٣) ثم ذكر صاحبه بشيء من مغامراته مع غيرها في شعر ماجن ووصف مكشوف ، يبدو فيه وكأنه يتحدث إلى عاهرة من الساقطات ، لا إلى حرة من بنات أعمامه ، وذلك في أبيات ثلاثة (١٩ — ٢١) .

(٤) ثم مناجاته صاحبه فاطمة في نسيب عَفّ ، وصف فيه دلالتها ، وما يفعل هجرها بقلبه ، ويبدو في هذا النسيب أثر الحب الصادق ، وفعل

اللوعة وتبريح الصبابة ، في خمسة أبيات (٢٢ — ٢٦) .

(٥) وأفاض في وصف قصة من قصص مغامراته في سبيل الوصول إلى محبوبته ، ووصف ديبه إليها ، وصور ما كان بينهما من حديث العتب والإشفاق ، ثم أخذ في وصف محاسن جسدها وصفاً مادياً شبه فيه جسمها وأجزائه تشبيهات مادية ، بما يجد في بيئته من مظاهر الطبيعة الحية ، وظاهر الطبيعة الجامدة أيضاً . وقد استغرق وصف ديبه ووصف خليلته جزءاً كبيراً من المعلقة يبلغ واحداً وعشرين بيتاً (٢٧ — ٤٧) .

(٦) ثم وصف الليل وطوله وأحواله في خمسة أبيات (٤٨ — ٥٢) .

(٧) ويلي ذلك أربعة أبيات في وصف ما يكابد قاطع المفازة ، وما يسمع فيها من عواء الذئب ، وهذه الأبيات هي :

(٥٣) وقَرَبَةَ أَقْوَامٍ جَمَلْتُ عَصَامَهَا عَلَى كَاهِلٍ مَنَى ذَلُولٍ مُرَحَّلٍ

(٥٤) وَوَادٍ كَجَوْفِ الْمَيْزِ قَفَرٍ قَطَاعَتُهُ بِهِ الذَّئْبُ يَغْوِي كَالْخَلِيعِ الْمَعِيلِ

(٥٥) فَقُلْتُ لَهُ لِمَا عَوَى إِنْ شَأْنُنَا قَلِيلُ الْغَنَى إِنْ كُنْتَ لَمَّا تَمُولِ

(٥٦) كَلَانَا إِذَا مَا نَالَ شَيْئًا أَفَاتَهُ وَمَنْ يَحْتَرُ حَرْنِي وَحَرْنُكَ يَهْزُلِ

وقد ذكر هذه الأبيات أبو زيد القرشي من المعلقة في هذا الموضع ^(١) كما ذكرها الزوزني في شرح المعلقات السبع ^(٢) وذكرها التبريزي في شرح القصائد العشر ^(٣) وتابعهم السندوبي فيما جمعه من شعر امرئ القيس ^(٤) ؛ ولم يذكر هذه

(١) جهرة أشعار العرب ٥٩ .

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزني ٣٠ .

(٣) شرح القصائد العشر للتبريزي ٣٨ .

(٤) شرح ديوان امرئ القيس للسندوبي ١٣٣ .

الآيات في المعلقة الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب في شرحه ديوان امرئ القيس^(١)
وقال البغدادى في خزنة الأدب في هذا البيت :

كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ومن يحترث حرفى وحرفك يهزل
هذا البيت من أبيات أربعة رواها الرواة لتأبط شرّاً ، منهم الأصمى ،
وأبو حنيفة الدينورى في كتاب النبات ، وابن قتيبة في أبيات المعانى . وخالفهم
أبو سعيد السكرى ، وزعم أنها لامرئ القيس ، ورواها في معلقته المشهورة
بعد قوله :

كأن الثرىا علقَتْ في مصامِها بأمراس كتّانٍ إلى صُمٍّ جندَلِ
ثم أورد الآيات الأربعة المذكورة ، وعلق صاحب الخزنة عليها بقوله :
وهذا الشعر أشبه بكلام اللص والصعلوك ، لا بكلام الملوك^(٢) .

وهو نقد خليق بالتدبر والإعجاب ، إذ هو ينفذ إلى نفس الشاعر وطبيعة
حياته ، وأثر ذلك فيما يصدر عنه من أعمال أدبية ، والشاعر المجيد هو الذى
لا يصف إلا تجربته ، فإن الذى يحمل قرابة الأقوام على كاهله فى تلك المواجى
الموحشة التى لا يسمع فيها إلا عواء الذئب ، ولا يجد من الغذاء إلا ما يجد الذئب
الطاوى ، لا يكون ملكاً من الملوك فى سعته وخصبه ، وإنما يكون من اللصوص
أو من قطاع الطريق ، الذين كان يطلق عليهم لقب « الصعاليك » وتوصف
حياتهم وأعمالهم بالصعلكة . ولعل هذا الشعر فى خولته وجزالته وفى وزنه
وقافيته هو الذى أوقع أبا سعيد السكرى أو غيره من الرواة فى ذلك الوهم ،
فزعوا أن الآيات الأربعة من معلقة امرئ القيس . وما هى منها إلا فى الوزن
والقافية .

(١) شرح ديوان امرئ القيس للوزير أبى بكر عاصم بن أيوب (مطبعة التقدم العلمية —
القاهرة ١٣٢٣ هـ) .

(٢) خزنة الأدب للبغدادى ٣٩ / ١ .

(٨) ثم إلى ذلك ثمانية عشر بيتاً (٥٧ — ٧٤) ذكر فيها غدواته للصيد على ظهر حصانه ، الذى وصف جسمه وسرعة سيره وصفاً بارعاً ، فتن به الشعراء والرواة والنقاد ، الذين يعدون هذا الوصف من عيون الأوصاف الشعرية فى الأدب العربى ، ثم يتبع ذلك بوصف أمراب البقر الوحشية فى سرعة فرارها ومطاردة حصانه لها ؛ فى تصوير فنى أخاذ ، وفى مبالغات ساحرة هام بها النقاد وعلماء البلاغة والبيان .

(٩) وآخر أغراض المعلقة اثنا عشر بيتاً (٧٥ — ٨٦) وصف فيها البرق والمطر بمنظرهما الساحر فى تلك البادية ، ووصف مجلسه وأصحابه فى مشاهدة تلك الطبيعة ، ومراقبة سقوط المطر على الوهاد وعلى سفوح الجبال ، ووصف الطيور وهى المسكاكى من شدة سرورها بصفاء السماء بعد المطر الذى غرقت فى أقاصيه السباع ، كأنما شربن رحيقاً مغلغلا .

ويتضح من ذلك أن هذه المعلقة قد تمددت أغراضها بين وقوف واستيقاف وبكاء على الأطلال ، وذكر لعدد من النساء ، ووصفهن ، ومغامراته فى سبيل الوصول إليهن ، وذكر الخلوة بهن ، ووصف الليل والبادية ، والحصان ، والصيد والبرق ، والمطر .

وتلتقى تلك الأغراض فى أنها تعالج فى مجموعها لونا أو ألوانا من الحياة التى كان يحياها بعض المترفين من أبناء العرب فى الجاهلية ، من الذين كان لا يشغلهم العيش والسكد فى طلبه فى رعى أو تجارة ، بل جلّ حياتهم للهو والعبث وترجية أوقات الفراغ فى طلب الصيد ، وتفجر ينابيع الشاعرية عند الذين أوتوا حظا منها ، بوصف الليل الذى كانوا يجدون فيه ألم الوحدة ، أو يستشعرون لذمة الفراق ، ووصف الراحة التى كانت تعينهم على بعض ما يطلبون من المتعة أو الرحلة ، ومشاهد الطبيعة التى كانت تفتنهم لقلة ما يرونها فى مواطنهم وديارهم .

ولست قصيدة امرئ القيس وحدها من بين الشعر الجاهلى هى مظهر هذا اللون من الحياة ، بل إن أكثر الشعر الجاهلى ، معلق منه وما لم يعلق ، زاهر بأمثال هذه الفنون التى اشتملت عليها معلقة امرئ القيس .

وعلى هذا فإن تلك الأغراض ، وإن بدا تعددها ، تدور حول هذه الحياة ، وعبقريه الشاعر تسير نظراته المتقلبة ، وحياته المتقلبة ، وخواطره المتتابعة ، فالأطلال تذكره بالدين كانوا يعمرونها ثم طعنوا عنها ، وهذا يذكر بنسائهم أو فتياتهم ، ومن يشبهن ممن علق القلب بهن ، ومثل ذلك يستدعى التمدح بما قد يراه الشاعر مظهر فخر له من الفروسية أو نحوها ، وبالحصان وبأسراب البقر الوحشية ، وبذلك المناظر البرية التى هى مرتع لهموم وصيدهم وحلهم ومرتحلهم . ولست أريد فى هذا المقام أن أثبت أصالة تلك القصيدة أو صحة نسبتها إلى امرئ القيس بالأدلة العلمية التى تخضع للمنطق وأحكامه ، وأهم هذه الأدلة فى نظرى طبيعتها وصدق دلالتها على البيئة التى قيلت فيها ، وعلى نفسية صاحبها فإن للبيئة ومظاهرها فى شعر المعلقات ، موضوعاً آخر فى هذه الدراسة ؛ وأعتقد أن خير الأسباب لإثبات ذلك أو نفيه ، الرجوع إلى الطبيعة فإن سائر الشعر أو غيره من الفنون تلك الطبيعة فلا مجال لإنكاره .

ومعنى الطبيعة الذى أقصده هنا أوسع معنى ، ولا يقتصر على مشاهدتها أو كوائنها ، فتلك ناحية لا يقل عنها فى الأهمية البحث فى طبيعة اللغة التى استعملت فى هذا الفن التعبيرى ، وهل هى تلك اللغة الأدبية السائدة فى الأعمال الأدبية الممتازة ؟ ثم طبيعة الحياة التى عاشها أصحاب هذا الفن ، وطبيعة النفس التى صدر عنها ، وطبيعة التجارب التى عثر عنها ، والأحداث التى لعبت دورها فى حياة أصحاب الفن ، أو الذين كان فنههم مرآة تنعكس على سطحها صورة تلك الأحداث ..

وإذا كان موضع دراسة تلك الطبيعة لم يأت بعد ؛ فإننا نمرع إلى تسجيل

ما استخلصناه من هذه الدراسة ، وهى أنه لا مناقاة مطلقاً بين هذا الفن الذى نَجده فى هذه المعلقة ، والطبيعة التى أملت ما فيها من نظم وأسلوب وفكرة ومعنى ومضمون .

وفى هذا اليقين ما يبدد كل شبهة بدت فى كلام الغير ، ويُسكر كل طعن فى صدق هذا التراث أولاً ، وهذه المعلقة بالذات ثانياً .

ولا أعرف من أنكرها من أدباء العرب غير الدكتور طه حسين الذى يقول عن معلقة امرئ القيس : لسنا نعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل أكثر مما يظهران فى هذه القصيدة ولسكننا نلاحظ أن القدماء أنفسهم يشكون فى بعض هذه القصيدة .. وهم بعد هذا يختلفون اختلافاً كثيراً فى رواية القصيدة : فى ألفاظها وترتيبها ، ويضعون لفظاً مكان لفظ ، وبيتاً مكان بيت . وليس هذا الاختلاف مقصوراً على هذه القصيدة ، وإنما يتناول الشعر الجاهلى كله ، وهو اختلاف شديد يكفى وحده لملنا على الشك فى قيمة هذا الشعر . « وهو اختلاف قد أعطى للمستشرقين صورة سيئة كاذبة من الشعر العربى ، فخيّل إليهم أنه غير منسق ولا مؤتلف ، وأن الوحدة لا وجود لها فى القصيدة ، وأن الشخصية الشعرية لا وجود لها فى القصيدة أيضاً ، وأنتك نستطيع أن تقدم وتؤخر ، وأن تضيف إلى الشاعر شعر غيره دون أن تجد فى ذلك حرجاً أو جناحاً ، مادمت لم تخل بالوزن ولا بالقافية .

« وقد يكون هذا صحيحاً فى الشعر الجاهلى ، لأن كثرة هذا الشعر منتحلة مصطنعة . فأما الشعر الإسلامى الذى صحت نسبته لقائله ، فأنا أتحدى أى ناقد أن يعث به أقل عبث دون أن يفسده . وأنا أزعم أن وحدة القصيدة فيه بيّنة ، وأن شخصية الشاعر فيه ليست أقل ظهوراً منها فى أى شعر أجنبى . إنما جاء هذا الخطأ من اتخاذ هذا الشعر الجاهلى نموذجاً للشعر العربى مع أن هذا الشعر

الجاهلي لا يمثل شيئاً ، ولا يصلح إلا نموذجاً لعبث القصاص وتكلف الرواة .
ونظن أن أنصار القديم لا يخالفون في أن هذين البيتين قلقان في القصيدة ، وهما :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع المموم ليلتي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكل كل
فقد وضع هذان البيتان للدخول على البيت الذي يليهما ، وهو :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل
وهذان البيتان أشبه بتكلف المظهر والخمس منهما بأي شيء آخر^(١) .

فأى تعليق على هذه الأحكام الجريئة التي تترادف سرية ؟ وكأنها أحكام
مسلّمة في نظر قائلها الذي يظن أن في استطاعته أن يقود قارئه إلى التسليم
المطلق . في حين أن هذه الأحكام جميعاً يعوزها الدليل والبرهان ، ولا دليل
ولا برهان ! بل إن الدليل ينقض هذه الدعاوى من أساسها ..

فإذا كانت الحجة ما ذهب إليه بعضهم — كما يقرر الدكتور طه — من
الشك في صحة هذين البيتين :

ترى بحر الآرام في عرصاتهما وقيعانها كأنه حب فلفل
كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمّرات الحى ناقف حنظل

فقد قال التبريزي بعد البيت الأول منهما : هذا البيت وما بعده مما يزداد
في هذه القصيدة . ثم روى قول الأصمعي : والأعراب ترويهما^(٢) .

وعلى هذا ينبغي أن يكون الفهم ، وأن ينصرف الشك أو الإنكار إلى
خبر زيادتهما ، لا إلى وجودهما ، ومنزلة الأصمعي بين الثقة من الرواة لا تحتاج

(١) في الأدب الجاهلي ٢١٥ .

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزي ٧ .

إلى بيان ، وقول الأصمى إن الأعراب ترويهما ، لا يحتاج فوقه إلى دليل على صحتها ؛ فإذا كان الأعراب يروونها بالنقل والسماع عن أهل البادية ففى ذلك الحجة وفصل الخطاب .

أما الأبيات الأربعة « وقرية أقوام ... الأبيات » فقد أسلفنا القول فيها ، وهى أبيات أربعة مجموعة متوالية ، تنبه إليها الرواة ، وفطنوا إلى أنها حشرت فى القصيدة حشراً وأقحمت عليها إقحاماً ، وأيد بعضهم هذا الرأى بنقد معجب فى قولهم إن هذه الأبيات أشبه بكلام قطاع الطرق من الصعاليك منها بكلام الملوك أو أبناء الملوك ، وقد عرفوا أن صاحب هذه الأبيات هو « تأبط شرّاً » فلم يبق للجاجة موضع .

وهذا كل ما فى القصيدة من الوهم الذى بان واتضح ، ولم يبق وراء ذلك إلا خلافاً لفظية لا تسكاد تذكر ولا يقام لها وزن ، لأنها لا تتجاوز أفاضاً معدودة ، أو حروفاً قليلة . إذن ليس هذا الاختلاف شنيعاً كما يرى الدكتور طه ، وعلى هذا فقد بطل ما يرى الدكتور طه أنه يكفى للحل على الشك فى قيمة هذا الشعر .

وأعجب من هذا ذهابه إلى أن « هذا الاختلاف قد أعطى المستشرقين صورة سيئة كاذبة من الشعر العربى ، فخليل إليهم أنه غير منسق ولا مؤتلف ، وأن الوحدة لا وجود لها فى القصيدة ، وأن الشخصية الشعرية لا وجود لها فى القصيدة أيضاً ، وأنك نستطيع أن تقدم وتؤخر ، وأن تضيف إلى الشاعر شعر غيره دون أن تجد فى ذلك حرجاً أو جناحاً ما دمت لم تخل بالوزن ولا بالقافية » .

إن هذا الاختلاف الضئيل فى الواقع ، والشنيع فى نظر الدكتور طه ، لم يعط للمستشرقين صورة سيئة كاذبة عن الشعر العربى كما يقول ، وبين أيدينا ما كتب أحد كبار المستشرقين الذين تصدوا لتاريخ أدبنا العربى ، وهو الأستاذ

نيكاسون الذى يقول فى صفحته ١٠٥ من كتابه عن معلقة امرىء القيس : أما معلقة امرىء القيس ، فقد تسابق النقاد الأوربيون إلى التغنى بجمال تعبيرها ، والتحدث بفاخر تصويرها ، وحلاوة مدق أبياتها ، وسحر تمثيلها المتنوع . ومما زاد إعجابهم بها ذلك الشعور بأفراح الحياة ، وتمجيد الشباب الذى أوحى إلى الشاعر معانيها الخلابه ، ومباينها البالغة أعلى درجات الفصاحة^(١) .

فهذا عالم كبير لا يذكر رأيه فى الإعجاب بهذه المعلقة فحسب ، ولكنه يؤكّد أن النقاد الأوربيين يتغنّون بما يمدّون فيها من الخصائص الفنية التى ذكرها . ويقول الأستاذ أرنست رينان فى صفحته ٣٦٠ من كتاب تاريخ اللغات السامية عن الخلاقات اللفظية التى وصفها الدكتور طه بأنها شنيعة ، مانصه : « إن الخلاقات اللفظية الطفيفة فى رواية الشعر الجاهلى نشأت عن ضعف الذاكرة ، ولكنها لا تمس جوهر الفكرة . وهذه الخلاقات قد تكون ضمانة لصحة الرواية التى تلقاها الرواة^(٢) . واعتقد أن فى هذين النصين الكفاية للدلالة على حفظ هذه المعلقة وغيرها من التقدير فى نظر المستشرقين ، كما كان لها من الحظ عند رواة العرب وعلمائهم ونقادهم .

أما قوله : إنك تستطيع أن تقدم أو تؤخر ، وأن تضيف إلى الشاعر شعر غيره دون أن تجد فى ذلك حرجاً أو جناحاً ، مادمت لم تحمل بالوزن ولا بالقافية » . فإن الكلام عن التقديم والتأخير لا يحكم العقل باستحالته بالنسبة إلى شعر الجاهليين والإسلاميين والعباسيين ، بل والمعاصرين ، على السواء ، وليس ذلك فى الشعر فقط ، بل هو ممكن فى سائر الفنون الأدبية ، لكل من يريد التزييف والخداع ، وكان فى استطاعته هذا التزييف أو التضليل ، وذلك بأن يقيم روح

(١) نقلا عن كتاب (الشهاب الراسد) ٢٩٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٣ .

هذا الأديب أو ذاك ، وينسج على منواله ، في الأسلوب والأفكار ، أما الوزن والقافية فهما أيسر الأشياء عند من يملك غيرهما من آلات الحذق الفنى فى الأدب .

ولا شك فى أن القادرين على مثل هذا التضييل لا يحصى عددهم من الشعراء المجيدين والناثر المبرزين فى سائر عصور الأدب . وأعتقد أن الذين يسمهم بـذل هذا العناء ليقدموه إلى غيرهم ثمرة ناضجة ، كان أولى بهم أن يمحطوه لأنفسهم ، ليعرفوا به بين الناس ، وليبلغوا به من المنزلة فى عالم الأدب ، ما بلغ أولئك الفحول فى مختلف البيئات من المجد وذبوع الصيت .

والمسألة أولاً وأخيراً لا تعدو مسألة الضمير ، بل هى مشكلة الضمير . وهذا أمر لا تستطيع البشرية أن تحكم عليه إلا بالدليل الواضح ، لا بالفروض والظنون .

ولست أدرى كيف ظن الدكتور أن أنصار القديم لا يخالفون فى أن هذين البيتين « وليل كوج البحر ... البيتين » قلقان فى القصيدة وأنها وضعا للدخول على البيت الذى يليهما ؛ وهو « ألا أيها الليل ... البيت » وهو قول لم ينسبه الدكتور إلى أحد من القدامى أو المحدثين من الرواة أو العلماء ، فهو رأيه الخاص إذن ، وأنى له أن أنصار القديم ، بل وأنصار الجديد أيضاً ، لا يخالفون فى قلق هذين البيتين ؟

ولا نجد من الأسباب المادية أو الأسباب الفنية دليلاً على هذا القلق المزعوم ؛ بل العكس هو الصحيح ، والإجماع منعقد على الإعجاب بهما وبما يليهما من الأبيات الخمسة التى وصف فيها امرؤ القيس الليل ، وبرمه به ، وضجره منه . ولم أسمع ولم أقرأ غير ذلك الإعجاب من أنصار القديم وأنصار الحديث أيضاً .
حقاً لقد ذكر بعض نقاد الأدب العربى أن افتقار البيت من الشعر إلى ما يليه

من الأبيات عيب من عيوب الشعر سماه قدامة بن جعفر « المتبور » وسماه غيره « التضمين » ، وذلك موجود في هذه الأبيات ، فإن مقول القول في البيت الثاني من الأبيات الثلاثة يأتي في البيت الثالث منها . ولسكنه مقياس لا يعتد به عند الباحثين عن وحدة القصيدة أو الذين يعينهم أمر هذه الوحدة ، والدكتور طه ينشد هذا المقياس في هذه القصيدة أو غيرها من الشعر الجاهلي فلا يجد ، كما يقول في كلامه السابقة .

ثم يقول : فإذا فرغنا من هذا الشعر الذي لا نكاد نختلف في أنه دخيل في القصيدة ، فقد نستطيع أن نرد القصيدة إلى أجزائها الأولى : وهذه الأجزاء هي أولا وقوف الشاعر على الدار وما يتصل بذلك من بكاء وإعوال ، ثم ذكره أيام لهوه مع العذارى ، ثم عتابه لصاحبه وما يتصل بذلك من وصف خليلته ، ثم ذكر الليل ، والاستطراد منه إلى الصيد ، وما يتوصل به إلى الصيد من وصف الفرس ، ثم ذكر البرق ، وما يتبعه من السيل (ص ٢١٥) .

فهل نفهم من هذا الكلام أن صاحبه قد استبعد من هذه المعلقة ، ماشك فيه ، أو ما نقل الشك فيه عن غيره ، ثم سلم بما بقي بعد ذلك ، وهو كثير ، بل أكثر من الكثير ؟ فإن مجموع الأبيات التي تناولتها الكلمات السابقة ثمانية أبيات من مجموع القصيدة الذي يبلغ ستة وثمانين بيتا في رواية أبي زيد في الجهرة ، ويكون ماسم له من القصيدة ثمانية وسبعين بيتا ، حينئذ يكون مجال الخلاف ضيقا ، إذ أن دائرته بيننا وبينه لا تتجاوز أربعة أبيات ، منها البيتان :

ترى بحر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حبّ فلفل
كأن في غدادة البين يوم تحلوا لدى سمرات الحى ناقف حظل

وقد نسب الشك فيهما إلى بعض القدماء ، والبيتان :

وليل كوج البحر أرخى سدوله على بأنواع الموم ليـبـتـلى
فقلت له لما تـمـطى بـصـلبه وأردف أمـجـازاً وناـه بـكـلـكـل

وما البيتان اللذان يرى أنهما قلقان ، وأنهما وضعا للدخول على البيت الذي يليهما . أما الأبيات الأربعة « وقرية أقوام . . . » فقد عُرف أنها لتأبط شرا وليست لامرئ القيس ؛ وقد تنبه لذلك العلماء والرواة من قديم ونهوا إليه ؛ فلا محل للخلاف فيها ؛ ونوافق نحن على استبعادها من المعلقة . وبذلك ينحصر الخلاف في الأبيات الأربعة ، وهو خلاف ضئيل كما قدمنا .

ليت الأمر كان كذلك ؛ إذن لحسم الخلاف ولكن الدكتور يسرع إلى نقضه بعد أن فهم من كلامه الإبقاء على ما يطمأن إليه ، ويرضى عنه ، وهو الباقي من القصيدة الذي تناول الأغراض التي ذكرها — بقوله : ولنسرع القول بأن وصف اللومع العذاري ، وما فيه من فحش ، أشبه بأن يكون من انتعال الفرزدق منه بأن يكون جاهليا . فالرواة يحدثننا أن الفرزدق خرج في يوم مطير إلى صاحبه البصرة ، فاتبع آثاراً حتى انتهى إلى غدير ، وإذا فيه نساء يستحممن ، فقال : ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل ، وولى منصرفا ، فصاح النساء به : يا صاحب البغلة ، فماد إليهن ، فسألته ، وعزمن عليه ليحدثهن . ليث دارة جلجل ، فقصّ عليهن قصة امرئ القيس ، وأنشدن قوله :

ألا ربّ يوم لك منهنّ صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

قال : والذين يقرءون شعر الفرزدق ويلاحظون فحشه وغلظته ، وأنه قد ليم على هذا الفحش وعلى هذه الغلظة ، لا يحدون مشقة في أن يضيفوا إليه هذه الأبيات ، فهي بشعره أشبه . وكثيراً ما كان القدماء يتحدثون بمثل هذه الأحاديث يضيفونها إلى القدماء ، وهم ينتحلونها من عند أنفسهم . ومهما يكن من شيء

فلفنة هذه الأبيات كلغة القصيدة كلها عدنانية قرشية ، يمكن أن تصدر عن شاعر إسلامي اتخذ لغة القرآن لغة أدبية^(١).

فقد نقض هذا القول ماساف ، وظهر منه أن الكلام السابق لم ينبه الخلاف ، ولم يصل بنا إلى نقطة نلتقي عندها . ومحاولة إثبات انتحال الفرزدق هذا الشعر محاولة ضعيفة ، بل لعلها أضعف تلك المحاولات ، فقد كان الفرزدق في بيئة إسلامية كثريها الشعر وكثريها الشعراء ، وذاع فيها حديث الجاهليين وشعرهم ، وبرزت أحكام النقاد في تقدير القيم الفنية فيه ، ولم يكن علم الفرزدق بهذا الشعر أوفر من علم غيره به . وكان أخرى بالفرزدق أن ينسب شعر امرئ القيس إلى نفسه لو أراد ، لا أن يفعل شعره امرأ القيس لغير ما سبب ظاهر أو خفي ؛ ولم يتجه الظن إلى الفرزدق وحده في ذلك الانتحال ؟ فإن القياس لا يمنع أن يكون صانعه أبا تمام ، أو بشاراً ، بل لا يمنع أن يكون صانع هذا البارودي أو غيره من شعراء هذا العصر الحديث ؛ إذا كان المراد مجرد إلصاق هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس إلى أي شاعر غيره . . . فليكن !

ولقد كان للفرزدق خصوم من أنداده نالوا منه — كما نال منهم ، وكان في وسعهم أن يفتنوا إلى مads على امرئ القيس الذي يعرفون شعره ، وأن يكون ذلك — لوصح — مادة للنيل من الفرزدق وسبباً من أسباب التشهير به .

ثم محاولة تأييد هذا الظن بملاحق في شعر الشاعرين ، ومشابه من الفحش في ذكر السوءات ، والنيل من الحصنات في معلقة امرئ القيس ، وفي بعض شعر الفرزدق ، فإن ذلك لا يؤيد هذا الظن فما أكثر من تشابهت أخلاقهم في الفضائل وفي الرذائل ، وفي العمّة وفي الفحش ؛ بل في أسلوب التعبير عن المعاني

والأفكار ، وهذا التشابه لا يمكن أن ينهض دليلاً على أن هذا صنع شعر ذاك أو نحله إياه . والذي قد يقبله العقل قد يكون عكس هذا الظن ، فإن المتأخر هو الذى قد يحذو حذو المتقدم ، وقد يسرق معانيه وأفكاره ، وقد كان الفرزدق قوى الذاكرة يحفظ من شعر العرب وأخبارها وأيامها الشيء الكثير ، ضمن كل ذلك شعره الذى كان يزهو فيه بنفسه ويفخر فيه بأبائه وأجداده . ومن خصائص أسلوبه الميل إلى الغرابة ، ومداخلة بعض الكلام فى بعض ، وقد قالوا فيه إنه أحيات اللغة فى شعره ؛ بما استعمل فيه من ألفاظ الجاهليين وأساليبهم ، بعد أن عدل كثير من الشعراء عن غريبها ووحشيتها متأثرين بالإسلام وبأسلوب القرآن الكريم . ولذلك قالوا فى الموازنة بين الفرزدق وجريز : إن الفرزدق ينحت من صخر ، وإن جريزاً يغرف من بحر . وذلك إشارة إلى ما كان يتكلفه الفرزدق فى ألفاظه وأساليبه من التشبه بالجاهليين .

ومثل ذلك يقال فيما حاول صاحب الكتاب من إلصاق بعض شعر المعلقة بعمر بن أبى ربيعة فى قوله : أما وصف امرئ القيس لخليلته ، وزيارته إياها ، وتجمشه ما تجشم للوصول إليها ، وتخوفها الفضيحة حين رآه ، وخروجها معه وتعفيتا آثارهما بذيل مرطها ، وما كان بينهما من لهو ، فهو أشبه بشعر عمر بن أبى ربيعة منه بأى شيء آخر ، فهذا النحو من القصص الغرامية فى الشعر فن عمر بن أبى ربيعة قد احتكره احتكاراً ولم ينازعه فيه أحد . وقد يكون غريباً حقاً أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ويتخذ فيه هذا الأسلوب ويعرف عنه هذا النحو ثم يأتى ابن أبى ربيعة فيقلده فيه ، ولا يشير أحد من النقاد إلى أن ابن أبى ربيعة قد تأثر بامرئ القيس ، مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرئ القيس فى طائفة من الشعراء فى أنحاء من الوصف ، فكيف يمكن أن يكون امرؤ القيس هو منشئ هذا الفن من الغزل الذى عاش عليه ابن أبى ربيعة ،

والذى كوّن شخصية ابن أبى ربيعة الشعرية ، ولا يعرف له ذلك ؟

نم يقول : وأنت إذا قرأت قصيدة أو قصيدتين من شعر ابن أبى ربيعة لم تسكد تشك فى أن هذا الفنّ فنه ابتكره ابتكاراً ، واستغله استغلالاً قويا ، وعرفت العرب له هذا . وقل مثل هذا فى هذا القصص الغرامى الذى تجده فى قصيدة امرئ القيس الأخرى « ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالى » . ففى هذا القصص الفاحش فن ابن أبى ربيعة وروح الفرزدق . ونحن نرجح إذن أن هذا النوع من الغزل إنما أضيف إلى امرئ القيس ، أضافه رواية متأثرون بهذين الشاعرين الإسلاميين^(١) .

وهذا الذى وصف به عمر بن أبى ربيعة صحيح لا شك فى صحته ، فهو شاعر الغزل الذى وقف عليه شعره أو أكثر شعره ، ولم يوصف بذلك امرؤ القيس ، وإنما وصف بقدرته على التصرف فى فنون الشعر ، وقد عالج هذا الفن ، فن الغزل ، فيما عالج من تلك الفنون ؛ فامرؤ القيس هو الذى سبق إلى هذا الفن فى بعض قصائده أو فى أجزاء منها . والطبيعة لا تسكذب هذا لحياة امرئ القيس الحرة التى كان ينتهب فيها اللذات انتهاباً لا تمنع أن يصف ذلك فى شعره ، وأن يوجد فيه ذلك القصص الغرامى ، الذى افتتن به ابن أبى ربيعة ، وافتن فيه حتى أصبح إماماً فيه .

والقضية كما سبق معكوسة تماماً ، والذى ينبغى أن يقال هو أن ابن أبى ربيعة اقتدى بامرئ القيس حتى برع فى فن الغزل براعة فاق فيها أستاذه ؛ وقد كانت التجربات أحد الفنون التى عالجها شاعران كبيران فى الجاهلية هما عمرو بن كلثوم والأعشى ، وشاعر إسلامى هو الأخطل ، وجاء فى المعمر

(١) فى الأدب الجاهلى ٢١٧ .

المباسب أبو نواس ، وهو الشاعر الذى فاق أولئك الفحول فى وصف الخمر ومجالسها وصناعاتها وفعلها بشاريتها ، حتى أصبح فى هذه الصنعة إماما ، فهل نستطيع أن نستنتج قياساً على هذا أن شعر عمرو بن كلثوم والأعشى والأخطل فى نعت الخمر مصنوع ، وأن الذى صنعه ونحله إياهم هو أبو نواس ، أو أحد الرواة الذين عرفوا منهجه فى التعبير عن هذا الفن ، وخصائص شعر الخمر عنده ١٩ .

لم هذا الظن ؟ بل لم هذا الإسراف فى الظن ؟ والحجج كما ترى لا يؤيدها منطق فى الطبيعة ، ولا يعضدها سند من رواية ، أو علم عن يقين !! .

لقد كان الأولى أن يوجه أبناءنا الذين نريد لهم الخير ، ونحملهم عليه ، ونعوذهم البحث ، ونعدهم لحل رسالة الأدب والنقد ، على نحو آخر ينبههم إلى تلك الملامح من التشابه فى المصور المختلفة ، وفى أعلام الأدب ومناهجهم ، وفى فنون الأدب التى خلفوها ، ويوقفهم على ما سبق إليه القدماء وما احتداهم فيه اللاحقون حتى يعرفوا الجهود الفنية التى تضافرت على ذلك الفن أو ذلك حتى بلغ مكانته بين الفنون ، ويعرفوا أثر ذلك العصر وأثر الحياة والمعرفة فى تطور الفكرة الأدبية ، وأن نضع أمامهم الحقائق ليدرسوها ، ويصلوا منها إلى التمييز الفنى الصحيح الذى نشده لهم فى الحياة وفى العلم والفن .

ثم اقرأ هذا الكلام ، وأكبر الظن أنك لن تجد فيه الإنكار الذى رأيته ، ولكنك لن تجد فيه أيضاً ، الإثبات إن كنت طالباً له ، يقول الدكتور طه : بقى الوصف ، ولا سيما وصف الفرس والصيد ، ولكننا نقف فيه موقف التردد أيضاً . واللغة هى التى تضطرنا إلى هذا الموقف . فالظاهر أن امرأ القيس كان قد نبغ فى وصف الخليل والصيد والسيل والمطر . والظاهر أنه قد استحدث فى ذلك أشياء كثيرة لم تسكن مألوفاً من قبل ، ولكن أقل هذه الأشياء فى هذا

الشعر الذى بين أيدينا ؟ أم قالها فى شعر آخر ضاع وذهب به الزمان ، ولم يبق منه إلا الذكر ، وإلا لجل مقتضبة أخذها الرواة فنظموها فى شعر محدث أنشئوه ولتقوه وأضافوه إلى شاعرنا القديم ؟ هذا مذهبنا الذى نرجحه . فنحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد وشبه الخيل بالعصى والعقبان التى يرويه الرواة . وأكبر الظن أن هذا الوصف الذى نجمده فى المعلقة وفى اللامية الأخرى فيه شيء من ربح امرئ القيس ، ولكن من ربحه ليس غير (ص ٢١٧) .

وإذا تدبرت هذا الكلام فأكبر الظن أنك لن تخرج منه بشيء ، بل هو كلام لا يحصل له ، وكاتبه يقول « الظاهر أن امرأ القيس كان قد نبغ فى وصف الخيل والصيد والمطر » ويقول : « والظاهر أنه قد استحدث فى ذلك أشياء كثيرة لم تكن مألوقة من قبل » . فمن أين هذا الظاهر الذى وضع أمامه ، ونادى على نفسه بالظهور والوضوح ؟ إنها الكلمات التى رددها الرواة والإخباريون والتى سبق أن تعدد تكذيبها ، واتهامهم بالوضع والانتحال والتلفيق ، وأولئك الرواة فى هذا المقام هم النقاد الناظرون فى الأدب لم يخترعوا هذا الكلام ، ولم ينشئوا هذه الأفكار والمعانى — التى ذهبوا إلى أن امرأ القيس أول من ابتكرها — من خيالهم ، ولكنهم من غير شك استخلصوها من شعر امرئ القيس نفسه ، ومن معلقته بالذات ، بعد أن سمعوها ، واستقرءوا الشعر الجاهلى الذى عاصر شعرا مرء القيس أو الذى سبقه ، حتى بان أهم أن تلك المعانى لم يسبق إليها فأصدر واحكمهم بأنه أول من ... وأول من ... الخ

فهذا الشعر الذى هو موضع الشك ، هو ذلك الشعر المشتمل على تلك المعانى التى عُدَّ امرؤ القيس بها سابقاً للشعراء ، وهى المعانى التى لا يتردد الكاتب فى قبولها ، وإن كان يحاول نفي الشعر الذى تضمنها واحتواها ، واستخلصت منه تلك المعانى .

وبعد فهذا جهد بذلناه فى التعقيب على هذا رأى ، كنا فى حاجة إلى بذله

في ناحية أخرى من نواحي هذه الدراسة ، لولا أن صاحب هذا الرأي أستاذ كبير ملأ صيته الآفاق ، وكتبه من الآثار التي يحرص عليها ، وأراؤه لها اعتبارها في نفوس القراء في بلاد العروبة وغيرها . والذين يحملون رسالته من تلاميذه عدد ليس بالقليل ، ثم إن صاحبه كان صاحب أول صوت جهر بهذه الآراء الجريئة التي لفتت الأنظار بفرابتها في عالم الدراسات العربية وفي بيئات التفكير الأدبي . فكان لابد من تناول رأيه والفحص عنه لوثيق صلته بالموضوع الذي هو مادة هذه الدراسة وجوهرها .

ونختزى الآن بهذا القدر من الدراسة في توثيق المعلقة وشرح أغراضها ، مدخرين دراستها الفنية ودلالاتها الاجتماعية والتاريخية إلى موضع آخر ، حيث نقرنها بأخواتها ، ونستخلص منها صورة واضحة للشعر الجاهلي .

نص المعلقة*

- | | |
|---|--|
| (١) قَفَانِيكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ | بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ |
| (٢) فَتَوَضَّحَ فَلِمِ الْقِرَاءِ لَمْ يَغْفُ رُسْمُهَا | لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالِ |
| (٣) تَرَى بَعَرَ الْأَرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا | وَقِيَعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبٌّ فَلُفْلُ |
| (٤) كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحْمَلُوا | لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفٌ حَنْظَلِ |
| (٥) وَقُوفًا بِهَا صَخْبِي عَلَى مَطِيَّهِمْ | يَقُولُونَ لَا تَهْلِكِ أَسَى وَتَجَمَّلِ |
| (٦) وَإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ | فَهَلْ عِنْدَرُسْمِ دَارِسٍ مِنْ مَعْمُولِ |
| (٧) كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا | وَجَارَتِهَا أُمُّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ |

(*) جعلنا لكل بيت من أبيات هذه المعلقة وغيرها رقاً للرجوع إليه فيما يأتي من الفرح والدراسة .

- (٨) إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا
 (٩) ففَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مَنَى صَبَابَةً
 (١٠) الْأَرْبُ يَوْمَ لِكَ مِنْهُنَّ صَالِحُ
 (١١) وَيَوْمَ عَقَرْتُ لَلْعَذَارَى مَطَاطِي
 (١٢) فَظَلَّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا
 (١٣) تُدَارُ عَلَيْنَا بِالسَّيْفِ صِحَافُهَا
 (١٤) وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِلْدَرَ خَذَرَ عُذَيْرَةٍ
 (١٥) تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْفَيْيُطُ بِنَا مَعَا
 (١٦) فَقُلْتُ لَهَا سِيرِي وَأَرْضِي زِمَامَهُ
 (١٧) دَعَى الْبَكْرَ لَا تَرَى لَهْمَنٍ رِدَافِنَا
 (١٨) بِشَفَرٍ كَقَتْلِ الْأَقْحُوَانِ مُنَوَّرِ
 (١٩) فَتَنَّاكَ حُبْلَى
 (٢٠)
 (٢١) وَيَوْمَا عَلَى ظَهْرِ الْكَثِيبِ تَعَذَّرْتُ
 (٢٢) أَطَاطَمَ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّ
 (٢٣) أَغْرَكَ مَنَى أَنْ حُبَّكَ قَاتِلِي
 (٢٤) وَأَنَّكَ قَسَمْتَ الْغَوَادَ فَنِصْفُهُ
 (٢٥) وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكَ مَنَى خَلِيقَةُ
 (٢٦) وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ إِلَّا لَتَضْرِبِي
- نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بَرِيًّا الْقَرْنُفُلِ
 عَلَى التَّخْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي مِجْمَلِي
 وَلَا سِيَّامَا يَوْمَ بِدَارَةِ جُلْجُلِ
 فَيَا عَجَبًا مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمَّلِ
 وَشَخْمِ كَهْدَابِ الدَّمْعِ الْمَقْتَلِ
 وَيُوتِي إِلَيْنَا بِالْمَبِيطِ الْمُثْمَلِ
 فَقَالَتْ لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي
 عَقَرْتُ بِعَيْرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَانْزِلِ
 وَلَا تُبْعِدْنِي مِنْ جَنَّاكَ الْمُعْلَلِ
 وَهَاتِي أَذِيقِينَا جَنَاحَ الْقَرْنُفُلِ
 نَقِي الثَّنَائِيَا أَشْنَبِ غَيْرَ أَثْمَلِ

 عَلَى وَآلَتِ حَلْفَةٍ لَمْ نَحْمَلِ
 وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرَمْتُ صَرْمِي فَأَجْمَلِ
 وَأَنَّكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ
 قَتِيلٌ وَنِصْفٌ بِالْحَدِيدِ مُكْبَلِ
 فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ
 بِسَهْمَيْكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقْتَلِ

- (٢٧) وَيَبِضُهُ خِذْرٍ لَا يُرَامُ خَبَاؤُهَا
(٢٨) تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا إِلَيْهَا وَمَعْشَرًا
(٢٩) إِذَا مَا الثَّرِيَّا فِي الْمَاءِ تَعَرَّضَتْ
(٣٠) لِحِثِّتٍ وَقَدْ نَضَتْ لِنَوْمٍ ثِيَابَهَا
(٣١) فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ مَالِكٌ حِيلَةٌ
(٣٢) خَرَجْتُ بِهَا أَمْشِي تَجْرُ وَرَاءَنَا
(٣٣) فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاعَةً الْحَيَّ وَانْتَحَى
(٣٤) هَمَزْتُ بِفَوْدِي رَأْسَهَا فَمَالَتْ
(٣٥) مُهْفَهَةٌ بِيضَاهُ غَيْرُ مُقَاضِيَةٍ
(٣٦) كِبْكُرُ الْمُقَانَاةِ الْبِياضِ بَصْفَرَةٌ
(٣٧) تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي
(٣٨) وَجِيدٍ كَجِيدِ الرَّثْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ
(٣٩) وَفَرَعٍ يَزِينُ الدَّنَّ أَسْوَدًا فَحِمٍ
(٤٠) غَدَارُهُ مُسْتَشْزَرَاتٌ إِلَى الْعَلَا
(٤١) وَكَشَحٍ لَطِيفٍ كَالْجَدِيدِ لِمُخَصَّرٍ
(٤٢) وَتُضْحِي فَتَيْتُ الْمِسْكَ فَوْقَ فَرَاثِهَا
(٤٣) وَتَمْطُو بِرُخْصٍ غَيْرِ شَيْنٍ كَأَنَّهُ
(٤٤) تُضِيهِ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَُا
- تَمْتَعَتْ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ
عَلَى حِرَاصًا لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِي
تَعَرَّضَ أَثْنَاءِ الْوِشَاحِ الْمَفْصَلِ
لَدَى السَّيْرِ إِلَّا لِبَسَةِ الْمَنْفَعِلِ
وَمَا إِنْ أَرَى عَنْكَ الْغَوَايَةَ تَنْجَلِي
عَلَى أَثَرَيْنَا ذَيْلٍ مِرْطٍ مُرَحَّلِ
بِنَا بَعْدَ خَبْتِ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ
عَلَى هَضِيمِ الْكَشْحِ رَبِّ الْمَخْلَخَلِ
تَرَانِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ
غَذَاهَا تَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرُ الْحَلَلِ
بِنَظَرَةٍ مِنْ وَخْشٍ وَجَرَةٍ مُطْفِلِ
إِذَا هِيَ نَضَّتْهُ وَلَا بِمُطْلٍ
أُمَيْدٍ كَفَنُوا النَّخْلَةَ الْمُتَمَنِّكِلِ
تَضِلُّ الْعِقَاصُ فِي مَثْنَى وَمُرْسَلِ
وَسَاقٍ كَأَنْبُوبِ السَّقْيِ الْمَذَلِّ
نُثُومُ الضُّحَا لَمْ تَذْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ
أَسَارِيعُ ظَنِّي أَوْ مَسَاوِيكِ إِسْجَلِ
مَنْارَةٍ تُنْمِى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ

- (٤٥) إِلَىٰ مِثْلِهَا بِرُءُوسِهِمْ صَبَابَةٌ
(٤٦) نَسَلَتْ عَمَائَاتُ الرَّجَالِ عَنِ الصَّبَا
(٤٧) الْإِرْبُ خَصِمٌ فَيْكِ الْوَيْ رَدَدَتْهُ
(٤٨) وَلَيْلٌ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَىٰ سُدُولَهُ
(٤٩) فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ
(٥٠) أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ الْآنَ انْجَلِ
(٥١) فَيَالَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ
(٥٢) كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِقَتْ فِي مَصَامِهَا
(٥٣) وَقَرِيبَةً أَقْوَامٍ جَعَلْتُ عِصَاهَا
(٥٤) وَوَادٍ كَجَوْفِ الْمَبْرِ قَمَرٌ قَطَعَتْهُ
(٥٥) فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا عَوَى إِنَّ شَانَنَا
(٥٦) كَلَانَا إِذَا مَا نَالَ شَيْئًا أَفَاتَهُ
(٥٧) وَقَدْ اغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
(٥٨) مَكْرٌ مَقْبِلٌ مُذِيرٌ مَعَا
(٥٩) كُمَيْتٌ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالٍ مَتْنِهِ
(٦٠) عَلَى الذُّبُلِ جَيَّاشٌ كَأَنَّ اهْتِزَامَهُ
(٦١) مَسَحَتْ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَتَى
(٦٢) يَزِلُّ الْغَلَامُ الْخِيفَ عَنْ صَهْوَاتِهِ
- إِذَا مَا اسْتَبَسَّكَ رَتْ بَيْنَ دِرْعٍ وَجَوْلٍ
وَلَيْسَ فَوَادِي عَنْ هَوَاكِ بِمُذَلِّ
نَصِيحٍ عَلَى تَعَذُّلِهِ خَيْرٌ مُؤْتَلٍ
عَلَى بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
وَأُرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكُلِّ كَلِّ
بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
بِكُلِّ مُغَارٍ الْقَتْلِ شَدَّتْ بِمِذْبَلِ
بِأَمْرِ اسِ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلِ
عَلَى كَاهِلٍ مَنَى ذُلُولٍ رَحَّلِ
بِهِ الذُّبُّ يَعْمَى كَالْخَلِيعِ الْمُعْمَلِ
قَلِيلُ الْغِنَى إِنْ كُنْتَ لَمَّا تَمُولِ
وَمَنْ يَحْتَرِثُ حَرْنِي وَحَرْنُكَ يَهْزَلِ
بِمُنْجِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ
كَجُلُودِ صَخَرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عَلِ
كَأَنَّ زَأَتِ الصَّفْوَاهِ بِالْمُتَنَزِّلِ
إِذَا جَاشَ فِيهِ سَحْمِيهِ غَلَى مِرْجَلِ
أُتْرُنَ الْغُبَارَ بِالسَّكْدِيدِ الْمُرْكَلِ
وَبُلُوبِي بِأَنْوَاعِ الْعَنِيفِ الْمُثَقَّلِ

- (٦٣) دَرِيرٌ كَخُذْرُوفِ الْوَالِيدِ أَمْرُهُ
(٦٤) لَهُ إِيظَلًا ظَنِيٍّ وَسَاقًا نَعَامَةً
(٦٥) ضَلِيعٌ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ
(٦٦) كَانَ عَلَى الْمُتَمَنِّينِ مِنْهُ إِذَا انْتَجَى
(٦٧) كَانَ دِمَاءُ الْمَادِيَاتِ بِخَزِيرِهِ
(٦٨) فَمَنْ لَنَا سِرْبٌ كَانَ نِجَاحُهُ
(٦٩) فَأَذْبَرْنَ كَالْجَزْعِ الْمُفْصَلِ بَيْنَهُ
(٧٠) فَالْحَقْنَا بِالْمَادِيَاتِ وَدُونَهُ
(٧١) فَعَادَى عِدَاءَ بَيْنِ تَوْرٍ وَنَعْمَةٍ
(٧٢) فَظَلَّ طُهْرَةَ الْأَخْمِ مِنْ بَيْنِ مَنْضَجٍ
(٧٣) وَرُحْنًا يَكَادُ الطَّرْفُ يُقْصِرُ دُونَهُ
(٧٤) فَبَاتَ عَلَيْهِ مَرْجُهُ وَجَلَامُهُ
(٧٥) أَصَاحَ تَرَى بَرْقًا أَرِيكَ وَمِيزُهُ
(٧٦) يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ
(٧٧) قَعَدْتُ لَهُ وَصُحْبَتِي بَيْنَ ضَارِجٍ
(٧٨) عَلَى قَطَنِ بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ
(٧٩) فَأَضْحَى بِسُحِّ الْمَاءِ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ
(٨٠) وَمَرَّ عَلَى الْقَمَانِ مِنْ نَفْيَانِهِ
- تَتَابَعُ كَفَيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلٍ
وَارْخَاهُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِبُ تَنْقُلُ
بِضَافٍ فَوَيْقِ الْأَرْضِ لَيْسَ بِأَغْزَلِ
مَدَاكَ عَرُوسٍ أَوْ صَلَابَةِ حَنْظَلِ
عُصَارَةُ حِنَاءٍ بِشَيْبِ مُرْجَلِ
عَذَارَى دَوَارٍ فِي مُلَاهِ مُذِيلِ
بِحَيْدِ مُعِمٍّ فِي الْعَشِيرَةِ مَحُولِ
جَوَاحِرُهَا فِي صَرْفٍ لَمْ تَزِيلِ
دِرَاكًا فَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءِ فَيْسَلِ
صَفِيفَ شَوَاهٍ أَوْ قَدِيرِ مُعْجَلِ
مَتَى مَا تَرَقَّى الْعَيْنُ فِيهِ تَسْقَلِ
وَبَاتَ بَعِيْنِي قَائِمًا غَيْرَ مُرْسَلِ
كَلْعَمِ الْيَدَيْنِ فِي حَيٍّ مُكَلَّلِ
أَمَالَ السَّلِيطِ بِالذُّبَالِ الْمُتَلِّ
وَبَيْنَ الْعُذَيْبِ بُعْدَ مَا مُتَأَمَّلِي
وَأَيْسَرُهُ عَلَى السَّارِ فَيَذُبُّ بِلِ
يَكْبُ عَلَى الْأَذْفَانِ دَوَّحَ الْكَنْهَبِلِ
فَانْزَلَ مِنْهُ الْعُصْمَ مِنْ كُلِّ مَنَزِلِ

- (٨١) وَتَيْمَمًا لَمْ يَتْرُكْ بِهَا جَذَعَ تَحْلَةً
(٨٢) كَانَ ثَمِيرًا فِي عَرَابِنٍ وَبِلَهٍ
(٨٣) كَانَ ذَرَارَسِ الْمُجْتَمِرِ غُدُوءَ
(٨٤) وَالْقَى بِصَحْرَاءِ الْفَيْطِ بِمَاعَهُ
(٨٥) كَانَ مَسْكَكِي الْجَوَاهِ غُدِيَّةَ
(٨٦) كَانَ السَّبَاعَ فِيهِ غَرَقَى عَشِيَّةَ
وَلَا أَطْمَأ إِلَّا مَشِيدًا بِجَنْدَلٍ
كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بَجَادٍ مُزْمَلٍ
مِنَ السَّيْلِ وَالْمُنَاهِ فَلَسَكَةُ مِزَلٍ
نُزُولِ الْيَمَانِي ذِي الْعِيَابِ الْمُحْمَلِ
صُبْحَنَ سُلَافًا مِنْ رَحِيقِ مُفْلَقَلٍ
بِأَرْجَانِهِ الْفُصُوصَى أَنْيَاشُ غُضُلٍ

طرفة

عده ابن سلام رأس الطبقة الرابعة من فحول الجاهليين ، وهم عنده أربعة
رهن فحول : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وظلمة بن عبدة ،
وعدي بن زيد . قال ابن سلام : موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخل بهم قلة
شعرهم بأيدي الرواة . وقال : أما طرفة فأشعر الناس واحدة ، وهي قوله :
لخولة أطلالٌ بيرة شهيد وقت بها أبكى وأبكى إلى الغد^(١)

وتليها أخرى مثلها ، وهي :

أصحوّت اليوم أم شائقك هرة ومن الحب جنون مستقر
ومن بعده قصائد حسان جواد^(٢) .

ووصفه ابن قتيبة بأنه أجودهم طويلاً ، وهو القائل * لخولة أطلال
بيرة شهيد * وله بعدها شعر حسن ، وليس عند الرواة من شعره وشعر
عبيد إلا القليل^(٣) .

(١) هكذا روى ابن سلام عجز البيت ، وفي الرواية المتداولة « تلوح كباتي الوشم في
ظاهر اليد » . (٢) طبقات فحول الشعراء ١١٦ . (٣) الشعر والشعراء ١/١٣٧ .

ونقل عن أبي عبيدة قوله : طرفة أجودهم واحدة ، ولا يلحق بالبحور ،
يعنى امرأ القيس ، وزهيراً ، والنايفة . ولكنه يوضع مع أصحابه : الحارث
ابن حلزة ، وعمر بن كلثوم ، وسويد بن أبي كاهل^(١) .

وسئل ليبد عن أشعر الشعراء ؛ فقال : الملك الضليل « يعنى امرأ القيس »
ثم الغلام القتيل « يعنى طرفة » ثم الشيخ أبو عقيل « يعنى نفسه »

وعند صاحب الخزانة أن طرفة أشعر الشعراء بعد امرئ القيس ، ومرتبته
ثانى مرتبة ، ولهذا ثنى بمعلقته^(٢) .

والذى يبدو من هذه الآراء وغيرها أنهم يعدون طرفة من متقدمى الفحول
بل هو أسبقهم إلى الإجابة فى الفن الشعرى ، والإبداع فيه ، لا يفضلون عليه
فى ذلك إلا شيخ الشعراء امرأ القيس ، ينظرون فى ذلك إلى الخصائص الفنية
التي يجدونها فى معلقة طرفة على نحو يدعو إلى الإعجاب بما يتوافر فيها من سمات
الشاعرية وملاحظها . حتى أولئك الذين جعلوه فى الطبقة الرابعة يشعرون أنها
ليست منزلته من حيث الإجابة والإبداع ، وإنما من حيث وفرة النتاج ،
وهو معنى قول ابن سلام عنه وعن فحول طبقة إن « موضعهم مع الأوائل ،
وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة » . والسكُّ عند ابن سلام وغيره أهم
المقاييس التي يقاس بها الشعراء ، ويفضل بعضهم بعضاً ؛ ولذلك قدموا هذا
العذر الذى يدل على تقديرهم لما وجدوا من شعره ، وهو قليل بالقياس إلى
ما وجدوا من شعر أولئك الذين قدموهم عليه .

* * *

ولا يعرف من أمر نشأة طرفة وحياته إلا القليل ، وليس مصدر ما عرف

(١) الشعر والشعراء ١/ ١٤٣ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٢/ ١٨٢ .

من أمر حياته وطبعه ومزاجه كلام الرواة والإخباريين ؛ بل هو شعره الذى ذكر فيه عن هذه الحياة شيئاً ليس بالقليل ، ثم نجد شيئاً عن هذه الحياة فى أخبار غيره من الشعراء الذين فصلوا القول فيهم ، وكانت تصلهم بطرفة صلات من النسب أو غيره ؛ وإن كان الرواة قد ذكروا شيئاً عن صلته بعمر بن هند ملك الحيرة وأخيه قابوس ، وقصة طويلة تتصل بنهايته ومصرعه .

وهو طرفة بن العبد بن سفيان بن مالك .. البكرى ، أحد فتيان بكر بن وائل ، وبكر من ربيعة ، كان قومه يعيشون فى البحرين على الخليج الفارسى . ويبدو من أخباره أنه نشأ فى بيئة شاعرة ، فخاله جرير بن عبد المسيح (المتلس) شاعر ، وعمه ربيعة بن سفيان (المرقش الأصغر) شاعر ، وأخته الخرنق شاعرة .

وقد ظهرت ملامح الشاعرية عنده مبكرة شأنه فى ذلك شأن الموهوبين الذين يثير شاعر بينهم ما يبرّ بهم من الأحداث والمشاهد ، فينطلقون فى التعبير عنها فى شعر ترى فيه آثار الطبع ، على الرغم مما فيه من آثار البديهة والارتجال . وقد رووا أن أول شعر قاله طرفة أنه خرج مع عمه فى سفر ، فنصب فخاً للصيد وأخطأه الأمل أكثر نهاره ، فلما أراد الرحيل جمع شبابه ، فهبطت قبرة لم يستطع صيدها ، فأنشد :

يَالْكَ مِنْ قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ خِلَالِكَ الْجَوِّ قَبِيضِي وَاصْفَرِي
وَنَقَرِي مَا شَتَّ أَنْ تَدْرِي قَدْ رَحَلَ الصَّيَادُ عَنْكَ قَابَشِرِي
وَرَفَعَ الْفَخُّ فَاذَا تَحْذَرِي لَا بَدْءَ يَوْمًا أَنْ تَصَادِي فَاصْبِرِي

وكان أبو طرفة مات ، وطرفة صغير ، فأبى أعمامه أن يقسموا ماله ، فبذت حية هذا الصبي فى أبيات نظمها فى الإنكار على أعمامه ما كان منهم من ظلم أمه وردة ، واحتجان تركه صفارها ، وينذر بمنية هذا الظلم الذى

يفترق بين العشيرة ، ويقطع أواصر الرحم ، في عتاب هو أشبه شيء بالمهجاء ،
وفي تنبيه هو أشبه شيء بالتهديد :

ما تنظرون بحق وردة فيكم صفر البنون ورهط وردة غيب
قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظل له الدماه تصدب
والظلم فرق بين حي وائل بكر تساقبها المنايا تغلب
والصدق يالفه الكريم المرتجى والكذب يالفه الدنيء الأخيب
أدوا الحقوق تفر لكم أعراضكم إن الكريم إذا محرب يغضب

وهذه معالم شاعرية ناصجة في مثل هذه السن المبكرة ، مما يجعل هذا
الشاعر أجدر الشعراء أن يلقب النابغة ، لا أولئك الذين عرف الناس شعرهم
بعد أن جاوزوا عصر الشباب ، وبعد أن طال تمرسهم بهذا الفن ، وبعد أن
نضجت ملكاتهم ، واتسعت دائرة تجاربهم في الحياة والفن .

ولم يقف مظهر الشاعرية الناصجة عند هذا الفتى في أمثال تلك الأبيات
القليلة التي تثيرها الأحداث والتجارب القليلة في حياته ؛ بل إنها تتخذ مظهرأ
آخر في قدرة هذا الفتى على الشعر ، وقدرته على تمييز جيده من رديئه ، والاهتداء
إلى مواضع الإصابة ، ومواطن الضعف والتهافت ، والشاعر أقدر الناس
على الحكم على هذا الفن ، وهو الذي يعرف أسباب الإجابة فيه ، ومصادق
ذلك ماروى المرباني عن أبي عبيدة قال : مرّ المسيّب بن علس بمجلس بني
قيس ابن ثعلبة ، فاستنشدوه فأنشدهم :

ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم تحييك عن شحط وإن لم تكلم

فلما بلغ قوله :

وقد أتتاسى المم عند أدكاره بناج عليه الصيميرية مكدم

كَيْتِ كَنَازِ لِحِمْهَا خَيْرِيَّةٌ مواشِكُ تَرْمِي الْحَصَى بِمَلَمٍّ
كَأَنَّ عَلَى أَنْسَاهَا عِذْقَ خَصْبَةٍ^(١) تَدَلَّى مِنَ الْكَافُورِ غَيْرَ مُكَمٍّ

فقال طرفه ، وهو صبي يلعب مع الصبيان ، : « استنوق الجمل^(٢) »
فقال المسيَّب : يا غلام ، اذهب إلى أمك بؤيدة ، أى داهية . فقال طرفه :
لو عاينت فعل أمك خالياً هناك ! فقال المسيَّب : من أنت ؟ قال : طرفه
ابن العبد . قال : ما أشبه الليلة بالبارحة . يريد ما أشبه بعضكم فى السر
ببعض^(٣) .

قال ابن قتيبة : وكان طرفه فى حسب من قومه ، جريئاً على هجائهم
وهجاء غيرهم . وكانت أخته عند عبد عمرو بن بشر بن مرثد ، وكان عبد
عمرو سيد أهل زمانه ، فشكت أخت طرفه شيئاً من أمر زوجها إليه^(٤)
فأندش طرفه يهجوهُ :

لَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ أَنَّا بَنَجُوةٌ عُلْتُ شَرْفًا مَن أَنْ تُضَامَ وَتُشْتَمَا
لَنَا هَضْبَةٌ لَا يَدْخُلُ الذَّلُّ وَسَطَهَا وَيَأْوِي إِلَيْهَا الْمُسْتَجِيرُ فَيُعْصَمَا
تَرَى جَارَنَا فِينَا بَخِيرٍ وَعِرْسَهُ وَجَارَتَنَا بُسْلًا عَلَى النَّاسِ تَحْرِمَا
وَأَرَعْنِ مِثْلَ اللَّيْلِ تَجْرٍ يَقُودُهُ أَرَيْبٌ إِذَا مَا سَاوَرَ الْأَمْرَ أَرْمَا
شَدِيدُ الْقَوَى ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ مَقُولٌ أَبَى إِذَا مَا هَمَّ بِالْفَتَكِ أَلْحَا

(١) الصيعرية سمة من سمات النوق فى أعناقها ، والمكدم الغليظ أو الصلب ، والكبت
الذى يخالط حمرته فنوه ، وفاقة مواشكة سريعة ، يقال أم البعير الحجارة بخفة يلثمها كسرهاء
والحصبة النخلة .

(٢) الجمل بالنصب مفعول ، أى جملة كالناقة ، وبؤيدة تفسير الأغاني ، أى وصفت الجمل
بوصف الناقة وخطت ، وضبط فى اللسان بالرفع ، وفسره عن ابن سيده : « استنوق الجمل
صار كالناقة فى ذلها » .

(٣) الموشح فى مأخذ الطعام على الشعراء ٨٦ (المطبعة السلفية — القاهرة ١٣٤٣ هـ) .

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٣٧ .

وردنا وقد هابت معدن شذاته وقد رفع الرايات فيها وسوما
 بطعن يزيل الهام عن سكفاته وطمعن إذا ما مارق الجوف أجمما
 فأى خميس لا أفانا نهابة وأسيفنا يقطرون من كبشه دما
 أبى أنزل الجبار عامل رُحمة وعمى الذى أردى الرئيس المعمما
 فيا عجباً من عبد عمرو وبغية لقد رام ظلى عبد عمرو فأنعمما
 ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحا إذا قام أهضمما
 يظل نساء الحى يعكفن حوله يقلن عسيب من سرارة ملهمما
 له شربتان بالنهار وأربع من الليل حتى آض سُخْداً مورما
 ويشرب حتى يعمر الحض قلبه^(١) وإن أعطه أنرك لقلبي مجمما

وقد نشأ طرفة مسرفاً على نفسه فى شرب الخمر واثهاب اللذات ، شأن
 الذين لا يجدون من يردعهم عن شهواتهم ويكبح جماح نزواتهم ، حتى أدّى
 به الأمر ، إلى إتلاف ما كسب وماورث ، ففقد الطارف والتلبد من ماله ، حتى
 تحامته عشيرته ، ونفر منه أولياؤه ، وفى ذلك يقول :

وما زال تشرابى الخمر ولذتى وبيعى وإفناقى طربى ومُتلى
 إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردتُ إفرادَ البعير المعبّد^(٢)

ومن الطبيعى أن تتحامى العشيرة فتى مثل هذا الفتى الذى بدد أمواله وسلط
 لسانه ينال به من أهله وأولياؤه ، ولا يكفه عن السكبر والصغير ينال به منهم ؛
 ويصرح بما ينكر من فعلهم ، وينقده حياتهم وفنهم . فكان أن هام على وجهه

(١) الخمر الخبيث العظيم ، الدسيسة العطية الجزيلة ، والشذاة القوة ، والكشع الحصر ،
 والأهضم الضامر ، والعسيب : جريدة من النخل مستقيمة ، وسرارة الشيء وسطه ، وملهم
 موضع بالجمامة كثير النخل ، والسخذ ماء الرحم الذى يخرج مع الولد .
 (٢) المعبد الأجرب ، وقيل هو المهنوء الذى سقط وبره فأفرد عن الإبل .

في أحياء العرب وفلوات الصحراء ، وبعد أن كان يعيش في حسب من قومه ، أصبح يخالط الصعاليك وقطاع الطريق ، حتى عرفهم وعرفوه ، وأصبحوا يعدونه واحداً منهم ، وهو لا يجد غضاضة في أن يذكر ذلك في قوله :

رأيت بنى غبراء^(١) لا ينكروننى ولا أهلُ هذاكَ الطَّرافِ المددُ

حتى ترميه الصحراء إلى بلاد اليمن ، ثم يتجاوزها إلى النجاشي في الحبشة . وما كان لهذه النفس الحائرة والروح الثائرة أن تستقر على حال ، أو ترضى بوطن ، أو تطمئن إلى صديق . فيعود إلى أهله خالي الوفاض ؛ ولعلّ سبل العيش قد ضاقت مذاهبها أمامه ، فلم يجد في مضارب قومه ما يقوم بمحاجاته أو يشبع نزواته ، ولم يكن أمامه من أبواب العمل إلا أن يرعى لغيره إبله أو غنمه . ومثل هذا الذي شب على الإسراف وارتياذ اللذات كثير عليه أن يعود إلى وطنه أجيراً لغيره ، فطلب أبواب الملوك لعله يجد عندها ما تطمح إليه نفسه وما يرضى هواه ، ولعل خاله المتلمس هو الذي أغراه بذلك وشجعه عليه ، وصحبه إلى بلاط الحيرة ، وملكها يومئذ عمرو بن المنذر .

وقد حكى المفضل بن سلمة في كتابه « الفاخر » أن عمرو بن المنذر كان يرشح أخاه قابوس بن المنذر ليملك بعده ، فقدم عليه المتلمس وطرفة ، فجعلهما في صحابة قابوس وأمرهما بلزومه . وكان قابوس شاباً يعجبه اللهو ، وكان يركب يوماً في الصيد ، فيركض ، يتصيد ، وهما معه يركضان ، حتى يرجعا عشيّة وقد تعباً ، فيكون قابوس من الغد في الشراب ، فيقفان بباب سرادقه إلى العشي .

وكان قابوس يوماً على الشراب ، فوقفا ببابه النهار كله ، ولم يصلا إليه ، فضجر طرفة ، وأنشد قصيدة في هجائه ، يقول فيها :

(١) بنو غبراء هم الفقراء أو الصعاليك ، والطراف قبة من آدم يتخذها المياسير والأغنياء ، والمدد الذي مد بالأطباء .

فليت لنا مكانَ أُمّكِ عمرو رَغَوْنَا حَوْلَ قَبْتِنَا تَخْوَرُ
 من الزَّيْمَرَاتِ أُسْبِلَ قَادِمَاهَا وَضَرَّتْهَا مَرَكْنَةُ نَدُورُ
 بِشَارِكِنَا لَنَا رَخِلَانِ فِيهَا وَتَعْلُوهَا الْكَبَاشُ فَا تَنُورُ
 لَعَمْرُكَ إِنَّ قَابُوسَ بْنَ هَنْدٍ لِيُخْلَطُ مُلْكُهُ نُوُكٌ كَثِيرُ
 قَسَمَتِ الدَّهْرَ فِي زَمَنِ رَخِي كَذَلِكَ الْحَكْمُ يَصِيدُ أَوْ يَجُورُ
 لَنَا يَوْمٌ وَلِلْكَرْوَانِ يَوْمٌ تَطِيرُ الْبَائِسَاتُ وَلَا يَطِيرُ
 فَأَمَّا يَوْمُهُنَّ فَيَوْمٌ سَوَاءٌ تَطَارِدُهُنَّ بِالْحَدَبِ^(١) الصَّقُورُ
 وَأَمَّا يَوْمُنَا فَتَنْظَلُ رَكَبَا وَقُوفًا مَا نَحُلُّ وَمَا نَسِيرُ

وروى يعقوب بن السكيت في شرح ديوان طرفة قال : إن طرفة لما هجا عمرو بن هند بالأبيات المتقدمة لم يسمعها عمرو بن هند ، حتى خرج يوما إلى الصيد ، فأمن في الطلب فانقطع في نفر من أصحابه حتى أصاب طريده ، فنزل وقال لأصحابه : اجمعوا حطباً ، وفيهم ابن عمّ طرفة ، عبد عمرو بن بشر ، فقال لهم : أوقدوا ، فأوقدوا ناراً وشوى ، فبينما عمرو يأكل من شوائه ، وعبد عمرو يقدم إليه ، إذ نظر إلى خصر قيصة منخرقاً فأبصر كشحه ، وكان من أحسن أهل زمانه جماً ، وقد كان بينه وبين طرفة أمر ، وقع بينهما منه شر ، فهجاه طرفة بأبيات . فقال له عمرو بن هند ، وكان سمع تلك الأبيات : يا عبد عمرو لقد أبصر طرفة حسن كشحك فقال :

(١) الرغوث : النعجة المرضع ، وأصل الحوار للبقر لجملة طرفة للنعجة ، الزميرات القليلات الصوف ، وخصها لأنها أغزر ألباناً ، والقادمان الخلفان ، وأصل القادمين للنافقة لأن لها أربعة أخلاف قادمين وآخرين ، فاستعار القادمين للشاة ، أسبل طال وكل ، الضرة الضرع ، المركنة التي لها أركان أي جوانب وأصل ، الرخل الأنثى من أولاد الضأن ، تنور تنفر ، النوك الحق ، الرخي السهل اللين ، والكروان بكسر فسكون : جم كروان بفتحين ، الحدب بفتحين ما ارتفع من الأرض وغلط .

ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كسحا إذا قام أهضما

فمضب عبد عمرو بما قاله وأنف ، فقال : لقد قال الملك أقبح من هذا ! قال عمرو : وما الذى قال ؟ فندم عبد عمرو وأبى أن يسمعه ، فقال عمرو بن هند : أسمعني وطرفة آمن . فأسمعه القصيدة التى هجاء بها . فسكت عمرو بن هند على ما قرأ فى نفسه ، وكره أن يعجل عليه لمكان قومه ، فأضرب عنه ، وبلغ ذلك طرفة ، وطلب غرته والاستمکان منه ، حتى أمن طرفة ولم يخفه على نفسه ، فظن أنه قد رضى عنه .

وقد كان المتلمس ، وهو جرير بن عبد المسيح ، هجاء عمرو بن هند ، وكان قد غضب عليه ، فقدم المتلمس وطرفة على عمرو بن هند ، يتعرضان لفضله ، فكتب لهما إلى عامله على البحرين وهجر ، وكان عامله فيهما فيا يزعمون ريبة ابن الحارث العبدى ، وهو الذى كتب إليه فى شأن طرفة والمتلمس ، وقال لهما : انطلقا إليه ، فاقبضا جوائزكما ، فخرجا .

فلما هبطا النجف قال المتلمس لطرفة : إنك غلام غرّ حديث السن ، والملك من قد عرفت حقه وغدره ، وكلانا قد هجاء ؛ فلست آمنا أن يكون قد أمر فينا بشر ، فهم ننظر فى كتابنا ، فإن يكن أمر لنا بخير مضينا فيه ، وإن يكن أمر فينا بغير ذلك لم نهلك أنفسنا . فأبى طرفة أن يفك خاتم الملك ، وحرص المتلمس على طرفة فأبى ، وعدل المتلمس إلى غلام من غلمان الحيرة عبادى ، فأعطاه الصحيفة فقرأها ، فلم يصل إلى ما أمر به فى المتلمس ، حتى جاء غلام بعده فأشرف فى الصحيفة لا يدري من هو ، فقرأها ، فقال ثكلت المتلمس أمه ، فانتزع المتلمس الصحيفة من يد الغلام ، واكتفى بذلك من قوله ، وأتبع طرفة فلم يدركه ، وأتى الصحيفة فى نهر الحيرة ، ثم خرج هاربا . وقد كان المتلمس فيما يقال قال لطرفة حين قرأ كتابه : تعلم أن فى صحيفتك لمثل الذى فى صحيفتى ،

فقال طرفة : إن كان اجترأ عليك ، فما كان ليجترئ على ولا ليغترنى ولا ليقدم على . فلما غلبه سار المتلصص إلى الشام ، وسار طرفة حتى قدم على عامل البحرين وهو بهجر ، فدفع إليه كتاب عمرو بن هند فقرأه ، فقال : هل تعلم ما أمرت به فيك ؟ قال نعم ! أمرت أن تميزنى وتحسن إلى ! فقال لطرقة : إن بينى وبينك لخشونة أنا لها راع ، فاهرب من ليلتك هذه فإنى قد أمرت بقتلك ، فاخرج قبل أن تصبح ويعلم بك الناس ، فقال له طرفة : اشتدت عليك جائزتى ، وأحببت أن أهرب ، وأجعل لعمر بن هند على سيلا ، كأنى أذنبت ذنباً ، والله لا أفعل ذلك أبداً . فلما أصبح أمر بحبس ، وجاءت بكر بن وائل فقالت قدم طرفة ، فدعا به صاحب البحرين ، فقرأ عليهم كتاب الملك ، ثم أمر بطرفة فحبس ، وتسكروا عن قتله ، وكتب إلى عمرو بن هند أن ابعث إلى عمك ، فإنى غير قاتل الرجل ، فبعث إليه رجلاً من بنى تغلب ، يقال له عبد بن هند بن جرد ، واستعمله على البحرين ، وكان رجلاً شجاعاً وأمره بقتل طرفة وقتل ربيعة بن الحارث العبدى ، فقدمها عبد بن هند ، فقرأ عهده على أهل البحرين ، ولبث أياماً ، واجتمعت بكر بن وائل فهمت به ، وكان طرفة يحضهم ، وانتدب له رجل من عبد القيس ، ثم رجل من الحوائر ، يقال له أبو ريشة ، فقتله ، فقبضه اليوم معروف بهجر^(١) .

قال ابن قتيبة : وكان طرفة ينادم عمرو بن هند ، فأشرفت ذات يوم أخته ، فرأى طرفة ظلها فى الجمام الذى فى يده فقال :

ألا يا أبى الظبي ألى لذي يرمى^(٢) شنفاه
ولولا الملك القضاء دُ قد ألثني فاه

فخذ ذلك عليه ، وكان قال أيضاً :

وليت لنا مكان الملك عمرو رغوفاً حول قبنا تدور

(١) خزائن الأدب للبغدادى ١٨٥/٢ .

(٢) الشنف الذى يلبس فى أعلى الأذن ، والذى فى أسفلها القرط ، وقيل مما سواه .

لعمرُك إنَّ قابوسَ بنَ هَندٍ لِيخلطُ ملكَهُ نُوكُ كثيرُ
وقابوس هو أخو عمرو بن هند ، وكان فيه لين ، ويسمى قينه العُس ،
فكتب له عمرو بن هند إلى الربيع بن حوْثرة عامله على البحرين كتاباً أوهمه
أنه أمر له فيه بجائزة ، وكتب للمتلمس بمثل ذلك .. وأما طرفة فضى بالكتاب ،
فأخذَه الربيع فسقاه الخمر حتى أثلمه ، ثم فصداً كلَّه ، فقبره بالبحرين ، وكان
لطرفه أخ يقال له معبد بن العبد ، فطلب بديته ، فأخذها من الحوْثرة^(١) .

وكان طرفة أحدث الشعراء سنّاً وأقلهم عمراً ، قتل وهو ابن عشرين سنة ،
فيقال له « ابن العشرين » ورؤي أنه عاش ستاً وعشرين سنة ، واستدلوا على
ذلك بقول أخته في رثائه :

عدَدُ نالِه سِتّاً وعشرين حَبَّةً فَمَا تَوَفَّاهَا اسْتَوَى سَيِّداً ضَخْماً
جُفِئْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَّاهُ عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيداً وَلَا قَحْماً

ويقال إن ذلك كان سنة ٥٥٢ بعد الميلاد ، وقيل ٥٦٤^(٢) وذكر جرّجى
زيدان أن وفاة طرفة كانت سنة ٥٠٠ بعد الميلاد^(٣) ، أى أنه في رأيه كان أقدم
من امرئ القيس الذى ذكر أن وفاته كانت سنة ٥٦٠ بعد الميلاد .

قلت : والذى أرجحه من هذه التواريخ الثلاثة هو أقربها ، وهو سنة ٥٦٤ بعد
الميلاد ، وذلك لارتباط قصة مصرعه بملك عمرو بن هند الذى تبوأ ملك الحيرة
سنة ٥٥٤ م ، فيمتنع أن تكون وفاة طرفة سنة ٥٠٠ كما ذكر جرّجى زيدان ،
ويستبعد أن تكون سنة ٥٥٢ كما ذكر الرافعى فى إحدى روايتيه ، ولا يقال إنه
من المحتمل أن يكون ذلك قبل أن يلى عمرو بن هند الملك ، فإن شعر طرفة فى
هجائه وهجاء أخيه قابوس يصرح فيه بأن عمراً كان ملكاً فى قوله « فليت
لنا مكان الملك عمرو » .

(١) الشعر والشعراء ١/ ١٤٢ .

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ٣/ ٢٣٨ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجرّجى زيدان ١/ ١٠٧ .

معلقة طرفة :

ذكر بعض الرواة أن السبب الذي حمل طرفة على قولها هو أنه كان لطرفة وأخيه معبد إبل يرميانها يوماً ويوماً ، فأغبتها طرفة في المرمى ، فلامه أخوه على فعله ، وقال : أرايت إذا ذهب إبلنا أ كنت تردّها بشعرك ؟ قال : فإني لا أخرج أبداً حتى تعلم أن شعري سيردّها إن أخذت ! وأخذها ناس من مضر .

وقيل بل إن الإبل التي ضلّت هي إبل معبد ، فسأل طرفة ابن عمه مالكاً أن يعينه في طلبها ، فلامه وقال : فرطت فيها ثم أقبلت تتعب في طلبها ، فقال قصيدته .
وإذا نحن اجتهدنا في طلب ذلك السبب في أنحاء القصيدة ، والفحص عنه بين أبياتها ؛ فلن نجد على صورة واضحة بارزة بين أبياتها الكثيرة ، إلا في أبيات قليلة منها ، وهي قوله :

فألى أَرَانِي وابنَ عَمِّي مالِكًا متى أذنُ منه يُنَاغِي وَيَبْعُدُ
يلومُ وما أدرى علامَ يلومُنِي كالامني في الحَيِّ قُرْطُبْنُ أَعْبَدُ
وَأَيَّاسِنِي من كلِّ خيرٍ طلبتُهُ كأنّا وضعناه إلى رَمْسٍ مُلْحَدِ
على غير ذنبٍ قلته غير أني نشدتُ فلم أغفل حَوَلَةَ مَعْبَدِ

نم أبيات يختلط فيها العتب بالفخر ، والهجاء بالتهديد ؛ ولا يختص بالإبل التي ضيعها ، وطلب المون على ردّها . وفي هذا ما يحمل على القول بأن هذه القصيدة الطويلة لم تصنع في وقت واحد ، وأن الشاعر قد استكمل لها الخصائص الفنية في رويّة وتؤدة ، حتى بلغ بها ذلك المبلغ الذي عدت به من غرر الشعر الجاهلي ، وعدّ به طرفة من أئمة الشعراء ، وسلكه به النقاد في سلك الفحول المتقدمين من شعراء الجاهلية .

ومن التعسف في الظن الذهاب إلى أن تلك الأبيات الكثيرة التي وصف فيها طرفة الناقة في أوائل المعلقة وثيقة الصلة بذلك السبب ؛ إذ ليس فيها

ماشير إلى تضييع الإبل ، ولوم الشاعر على التفریط في صيانتها والتقصير في رعايتها وإهمال طلبها ، وإنما هو وصف فني خالص لناقته ، ذلك الوصف الذي عدّ به طرفة إماما ، كما عدّ امرؤ القيس في وصف فرسه إماماً . ولم يقل أحد إن السبب في معلقة امرؤ القيس إرادة التعبير عن صفات ذلك الفرس ، وكذلك لا يقال إن السبب في معلقة طرفة هو وصف الناقة لما قيل من تضييع الإبل ، والتقصير في طلبها .

وقد بدأ طرفة معلقته بذكر الأطلال ، أطلال حبيبته خولة ، ببرقة تهمد ، ووقوف صحبه مطيهم ، ومواساتهم له على نحو ما صنع امرؤ القيس في بيته الذي لم يغير طرفة فيه إلا لفظ الناقية . ولم يستغرق ذكر حبيبته وأطلالها أكثر من بيتين ، ثم انتقل إلى وصف مركب خولة فشبهه بالسفينة التي كان يراها كثيرا في موطنه بالبحرين على الخليج الفارسي ، وقد استغرق هذا الوصف ثلاثة أبيات ؛ ولم تشغل المرأة وما يتعلق بها مكانا ظاهرا في القصيدة على النحو المفصل الذي وجدناه عند امرؤ القيس ، ولعل ذلك يرجع إلى أن طرفة لم يتعلق فؤاده بهواها ، إلى درجة يطنى معها ذكرها على أغراض القصيدة ، ولانكاد نلمس في هذه الأبيات حرارة العاطفة التي تدل على فرط صباقة بخولة وهيامه بها ، ولعل طرفة لم يكن من رجال العشق والغرام ، وإن كان من طلاب المتعة واللهو ، كما يبدو من بعض الأجزاء الأخرى في ثنايا القصيدة ، وهذا ما يدعونا إلى القول بأن ذكر المرأة في مطلع معلقة طرفة كان تقليدا وضعه امرؤ القيس أو من سبقه من الشعراء ، وأن هذا التقليد أعجب الرأي الأدبي في ذلك العصر البعيد ، ولذلك فسح الشعراء في صدور قصائدهم مكانا للمرأة ، وكأنهم يستلهمون من وحيها ، ويستعينون بذكرها على بلوغ ما يرجون من الغرض الذي يقصدون إليه . وقد كان ذكر ناقة خولة تمهيدا لما يريد أن يذكر من امرئنا ، التي وصفها ، وأطنب في وصفها على نحو لم يسبق إليه ، ولم يلحق به بعده أحد الشعراء .

وقد استغرق وصف الناقة ثمانية وعشرين بيتاً من المعالجة ، تناول فيه كل عضو من أعضائها ، واخترع له تشبيهاً من التشبيهات المادية التي كان يجدها في بيئته ، أو رآها في المواطن التي زارها في رحلاته التي كانت لاتنتقطع . فشبّه عرض عظامها بألواح الإران ، وهو تابوت كان العرب يحملون فيه ساداتهم وكبراءهم ، وشبه طريقها بالسكساء المخطط ، وشبهها بالجل في وثاقة الخلق واكتناز اللحم ، وبالنعامة في شدة العدو ، وشبه فخذها بمصراعى قصر عال ، وفقارها المتداخلة بالقسمى ، وعلوها بقنطرة الرومى ، وعنقها إذا رفعت به سكان سفينة تجرى في نهر دجلة ، وجمجمتها بالعلاة في الصلابة فكأنما انضم بعضها إلى حد عظم يشبه المبرد في الحدة والصلابة ، وخدها بقرطاس الشامى ، ومشفرها بسبت اليماني ، وعينها بمرآتين ، إلى غير ذلك من الأوصاف الدقيقة التي تناولت كل عضو من أعضائها ، والتشبيهات المتتابعة بما يعرفه الشاعر في رحلاته أو بما يقع تحت حسّه في بيئته . ثم ذكره خلأته ومفاخره في البأس والندى وعراقه الأصل ، ووصف نداهم ومجالس لهوه واعترف بعكوفه على اللذات ، وتضييع ماله من طريف وتالد إلى أن تحامته العشيرة وأفرد أفراد البعير المعبد .

ثم ذكر أمانيه في الحياة ، التي لا يحفل إلا بها ، ولا يحرص على الحياة إلا من أجلها . وقرن ذلك بأن الموت لا يبقى ولا يذر ، وأنه يسوئ بين الأجواد والبخلاء ، ويأتى على ما خلف الحريصون من مال ومتاع ؛ وينتهب الأعمار كما ينتهب الأموال .

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن مالك ابن عمه الذى كان يبعد عنه بقدر ما يقرب طرفه منه ، حتى يئس من قرابته ، مع أنه لم يقترب ذنباً سوى طلب العون على إعادة إبل أخيه معبد التي ضلت ، ومع أن طرفه وهب حياته وفوته لقومه إذا أغار عليهم مغير ، أو نال منهم هجاء . ثم يأسف لأن تكون تلك خلأتي أهله وعشيرته الذين وصف ظلمهم بأنه أشد وقعا على نفسه من وقع الحسام المهند ،

هو أشار إلى سيدين من سادات العرب مذكورين بوفور المال ونجاة الأبناء وشرف النسب ، وهما قيس بن خالد ، وعمرو بن مرثد ، وكان عمرو كثير الولد ، فلما بلغه قول طرفة وجه إليه وقال له : أما الولد فالله يرزقك ، وأما المال فسنجعلك فيه أسوتنا ، وأمر سبعة من ولده فدفع إليه كل واحد منهم عشرة من الإبل ، وأمر ثلاثة من بني بني فدفع إليه كل واحد عشرة .

ثم عاد إلى فخره وذكر قوته وفتوته ، وذكر الناقة في مقام عقرها والجود بلحمها ، وذكر أنه جدير بأن يُبكي إذا ما قضى ، وعرض بغيره بمن يرضون بالدون ويحرصون على الحياة ، وأنبغ ذلك بشيء من الحكمة التي ثقفها من مشاهداته وتجاربه في الحياة .

تلك خلاصة الأغراض التي عالجها طرفة في معلقته . وربما كان موقف الدكتور طه حسين من هذه المعلقة يختلف عن موقفه من معلقة امرئ القيس ، فإنه لا يكاد يشك إلا فيما وصف فيه طرفة الناقة ، ويرى أن أكثر هذه الأوصاف أقرب إلى أن يكون من صنعة العلماء باللغة منه إلى أي شيء آخر . ولا دلائل يقدمه على هذا الشك إلا قوله إنك تقرأ هذه الأبيات فلا تفهم منها شيئاً دون أن تستعين بالمعاجم .

وهذا الدليل لا يقوم بهذا الشك الذي ذهب إليه ، فإن اللغة تسير العصر وروحه ، ولغة الجاهلية والصحراء تختلف عن لغة الإسلام ولغة الحواضر . وليس هذا الشعر وحده ، وليست أبيات طرفة في وصف الناقة وحدها ، هي لا نفهمها إلا بالرجوع إلى معاجم اللغة ، بل إن في شعر الإسلاميين والعباسيين ، بل وفي القرآن الكريم وحديث الرسول بعض ما لا نفهمه دون الرجوع إلى هذه المعاجم . وإن كان ذلك بالطبع يختلف قلة وكثرة بين العصور والرجال .

وإن كانت طبيعة الألفاظ في وصف الناقة تختلف عن طبيعة الألفاظ التي استعملت في غيره ، فليس الاختلاف في رأينا كبيراً . أضف إلى هذا أن لغة الشعر تختلف من غرض إلى غرض ، وفي هذه اللغة الألفاظ الجزلة والتركيب الرصينة ، وفيها

الألفاظ التي تتميز بسلاستها وعذوبتها ، ولكل منها موضوع ، وما ينهض بغرض لا ينهض بغيره ، بل إن ذلك الاختلاف قد يوصف بالبلاغة لرعاية المطابقة لمقتضى الحال . وقد استشهد الدكتور طه على صحة ما ذهب إليه ببعض الأبيات التي تتصل بالغمر والندامى والقينة التي تروح بين الشرب بين برد ومجدد . فرأى في هذه الأبيات ليثا ولكن في غير ضعف ، وشدة ولكن في غير عنف ، ورأى كلاما لا هو بالغريب الذي لا يفهم ، ولا هو بالسوقى المتبذل ، ولا هو بالألفاظ التي رصفت رصفا دون أن تدل على شيء . وهى طبيعة الغرض الذى لا يعالج إلا بمثل هذا النوع من الألفاظ ، والشاعر يتفاوت أسلوبه بين قصيدة وأخرى . ويتباين في أجزاء القصيدة الواحدة إذا تباينت أغراضها ؛ فلا ينهض الاختلاف وحده دليلاً على أن الشعر لأكثر من شاعر .

ويعتينا هنا ما أبرزه من أن شعر المعلقة — عدا ما وصف فيه الناقة — فيه شخصية بارزة قوية ، لا يستطيع من يلحها أن يزعم أنها متكلفة أو منتحلة أو مستعارة . وهذه الشخصية ظاهرة البداوة واضحة الإلحاد بينة الحزن واليأس والميل إلى الإباحة في قصد واعتدال . هذه الشخصية تمثل رجلاً فكرياً والتمس الخير والهدى فلم يصل إلى شيء ، وهو صادق في يأسه ، صادق في حزنه ، صادق في ميله إلى هذه اللذات التي يؤثرها . ثم يقول : لست أدري أهذا الشعر قد قاله طرفه أم قاله رجل آخر ؟ وليس يعينى أن يكون طرفه قائل هذا الشعر ، بل ليس يعينى أن أعرف اسم صاحب هذا الشعر ، وإنما الذى يعينى هو أن هذا الشعر صحيح لا تسكف فيه ولا انتحال ، وأن هذا الشعر لا يشبه ما قدمنا في وصف الناقة ، ولا يمكن أن يتصل به ، وأن هذا الشعر النادر الذى نعت به من حين إلى حين في تضاعيف هذا الكلام الكثير الذى يضاف إلى الجاهليين ، فنحن حين نقرؤه أنا نقرأ شعراً حقاً ، فيه قوة وحياة وروح . إلى أن يقول : فأما صاحب القصيدة فيقول الرواة إنه طرفه . وليست أدري أهو طرفه أم غيره ؟ بل لست أدري

أجاهليّ هو أم إسلامي ؟ وكل ما أعرفه هو أنه شاعر بدويّ ملحدٌ شاك^(١) ..

إن هذا البدويّ الملحد الشاك قالت الرواية وقال التاريخ إنه طرفه ، ولم يقل أحد إنه شخص سواه ، ولم يستطع الدكتور طه في هذه الكلمات كما رأيت أن ينسكرك أنه طرفه ، ولم يقدّم الدليل على أنه شخص آخر ؛ فلم هذا الإمعان في الإيهام الذي لا يخرج القارئ منه بشيء ، ولا يصل التحقيق العلميّ به إلى غاية من الغايات المنشودة من البحث المنطقيّ السليم ؟

وفيما يلي نصّ معلقة طرفه ، مدّخرين دراسة فنيّتها ودلالاتها التاريخيّة

والاجتماعيّة واللغويّة إلى مواضعها من هذا البحث .

- (١) لَحَوْلَةٌ أَطْلَلْتُ بِرُقَّةٍ مَهْمَدٍ تَلُوحُ كِبَاقِي الْوُثْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
- (٢) وَقَوْفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطْبَعِهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَدِّدُ
- (٣) كَانَ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوءَ خَلَايا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ
- (٤) عَذُولِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
- (٥) يَشْقُ حَبَابَ الْمَاءِ حَبِزُومُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُغَالِ بِالْيَدِ
- (٦) وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَ شَادِنٌ مُظَاهِرُ سَمَطَى لَوْلُو وَزَبْرَجِدِ
- (٧) خَذُولٌ تُرَاعِي رَبْرَبًا بِحَمِيلَةٍ تَنَاقُلُ أَطْرَافَ الْبَرِيرِ وَتَرْتَدِي
- (٨) وَتُبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَانَ مُنَوَّرًا تَخْلُ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصُ لَهُ نَدِ
- (٩) سَقَمَتْهُ إِيَاءَةُ الشَّمْسِ إِلَّا لِثَانَتِهِ أُسِفَ وَلَمْ تَكْدِمِ عَلَيْهِ بِأَمْدِ
- (١٠) وَوَجْهُهُ كَانَ الشَّمْسُ حَلَّتْ رِدَاءَهَا عَلَيْهِ نَقِيّ اللَّوْنِ لَمْ يَتَخَذِدِ
- (١١) وَإِنِّي لَأَمْضِي أَلْهَمٌ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بَعُوجَاءِ مِرْقَالِ تَرُوحُ وَتَقْتَدِي
- (١٢) أَمُونِ كَأَلْوَاكِ الْإِرَانِ نَصَاتُهَا عَلَى لَاحِبِ كَأَنَّهُ ظَهَرُ بُرْجِدِ

- (١٣) جَالِيَّةٌ وَجَاءَ تَرْدِي كَأَنَّهَا
(١٤) تُبَارِي عِتَاقَانَا جِيَاتٍ وَأَتَبَعَتْ
(١٥) تَرَبَّعَتِ الْقُفَّيْنِ فِي الشَّوْلِ تَرْتَعِي
(١٦) تَرِيْعُ إِلَى صَوْتِ الْمُهَيْبِ وَتَتَقَي
(١٧) كَأَنَّ جَنَاحِي مَضْرَحِي نَسْكَنُفَا
(١٨) فَطَوْرًا بِهِ خَلْفَ الزَّمِيلِ وَتَارَةً
(١٩) لَهَا فِخْذَانِ أَكْمِلُ النِّخْضَ فِيهِمَا
(٢٠) وَطَى مَحَالٍ كَالْحَنِيِّ خُلُوفُهُ
(٢١) كَأَنَّ كِنَاسِي ضَالَّةً يَكْنُفَانِيهَا
(٢٢) لَهَا مِرْقَانِ أَفْتِلَانِ كَأَنَّهَا
(٢٣) كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَفْسَمَ رَبُّهَا
(٢٤) صُهَابِيَّةُ الْمُتَنَوِّنِ مُوجِدَةُ الْقَرَا
(٢٥) أَمِرتُ يَدَاهَا فَنَلَّ شَرْزُهَا وَجَنَحَتْ
(٢٦) جَنُوحٌ دِفَاقٌ عِنْدَ لُثْمٍ أَفْرِغَتْ
(٢٧) كَأَنَّ غُلُوبَ الدَّسَمِ فِي دَأْبَاتِهَا
(٢٨) تَلَاقَى وَأَحْيَانًا تَبَيَّنُ كَأَنَّهَا
(٢٩) وَأَنْتَلَعُ نَهَاضٌ إِذَا صَعِدَتْ بِهِ
(٣٠) وَجُجْمَةٌ مِثْلُ الْعَلَاةِ كَأَنَّمَا
(٣١) وَخَذْتُ كَقِرْطَاسِ الشَّامِيِّ وَمِشْفَرٍ
(٣٢) وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَّتَيْنِ اسْتَكْنَفَتَا
- سَفَنَجَةٌ تَبْرِي لَأَزْعَرَ أُرْبَدُ
وَضِيْفًا وَظِيْفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعْبِدُ
حَدَاتِقَ مَوَالِي الْأَمِيرَةِ أَغْيَدُ
بَذَى خُصَلٍ رَوَعَاتٍ أَكْلَفَ مُلْبِدُ
حِفَافِيهِ شُكَا فِي الْعَسِيدِ بِمِزْدُ
عَلَى حَشَفٍ كَالشَّنِّ ذَاوٍ مُجْدَدُ
كَأَنَّهَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدُ
وَأَجْرِنَةُ لَزْتُ بَدَأِي مُنْضِدُ
وَأَطَرَ قِيسِي تَحْتَ صُلْبٍ مُؤَبَّدُ
تَمَرُّ بِسَلْمَى دَالِجٍ مُنْشَدِّدُ
لَتُسْكَنَفَنُ حَتَّى تُشَادَ بِقِرْمَدُ
بَعِيدُهُ وَخَذِ الرَّجُلِ مَوَارِدُ الْيَدِ
لَهَا عَضْدَاهَا فِي سَقِيفٍ مُسْنَدُ
لَهَا كِتِفَاهَا فِي مُعَالَى مُصَعَّدُ
وَوَارِدُ مِنْ خَلْقَاءَ فِي ظَهْرِ قَرَدَدِ
بَنَاتِقُ غُرٍّ فِي قَيْصٍ مُقَدَّدِ
كُسُكَّانِ بُوصَى بِدَجَلَةٍ مُضَوَّدِ
وَعَى الْمُلْتَقَى مِنْهَا إِلَى حَرْفٍ مَبْرَدِ
كَسِبَتْ الْيَمَانِي قَدَّهُ لَمْ يَجْرَدِ
بِكَهْنَمَى حِجَاجِي صَخْرَةٍ قَلَّتِ مَوْرِدُ

- (٣٣) طَحُورَانِ عَوَارَ اللَّذَى فتراهما ككحولتى مذعورة أم فرقد
- (٣٤) وصادِقَتَا سَمِعَ التَّوَجُّسَ لِلشَّرَى لَهْجَسٍ خَفِيٍّ أَوْ لَصَوْتٍ مُدَدِّ
- (٣٥) مُؤَلَّلَتَاكِ تَعْرِفُ الْعِتْقَ فِيهِمَا كسامةً تَتَى شاةً بِحَوْلٍ مَلَّ مُفْرَدٍ
- (٣٦) وَأَرْوَعُ نَبَاضٍ أَحَدٌ مَلَمَلَمٌ كمرِ ذَاةٍ صَخْرٍ فِي صَفِيحٍ مُصَمِّدٍ
- (٣٧) وَأَعْلَمُ مَخْرُوتٌ مِنَ الْأَنْفِ مَارِنٌ شَتِيقٌ مَتَى تَرْجُمُ بِهِ الْأَرْضَ تَزْدَدِ
- (٣٨) وَإِنْ شِئْتَ لَمْ تُرْقِلْ وَإِنْ شِئْتَ أَرْقَلْتُ * مخافةً مَلَوِيَّ مِنَ الْقِدِّ مُحْصَدِ
- (٣٩) وَإِنْ شِئْتَ سَامَى وَاسِطَ الْكُورِ رَأْسُهَا * وعامتُ بَضْبَعَيْهَا نَجَاءَ الْخَفِيدِ
- (٤٠) عَلَى مِثْلِهَا أَمْضَى إِذَا قَالَ صَاحِبِي أَلَا لَيْتَنِي أَفْدِيكَ مِنْهَا وَأَفْتَدِي
- (٤١) وَجَاشَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ خَوْفًا وَخَالَةً مُصَابَا وَلَوْ أَمْسَى عَلَى ذِيهِ مَرَّصَدِ
- (٤٢) إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنِّي غَنِيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَنْبَلِدِ
- (٤٣) أَحَلَّتْ عَلَيْهَا بِالْقَطِيعِ فَأَجْدَمْتُ وَقَدْ خَبَّ آلُ الْأَمْعَزِ الْمُتَوَقِّدِ
- (٤٤) فَذَالَتْ كَمَا ذَالَتْ وَلِيدَةُ مَجْلَسِ تُرَى رَبِّهَا أَذْيَالُ سَحْلٍ مُمَدَّدِ
- (٤٥) وَلَسْتُ بِمَلَالِ التَّلَاعِ مَخَافَةً وَلَسْتُ مَتَى بِسَتْرِ فِدِ الْقَوْمِ أَزْفِدِ
- (٤٦) فَإِنْ تَدْفِنِي فِي حَلَقَةِ الْقَوْمِ تَلْمَعَنِي * وَإِنْ تَلْتَمِسْنِي فِي الْحَوَانِيتِ تَصْطَدِ
- (٤٧) وَإِنْ يَلْتَقِ الْحَى الْجَمْعُ تُتْلِقَنِي إِلَى ذِرْوَةِ الْبَيْتِ الرَّفِيعِ الْمُصَمِّدِ
- (٤٨) نَدَامَايَ بِيضٌ كَالنُّجُومِ وَقَيِّنَةٌ تَرُوحُ عَلَيْنَا بَيْنَ بُرْدٍ وَمُجَسَّدِ
- (٤٩) رَحِيبٌ قِطَابُ الْجَيْبِ مِنْهَا رَفِيقَةٌ بِحَسِّ النَّدَامَى بَضَّةُ الْمُتَجَرِّدِ
- (٥٠) إِذَا نَحْنُ قُلْنَا أَسْمَعِينَا انْبَرَتْ لَنَا عَلَى رُسُلِهَا مَطْرُوقَةٌ لَمْ تَشَدِّ
- (٥١) إِذَا رَجَعْتُ فِي صَوْتِهَا خِلْتُ صَوْتَهَا تَجَاوُبُ أَظْفَارٍ عَلَى رُبْعٍ رَدِي

- (٥٢) وما زال تشرابي الخمر ولدني
(٥٣) إلى أن تحاذني العشرة كلها
(٥٤) رأيت بني غبراء لا ينكروني
(٥٥) إلا بهذا الزاجري أحضر الوغي
(٥٦) فبن كنت لانسطيع دفع منيتي
(٥٧) ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى
(٥٨) فهن سبقي المازلات بشربة
(٥٩) وكرهي إذا نادى المضاف محببا
(٦٠) وتقصير يوم الدخن والدخن معجب * بهكنة تحت الحياء المعة
(٦١) كأن البرين والدماليج علفت
(٦٢) فذرنني أروى هامتي في حياتها
(٦٣) كريم يروى نفسه في حياته
(٦٤) أرى قبر نحام بخيل بماله
(٦٥) ترى جثوتين من تراب عليهما
(٦٦) أرى الموت يعم الكرام وبصطفى * عقيلة مال الفاحش المنشدد
(٦٧) أرى العيش كنزنا قصا كل ليلة
(٦٨) لعمرك إن الموت ما أخطأ التي
(٦٩) متى ما بشأ يوما يقذه لحتفه
(٧٠) فإلى أراي وابن عمي مالكا
- وبيعي وإنفاقي طريقي ومثلي
وأفردت أفراد البعير الممبد
ولا أهل هذاك الطراف المدد
وأن أشهد الذات هل أنت تخليدي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي
وجدك لم أحفل متى قام عودي
كمنيت متى ما عمل بالماء تزيدي
كسيد النضا نهته المتوردي
(٦٠) * بهكنة تحت الحياء المعة
على عشر أو خروع لم يخضد
مخافة شرب في الحيافة مصردي
ستعلم إن متناغدا أثنا الصدي
كقبر غوي في البطالة مفيد
صفائح صم من صفيح متضد
(٦٦) * عقيلة مال الفاحش المنشدد
وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لكا طول الرخي وثنياه باليد
ومن يك في حبل النية ينفد
متى أذن منه ينأني ويبعد

- (٧١) يَـلُومُ وما أدرى علامَ يَـلُومُنِي
(٧٢) وَأَيَّاسِي من كلِّ خيرٍ طَلِبَتُهُ
(٧٣) على غير شئٍ قَلْبُهُ غَيْرَ أَنِّي
(٧٤) وَقَرَّبْتُ بِالْقُرْبَى وَجَدَّكَ إِنِّي
(٧٥) وَإِنْ أَدْعُ لِلْجَلِّي أَكُنْ مِنْ حُمَاتِهَا
(٧٦) وَإِنْ يَقْذِفُوا بِالْقَذَعِ عِرْضَكَ أَسْتَقِيهِمْ * بَكَاسٍ حِيَاضِ الْمَوْتِ قَبْلَ التَّهْدِيدِ
(٧٧) بِلَا حَدَثٍ أَحَدْتُهُ وَكَمَحْدِثٍ
(٧٨) فَلَوْ كَانَ مَوْلَايَ امْرَأً هُوَ غَيْرُهُ
(٧٩) وَلَكِنْ مَوْلَايَ امْرُؤٌ هُوَ خَانِقِي
(٨٠) وَظَلَمْتُ ذِي الْقُرْبَى أَشَدَّ مَضَاضَةً
(٨١) فَذَرْنِي وَخَلِّقِي إِنِّي لَكَ شَاكِرٌ
(٨٢) فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ مُقِيسَ بَنِ خَالِدٍ
(٨٣) فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَزَارِي
(٨٤) أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ
(٨٥) فَأَلَايْتُ لَا يَنْفَكُ كَشْحِي بِطَانَةٍ
(٨٦) حُسَامٍ إِذَا مَا قُتُّ مُنْتَصِرًا بِهِ
(٨٧) أَخِي ثِقَةٌ لَا يَنْتِنِي عَنْ ضَرِيَّةٍ
(٨٨) إِذَا ابْتَدَرَ الْقَوْمُ السَّلَاحَ وَجَدْتَنِي
(٨٩) وَبَرَكَ هُجُودٌ قَدْ أَثَارَتْ مَخَافَتِي
كَلَامِي فِي الْحَيِّ قُرْطُ بْنُ أَعْبَدٍ
كَأَنَّا وَضَعْنَاهُ إِلَى رَمْسٍ مُلْحَدٍ
نَشَدْتُ فَلَمْ أَغْلِلْ حَمُولَةَ مَعْبَدٍ
مَتَى يَكُ أَمْرٌ لِلنَّكِيَّةِ أَشْهَدُ
وَإِنْ يَأْتِكَ الْأَعْدَاءُ بِالْجَهْدِ أَجْهَدُ
بِكَاسٍ حِيَاضِ الْمَوْتِ قَبْلَ التَّهْدِيدِ
هَجَانِي وَقَذَى بِالشَّكَاةِ وَمُطَرَدِي
لِفَرَجٍ كَرِّبِي أَوْلَا أَنْظَرَنِي غَدِي
عَلَى الشُّكْرِ وَالتَّسَالٍ أَوْ أَنَا مُفْتَدٍ
عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمَهْنَدِ
وَلَوْ حُلَّ بَيْتِي نَائِيًا عِنْدَ ضَرْغَدٍ
وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ مُعَمَّرَوْنَ بَنِ مَرْئَدٍ
بَنُونَ كَرَامٍ سَادَةٌ لِمَسُودٍ
خَشَاشُ كُرَاسِ الْحَيَةِ الْمُنَوَّقِدِ
لِعَضْبٍ رَفِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ مَهْنَدٍ
كَفَى الْعَوْدُ مِنْهُ الْبَدَ لَيْسَ بِمُعْضَدٍ
إِذَا قِيلَ مَهْلًا قَالَ حَاجِزُهُ قَدِي
مَنْعِمًا إِذَا بَلَّتْ بِقَاءُهُ بَدِي
نَوَادِيهَا أَمْشِي بِمَعْضَبِ مُجَرَّدٍ

- (٩٠) فَرَّتْ كَهَاءَ ذَاتِ خَيْفٍ جَلَالَةٍ * عَقِيلَةَ شَيْخٍ كَلَوِيلٍ يَلْنَدُ
(٩١) يَقُولُ وَقَدْ تَرَّ الوَظِيفُ وَسَاقَهَا أَلَسْتَ تَرَى أَنْ قَدْ أَتَيْتَ بِمُؤَيِّدٍ
(٩٢) وَقَالَ أَلَا مَاذَا تَرَوْنَ بِشَارِبٍ شَدِيدٍ عَلَيْنَا بِغِيهِ مُتَعَمِّدٍ
(٩٣) وَقَالَ ذَرُّوهُ إِنَّمَا نَفْعُهَا لَهُ وَإِلَّا تَسْكُفُوا قَاصِيَ الْبَرْكِ يَزْدَدُ
(٩٤) فَظَلَّ الْإِمَامُ يَمْتَلِئُ حُورَاهَا وَيُسَمَّى عَلَيْنَا بِالسَّيْفِ الْمُسْرَهْدِ
(٩٥) فَإِنْ مُتْ فَأَنْعَمْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشَقَى عَلَى الْجَيْبِ يَا ابْنَةَ مَعْبَدٍ
(٩٦) وَلَا تَجْعَلْنِي كَأَمْرِ لَيْسَ هَمُّهُ كَهَمِّي وَلَا يُغْنِي غَنَائِي وَمَشْهَدِي
(٩٧) بَطِيءٌ عَنِ الْجَلِيِّ سَرِيعٌ إِلَى الْخَنَاءِ ذُلُولٍ بِأَنْجَاعِ الرِّجَالِ مُلْهَدٍ
(٩٨) فَلَوْ كُنْتُ غَوْلًا فِي الرِّجَالِ لَفَرَرْتُ * عَادَاؤُهُ ذِي الْأَصْحَابِ وَالْمُتَوَحِّدِ
(٩٩) وَلَسَكُنْتُ نَفَى عَنِ الرِّجَالِ جَرَاءَتِي عَلَيْهِمْ وَإِقْدَامِي وَصِدْفِي وَخَيْدِي
(١٠٠) لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِي عَلَى بُغْمَةٍ نَهَارِي وَلَا لَيْلِي عَلَى بَسْرَمَدٍ
(١٠١) وَيَوْمَ حَبَسْتُ النَّفْسَ عِنْدَ عِرَاكِهِ * حِفَظًا عَلَى عَوْرَاتِهِ وَالتَّهْدِيدِ
(١٠٢) عَلَى مَوْطِنٍ يَخْشَى الْفَتَى عِنْدَهُ الرَّدَى * مَتَى تَعْتَرِكُ فِيهِ الْفَرَائِصُ تُرْعَدُ
(١٠٣) وَأَصْفَرَ مَضْبُوحَ نَظَرَتْ حِوَارُهُ عَلَى النَّارِ وَاسْتَوْدَعَتْهُ كَفُّ مُجْمِدٍ
(١٠٤) أَرَى الْمَوْتَ أَعْدَادَ النُّفُوسِ وَلَا أَرَى * بَعِيدًا غَدًا مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ غَدٍ
(١٠٥) سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ
(١٠٦) وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبِيعْ لَهُ بَتَاتًا وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ
(١٠٧) لَعَمْرُكَ مَا الْأَيَّامُ إِلَّا مَعَارَةٌ فَاسْطَغَمْتَ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتَزَوَّدِ
(١٠٨) عَنِ الْمَرَّةِ لَا تَسْأَلْ وَأَبْصِرْ قَرِيبَتَهُ فَإِنَّ الْقَرِينَ بِالْمُقَارِنِ مُقْتَدِ

زهير

من فحول الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية عند ابن سلام ، ووضعه مع امرئ القيس ، ونابغة بنى ذبيان ، والأعشى ميمون بن قيس . وروى ابن سلام عن يونس بن حبيب أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حجر ، وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن أهل الحجاز يقدمون زهيراً . قال : وأخبرني يونس كالمعجب أن ابن أبي إسحق كان يقول : أشعر أهل الجاهلية مُرقشٌ ، وأشعر أهل الإسلام كثيرٌ . ولم يقبل هذا القول ولم يشع^(١) .

وذكر أبو عبيدة عن الشعبي يرفعه إلى عبد الله بن عباس ، قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه في سفر ، فبينما نحن نسير قال : ألا تزامنون ؟ أنت يا فلان زميل فلان ، وأنت يا فلان زميل فلان ، وأنت يا ابن عباس زميلي . وكان لى محباً مقرباً ، وكان كثير من الناس ينفسون على لمكانى منه ، قال : فسأيرته ساعة ثم ثنى رجله على رجله ، ورفع عقيرته ينشد :

وما حملت من ناقةٍ فوق رحلها أبرّ وأوفى ذمة من محمدٍ

ثم وضع السوط على رحله ، ثم قال : أستغفر الله العظيم ، ثم عاد فأنشد حتى فرغ . ثم قال : يا ابن عباس ألا تنشدنى لشاعر الشعراء ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ومن شاعر الشعراء ؟ قال : زهير . قلت : لم صيرته شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه لا يعاقل بين الكلامين ، ولا يقتنع وحشى الكلام ، ولا يمدح أحداً بغير مافيه — والمعاظلة أن يردد الكلام فى القافية بمعنى واحد^(٢) — قال أبو عبيدة :

(١) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٤٣ — ٤٤ .

(٢) المعاظلة والمغالطة والتعاظم التراكب والنشوب . وانظر كتابنا (البيان العربى) ص ٢٩٧ وكتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبى) ص ١٨٣ لتقف على معناها عند النقاد وأهل البيان .

صدق أمير المؤمنين ، ولشعره ديباجة إن شئت قلت شهد إن مسعته ذاب ، وإن شئت قلت صخر لورديت به الجبال لأزالها . . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه جالساً في أحبابه يتذاكرون الشعر والشعراء ، فيقول بعضهم : فلان أشعر ، ويقول آخر : بل فلان أشعر ، ف قيل ابن عباس بالباب ، فقال عمر رضى الله عنه : قد أتى من يحدث عن أشعر الناس ، فلما سلم وجلس ، قال له عمر : يا ابن عباس من أشعر الناس ؟ قال : زهير يا أمير المؤمنين ! قال عمر : ولم ذلك ؟ قال ابن عباس : لقوله يمدح هرماً وقومه بنى مُرَّة :

لو كان يقعدُ فوق الشمس من كرمٍ قومٌ بأولهم أو مجدم قعدوا
قومٌ أبوم سينانٌ حين تنسبهم طابوا وطاب من الأولاد من ولدوا
حين إذا فزعوا إنسٌ إذا أمنوا مرزءونَ بهاليلٍ إذا جهدوا
محسدون على ما كان من نعيم لا ينزعُ الله عنهم مابه حُسدوا

قال عمر : صدقت يا ابن عباس ^(١) . وعن ابن سلام : أخبرني عمر بن موسى الجحى عن أخيه قدامة بن موسى ، وكان من علماء أهل المدينة ، أنه كان يقدم زهيراً ، قلنا : فأى شعره كان أعجب إليه ؟ قال : الذى يقول فيها :

قد جعلَ المبتغونَ الخيرَ فى هَرَمٍ والسائلونَ إلى أبوابه طُرُقاً
مَنْ يلقى يوماً على عِلَّاته هَرَمًا يلقى السَّحابة منه والندى خُلُقاً
وقال أهل النظر : كان زهير أحصفهم شعراً ، وأبعدهم من سُخْفٍ ، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق ، وأشدَّهم مبالغة فى المدح ، وأكثرم أمثالا فى شعره .

وحدث عن عكرمة بن جبر ، قال : قلت لأبى : يا أبة من أشعر الناس ؟

(١) انظر جهرة أشعار العرب لأبى زيد ٣٢ .

قال : أعن أهل الجاهلية نسأني أم أهل الإسلام؟ قلت : ما أردت إلا الإسلام ،
فإذ ذكرت الجاهلية فأخبرني عن أهلها . قال : زهير شاعرهم . قال : قلت :
فالإسلام ؟ قال : الفرزدق نبعة الشعر ، قلت : فالأخطل ؟ قال : يجيد مدح
الملوك ، و يصيب صفة الخمر ، قلت : فإتركت لنفسك ؟ قال : دعني فإني نمرت
الشعر نحرأ^(١) .

والحديث عن شاعرية زهير يطول ؛ والآراء في تقديرها وتفضيلها كثيرة .
في مختلف العصور وعند أكثر النقاد ، ومع هذه الوفرة في الأحاديث المأثورة
عن شعر زهير ، والأحكام النقدية المختلفة فيه ، والموازنة بين نتاجه ونتاج غيره
من الشعراء الجاهليين أو الإسلاميين أو غيرهم . فإن الحقائق التاريخية عن هذا
الشاعر قليلة . وأنت إذا رجعت إلى كتب الأدب والتاريخ فإنك لن تجد فيها
من تلك الحقائق ما يرسم صورة مفصلة عن حياته الطويلة التي يحدّ بطولها من
المعبرين ، وإن كنت تجد حديثاً لا بأس به عن معلقته وظروفها التاريخية
والأحداث التي عبر زهير عنها فيها .

وقد ذكر ابن سلام نسب زهير : زهير بن أبي سُلمى - واسم أبي سُلمى
ربيعة - بن رياح بن قُرْط بن الحارث بن مازن بن ثعلبة بن ثور بن هذمة
بن لاطم بن عثمان بن مُزينة (ص ٤٣) .

أما ابن قتيبة فيقول في إحدى ترجمتيه^(٢) : هو زهير بن ربيعة بن قُرْط ،
والناس ينسبونه إلى مُزينة ، وإنما نسبه في غَطَفَان . وإيس لهم بيت شعر يفتخرون
فيه إلى مُزينة إلا بيت كعب بن زهير ، وهو قوله :

همُ الأصلُ مِنِّي حيثُ كنتُ وإِنِّي من المزيّنين المصنّفين بالكرمِ

(١) انظر طبقات غول الشعراء لابن سلام ٥٤ .

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٨٦/١ .

وقال في ترجمته الأخرى (١ / ٩٠) : هو زهير بن أبي سُلمى ، واسم أبي سُلمى ربيعة ، بن رياح المُرزني ، من مزينة مضر ، وكان زهير جاهلياً لم يدرك الإسلام ، وأدركه ابنه كعب وزهير .

وفي الرواية الأولى ترى شكه في نسبته إلى مزينة ، على حين يؤيد تلك النسبة في الترجمة الأخرى . وفي هذا ما يدل على عدوله عن شكه الأول ؛ بما اطمأن إليه بعد السؤال من العارفين بالأنساب . وبذلك يزول ذلك الشك في نسبة زهير إلى مزينة . وقد علق على الشك الأول البغدادي صاحب خزنة الأدب بقوله في ترجمة زهير : وزهير هو زهير بن أبي سُلمى ربيعة بن رياح المُرزني ، من مزينة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، وكانت محلاتهم في بلاد غطفان ، فيظن الناس أنه من غطفان ، أعني زهيراً ، وهو غلط ، كذا في الاستيعاب لابن عبد البر ، وكان هذا ردّاً لما قاله ابن قتيبة في كتاب الشعراء ، فإنه قال : زهير هو ابن ربيعة بن قرط ، والناس ينسبونه إلى مزينة ، وإنما نسبته في غطفان . وسُلمى بضم السين ، قال في الصحاح : ليس في العرب سُلمى بالضم غيره ^(١) .

كان زهير وقومه يقيمون في بلاد غطفان ، وكان زهير من بيت كثير شعراؤه ، فكان « بشامة بن الغدير » خال أبيه شاعراً ، وكان أحزم الناس رأياً ، فكانت غطفان إذا أرادوا أن يغزوا أتوه فاستشاروه ، وصدروا عن رأيه ، فإذا رجعوا قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم ، فمن أجل ذلك كثر ماله ، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بني إخوانه ، فأتاه زهير ، فقال : يا خاله ، لو قسمت لي من مالك ؟ فقال . والله يا ابن أختي . لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله ، قال : وما هو ؟ قال : شعري ورثتيه ! وكان زهير قبل ذلك قال الشعر وكان أول ما قاله . فقال له زهير : الشعر شيء لا ما قلته ، فكيف تعتدّ به على ؟ فقال له بشامة : ومن أين جئت بهذا الشعر ؟ لملك ترى أنك جئت به من

مزينة ؟ وقد علمت أن حصاتها وعين مائها في الشعر لهذا الحى من غطفان ،
ثم لى منهم ، وقد رويته عنى ! .

ويتحدث الرواة أن زهيراً كان رواية « لأوس بن حجر » ، وهو زوج
أمه ، وكان يصطنع مذهبه فى تمثيل مظاهر البرية العربية فيما يتناول الشعر من
التشبيه والوصف .

وكان أبوه « أبو سلمى » أيضاً شاعراً . وهو القائل فى خاله أسعد المرئى ،
وهو أسعد بن الغدير ، وابنه كعب بن أسعد ، وكان حمل أمه وفارقهما :

لُتْصَرَفْنَ إِبِلٌ مُّحِبَّةٌ مِنْ عِنْدِ أَسْعَدَ وَابْنِهِ كَعْبُ
الْأَكْلَيْنِ صَرِيحٌ قَوْمَهُمَا أَكَلَ الْجُبَارَى بُرْعُمُ^(١) الرُّطْبِ

وكانت أخته « سلمى » شاعرة وكان ابناء « كعب » و « بجير » شاعرين ، وأنى
بجير النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم ، فكتب اليه كعب أياتا يعاتبه فيها على ما كان
من إسلامه ، فبلغ ذلك النبى فتوعده ونذر دمه ، فكتب بجير إلى كعب يخبره
أن الرسول قتل رجلاً ممن كان يهجوّه « فإذا كانت لك فى نفسك حاجة
فاقدم عليه ، فإنه لا يقتل أحداً أناه تائباً ، وإن أنت لم تفعل فأنج بنفسك »
فلما ورد الكتاب ضاقت عليه الأرض برُحبا ، وأرجف به من كان يحضرته
من عدوّه ، فقال قصيدته التى أولها :

بانتُ سعادُ فقلبى اليوم متبولُ مُتَيْمٌ لِنَثَرِهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ
وفىها يقول :

نَبَّشْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده فى يده ، وأنشد شعره ،
فقبل توبته وعفا عنه ، وكساه بُرداً ، فاشتراه منه معاوية بعشرين ألف درهم .

(١) الجبارى طائر ، والبرعم كم ثمر الشجر والنور .

وكان لكعب ابن يقال له «عقبة بن كعب» شاعر ، ولقبه «المضرب» وذلك أنه شبيب بامرأة من بنى أسد ، فضر به أخوها مائة ضربة فلم يمِت ، فسمي «المضرب» . وولد لعقبة «العوام» ، وهو شاعر . فهؤلاء خمسة شعراء فى نسق : العوام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبى سلمى . ولذلك كان يقال إنه لم يتصل الشعر فى ولد أحد من الفحول فى الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير ، وفى الإسلام ما اتصل فى ولد جرير .

ويبدو من أخبار زهير أنه كان رجلاً عَفَّ القلب واللسان ، ولذلك أحبه قومه ، وتقرب إليه السادة بالهدايا والألطف ، وقد ذكر البغدادى فى خزانة الأدب (١١ / ٢) فى ترجمة سالم بن دارة أن اسمه سالم بن مسافع بن عقبة .. بن عبد الله غطفان ، وأن دارة أمه ، وكانت أخيدة أصابها زيد الخليل من بعض غطفان وهى حبلى وهى من بنى أسد ، فوهبها زيد الخليل لزهير بن أبى سلمى ، فربما نسب سالم بن دارة إلى زيد الخليل .

كما كان زهير إنساناً يعترف بالجميل لمن أولاه ولا ينسى يداً أسداها إليه إنسان ، وكان يجود على غيره ، كما يجاد عليه ، ويهدي كما يهدى إليه . وآية ذلك ما رواه أبو عمرو بن العلاء قال : خرج بجير بن زهير بن أبى سلمى فى غلّة يجتنون جنى الأرض ، فانطلق الغلّة ، وتركوا ابن زهير ، فرّ به زيد الخليل الطائى فأخذه ، ودار طيء متاخة لدور بنى عبد الله بن غطفان ، فسأل الغلام من أنت ؟ قال : أنا بجير بن زهير ، فحمله على ناقة ، وأرسل به إلى أبيه ، فلما أتى الغلام أباه أخبره أن زيدا أخذه وحمله . وكان لكعب بن زهير فارس من جياد خيل العرب . فقال زهير ما أدرى ما أثيب به زيدا إلا فارس كعب ، فأرسل به إليه وكعب غائب ، فلما جاء كعب سأل عن الفرس ، فقيل له : قد أرسل به أبوك إلى زيد . فقال كعب لأبيه : كأنك أردت أن تقوى زيدا على قتال

غطفان ! فقال له زهير : هذه إبلى أخذ منها عن فرسك ماشئت^(١) .

وذلك الشعور لا شك شعور رجل من السادة يعرف لنفسه كرامتها ، ويعرف موضعه من سادة عشيرته وصفوة صحابته ؛ وليس شعور رجل يتطلع إلى ما في أيدي الناس ، ويقف فيهم موقف المستجدي بشعره من الذين يأخذون كل شيء ولا يعطون شيئاً ، ويتخذون من قنهم سبيلاً لإشباع أطعاعهم التي لا تنتهى .

ولذلك كان من الإسراف أن يعدّ مثل هذا الشاعر الكريم الأبي في التكسبين بشعرهم ، فقد عرفنا أولئك المتكسبين يمدحون ويفرقون في الثناء لمن مدّ إليهم يده بالعطاء ، في الوقت الذي يهجون فيه ويسرفون في الخقد على من ضنّ عليهم بالنوال ، وحرّمهم من العطاء . ولكن زهيراً يختلف عن أولئك كل الاختلاف ، فهو يمدح أفعالاً ويمجد أعمالا ، ويثنى على رجال استحقوا المديح بما تمثل فيهم من مثل رفيعة ، يمجدها هذا الشاعر الأبي بفنه الرفيع وبنفسه الشاعرة ، وينشدها لبيثته ، ولا عليه بعد ذلك أن يترادف عليه العطاء ، أو يترادف الهدايا تقديرًا لذلك الرجل الذي خلّد تلك المثل وأشاد بها ورفع مزارتها في ذلك العالم الذي طحنته النائبات ، وشملته الفوضى وفارقه الأمن والاستقرار .

وغالب هذا المديح في رجل من أجواد العرب الذين عمّ فضاهم قومهم ، واتخذوا من مالم وسيلة لنسكين الفتنة ، ونشر ألوية المحبة والسلام في البيئة التي عاشوا فيها ، وكان مثل هرم بن سنان جديرًا بالثناء من مثل هذا الشاعر الذي ينفذ المحبة والسلام ، ويمتدح الحرب والخصام أشد المقت ، مما سيظهر أثره واضحًا في معلقته كما سيأتى . ومن شعر زهير في هرم قصيدته التي مطلعها هـ صحا القلب

(١) ذيل الأملى والنوادر للقالى ص ٢٤ (مطبعة دار الكتب المصرية — القاهرة

عن سلمى وقد كاد لا يسألوه . قال صاحب الأغاني : هذه القصيدة أول قصيدة مدح بها زهير هرمًا ، ثم تتابع بعده . وكان هرم حلف ألا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه : عبداً ، أو وليدة ، أو فرساً . فاستحيا زهير منه . فكان زهير إذا رآه في ملاء قال : أنعموا صباحاً غير هرم ، وخيركم استئثيت !

وقال عمر بن الخطاب لبعض ولد هرم : أنشدني بعض مدح زهير أباك ، فأنشده ، فقال عمر : إنه كان ليحسن فيكم المدح ، قال : ونحن والله كنا نحسن له العطية . قال عمر : قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم ! وفي رواية عمر بن شبة قال عمر لابن زهير : ما فعلت الحلل التي كساها هرم أباك ؟ قال : أبلاها الدهر . قال عمر : لسكن الحلل التي كساها أبوك هرمًا لم يبلاها الدهر !

ومن أخبار زهير ما روى أنه رأى في منامه في أواخر عمره أن آتيا آتاه فحملة إلى السماء حتى كاد يتمها بيده ، ثم تركه فهوى إلى الأرض ، فلما احتضر قصّ رؤياه على ولده كعب ، ثم قال : إني لا أشك أنه كائن من خبر السماء بعدى ، فإن كان فتمسكوا به وسارعوا إليه ، ثم توفي قبل المبعث بسنة ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم خرج إليه ولده كعب بقصيدته « بانت سعاد » وأسلم . وروى أيضاً أن زهيراً رأى في منامه أن سببا تدلى من السماء إلى الأرض ، كأن الناس يسكنونه ، وكلما أراد أن يسكه تقلص عنه ، فأوله بنبي آخر الزمان ، فإنه واسطة بين الله وبين الناس ، وأن مدته لا تصل إلى زمن مبعثه ، وأوصى بنيه أن يؤمنوا به عند ظهوره (خزنة الأدب ٢ / ١٣٠) .

* * *

أما شعر زهير فقد أسلفنا بعض الآراء فيه من المشهود لهم بالدراية والبصر بالأدب ، الذين لا يختلفون في وضعه مع أوائل الفحول المقدمين عندهم ، وإن

اختلفوا في جعله أولا . وقد اجتمعت في شعر زهير الصفات التي يتطلبها النقاد لتقديم العمل الأدبي وتقديم صاحبه على غيره من الأدباء . فالذين يحكمون على الشاعر بمدى قدرته على التصرف في فنون الشعر والإفادة في أكثرها يجدون أثر هذا في المأثور من شعر زهير ، الذي مدح فيه وهجا ، فأصاب المدح كما أصاب الهجو والتهكم والازدراء ، ووصف فأجاد الوصف ، وأودعه من ضروب الحكمة مالا يزال معناه يدور في الأذهان ، وألفاظه تجري على اللسان . وقد كان زهير أستاذ الخطيئة ، وسئل عنه الخطيئة فقال : ما رأيت مثله في تكفيته على أكناف القوافي ، وأخذه بأعنتها حيث شاء ، من اختلاف معانيها امتدادا وذما .

والذين يبحثون عن كثرة الأعمال الأدبية ، ووفرة النتاج ، وطول النفس في العمل الأدبي الواحد ، لن يخطئوا ذلك في المأثور من شعر زهير ، ففي ديوانه كثير من القصائد الطوال ، أولها معلقته المشهورة وعدد أبياتها ثلاثة وستون بيتا . ومن شعره قصيدته التي أولها :

سحَّ القلبُ عن سلمى وقد كاد لا يسألُو وأقفر من سلمى التعانيق والنقل

التي مدح بها هرم بن سنان ، وعدد أبياتها في شرح الأعم الشنمري ثلاثة وأربعون بيتا^(١) : ومنها قصيدته التي مطلعها :

سحَّ القلبُ عن سلمى وأقصر باطلُهُ وعُرِّي أفراسُ الصُّبَا ورواحله

وعدد أبياتها سبعة وأربعون بيتا . ثم قصيدته التي أولها :

إنَّ الخليط أجْدُّ البين فانفراقا وعلقَّ القلبُ من أسماء ما علقَا

وهي في ديوانه ثلاثة وثلاثون بيتا ثم قصيدته :

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى للأعم الشنمري ١٥ (طبعة التجارية —

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقا أية سلكوا
وهى التى قالها حينما أغار الحارث بن ورقاء على بنى عبد الله بن غطفان وأخذ
إبل زهير وراعيه يساراً ، وهى كسابقتها ثلاثة وثلاثون بيتاً . وقصيدته التى أولها :
رَفَّ بِالْأَيَّارِ الَّتِي لَمْ يَعْفُهَا الْقَدَمُ بَلَى وَغَيْرَهَا الْأَرْوَاحُ وَالْدِّيمُ
وعدد أبياتها سبعة وثلاثون بيتاً . وغير ذلك من قصائده الكثيرة التى
تفاوتت فى عدد أبياتها مع اتساق الجودة وحسن السبك وقوة المعاني ، فى كل
بيت فكرة ، من غير تردد ، وترى القصيدة وقد اتحدت معانيها وأفردت
فى قالب واحد ، لا تجد فيه ماقد تجد فى غيره من التفاوت ، أو الثغرات التى
تكون سمة من سمات الارتجال والبديهة . لأنك واجد فى شعر زهير الإتيان
الفنى الذى ترى فيه الوحدة وتتابع الأفكار فى تناسق وانسجام .

وفى ذلك ما يدل على عناية زهير بشعره ، وحرصه على عدم إذاعته فى الناس
إلا بعد تنقيحه وتهذيبه ، ليبدو فى الإطار الذى يرتضيه مثل هذا الشاعر المجيد
لفنه الذى عرف به بين الناس .

وقد روى أن زهيراً كان ينظم القصيدة فى شهر ، وينقحها ويهذبها فى سنة ،
وكانت تسمى قصائده (حَوَالِيَاتِ زَهِير) وقد أشار إلى هذا البهاء زهير فى قوله
من قصيدة :

هَذَا زَهِيرُكَ لَا زَهِيرُ مُزَيْنَةٍ وَأَفَاكَ لَا هَرِمًا عَلَى عِلَاتِهِ
دَعَا وَحَوْلِيَّاتِهِ ثُمَّ اسْتَمِعَ زَهِيرُ عَصْرِكَ حُسْنَ أَيْمَلِيَّاتِهِ

والمعجب أن بعض الرواة يسم هذا التنقيح والتهذيب بالتكاف . ومن
هؤلاء ابن قتيبة الذى يقسم الشعراء إلى متكافين ومطبوعين ، ويصف التكاف
منهم بأنه هو الذى يقوم شعره بالثقاف ، وينقحه بطول التفنيس ، ويعيد فيه

النظر بعد النظر . ويمثل ابن قتيبة للمتكلمين من الشعراء بزهير والخطيئة وأشباههما . وينقل قول الأصمى : زهير والخطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر ، لأنهم تقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . والمطبوع من الشعراء عند ابن قتيبة هو من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فائحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الفريزة ، وإذا امتحن لم يتلغم ولم يتزخر^(١) .

ويؤخذ على ابن قتيبة والأصمى وغيرهما من الذين يذهبون هذا المذهب في فهم المطبوع والمتكلم من الشعراء أو الحكم على الشاعر بالطبع أو التكلف أنهم يصفون الشعر المطبوع بنعوت تدل على أنهم يقصدون بالشاعر المطبوع من كان قادراً على الارتجال وقول البداة ، في مواقف لم يعد لها نفسه « وإذا امتحن لم يتلغم ولم يتزخر » ولا يمكن أن نجاريهم في رأيهم هذا ، وأن نفهم الشاعر المطبوع على هذا النحو من الفهم ، ذلك أن الشعر تعبير عن شعور ، ومواقف الامتحان التي تختبر فيها قدرة الشاعر على إرسال القول لا يمكن أن تكون مقياساً لصدق العاطفة أو حقيقة الشعور ، لأن الإحساس لا يتكلف ولا يتطلب . والإجادة في هذا المضمار إن دلت فإيما تدل على شيء واحد هو القدرة على النظم في أى معنى من المعاني العارضة وفي أى غرض ، وقد لا يكون ذلك الغرض مما يسائر عاطفة الشاعر أو يجرى مع هواه . وقد لا يكون في المقام الذى استحث على القول فيه ما يثير انفعاله . وحينئذ يكون الشعر ضرباً من الصناعة اللفظية ، وهو الجدير أن يحسب من الشعر المتكلف . أما الارتجال الذى تبعته قوة التجربة وحرارة العاطفة والانفعال فلا نشك أنه من أولى علامات للطبع .

(١) الشعر والشعراء ٣٧/١ ، والتزحر هو إخراج الصوت أو النفس بأقن عند جمادة عمل أو شدة .

ويؤخذ على أولئك أيضاً عدمهم كثيراً من فحول الشعراء كزهير والخطيئة وأشباههما في التكلفين ، لا لأنهم رأوا في أشعارهم فجوات أو آثاراً تدل على شدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات ، ولكن لأنهم علموا أنهم قوموا شعرهم بالتفاف ، وتقحوه بطول التفتيش ، وأعادوا فيه النظر بعد النظر . .

ورأينا الذي نطمئن إليه أن الطبع لا يعارض التنقيح والتهديب بحال ، بل إنه يزداد جمالا وروفا بإعادة النظر فيه ، وسد ما عساه يكون فيه من ثغرات ، واستبدال بعض الألفاظ ببعض على حسب ما يرتضيه ذوق الشاعر ومدى حذقه لصناعته . ولهذا رأينا ابن قتيبة يناقض نفسه بهذا الزعم حين يقرر أن هذا اللون من الشعر المنقح المهدب جيد محكم ، ثم يصفه بكثرة الضرورات وحذف ما يحتاج المعاني إليه وزيادة ما استغنى عنه . مع أن للتنقيح والتهديب يزبلان بطبيعتهما تلك العيوب التي لولاها لم تكن هناك من حاجة إلى الروية والتهديب ، بل قد نرى أكثر من ذلك فنقرر أن الفجوات وفقد التلاؤم بين الأبيات إنما يقع في الشعر المرتجل على غير إعداد وروية ، وشتان بين موقف المستعد المتهي* وموقف المدفوع إلى القول دفعا^(١).

وعلى هذا فإن تنقيح الشاعر شعره وتهذيبه لا يعد تكلفاً ، ومن ثم لا يعد عيباً ، فإن الإجابة والإبداع وتنقية الأعمال الأدبية من الشوائب من واجب أولئك الذين يحترمون أنفسهم ، ويحترمون فنههم ، ويحترمون أذواق الناس ، فلا يقدمون إليهم إلا فنا يرضى عنه الشاعر أولاً ويطمئن إلى جودته ، ليرضى عنه ذور الأذواق المستنيرة في بيئات الفن والأدب ، وكان ذلك هو السر في تلك الأحكام

(١) انظر كتابنا (دراسات في نقد الأدب العربي) ١٦٢ (الطبعة الثانية — القاهرة.

الكثيرة التي اجتمعت على الاعتراف زهير ، وعلى اعتباره في السابقين من الفحول وهذا عمر يصف زهيراً بأنه شاعر الشعراء الذي لم يعاظم بين القوافي ولم يتبع وحشى الكلام ولم يمدح الرجل إلا بما فيه ، ويستنشد ابن عباس شعره ، فلا يزال ينشده إلى أن يبرق الصبح ، ويسأل عبد الملك بن مروان قوماً من الشعراء من أى بيت من الشعر العربى أمدح ، فينفقون على بيت زهير :

تراه إذا ما جنته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ويستحسن الرواة تشبيه زهير امرأة في الشعر بثلاثة تشبيهات في بيت واحد، وهو قوله :

تنازعتِ المَها شَبهاً ودُرّاً إلَّـهُجُورٍ وشَاكَتْ فيها الطُّبَاءُ
ثم قوله مفسراً بعد ذلك :

فأما ما فوقى العقد منها فن أذماء^(١) مرتصها الخلاء
وأما المقلتان فن مَهَاءٍ وللدُّرِّ الملاحَةُ والصفاء

وقال بعض الرواة : لو أن زهيراً نظر في رسالة عمر بن الخطاب في القضاء إلى أبى موسى الأشعري ما زاد على ما قال :

فإنَّ الحقَّ مقطَعُهُ ثلاثٌ يمينٌ أو نِفَارٌ أو جِلاءُ

يعنى يميناً ، أو منافرة إلى حاكم يقطع بالبينات ، أو جلاء — وهو بيان وبرهان يجلو به الحق وتتضح الدعوى .

وتلك أمثلة بسيرة من شواهد إبداع زهير في شعره الذى اجتمع له نيل

(١) شاكت شاكت وشابكت ، وأراد بأدماء الظبية البيضاء . ومعنى الشعر : فيها عبه من البقر في الميول ، ومن الدر في الصفاء ، ومن الطباء في طول النقى .

الغرض ونخامة المعنى وصفاء الديباجة ، ولذلك لم يقدم أهل الحجاز شاعراً على زهير ، ووصفه أهل البصر بصناعة الشعر والمعرفة بنقده بأنه كان أحصف الشعراء شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدّهم مبالغة في المدح ، وأكثرهم أمثالا في شعره .

ولا شك أن تلك الأسباب التي قدموا زهيراً بها أسباب موضوعية ، تعتمد على طبيعة الفن ، ومعرفة خصائص الأدب الرفيع الذي يبعد عن الغرابة وينفرد من الحوشية ومن التعقيد ، ويبحث عن جودة المضمون ، كما يعنى بصفاء الإطار والشكل . ويعنى إلى جانب ذلك كله بالصدق الفني ، وبالعبارة الجميلة عن العاطفة الصادقة والشعور الصادق .

معلقة زهير :

اشتعلت في بلاد غطفان نار عداوة شديدة وحرب ضروس بين قبيلتين من قبائلها ، وهما قبيلتا عبس وذبيان . وقد قال الرواة في سبب إنشاد زهير لمعلقته إن زهيراً مدح بهذه القصيدة الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، المرّيين ، وذكر سعيهما بالصلح بين عبس وذبيان وتحملهما الحمة .

وكان « ورد بن حابس العبسي » قتل « هرم بن ضمضم المرّي » في حرب عبس وذبيان ، وهى حرب داحس قبل الصلح ، ثم اصطلى الناس ، ولم يدخل « حصين بن ضمضم » أخو « هرم بن ضمضم » في الصلح . وحلف لا يفسل رأسه حتى يقتل « ورد بن حابس » أو رجلاً من بنى عبس ، ثم من بنى غالب . ولم يطلع على ذلك أحداً .

وقد حمل الحمة الحارث بن عوف بن أبي حارثة ، وهرم بن سنان .

ابن أبى حارثة . فأقبل رجل من بنى عبس ثم من بنى غالب حتى نزل بمحصين بن
ضمضم ، فقال: من أنت أيها الرجل ؟ فقال: عيسى ، فقال ، من أى عبس ؟ فلم
يزل يفتسب ، حتى انتسب إلى غالب . فقتله حصين ، فبلغ ذلك الحارث بن عوف
وهرم بن سنان ، فاشتد عليهما ، وبلغ بنى عبس ، فركبوا نحو الحارث . فلما
بلغ الحارث ركوب بنى عبس ، وما قد اشتد عليهم من قتل صاحبهم — وإنما
أرادت بنو عبس أن يقتلوا الحارث — بعث إليهم بمائة من الإبل معها ابنه ،
وقال للرسول : قل لهم آللبن أحب إليكم أم أنفسكم ؟ فأقبل الرسول حتى قال
ما قال . فقال لهم الربيع بن زياد : إن أخاكم قد أرسل إليكم الإبل أحب إليكم
أم ابنه تقتلونه ؟ فقالوا : نأخذ الإبل ونصالح قومنا ويتم الصلح . فقال زهير
في ذلك هذه القصيدة ، وبعد أن تغزل في خمسة عشر بيتا قال :

سعى ساعيا غيظَ بنِ مُرَّةَ بعدما تبرّل ما بين العشيرة بالدمِ

الساعيان هما الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، وقيل خارجة بن سنان ،
وهو أخو هرم بن سنان ، وهما ابنا عم للحارث بن عوف ، لأنهما ابنا سنان بن أبى
حارثة ، والحارث هو ابن عوف بن أبى حارثة^(١) .

وهذا السبب يظهر ظهوراً واضحاً في ثنايا هذه المعلقة وفي أكثر أبياتها .
ولعلّ هذه المعلقة من أهم الملاحظات التي يتصل غرضها بأكثر المعاني المبثوثة فيها .
وهي في هذه الناحية تختلف عن معلقتي امرئ القيس وطرفة السابقتين ،
وقد بيّنا أن الغرض الذى قيل إن كلا منهما أنشدت سببه يضيع بين
ثناياهما ، ويضل الباحث في الفحص عنه بين الأغراض الكثيرة التي تزدهم
بها كلتا المعلقتين .

وقد بدأ زهير معلقته بالتشبيب ومساءلة الدُّمْن ، وسلك في مطلعها مسلك امرئ القيس وطرفة في مطلع معلقتهما .

وقد عرف عن زهير العفة والحياء ، على العكس من امرئ القيس الذى كان يتعمّر في شعره ، وطرفة الذى ذكر في أمانيه تهتكه في العبث وانهماكه في الشهوات ، وقد برئت معلقة زهير من أثر العبث والمجون . ولكن يبدو أن ذكر المرأة والتشبيب بها في مطلع القصائد كان تقليداً جرى عليه فحول الشعراء في الجاهلية ، ولهذا وحده ذكر زهير المرأة في مطلع قصيدته اتباعاً لذلك التقليد الذى جروا عليه ، ولم يكن زهير من العشاق الذين يجرون في أثر المرأة ، ويجهدون في البحث عنها ، ويصفون ديبهم إليها ، ويبرزون محاسنها . ولكنه ذكر « أم أوفى » ، التى لم تكن عشيقة أو حبيبة له ، بل كانت زوجة له أولدها بنين ماتوا صغاراً ، ثم غضب عليها مرة فطلقها ، وندم وأراد أن يردها فأبت ، فبكاه وبكى ديارها في خمسة عشر بيتاً من مطلع قصيدته .

ولانجد في هذه الأبيات الخمسة عشر ما يعبرٌ تعبيراً صادقا واضحا عن لوعة الحب والوجد ، بل لا يتجاوز ذكر « أم أوفى » البيت الأول منها بين الطلول ومواضعها أما بقية الأبيات فكلها في ذكر الديار وما بقى فيها من الآثار التى تشبه الوشم في المعصم ، وما يرتع فيها من الظباء وبقر الوحش ، ووصف وقوفه بها ، واهتدائه إليها بعد جهد ومشقة لبعده عهده بها ، وما وجد من الأثافي والنوى^(١) ، ووصف توله الذى جعله بسأل رفيقه : هل يرى الظمائن اللاتى هجرن موضعهن منذ عشرين حجة؟ وأخذ في وصف تلك الظمائن وكأنه يراهن في سيرهن ، ويصف حلّهن ومرتحلّهن ، وورودهن الماء حتى وضعن الخيام عنده .

(١) الأثافي جمع أنفية وهى الحجارة التى تنصب عليها المراحل أو القدور ، والنوى هو الحفير حول الحيمة يمنع المطر من التسرب داخلها .

ثم انتقل إلى الغرض الذى أنشد من أجله قصيدته ، وهو مدح عظيمى عطفان لسميهم فى الصلح وتحملهما ديات القتلى فى أموالهما فى عشرة أبيات مجتد فيها هذين العظيمين ، وتداركهما عبساً وذبيان بعد أن أوشكتا على الفناء ، حتى شهد لهما العرب بالمجد والعظمة والبذل والتضحية ، مع براءتهما من جريرة الحرب ، وبعدهما عن الخصومة فيها .

ثم أقبل على الأحلاف أسد وغطفان وطبى يندرهم أن يحنثوا فيما تحالفوا عليه من السلم ، أو يكتموا الله ما فى صدورهم ، وأتبع ذلك بذكر رزايا الحرب ، وهول من شأنها ، وعظم من مصائبها ، وذكر ما أراقته من دماء أشرافهم وساداتهم ، وشبهها مرة بالسباع الضارية ، وأخرى جعلها كالرحى تعرك ثفالها ، وأنها تحمل ثم تلد لهم ذرارى شوم ..

ثم عرض لخصين بن ضمضم وفعله الذى قتل به العيسى ، وكاد يشعل بذلك نار الحرب ، بعد أن كانت عبس وذبيان تتأهبان للصلح وحقن الدماء . ثم أخذ فى حكمة وأمثاله التى هى ثمرة تجاربه وخوضه معركة الحياة ، وتدل على بصره بأخلاق الناس وأحوال المجتمعات ، فى أبيات تفيض بالحكمة التى تقبلتها الأجيال فجرت على ألسنة الناس ، بما اجتمع فيها من آيات الصدق ، والفتنة لطبيعة الحياة وطبيعة الأحياء .

وفى باب النص السكامل لمعلقة زهير :

- (١) أَمِنْ أَمْ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةٍ الدَّرَاجِ فَلَمُنْتَلِّمْ
- (٢) وَدَارَتْ لَهَا بِالرَّقَّتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَّاجِيْعُ وَشَمِّ فِي نَوَاشِرِ مِصْقَمِ
- (٣) بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَشِينُ خِنْفَةً وَأَطْلَاوْهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ نَجْمِ

- (٤) وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً
(٥) أَثَافِي سُفْعًا فِي مُعَرَّسٍ مِنْ رَجُلٍ
(٦) فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا
(٧) تَبَصَّرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظُلَمَانٍ
(٨) جَمَلَنَ الْقَنَانُ عَنْ يَمِينٍ وَحَزَنَهُ
(٩) عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكَلَّةٍ
(١٠) وَوَوَّرَ كُنْ فِي الشُّوبَانِ يَعْلُونَ مَتْنَهُ
(١١) بَسْكَرَنَ بَسْكَورًا وَاسْتَحْرَنَ بَسْجُورَةً * فَهِنَّ وَوَادِي الرُّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ
(١٢) وَفِيهِنَّ مَلَهَى لِّلْطَيْفِ وَمَنْظَرٌ
(١٣) كَأَنَّ فَنَاتِ الْعَيْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ
(١٤) فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرْقًا جِأَهُ
(١٥) ظَهْرُنَ مِنَ الشُّوبَانِ ثُمَّ جَزَعْنَهُ
(١٦) سَعَى سَاعِيًا غَيْظِينَ مُرَّةً بَعْدَمَا
(١٧) فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ
(١٨) يَمِينًا لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وَمُجِدُّمَا
(١٩) تَدَارَكْنَا عَبْدًا وَذُبْيَانًا بَعْدَمَا
(٢٠) وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نُدْرِكُ السَّلْمَ وَاسْمَا
(٢١) فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ
(٢٢) عَظِيمَيْنِ فِي عُلْيَا مَعْدَةٍ هُدَيْتُمَا
- فَلَا يَأْ عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوْثَمِ
وَتَوْثِيًا كَجِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَنَلَمْ
أَلَا أَنْعَمَ صَبَاحًا أَبْهَى الرَّبْعِ وَاسْلَمْ
تَحْمَلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْنِمْ
وَكَمْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْرِمِ
وَرَادٍ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهَةَ الدَّمِ
عَلَيْهِنَّ دَلُّ الْقَاعِ الْمُنْعَمِ
فَهِنَّ وَوَادِي الرُّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ
أَنِيقٌ لَعَيْنِ الْغَاظِرِ التَّوَسُّمِ
نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمْ
وَضَعْنَ عِصَى الْخَاضِرِ الْمُتَخَيَّمِ
عَلَى كُلِّ قَيْئَنِيٍّ قَشِيْبٍ وَمُفْصَأِمْ
تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالْدَّمِ
رِجَالٌ بَنَوُهُ مِنْ قُرْبَشٍ وَجُرْنِهِمْ
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُزْبَرِمْ
تَفَاوَا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ ظَرَ مَذْشَرِمْ
بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نَسْلَمْ
بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْتَمِمْ
وَمِنْ يَسْتَبِيحُ كَنْزًا مِنَ الْمَجْدِ يَعْظَمِ

- (٢٣) تُعْفَى السُّكُومُ بِالْمُثْلَيْنِ فَاصْبَحْتَ
(٢٤) يَنْجِمُهَا قَوْمٌ لَقَوْمٍ غَرَامَةٌ
(٢٥) فَاصْبَحَ يَجْرِي فِيهِمْ مِنْ تِلَادِ كُمْ
(٢٦) أَلَا أَبْلَغِ الْأَحْلَافَ عَنِّي رَسُولًا
(٢٧) فَلَا تَسْكُتُمُنَّ اللَّهَ مَا فِي نَفُوسِكُمْ
(٢٨) يُؤْخَرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ
(٢٩) وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَاعِلَتُمْ وَذُقْتُمْ
(٣٠) مَتَى تَبْعُوهَا تَبْعُوهَا ذَمِيمَةٌ
(٣١) فَتَمْرُكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِفَالِهَا
(٣٢) فَتَنْتَبِجْ لَكُمْ غِلْمَانُ أَشْنَامُ كُلِّهُمْ
(٣٣) فَتُقَالُ لَكُمْ مَالًا تُقَالُ لَاهِلِهَا
(٣٤) لَعَمْرِي لَنِعْمَ الْحَيُّ جَرٌّ عَلَيْهِمْ
(٣٥) وَكَانَ طَوْى كَشْحًا عَلَى مُسْتَكْنَةً
(٣٦) وَقَالَ سَأُقْضَى حَاجَتِي ثُمَّ أَتَقِي
(٣٧) فَشَدَّ فَلَمْ يُفْرِغْ بِيوتًا كَثِيرَةً
(٣٨) لَدَى أَسَدٍ شَاكِيَ السَّلَاحِ مُدْفٍ
(٣٩) جَرَى مَتَى يُظْلَمَ يَاقِبُ بِظُلْمِهِ
(٤٠) رَعَوْا ظِلْمَهُمْ حَتَّى إِذَا نِمُّوا وَرَدُّوا
(٤١) فَقَضَوْا مَنَآيَا بِيَدِهِمْ أَصْدَرُوا
يُنْجِمُهَا مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِمُجْرِمٍ
وَلَمْ يُهَرِّقُوا بَيْنَهُمْ مِلًّا نَجِيمٍ
مَعَانِمُ شَيْءٍ مِنْ إِبَالٍ مُزْتَمٍ
وَذُبْيَانِ هَلْ أَقْسَمْتُ كُلَّ مُقْسِمٍ
لِيَخْفَى وَمَهْمَا يَكُنَّ اللَّهُ يَعْلَمُ
لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يَعْجَلُ فَيُنْقِمُ
وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجُمِ
وَتَضَرَّ إِذَا مَا ضَرَّ يَتَمُوهَا فَتَضَرَّمِ
وَتَلْبَحْ كِشَافًا ثُمَّ تَنْتَبِجْ فَتَنْتَبِجُ
كَأَحْرِ عَادٍ نِمُّ تَرْضِيعُ فَتَقْطَعُ
قُرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيرٍ وَدِرْهَمِ
بِمَالِ يَوَاتِبِهِمْ حُصَيْنُ بْنُ ضَمَّةٍ
فَلَا هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَقَدَّمِ
عَدُوِّي بِأَلْفٍ مِنْ وَرَائِي مُلْجَمِ
لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمَّ قَشْعَمِ
لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقْلَمِ
سَرِيعًا وَإِلَّا يَبْدُ بِالظُّلْمِ يَظْلِمِ
غِمَارًا تَفَرَّى بِالسَّلَاحِ وَبِالدَّمِ
إِلَى كَلَاٍ مُسْتَوْبِلٍ مُتَوَحِّمِ

- (٤٢) لَمَعْرُكٍ مَاجَرَتْ عَلَيْهِمْ رَمَاحُهُمْ دَمَ ابْنِ نَهْيِكَ أَوْ قَتِيلِ الْمُثَلَّمِ
- (٤٣) وَلَا شَارَكَتْ فِي الْمَوْتِ فِي دَمٍ نَوَقْلٍ وَلَا وَهَبَ مِنْهُمْ وَلَا ابْنَ الْخَزْمِ
- (٤٤) فَكُلًّا أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَبْعَثُونَهُ عُلَّالَةَ أَلْفٍ بَعْدَ أَلْفٍ مُصْتَمِ
- (٤٥) تَسَاقَ إِلَى قَوْمٍ لِقَوْمٍ غَرَامَةِ صَحِيحَاتِ مَالٍ طَالَعَاتٍ بِمَخْرَمِ
- (٤٦) لِحَيٍّ حِلَالٍ يَبْعَثُ النَّاسَ أَمْرُهُمْ إِذَا طَرَقَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ
- (٤٧) كِرَامٍ فَلَاذُو الضُّفْنِ يُذْرِكُ تَبْلَهُ وَلَا الْجَارِمُ الْجَانِي عَلَيْهِمْ بِمُسْلَمِ
- (٤٨) سَيِّئَتْ تَسْكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَبْعَثُ * ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالِكَ يَسْأَلِ
- (٤٩) وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَا كُنْتُ عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ
- (٥٠) رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشْوَاءُ مَنْ تَصِبُ * تَمَتَّتَهُ وَمَنْ تُخْطِي يُعَمَّرُ قِيَهْرَمِ
- (٥١) وَمَنْ لَمْ يَصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضَرَّرُ مِنْ بَأْنِيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَذْمِمِ
- (٥٢) وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ مَنْ دُونَ عِرْضِهِ بِفِرْهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِي الشُّتْمَ يُشْتَمِ
- (٥٣) وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيُبْخَلُ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَفْنَى عَنْهُ وَيَذْمَمِ
- (٥٤) وَمَنْ يُؤْفٍ لَا يَذْمَمُ وَمَنْ يَهْدُ قَلْبَهُ إِلَى مَطْمُنٍ الْبَرِّ لَا يَتَجَمَّعِمِ
- (٥٥) وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَمْلَنَهُ وَإِنْ يَرَقَّ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمِ
- (٥٦) وَمَنْ يَحْمِلُ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَكُنْ حَظُّهُ ذِمًّا عَلَيْهِ وَيَنْذَمِ
- (٥٧) وَمَنْ يَعْصِي أَطْرَافَ الرَّجَاجِ فَإِنَّهُ يَطِيعُ الْعَوَالِي رُكْبَتِ كُلِّ لَهْذَمِ
- (٥٨) وَمَنْ لَمْ يَذْذَعْ عَنْ حَوْضِهِ بِسَلَاحِهِ يُهْذَمُ وَمَنْ لَا يَظْلَمُ النَّاسَ يُظْلَمِ
- (٥٩) وَمَنْ يَغْتَرِبُ بِحَسَبِ عَدُوِّهِ أَصْدِيقَهُ وَمَنْ لَا يَكْرَهُمْ نَفْسَهُ لَا يَكْرَهُمِ
- (٦٠) وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخَفَنِي عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

- (٦١) وَكَأَنَّ تَرَى مِنْ صَامَتِ لِكَ مُعْجِبٍ * زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكْلُمِ -
 (٦٢) لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فَوَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ -
 (٦٣) وَإِنْ سَعَا الشَّيْخَ لِاحْلَمَ بَعْدُهُ وَإِنْ الْفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمُ -
 (٦٤) سَأَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُدْنَا فَعُدْتُمْ وَمَنْ أَكْثَرَ النَّسَالِ يَوْمًا سَيُخْرَمُ -

لبيد

هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر . وقد جعله ابن سلام^(١) في الطبقة الثالثة من فحول الشعراء الجاهليين ، في طبقة نابعة بنى جعدة ، وأبي ذؤيب الهذلي ، والشمّاح بن ضرار^(٢) .

قال ابن سلام . وكان لبيد بن ربيعة ، أبو عقيل ، فارساً شاعراً شجاعاً ، وكان عذب المنطق ، رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق (ص ١١٣) وقال : وعمر لبيد عمراً طويلاً ، وكان في الجاهلية خير شاعر لقومه : يمدحهم ، ويرثيهم ، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم (ص ١١٤) وكان يقال لأبيه « ربيع المقترين » لسخائه ، وقتلته بنو أسد في حرب بينهم وبين قومه^(٣) . وقد ورث لبيد من أبيه ربيعة حلة الجود . وكان قومه أصحاب غارات ، وفيهم بأس وتعرض للثرات فوقهم فيهم القتل ، وألحت عليهم المصائب ، وكان ذلك من عوامل تفجير شاعريته ، وبروزها في سن مبكرة ، وقد^١ النابغة لبيداً وهو غلام جاء مع أعمامه إلى النعمان بن المنذر ، فتوسم فيه الشا

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١٠٣ (٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة

فسأل النابغة عنه فنسبوه ، فقال له : يا غلام ، إن عينيك لعينا شاعر ، أفتقرض من الشعر شيئاً ؟ قال : نعم يا عم . قال : فأنشدني ، فأنشده لييدقصيدته التي أولها * ألم ترجع على الدمن الخوالى * فقال له : يا غلام ، أنت أشعر بنى عامر ، زدني ! فأنشده قوله * طلل نخولة في الرسيس قديم * فضرب بيده على جبينه ، وقال : اذهب فأنت أشعر من قيس كلها !

وكان أبين بنى عبس وبين بنى عامر رهط لبيد عداوة أثارها أن خاله ابن جعفر أجد سادتهم وقوادهم قتل زهير بن جذيمة أبا قيس بن زهير صاحب « داحس والغبراء » وخلص قومه وسائر بطون هوازن من ذل الإناوات التي كان يحجبها منهم بالعسف والقسر ، وكان العامريون يفدون كل سنة على قصور الحيرة عند النعمان بن المنذر ، وكان الربيع بن زياد العبسي مخصوصاً به كثيراً عنده ، يستخلصه لنفسه ويناديه ، فكان يسمى إليهم ويتنقصهم ويؤخر إذنهم . واتفق أنهم عادوا ليلة من عند الملك إلى رحالم غضابا ، فقمعدوا يأتُمرون فيما بينهم ، ولبيد معهم ، فسألم ما بهم ، فلم يجيبوه استصغاراً لشأنه ، فحلف لا يحفظ لهم متاعاً ولا يرى لهم راحلة إن لم يخبروه بشأنهم ، فقال له عمه « عامر بن مالك — ملاعب الأسنة » وهو زعيم الوفد ورئيسهم : خالك الربيع يسمى إلينا عند الملك ! فقال له : أنقدرون أن تجمعوا بيني وبينه ؟ قالوا : وما تصنع ؟ قال : أزجره عنكم بقول ممض مؤلم لا يلتفت إليه الملك بعده أبداً . قالوا : فإننا نبلوك بشتم هذه البقلة — وقدامهم بقلة دقيقة القضبان ، قليلة الورق ، لا صفة بالأرض ، تدعى التربة — فقال : هذه التربة التي لا تؤهل داراً ، ولا تذكي ناراً ، ولا تسرّ جاراً ، عودها ضئيل ، وفرعها قليل ، وخيرها قليل ، نبتها خاشع ، وآكلها جائع ، والمقيم عليها ضائع ، أخبت البقول مرعى ، وأقصرها فرعا ، فتعسا لها وجدعا . ألقوا بنى أخا عبس ، أردت

عنكم بتعس ، وأتركه من أمره في لبس » . فلما أصبحوا حلّقوا رأسه وألبسوه حلة ، وغدّوا به معهم على باب الملك ، والدار والمجالس مملوءة بالوفود وجماعات الناس ، والربيع مع الملك يطاعمه ، فتقدم لبّيد ، فلما كان بحيث يسمعه الملك رجز بالربيع ، وتناوله بهجاء مقذع في مقطوعة له مروية ، فصرف عنه وجه الملك ، وأذن لبني عامر ، فأكرم وفادتهم وقضى حوائجهم ، وكان هذا أول ما عرف من كفاية لبّيد ونجابتة ^(١) .

ولما أغار الربيع بن زياد العبسي ، واستفاء سروح بني جعفر والوحيد ابني كلاب ، وذكر جعفرا والوحيد في شعره ^(٢) ، ثار لبّيد وأنشد يهدد ربيعا وقومه :

واستُ بغافر لبني بغيضٍ سفاهتهم ولا خَطَلَ اللسانِ
سأخذ من سراتهم بِعِرضي وليسوا بالوفاء ولا المداني
فإن بقيّة الأحساب منا وأصحاب الحِمالة والطَّعانِ
جرائم مَنَعَنَ بياضَ نجد وأنت تُعد في الزَّمع الدواني

وهكذا نشأ لبّيد شاعر قوم ، يدافع عن أحسابهم ويذكر أيامهم . وكان لبّيد قد اتصل بالعباسنة ملوك الشام ، ونال الحظوة لديهم بعدما وثقوا به ، وعداوتهم لملوك الحيرة معروفة ، فقد روى أن الحارث النسائي ، وهو الحارث الأعرج ، وجّه إلى المنذر بن ماء السماء مائة فارس ، وأمر لبّيداً عليهم ، فساروا إلى عسكر المنذر ، وأظهروا أنهم أنوه داخلين في طاعته ، فلما تمسكوا منه قتلوه وركبوا خيالهم ، فتعقبهم التابع والجند حتى قتلوا أكثرهم ، ونجا لبّيد فيمن نجا ،

(١) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ٩٥/١ .

(٢) انظر خزائن الأدب للبغدادي ٢٨٩/١ .

ووقع بسبب ذلك يوم حليلة المضروب به المثل في قولهم « ما يوم حليلة بسر ». ولكن ليبدأ كان على مودة مع النعمان فقد رثاه بقصيد طويلة تزيد على خمسين بيتا ، وإن كان أكثر ما فيها من المعاني يدور على ما تصنع الأيام والليالي واستخلاص العبرة من أحداثها ، وأولها :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول	أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
حبائله مبثوثة في سبيله	ويغنى إذا ما أخطأته الحبائل
إذا المرء أسرى ليلة خال أنه	قضى عملا والمرء ماعاش عامل
فقولاً له إن كان يقسم أمره	ألمّا يعظك الدهر ؟ أمك هابل
فتعلم ألا أنت مدرك ماضى	ولا أنت مما تحذر النفس وائل
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب	لعلك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان والدأ	ودون معد فلنزعك العوازل
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم	بلى كل ذى رأى إلى الله واسل
ألا كل شيء ما خلا الله باطل	وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم	دويهيّة تصفر منها الأنامل
وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه	إذا كشفت عند الإله الحصائل

وهذا كلام من يؤمن بالبعث والنشور ، وتلك طبيعة النفس الصافية ، التي لا تلبث إذا وجدت داعياً إلى الله أن تسرع إلى الإيمان به ؛ وقد كان كذلك فإن ليبدأ حين سمع بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ذهب إلى قومه فأسلموا وأسلم معهم ، ثم عادوا إلى باديتهم ، ويفقد ليبدأ على الرسول يسأله عما خفى عليهم من أمور الدين ليحدث قومه بما يرى . ولقد حسن إسلامه ، ودخل نور الإيمان إلى قلبه ، وهجر الشعر الذى كان من أعلامه ، وأقبل على القرآن يحفظه ويتدبر

آياته ، ولذلك وصف بأنه كان مسلماً رجل صدق ، وقد ذكروا أنه لم يندد
في إسلامه إلا بيتاً واحداً وهو قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني آجلى حتى كساني من الإسلام سر بالاً
وقيل : بل هو قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفه والمرء يصلحه الجليسُ الصالحُ
وكتب عمر بن الخطاب إلى عامله « المغيرة بن شعبه » بالكوفة — وكان
ليبيد قد اتخذها وطناً في خلافة عمر — أن استنشد من عندك من شعراء مصر
ما قالوه في الإسلام ، فأرسل المغيرة إلى الأغلب العجلي أن أنشدني ، فقال :

لقد طلبت هيناً موجوداً أرجوا تريد أم قصيداً

ثم أرسل إلى ليبيد أن أنشدني ، فقال : إن شئت ما عفى عنه ، يعني الجاهلية .
قال : لا ، ما قلت في الإسلام ، فانطلق إلى بيته فكتب سورة البقرة في صحيفة ،
ثم أتى بها ، فقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر . فكتب بذلك
المغيرة إلى عمر ، فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة وزادها في عطاء ليبيد ، فكان
عطاؤه ألفين وخمسمائة . فكتب الأغلب إلى عمر : يا أمير المؤمنين تنقص عطائي
أن أطعك ؟ فردّ عليه خمسمائة ، وأقر ليبيد على الألفين والخمسمائة . وروى أن
عمر رضى الله عنه قال يوماً لليبيد : أنشدني شيئاً من شعرك ، فقال : ما كنت
لأقول شعراً بعد أن علمني الله البقرة وآل عمران ^(١) .

قالوا : وكان ليبيد شريفاً في الجاهلية والإسلام ، وكان نذر ألا تهب الصبا
إلا نحر وأطعم ، وأن الصبا هبت يوماً وهو بالكوفة مقتر ملقى ، فعلم بذلك

(١) مطالع البدور في منازل السرور ٥٣/١ (مطبعة الوطن — القاهرة ١٢٩٩ هـ)
والشعر والشعراء ٢٣٣/١ .

الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وكان أميراً عليها لعثمان ، فخطب الناس فقال :
 إنكم قد عرفتم نذر أبي عقيل وما وكد على نفسه فأعينوا أخاكم ، ثم نزل إليه
 بمائة ناقة ، وبعث الناس إليه ، ففقد نذره ، فاجتمعت عنده ألف راحلة ،
 وكتب إليه الوليد :

أرى الجزار يشحد شفرتيه إذا هبت رياح أبي عقيل
 أغرّ الوجه أبيض عامر طويل الباع كالسيف الصليل
 وفي ابن الجعفرى بحلفتيه على الصلّات والماء القليل
 بنحر الكوم إذ سحبت عليه ذيول صبا تجاوب بالأصيل
 فقال ليبد لابنته : أجيبه ، فقد رأيتني وما أعيا بجواب شاعر ،
 فأنشأت تقول :

إذا هبت رياح أبي عقيل دعونا عند هبتها الوليد
 أشم الأنف أضيّد عشمياً أعان على مروته لبيد
 بأمشال المضاب كأن ركبا عليها من بني حام قعود
 أبا وهب جزاك الله خيراً نحرناها وأطمعنا الوفود
 فقد إن الكريم له معاد وظنى يا ابن أروى أن تعود

فقال لها لبيد : قد أحسنت لولا أنك استزدته ، فقالت : والله ما استزدته
 إلا أنه ملك ولو كان سوقه لم أفعل . وكانت وفاة لبيد في أول خلافة معاوية ،
 وهو معدود من المعمرين ؛ وقد ذكروا أنه عاش مائة وسبعا وخمسين سنة . وزعم
 بعضهم أن وفاته كانت في خلافة عثمان وأن وفاته كانت بالكوفة أيام ولاية
 الوليد بن عقبة ، وهو وهم ، والصحيح ما ذكر من وفاته أيام معاوية فقد تواترت
 الروايات أن معاوية أراد أن يحمل عطايا الناس ألقين ، وأنه قال للبيد : هذان

الفودان^(١) ، فما هذه العلاوة ؟ يعنى بالفودين الألفين ، وبالعلوة الخمسمائة ، وأراد أن يحطه إياها ، فقال لبيد : أموت ويبقى لك الفودان والعلوة ، وإنما أنا هامة اليوم أو غد ، فرق له معاوية ، وترك عطاءه على حاله ، فات بعد ذلك جيسير ولم يقبضها ، ويروى أن معاوية قال له : يا أبا عقيل ، عطائي وعطائك سواء ، لا أراني إلا سأحطك ! قال لبيد : أوتدعني قليلا ثم تضم عطائي إلى عطائك فتأخذه أجمع^(٢) .

أما شعر لبيد فإن الناظر فيه يستطيع أن يحصر أغراضه في غرضين هما الفخر والرثاء ، ومعانيه في كليهما معان جاهلية ، ففخره بفتوته وترفعه وإنجاده المستنجد به وقرى الضيف الذى ينزل عليه ، والمباهاة بقومه وعشيرته ، وهو فى هذا الغرض كثيراً ما يقرنه بالوصف ، ولا سيما وصف ناقته التى يرحل عليها ، أو يقرها لأضيافه ، مع تشبيهها بأصناف من حيوان البادية كالبقرة أو الأتان أو النمامة . ومعانيه فى الرثاء هى معانى الحكمة المستفادة من الحياة التى تحذع بزيتها وزخرفها ، ثم لا تلبث أن ينطفىء شعاعها مع ما يدع ذلك من الحسرة والكمد فى أنفس الآل والصحب ، ولكن أسلوبه فى فخره يختلف تمام الاختلاف عن أسلوبه فى رثائه ، فهو يختار للفخر ، وما قد يكون فى ثنائه من الأوصاف والألفاظ الغريبة التى ترى عليها مسحة البادية وخشونة الصحراء ، على درجة لا تكاد تجد لها نظيراً فى شعر غيره من الجاهليين ، على أنه فى فن الرثاء يعذب ويرق ، فلا ترى فى ألفاظه إلا كل سمح من الكلام وكل مأنوس فى الاستعمال . وأعتقد أن ما وصفه به ابن سلام الجحى فى قوله فى نعت لبيد بأنه كان رقيق حواشى الكلام إنما كان يقصد به الحكم على شعره الذى قاله فى الرثاء ، فإن

(١) الفودان المدلان ، كل واحد منهما فود ، وكل منهما نصف حمل يكون على أحد

جنبى البعير .

(٢) انظر طبقات فحول الشعراء ١١٣ والشعر والشعراء ٢٢٣/١ وخزانة الأدب ٢/٧٤ .

هذا الوصف لا ينطبق بأى حال على شعره فى الفخر أو فى الوصف ، كذلك الذى نجده فى شعر المعلقة مما لا يكاد يفهم إلا بالاستعانة بمعاجم اللغة ، ولعله بعد تلك الاستعانة على حلّ الألفاظ الغريبة تظل الحاجة إلى فهم الأسلوب والتركيب ، حتى يمكن تذوق الفن الشعرى الذى فيه .

معلقة ليلى :

والدارس لمعلقة ليلى يجدها قد خلت من ذكر المرأة ووصف الشغف بها والصبا بهواها ، وقد خلا مطلعها تماماً عما عهدناه عند السابقين من أصحاب المعلقة ، فقد وجدنا معلقة امرئ القيس تفيض بذكر المرأة ووصف مفاتها والديب إليها فى أكثر من موضع ، ووجدنا فى معلقة طرفة ذكرها فى أول كلمة منها ، كما وجدناه يعد اللهو بها من أهم أمانيه القليلة التى لا يحرص على الحياة إلا من أجلها ، ورأينا زهيراً مع تعفّفه وجدّه يحرص على ذكر « أم أوفى » زوجته هوّى أو تقليداً . ولكن ليلى تختلف عن هؤلاء أجمعين ، فإنه لا يبدأ قصيدته بذكر « نوار » وإنما بدأها بذكر الأطلال والدمن التى أفقرت من أناسها ، ووصف الطبيعة والرعد والمطر والسحاب فى مجموعة من التشبيهات الجيدة ، فى خمسة عشر بيتاً ذكر بعدها « نوار » وذكر بأسه من لقاءها لبعده منازلها فى شعر فيه الطبيعة وفيه أثر العقل ، وليس فيه من وصف عاطفة الحب كثير أو قليل :

بل ما تذكر من نوارٍ وقد نأتِ وتقطعتِ أسبابها ورماها

ثم يأمر نفسه بقطع حبها بعد إذ تعذر وصلها ، ويؤثر عليها بوصف ناقته التى تعينه على أسفاره ، وتعينه على قطع المفازات ، وتعلو به التلاع وتهبط به الوهاد فى أبيات كثيرة تتعاقب فيها الأوصاف وتترادف التشبيهات ؛ ثم يعود إلى ذكر

« نوار » فى بيت واحد ، هو أشبه بالكيد والتشفى منه بالتعبير عن الود والحب ، إذ هو يصف نفسه بالحزم وإجماع رأى ، والقدرة على النسيان :

أو لم تكن تدرى نوار بأننى وصَّالٌ عَفْدٍ حَبَائِلُ جَدَّائِهَا
تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أو يعتلقُ بعضَ النفوسِ حَمَائِهَا

ولذلك كان من الممكن القول بأن هذه المعلقة خالية من ذكر المرأة أو من وصفها ووصف الغرام بها .

وقد ذكر الرواة نكل معلقة سبباً دعا إلى إنشادها ، وتجربة أثارت انفعال الشاعر ، فانطلق يعبر عن هذا الانفعال ، ولكنهم لم يذكروا سبباً خاصاً أو تجربة خاصة لهذا الشاعر كانت هذه المعلقة تعبيراً عنها . ولكن الذى يدل عليه هذا الشعر لا يتعدى الانفعال بحياة البداوة ، وما فيها من مظاهر الطبيعة والحيوان ؛ وما يتمجد به مرأة العرب وأجوادهم من النجدة وقرى الضيف ، وقد وصف طرفة تلك المشاهد الطبيعية من الأطلال التى يخلفها الظاعنون ، وفعل الأمطار والسيول بها التى لاتبقى من آثارها إلا مثل ذلك الذى يبدو من أثر الكتابة على الحجر ، لا يبصره إلا من يتأمله . ثم يصف ناقته فى أبواب كثيرة ، يصف فيها ما يعتمد عليه منها ، ويذكر سرعتها ، ويكثر من تشبيهها ، فهى تارة كالسحاب ترفعه ربح الجنوب ، وتارة كالأنان الوحشية ، وطوراً كالبقرة الوحشية التى أضاعت ولدها فهى تسرع فى تعقبه وطلبه ، ويصف فضائل نفسه ، وهى من المثل التى يقدمها العرب ، ويلتمسونها فى فتيانهم ورجالهم ، فهو أبى كل الإباء ، كريم كل الكرم ، يلعب الميسر على الجزور ثم ينحرفها ويطعمها الناس ، وهو رجل أمانة وعقل ونجدة ، لأنه نسل من قوم يهيمون بهذه الفضائل ؛ وكل ذلك فى ألفاظ تغلب عليها خشونة الصحراء التى كان يعيش فيها ، وهاك نص معلقة لبید :

- (١) عَفَّت الدِّيارَ محلَّها فَمُقامُها
- (٢) فَمَدَّافِيعُ الرِّيانِ عُرِّيَ رَسْمُها
- (٣) دِمَنٌ مُجَرَّمٌ بَعْدَ عَهْدِ أُنيْسِها
- (٤) رُزِقَتْ مَرايِيعَ النُّجومِ وَصابِها
- (٥) مِنْ كُلِّ سارِيَةٍ وَغادٍ مُدْجِنِ
- (٦) فَعَلَّافُ رُوعِ الأُمِّيِّها قانٍ وَأُطْلِفَتْ
- (٧) وَالْعَيْنُ ساكِنةٌ عَلَى أَطْلالِها
- (٨) وَجَلَّ السَّيولُ عَنِ الطُّلولِ كائِنا
- (٩) أَوْ رَجَعُ واثِمَةٍ أُسِفَ نَشورُها
- (١٠) فَوَقَّتْ أَساَلُها وَكَيْفَ سِوائِنا
- (١١) عَمِرَتْ وَكانَ بِها الجَميعُ مُفابِكرُوا
- (١٢) شاقَتْكَ ظُعمُنُ الحَيِّ حِينَ تَحَمَّلُوا
- (١٣) مِنْ كُلِّ مُحفوفٍ يُبْظَلُ عِصِيَّه
- (١٤) زُجَلًا كانَ نَماجُ وَضَحِ فَوْقِها
- (١٥) حُمَزَتْ وَزِيلَها السَّرابُ كائِنا
- (١٦) بَلْ ما نَدَّ كَرُمُ نَوارٍ وَقَدَنائِ
- (١٧) مُرِيَّةٌ حَلَّتْ بِفَيْدٍ وَجاوَرَتْ
- (١٨) بِمَشارِقِ الجَبَلينِ أَوْ بِمَحَجِّيرِ
- (١٩) فَصَوائِقُ إِنَّ أَتَمَّتْ فَمَطَنَ
- (٢٠) فاقطَعِ لُبائَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصلُه
- بِمَنى تَأْبُدُ غَوَلُها فَرِجامُها
- خَلَقًا كما ضَمِنَ الوَحْيُ سِلاَمُها
- حَبَجَّ خَلَوْنَ حَلالُها وَحَرامُها
- وَذَقُ الرُّواعِدِ جَوْدُها فَرهاَمُها
- وَعَشِيَّةٌ مُتجاوِبِ إِزْرامُها
- بِالجَنِّتينِ ظِباوُها وَنَعامُها
- عَوْذاً تَأْجَلُ بِالْفَضاءِ بِهاَمُها
- زُبُرٌ مُجِدُّ مُتَوْنِها أَقلامُها
- كِفِّها تَعَرَّضَ فَوْقَها وَشامُها
- صَمًا خوالِدَ ما يَبينُ كَلامُها
- مِنها وَغَوَدَرَ نُؤيُها وَنَمامُها
- فَتَكذَّبُوا قُطْناً تَصِرُّ خِيامُها
- زَوَجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وَقَرامُها
- وَضِباءُ وَجَرَةٍ عَظْماً أَرامُها
- أَجْزاعُ بَيْدَةٍ أَثْلُها وَرِضامُها
- وَتَقَطَعَتْ أَسابِها وَرِماَمُها
- أَهْلَ الحِجازِ فَإِنَّ مَنكَ مَرامُها
- فَتَضَمَّنْها قَرَدَةٌ فَرخامُها
- مِنها وَخافَ القَهْرُ أَوْ طِناخامُها
- وَلَشَرُّ واصلِ خَلَةٍ صَرامُها

- (٢١) رَاخِبُ الْجَمَلِ بِالْجَزِيلِ وَصَرْمُهُ
(٢٢) بِطَلِيحِ أَسْفَارٍ تَرْكَنَ بَقِيَّةَ
(٢٣) وَإِذَا تَغَالَى لِحْمُهَا وَنَحْمَرَتْ
(٢٤) فَلَهَا هَبَابٌ فِي الزَّمَامِ كَأَنَّمَا
(٢٥) أَوْدُمُوعٌ وَسَقَتْ لِأَخْفَبِ لَاحَةٍ
(٢٦) يَلُوبِهَا حَذَبُ الْإِكَامِ مُسَحَّجًا
(٢٧) بِأَحْزَةِ الثَّلَابُوتِ رَبًّا فَوْقَهَا
(٢٨) حَتَّى إِذَا سَلَخَا جُمَادَى سِتَّةَ
(٢٩) رَجَعَا بِأَمْرِهِمَا إِلَى ذِي مِرْقَةٍ
(٣٠) وَرَمَى دَوَابِرَهَا السَّمَاءُ تَهَيَّجَتْ
(٣١) فَتَنَازَعَا سَبْطًا يَطِيرُ ظِلَالُهُ
(٣٢) مَشْمُولَةً غُلِمَتْ بَنَاتِ عَرْفَجٍ
(٣٣) فَضَى وَقَدَمُهَا وَكَانَتْ عَادَةً
(٣٤) فَتَوَسَّطَا عُرْضَ الْمَرِيِّ وَصَدَعَا
(٣٥) مَحْفُوفَةً وَسَطَ الْبِرَاعِ يُطْلِمُهَا
(٣٦) أَفْتَلِكُ أَمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْجُودَةٌ
(٣٧) خَذَاهُ ضِيَمَتِ الْفَرِيرِ فَلَمْ يَرَمْ
(٣٨) لِمَعْفَرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوُهُ
(٣٩) صَادِقُنْ مِنْهَا غِرَّةٌ فَأَصْبَدَهَا
(٤٠) بَانَتْ وَأُسْبِلَ وَاكِفٌ مِنْ دِيمَةٍ
- بَاقٍ إِذَا ضَلَمَتْ وَزَاغَ قَوَامُهَا
مِنْهَا فَأَحْمَقَ صُلْبُهَا وَسَنَامُهَا
وَتَقَطَّعَتْ بَعْدَ السَّكَلَالِ خِدَامُهَا
صَهْبَاهُ خَفَّ مَعَ الْجَنُوبِ جَهَامُهَا
طَرَدُ الْفَحُولِ وَضَرْبُهَا وَكِدَامُهَا
قَدْ رَابَهُ عَصِيَانُهَا وَوِحَامُهَا
قَفَرِ الْمَرَاقِبِ خَوْفُهَا آرَامُهَا
جَزْءُهَا فَطَالُ صَيَامِهِ وَصِيَامُهَا
حَصِيدٍ وَنَجْحٍ صَرِيحَةٍ إِبْرَامُهَا
رِيحُ الْمَصَافِ سَوْمُهَا وَمَهَامُهَا
كَدْخَانٍ مُشْعَلَةٍ يُشْبُ ضِرَامُهَا
كَدْخَانٍ نَارٍ سَاطِعٍ أَسْنَامُهَا
مِنْهَا إِذَا هِيَ عَرَدَتْ إِقْدَامُهَا
مَسْجُورَةٌ مُتَجَاوِرًا قَوْلَامُهَا
مِنْهُ مُصْرَعٌ غَايَةِ وَقِيَامُهَا
خَذَلَتْ وَهَادِيَةُ الصَّوَارِ قَوَامُهَا
عُرْضَ الشَّقَائِقِ طَرَفُهَا وَبُعَامُهَا
غُبْسٌ كَوَاسِبُ لَا يَمْنُ طَعَامُهَا
إِنَّ النَّايَا لَا تَطْدِشُ سِهَامُهَا
يُرْوَى الْخَمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَامُهَا

- (٤١) يَعْلَمُ طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرٌ
(٤٢) تَجْتَنِفُ أَصْلَاقًا لَصًّا مُتَذَبِّذًا
(٤٣) وَتُضَيِّقُ فِي وَجْهِ الظَّلَامِ مُنِيرَةً
(٤٤) حَتَّى إِذَا حَسَرَ الظَّلَامُ وَأَسْفَرَتْ
(٤٥) عَدَّتْ زَرْدُودٌ فِي نِهَاءِ صُعَائِدِ
(٤٦) حَتَّى إِذَا يَدَسَتْ وَأَسْهَقَ حَالِقُ
(٤٧) وَتَسَمَّتْ رِزَّ الْأَنْبَسِ فِرَاطِهَا
(٤٨) فَغَدَّتْ كَلَالًا لَفْرَجَيْنِ نَحْسَبُ أَنَّهُ
(٤٩) حَتَّى إِذَا يَدُسُ الرَّمَامُ وَأَرْسَلُوا
(٥٠) فَلَجَحْنٍ وَاعْتَكَرَتْ لَهَا مَذْرِبَةٌ
(٥١) لَتَذُودُ مَنْ وَأَيْفَتْ إِنْ لَمْ تَذُدْ
(٥٢) نَقَصَدَتْ مِنْهَا كَسَابُ فَضْرَجَتْ
(٥٣) فَبْتَكَ إِذْ رَقَصَ اللُّوَامِعُ بِالضُّحَا
(٥٤) أَقْضَى اللَّبَانَةَ لَا أَفَرُّطُ رِيبةً
(٥٥) أَوْ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارِ بَانِي
(٥٦) تَرَاكَ أَمْسَكَةً إِذَا لَمْ أَرْضْهَا
(٥٧) بَلْ أَنْتِ لَا تَذَرِينَ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ
(٥٨) قَذَبْتُ سَامِرَهَا وَغَايَةَ تَاجِرِ
(٥٩) أَغْنَى السَّبَاءُ بِكُلِّ أَذْكَنِ عَاتِقِ
(٦٠) بِصَبُوحِ صَافِيَةٍ وَجَذْبِ كَرِينَةٍ
- فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ ظَلَامُهَا
بِعُجُوبِ انْقِطَاعِ يَمِيلُ هَيَامُهَا
كَجَمَانَةِ الْبَحْرِىِّ سُلَّ نِظَامُهَا
بَكَرَتْ تَزَلُّعًا عَنِ الثَّرَى أَزْلَامُهَا
سَبْعًا تَوَامًا كَامِلًا أَيَّامُهَا
لَمْ يُبْلِغْ إِرْضَاعُهَا وَفِطَامُهَا
عَنْ ظَهْرِ غَيْبِ الْأَنْبَسِ سَقَامُهَا
مَوْلَى الْخُفَافَةِ خَلْفَهَا وَأَمَامُهَا
غُضْفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَامُهَا
كَالْمَهْرِيَّةِ حَدَّهَا وَتَمَامُهَا
أَنْ قَدْ أَحْمَمَ مِنَ الْحُتُوفِ حَامُهَا
بِدَمٍ وَغُودِرَ فِي الْمَكْرِ سَحَامُهَا
وَاجْتَنَبَ أَرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا
أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةِ لَوَامُهَا
وَصَالَ حَقْدِ حَبَائِلِ جَذَامُهَا
أَوْ يَغْتَلِقَ بَعْضَ النُّفُوسِ حُمَامُهَا
طَلَقَ لَدَيْهَا لُحُوهَا وَنِدَامُهَا
وَأَفَيْتُ إِذْ رُفِعَتْ وَعِزُّ مَدَامُهَا
أَوْ جَوْنَةً قُدِحَتْ وَفُضَّ خِتَامُهَا
بِمَوْتِ تَنَائُلِهِ إِنْهَا مَهَا

- (٦١) وَغَدَاةٍ رِيحٍ قَدَوَزَعْتُ وَقِرَّةٍ
 قَدْ أَصْبَحْتُ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا
- (٦٢) بَادَرْتُ حَاجَتَهَا الدَّجَاجَ بِسُحْرَةٍ
 لِأَعْلٍ مِنْهَا حِينَ هَبَ نِيَامُهَا
- (٦٣) وَلَقَدْ حَمَيْتُ الْخَلِيلَ تَحْمِلَ شِكَايَتِي
 فُرْطُطٌ وَشَاكِي إِذْ غَدَوْتُ لِحَامُهَا
- (٦٤) فَمَلَوْتُ مُرْتَقِبًا عَلَى ذِي هَبْوَةٍ
 حَرَجٍ إِلَى أَعْلَامِهِنَّ قَتَامُهَا
- (٦٥) حَتَّى إِذَا أَلَقْتُ بِدَأْفِي كَافِرٍ
 وَأُجِنُّ عَوْرَاتِ النُّمُورِ ظَلَامُهَا
- (٦٦) أَسْهَلْتُ وَانْتَصَبْتُ كَجِدْعٍ مُنِيفَةٍ * جَرْدَاءَ يَحْضَرُ دُونَهَا جُرَامُهَا
- (٦٧) رَفَعْتُهَا طَرَدَ النِّعَامِ وَسَلَّهُ
 حَتَّى إِذَا سَخِخْتُ وَخَفَّ عَظَامُهَا
- (٦٨) قَلِقَتْ رِحَالُهَا وَأَسْبَلَ نَحْرُهَا
 وَابْتَلَّ مِنْ زَبَدِ الْحَمِيمِ حِرَامُهَا
- (٦٩) تَرَقَّى وَتَطْمَنُ فِي الْعِنَانِ وَتَنْتَحِي
 وَرَدَ الْحَمَامَةِ إِذْ أُجِدَّ حَمَامُهَا
- (٧٠) وَكَثِيرَةٍ غُرْبَاؤُهَا مَجْهُولَةٍ
 تُرْجَى نَوَافِلُهَا وَيُخْشَى ذَامُهَا
- (٧١) غُلِبَ تَشَدُّرُهَا بِالْذُّحُولِ كَأَنَّهَا
 جِنُّ الْبَيْدِيِّ رَوَاسِبُ أَقْدَامُهَا
- (٧٢) أُنْكَرْتُ بَاطِلُهَا وَبُؤْتُ بِحَقِّهَا
 عِنْدِي وَلَمْ يَفْخَرْ عَلَى كِرَامُهَا
- (٧٣) وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَنِّهَا
 بِمَفَالِقٍ مُتَشَابِهِ أَعْلَامُهَا
- (٧٤) أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفِلٍ
 مُبْذِلُ لَجِيرَانِ الْجَمِيمِ لِحَامُهَا
- (٧٥) فَالضَّيْفُ وَالْجَارُ الْجَنِيبُ كَأَنَّمَا
 هَبَطًا تَبَالَةً مُخْصِبًا أَهْضَامُهَا
- (٧٦) تَأْوِي إِلَى الْأَطْنَابِ كُلِّ رَذِيْقَةٍ
 مِثْلُ الْبَلِيَّةِ قَالِصٍ أَهْدَامُهَا
- (٧٧) وَيُكَلِّدُونَ إِذَا الرِّيَّاحُ تَنَاوَحَتْ
 خُلُجًا نُمْدَةً شَوَارِعًا أَيْتَامُهَا
- (٧٨) إِنَّا إِذَا التَقَتِ الْجَمَاعُ لَمْ يَزَلْ
 مَنَا لِرِزَازٍ عَظِيمَةٍ جَشَامُهَا
- (٧٩) وَمُقَسَّمٌ يُعْطَى الْعَشِيرَةُ حَقُّهَا
 وَمُقَدَّرٌ لِحَقْوَقِهَا هَضَامُهَا
- (٨٠) فَضْلًا وَذَوْكَرِيمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى
 سَمَحٌ كَسُوبٌ رَغَائِبٍ غَنَامُهَا

- (٨١) من معشرٍ سَدَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلَسَكُلُّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا
(٨٢) لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يَبُورُ فَعَا لَهُمْ إِذْ لَا يَمِيلُ مَعَ الْهَوَىٰ أَحْلَامُهَا
(٨٣) فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخِلَافُ بَيْنَنَا عَلاَمُهَا
(٨٤) وَإِذَا الْأَمَانَةُ قَسَمْتُ فِي مَعْشَرٍ أَوْفَىٰ بِأَوْفَرِ حَظَّنَا قَسَامُهَا
(٨٥) فَبَنَىٰ لَنَا بَيْتًا رَفِيعًا سَمَكُهُ قَسَمًا إِلَيْهِ كَظْمُهَا وَغُلَامُهَا
(٨٦) وَهُمْ السُّعَاءُ إِذَا الْعَشِيرَةُ أَنْظَمَتْ وَهُمْ فَوَارِسُهَا وَهُمْ حُكَّامُهَا
(٨٧) وَهُمْ رَبِيعٌ لِلْجَاوِرِ فِيهِمْ وَالْمُرْمِلَاتِ إِذَا تَطَاوَلَتْ عَامُهَا
(٨٨) وَهُمْ الْعَشِيرَةُ أَنْ يُبْطِئَ حَاسِدٌ أَوْ أَنْ يَمِيلَ مَعَ الدُّوِّ لِذَامُهَا

عمرو بن كلثوم

رأس الطبقة السادسة من فحول الشراء في الجاهلية عند ابن سلام الجعفي ،
قال : وهم أربعة رهط ، لسكل واحد منهم واحدة : أولهم عمرو بن كلثوم ،
والحارث بن حلزة ، وعنترة بن شداد ، وسويد بن أبي كاهل^(١) .

وكان عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب بن سعد بن زهير من بني تغلب ،
شاعراً فارساً شجاعاً ، وهو أحد فُتّاك العرب ، ساد عشيرته بشجاعته وإسائه
وحسن بلائه في مطلع شبابه ، وقد ورث تلك الصفات عن أبيه وأجداده ، فأبوه
كلثوم بن مالك فارس العرب ، وجدّه لأمه مهلهل بن ربيعة المعروف بشعره
وشجاعته وبأسه ، وعمّ أمه كليب وائل أعزّ العرب .

ولا يعرف من أمر نشأته إلا هذا النسب ؛ وإلا ما كان من العداوة الشديدة

(١) طبقات فحول الشراء لابن سلام ١٢٧ .

بين قومه بنى تغلب وإخوتهم بنى بكر ، التى جرت إلى حرب ضروس أكلت الأخضر واليابس ، وهى حرب البسوس المشهورة فى تاريخ عرب الجاهلية . وقد انتهت قيادة بنى تغلب ورياستهم إلى عمرو بن كلثوم ، وتدخل فى الصلح بين بنى تغلب وبنى بكر المناذرة ملوك الحيرة ، حتى كان عمرو بن هند الذى جمع بكراً وتغلب فأصلح بينهم ، وأخذ من الحيين رهناً من كل حى مائة غلام ، ليكف بعضهم عن بعض ، وكان أولئك الرهن يسيرون ويغزون مع الملك ، فأهاب غلمان تغلب ما قضى على أكثرهم ، وسلم البكر يون ، فطالب التغلبيون البكرين بديات أبنائهم ، فأبت بكر ، واختصما وتحاكما إلى عمرو بن هند ، وكان سيد تغلب هو عمرو بن كلثوم ، وشاعر بكر هو الحارث بن حلزة . وتفاخرت القبيلتان بين يديه . وفى هذا الموقف قال عمرو بن كلثوم بعض معلقته يفخر فيها بقبيلته ، وقال الحارث بن حلزة جزءاً من معلقته يفخر فيها ببكر ، كما سيأتى فى ترجمة الحارث .

هذا ما رواه الرواة من أخبار عمرو بن كلثوم ، وليس فيه شئ من التفصيل عن حياته ونشأته ، وإن كان المفهوم أنها حياة لا تختلف عن حياة أمثله من فتيان العرب الذين ترعرعوا فى مثل بيته وفى مثل بيئته ، من اللهو وانهاب اللذات ، وضروب البسالة التى يتميز بها الأحرار من شبانهم ومراتهم ، حتى إذا جدت الجدة طاروا إلى الحرب زرافات ووحدانا ؛ فإذا عادوا اقتسموا أسلابهم أو غنائمهم ، أو فكروا فى النار من أعدائهم إذا نالوا منهم .

ويروون فى تاريخ عمرو حدثاً من الأحداث الكبرى التى انتهت بمصرع ملك الحيرة عمرو بن المنذر على يد عمرو بن كلثوم فى قصة طويلة ، ملخصها أن عمرو بن المنذر ، وهو عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه : هل تعلمون أن أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمى ؟ فقالوا : لا نعلمها إلا لىلى أم عمرو بن كلثوم ، قال : ولم ذلك ؟ قالوا لأن أباه مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل

أعزّ العرب ، وبملها كلثوم بن مالك بن عتاب أفرس العرب ، وابنها عمرو ابن كلثوم سيد من هومنه . فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيه ويسأله أن يزيّر أمّه أمّه ، فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب ، وأقبلت ليلى بنت مهمل في ظعن من بني تغلب ، وأمر عمرو ابن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملسته فحضروا ، وأتاه عمرو بن كلثوم في وجوه بني تغلب ، فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ، ودخلت ليلى بنت مهمل أم عمرو بن كلثوم على هند في قبة في جانب الرواق ، وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالطرف . فقالت هند : يا ليلى ناوليني ذلك الطبق ! فقالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها وألحّت ، فصاحت ليلى : واذا لآه ! يا لتغلب ! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ، ونظر إلى عمرو بن هند ، فعرف الشر في وجهه ، فقام إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ، وليس هناك سيف غيره ، فضرب به رأس عمرو بن هند حتى قتله ، ونادى في بني تغلب ، فانتهبوا جميع ما في الرواق ، وساقوا نجايبه ، وساروا نحو الجزيرة^(١) .

وهذه القصة قد استفاضت بها أخبار التاريخ العربي في مصرع عمرو بن هند ، وليس لدينا من المصادر الأخرى ما نستطيع به نفي هذه الرواية أو تأييدها ؛ ولذلك أثبتنا خلاصتها حتى يقوم الدليل الثابت على دحضها ، فإننا نستكثر من ناحية العادة أن يقتل ملك من ملوك الحيرة يحميه ملوك الفرس ، لأنه حارس تخومهم من غارات سكان الجزيرة من غير أن تتبع جنوده وجنودهم القاتل ويقتصوا منه ومن عشيرته ، وإن كان العقل لا يمنح جواز وقوع مثل ذلك ، لضعف أولئك الملوك في أخريات دولتهم ، وللظالم وضروب العسف التي ارتكبوها قبل رعاياهم الذين أصبحوا يتمنون الخلاص من سيادتهم .

وقد كانت وفاة عمرو بن كلثوم في نحو سنة ٦٠٠ م بعد أن عمر عمراً طويلاً .
أما شعره فقد اشتهر منه معلقته التي سنأتى على وصفها وشرح أغراضها ،
وهي أهم ما أثر من شعره ، وأكبر كتب الأدب وموسوعاته لا تروى له من
الشعر غيرها ، وقد روى له أبو تمام في حماسه أربعة أبيات له في الشجاعة والفخر
وهي قوله :

مَعَاذَ الْإِلَآهِ أَنْ تَنُوحَ نَسَاؤُنَا عَلَى هَالِكٍ أَوْ أَنْ نَضِجَ مِنَ الْقَتْلِ
قِرَاعُ السَّيُوفِ بِالسَّيُوفِ أَحْلُنَا بِأَرْضِ بَرَّاحٍ ذِي أَرَاكِ وَذِي أَثَلِ
فَمَا أَبَقْتُ الْأَيَّامُ مِمَّا مَالٍ عِنْدَنَا سِوَى جِذْمٍ أَذْوَادٍ مُحَذِّقَةِ النَّسْلِ
ثَلَاثَةُ أَثْلَاثٍ ، فَأَتَمَّانُ خَيْلُنَا^(١) وَأَقْوَاتُنَا ، وَمَا نَسُوقُ إِلَى الْقَتْلِ

معلقة عمرو بن كلثوم :

وهي التي اشتهر بها عمرو بين فحول شعراء الجاهلية ، وقد قالوا إن هذه
المعلقة كانت تزيد على ألف بيت ، وإنما وصل إلينا بعضها ، وقد أنشد هذه
القصيدة في الحماسة والفخر ، وكان الذي أثاره لنظمها غضبه لامتهان أمه في بيت
عمرو بن هند ، ذلك الغضب الذي جعله ينتضى السيف ويهوى به على رأس
عمرو فيصرعه ، ويغلب على الظن أن هذه المعلقة لم تنظم في وقت واحد ، فإن
بعضها يشير إلى الخلاف الذي كان بين قومه بني تغلب وبني بكر واحتكام
الفرقة بين عمرو بن هند هذا . وقد وقف عمرو بن كلثوم بهذه القصيدة

(١) الراح الأرض التي لا بناء فيها ولا عمران ، ملال أي من المال ، الحزم الأصل ،
الأذواد جمع ذود يقيم على ما دون العشرة من الإبل ، المحذقة النسل المقطوعة . ومعنى البيت
الرابع : أموالنا ثلاثة أثلاث ، ثلث نشترى به الحيل ، وثلث نشترى به أقواتنا ، وثلث نمطيه
في الديات — وانظر ديوان الحماسة لأبي تمام ١ / ١٨٩ (طبعت صبيح — القاهرة) .

في سوق عكاظ فأنشدها في الموسم ، وكانت تغلب تعظم هذه القصيدة وتحتفل
لإنشادها ، ويفتخرون بها حتى غيرهم بذلك بعض الشعراء في قوله :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفخرون بها مذكاة أو لهم بالرجال لفخر غير مشنوم

قال ابن قتيبة : وعمرو بن كلثوم هو القائل * الألهى بصحنك فاصبحينا *
وكان قام بها خطيبا فيما كان بينه وبين عمرو بن هند ، وهى من جيد شعر العرب
القديم ، وإحدى السبع ^(١) .

وتبدو في هذه المعلقة ظاهرة جديدة تختلف بها عن غيرها من المعلقات ، فهى
لا تبدأ بذكر الدمن والأطلال ، ولا بذكر الأحبة الذين رحلوا عنها ، ولكنها
تبدأ ، على غير المعبود من ذلك في الشعر الجاهلى بخاصة بذكر الخمر ومباكرة
شربها في الصباح ، ووصف ما تفعل بشاريها إذا كانوا كراما أو كانوا أشعة
بما تبعث فيهم من الارتياح إلى البذل والسخاء ، والتعب على الساقية التى لم تعدل
في توزيع شرابها على الذين عرفوا أصول السقى وقواعد المنادمة في مختلف
بيئاتها .

ثم ينتقل بعد هذا المطلع إلى ذكر الظاهن ومساواتها عن سرّ الرحيل ،
ثم يأخذ في وصف المرأة وتشبيه أجزاء جسمها بما يشتهى من الأوصاف : حتى
يأخذ في موضوع المعلقة الذى أشأه أيام التحاكم أمام عمرو بن هند في الخلاف
بين بنى تغلب وبنى بكر ، وفي هذا الجزء من القصيدة يفلو عمرو بن كلثوم
في الفخر بنفسه وقومه ، والتباهى بشجاعتهم وأيامهم التى امتلأت بالقتل والدماء ،
وعصيانهم الملوك والثورة عليهم وقتلهم ، حتى هابتهم الجزيرة وخشيت سطوتهم
قبائلها . ويصف في أثناء ذلك وقائعهم وما أنزلوا بأعدائهم من الهزائم ، ومجد

قبيلته الموروث الذي تعترف لهم به قبائل معد ، والغارات التي كانوا يقومون بها ، مما يصور حياة الجاهلية التي فقدت الأمن والسلام ، وعمتها الفوضى والحروب ، ولا يزال يهدد العرب بقومه الذين لا يزالون على عهدهم أهل نخوة وبأس ، ويحذروهم محاولة الاعتداء عليهم بالقول والفعل .

ثم ينتقل إلى الجزء الثاني من موضوعي المعلقة ، وهو الذي يتصل بقصة أمه ليلي التي حاولت أم عمرو بن هند أن تحطم كبرياءها وتستخدمها ؛ وما جرّ ذلك من نورة عمرو بن كلثوم ومقتله الملك . وفي هذا الجزء يصل الفخر ويهدد الملك ، ويذكر آباءه وأجداده الذين عرف تاريخ العرب بساتهم وبلاءهم ، ثم يخاطب بنى بكر مذكرا لإياهم بما عرفوا من وقائعهم ، ويصف كتائب قومه وما تدججت به من السلاح والدروع ، وما فعلت في جيوش الأعداء ، والخليل الكريمة التي ورثوها عن آبائهم السكرام ، وأشار إلى ما كان يفعل العرب الذين كانوا يُشهدون نساءهم الحروب ، وقيمونهن خلف الرجال ، ليقاتل الرجال ذبا عن حرمهم ، فلا يفشلون مخافة العار بسبب الحرم ، ويذكر ما أخذ من رجالهم من اليهود ، وما يستثرون به نخوتهم وبساتهم .

ثم يعود إلى مفاخر العرب فيجعلها لقومه ، فهم في الذروة والسنام من العزة ، وهم المطمعون في الحل ، والمنتصرون في الحرب ، وهم الذين يغيرون ولا يغير الناس عليهم ، يدعون ما سخطوا ، ويأخذون ما رضوا ، ويحمون من أطاعهم ، ويفتكون بمن عصاهم ، لا يسكتون على ثأر ، ولا ينامون على ذل .

هذا مجمل أغراض المعلقة التي نجد فيها غلوا في الفخر ، واعتداداً بالنفس والقبيلة ، كما نجد في ألفاظها وتراكيبها سهولة ورقة ، لا نكد نجد لها نظيراً في الشعر الجاهلي ، ومرجع هذا طبيعة الشاعر ، ولا شك أن لتلك الطبيعة أبعاد الأثر فيما يصدر عنه من قول . وهذا يدلنا على تباين الشعر الجاهلي ، وقد مرت

بنا معلقة لبيد ، وما أودع فيها من غريب اللفظ الذى لا يوقف على معناه بسهولة ؛
وهذه المعلقة على عكسها ، قلما نجد فيها ما يحتاج إلى شيء من العنت فى فهمه ،
وفى هذا ما يؤكد طبيعة هذا الشعر الذى يختلف باختلاف أذواق أصحابه وتباين
أمزجتهم بين الغلظة واللين ، والجزالة والسلاسة .

قال الذين قدموا عمرو بن كلثوم : هو من قدماء الشعراء ، وأعزهم نفساً ،
وأكبرهم امتناعاً ، وأجودهم واحدة . وقال عيسى بن عمرو : لله در عمرو بن
كلثوم ، أى جلس شعر ، ووعاء علم ، لو أنه رغب فيما رغب فيه أصحابه من
الشعراء ، وإن واحدته لأجود سبعهم .

وذكر أبو عمر بن العلاء أن عمرو بن كلثوم لم يقل غير واحدته ، ولولا أنه
افتخر فى واحدته وذكر مآثر قومه ما قالها . وكان عيسى بن عمر يقول :
لو وضعت أشعار العرب فى كفة وقصيدة عمرو بن كلثوم فى كفة لمالت
بأكثرها^(١) .

وفىما يأتى النص الكامل لمعلقة عمرو بن كلثوم :

- (١) أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُنْبِئِي خَمُورَ الْأُنْدَرِينَا
- (٢) مُشَعَّعَةً كَانَ الْحُصَّ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا
- (٣) نَجُورُ بَذَى اللَّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا
- (٤) تَرَى الْأَجْرَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرْتُ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا
- (٥) صَبَبْتُ الْكَأْسَ عَنَّا أَمْ عَمْرٍو وَكَانَ الْكَأْسُ نَجْرَاهَا الْيَمِينَا^(٢)

(١) جهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ٤٠ — ٤١ .

(٢) يروى هذا البيت والبيتان اللذان يليانه لعمرو بن عدى الأخمى ابن أخت جذيمة
الأبرش ، قيل : إن رجلين خرجا يريدان مدح جذيمة الأبرش والتعرض لصلته ومعهما قينة لهما ،

- (٦) وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرو
 (٧) وكأسٍ قد شربتُ بِمَعْلَبِكَ
 (٨) وإنا سوفَ نُذَرِكُنَا المنايا
 (٩) فني قبلَ التفرُّقِ يا طَمِينَا
 (١٠) فني نسألكِ هل أخذتِ صَرْمًا
 (١١) بيومِ كريهةٍ ضَرْبًا وطَمْنَا
 (١٢) وإنَّ غدًا وإنَّ اليومَ رَهْنٌ
 (١٣) تُرِيكِ إذا دخلتَ على خَلاهِ
 (١٤) ذِرَاعِي عَيْطَلٍ أَذْمَاءُ بِكَرٍ
 (١٥) وَثَدْيًا مِثْلَ حَقِّ العَاجِ رَخَصَا
 (١٦) وَتَنِي لَدَنَةٍ سَمَقَتْ وَطَالَتْ
 (١٧) وَمَأْكَمَةٌ يَضِيقُ البابُ عنها
 (١٨) وَسَارِيَّتِي بِلَنْطِ أَوْ رُخَامٍ
 (١٩) فَأَوَجَدْتِ كَوْجِدِي أُمَّ سَقَبٍ
 (٢٠) وَلَا تَمْنَطَاهُ لَمْ يَتْرُكْ شَقَاهَا
 (٢١) تَذَكَّرْتُ الصَّبَا وَاشْتَقْتُ لَمَّا
 (٢٢) فَأَعْرَضَتِ الْبَيَامَةُ وَاشْمَخَتْ
 (٢٣) أَبَاهُ هَذِي فَلَا تَعَجَّلْ عَلَيْنَا
- بصاحبكِ الذي لا تَصْبَحِينَا
 وَأُخْرَى فِي دِمَشْقٍ وَقَاصِرِنَا
 مَقْدَرَةٌ لَنَا وَمَقْدَرِنَا
 نُخَبِّرُكِ اليَقِينَ وَنُخَبِّرِنَا
 لَوْ شِئْتَ الْبَيْنِ أَوْ خُنْتَ الْأَمِينَا
 أَقْرَ بِهِ مَوَالِكَ الْعِيُونَا
 وَبَعْدَ غَدٍ بِمَا لَا تَعْلَمِينَا
 وَقَدْ أَمِنْتَ عِيُونَ الْكَاشِحِينَا
 هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَنَا
 حَصَانًا مِنْ أَكْفٍ اللَّامِسِينَا
 رَوَادِفُهَا تَنُوهُ بِمَا وَلِينَا
 وَكُشْحًا قَدْ جُنُنْتُ بِهِ جُنُونَنَا
 بَرْنُ خَشَاشٍ حَلِيمَا رَنِينَا
 أَصْلَمْتُهُ فَرَجَعْتَ الْحَنِينَا
 لَهَا مِنْ نَسَقٍ إِلَّا جَنِينَنَا
 رَأَيْتُ حُومَهَا أَصْلًا حُدِينَا
 كَأَسْيَافٍ بِأَيْدِي مُصْلِمَتِينَا
 وَأَنْظَرْنَا نُخَبِّرُكِ الْيَقِينَا

== فلما كانا في بعض الطريق قعدا بشران ، فإذا هما بعمرو قد وقف عليهما ، فلما صبت القدح صرفته عنه إليهما فقال هذه الأبيات .

- (٢٤) بَأَنَّا نُورِدُ الرِّايَاتِ بِيضًا
(٢٥) وَأَيَّامٍ لَّنَاغُرَّةً طَوَالِ
(٢٦) وَسَيِّدٍ مَعَشَرٍ قَدْ تَوَجَّوْهُ
(٢٧) تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ
(٢٨) وَأَنْزَلْنَا الْبَيْوتَ بِذَى طُلُوحٍ
(٢٩) وَقَدِ هَرَّتْ كَلَابُ الْحَيِّ مِنَّا
(٣٠) مَتَى نَقْلُ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا
(٣١) يَكُونُ نِفَالُهَا شَرْقِيَّ نَجْدٍ
(٣٢) نَزَاؤُا مِنْزِلِ الْأَضْيَافِ مِنَّا
(٣٣) قَرِينَاكُمْ فَعَجَّلْنَا قِرَاكُمُ
(٣٤) نَعْمُ أَنْاسْنَا وَنَعِفُ عَنْهُمْ
(٣٥) نَطَاعِنُ مَا تَرَاحَى النَّاسُ عَنَّا
(٣٦) بِسَمَرٍ مِنْ قَنَا الْخَطِئُ لُدُنٍ
(٣٧) كَأَنَّ جَاهِمَ الْأَبْطَالِ فِيهَا
(٣٨) نَشَقُّ بَهَارُومُسُ الْقَوْمِ شَقًّا
(٣٩) وَإِنَّ الضَّغْنَ بَعْدَ الضَّغَنِ يَبْدُو
(٤٠) وَرَرْنَا الْهَدَى قَدْ عَلِمَتْ مَعَدًّا
(٤١) وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الْحَيِّ خَرَّتْ
(٤٢) نَجْدُرُومَوْسَهُمْ فِي غَيْرِ بَرٍّ
(٤٣) كَأَنَّ سَيُوفَنَا فِيْنَا وَفِيهِمْ
- وَنُصْدِرُهُنَّ خُرًّا قَدْ رَوَيْنَا
عَصَيْنَا الْمَلَكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا
بِتَاجِ الْمُلْكِ بِحِمَى الْمُخْجَرِينَا
مَقْلَدَةً أَعْنَتَهَا صُفُونَا
إِلَى الشَّامَاتِ تَنَفَّى الْمَوْعِدِينَا
وَشَذَّبْنَا قِتَادَةً مَنْ يَلِينَا
يَكُونُوا فِي اللَّقَاءِ لَهَا طَحِينَا
وَلَهْوَتَهَا قَضَاعَةُ أَجْمَعِينَا
فَاعْجَلْنَا الْقَرِيَّ أَنْ تَشْتَمُونَا
قُبَيْلَ الصُّبْحِ مِرْدَاةً طَحُونَا
وَنَحْمَلُ عَنْهُمْ مَا حَمَلُونَا
وَنَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ إِذَا غَشِينَا
ذَوَابِلَ أَوْ بِيضِ بَعْتَلِينَا
وُسُوقَ الْأَمَاعِزِ يَرْتَمِينَا
وَنَخْلِيهَا الرِّقَابَ فَتَحْتَلِينَا
غَلِيكَ وَنُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّافِينَا
نَطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَبْدِينَا
عَلَى الْأَخْفَاصِ تَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا
فَمَا يَدْرُونَ مَاذَا يَتَقُونَا
مَخَارِقُ بَأَيْدِي لَا عَيْنَا

- (٤٤) كَانَ ثِيَابَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ
(٤٥) إِذَا مَا عَيَّ بِالْإِسْنَانِ حَيَّ
(٤٦) نَصَبْنَا مِثْلَ رَهْوَةٍ ذَاتِ حَدٍّ
(٤٧) بِشِبَانِ يَرُونَ الْقَتْلَ مَجْدًا
(٤٨) حَدِيثًا النَّاسِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا
(٤٩) فَأَمَّا يَوْمَ خَشِبْنَا عَلَيْهِمْ
(٥٠) وَأَمَّا يَوْمَ لَانْخَشَى عَلَيْهِمْ
(٥١) رَأْسٍ مِنْ بَنِي جُشَمَ بْنِ بَكْرِ
(٥٢) أَلَا لَا يَعْلَمُ الْأَقْوَامُ أَنَا
(٥٣) أَلَا لَا يَجْهَلُونَ أَحَدٌ عَلَيْنَا
(٥٤) بِأَيِّ مَشِيئَةِ عَمْرَوِ بْنِ هَنْدٍ
(٥٥) بِأَيِّ مَشِيئَةِ عَمْرَوِ بْنِ هَنْدٍ
(٥٦) تَهْدِدُنَا وَأَوْعِدُنَا رُوبِدًا
(٥٧) فَإِنْ قَتَانَا يَا عَمْرُو أَعَيْتَ
(٥٨) إِذَا عَصَّ الثَّقَافُ بِهَا إِشْمَارَتْ
(٥٩) عَشَوْرَةَ إِذَا انْقَلَبْتَ أَرَنْتَ
(٦٠) فَهَلْ حَدَّثْتَ فِي جُشَمَ بْنِ بَكْرِ
(٦١) وَرِثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بْنِ سَيْفٍ
(٦٢) وَرِثْتُ مُهْلَهْلًا وَالْخَيْرَ مِنْهُمْ
(٦٣) وَعَتَابًا وَكُنُومًا جَمِيعًا
- خُضِبْنِ بِأَرْجُوَانٍ أَوْ طُلَيْنَا
مِنَ الْمَوَالِ الْمَشْبُورِ أَنْ يَكُونَا
مَحَافِظَةً وَكُنَّا السَّابِقَيْنَا
وَشِدْبٍ فِي الْحُرُوبِ مَجْرِبَيْنَا
مَقَارَعَةً بَيْنَهُمْ عَنْ بَيْنَيْنَا
فَتَصْبَحُ خَيْلُنَا عُصْبًا ثُبَيْنَا
فَتَمُوتُ غَارَةً مَقْلَبَيْنَا
نَدَقُ بِهِ الدُّهُلَةَ وَالْحَزُونََا
تَضَمُّعُنَا وَأَنَا قَدْ وَنَيْنَا
فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلَيْنَا
نَسْكُونُ لِقَائِكُمْ فِيهَا قَطِينَا
تُطِيعُ بِنَا الْوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا
مَتَى كُنَّا لِأَمَلِكِ مَقْتَوِينَا
عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا
وَوَلَّتْهُمْ عَشَوْرَةَ زُرُونَا
تَشْجُ فَقَا الْمُثَقِّفِ وَالْجَبِينَا
بِنَقْصٍ فِي خُطُوبِ الْأَوَّلِينَا
أَبَاحَ لَنَا حِصُونََ الْمَجْدِ دِينَا
زَهِيرًا نَمَّ ذُخْرُ الدَّاخِرِينَا
بِهِمْ نَلْنَا تَرَاتِ الْأَكْرَمِينَا

- (٦٤) وَذَا الْبُرَّةِ الَّذِي حُدِّثَتْ عَنْهُ
 (٦٥) وَمَنَا قَبْلَهُ الدَّاعِي كَلِيبُ
 (٦٦) مَتَى نَعْقِدُ قَرِينَتَنَا بِجَلِ
 (٦٧) وَنُوجِدُ نَحْنُ أَمْنُهُمْ ذِمَاراً
 (٦٨) وَنَحْنُ دَاةٌ أَوْ قِدَافِي خَزَازَى
 (٦٩) وَنَحْنُ الْحَابِسُونَ بِذَى أَرَاطَى
 (٧٠) وَكُنَّا الْأَيْمَنِينَ إِذَا التَّقِينَا
 (٧١) فَصَالُوا صَوْلَةً فِيمَنْ بَلِيهِمْ
 (٧٢) فَأَبُوا بِالْهَابِ وَالسَّابَا
 (٧٣) إِلَيْكُمْ يَا بَنِي بَكْرِ إِلَيْكُمْ
 (٧٤) أَلْمَا تَعْرِفُوا مَنَا وَمَنْكُمْ
 (٧٥) عَلَيْنَا الْبَيْضُ وَالْيَلْبُ الْبَيَانَى
 (٧٦) عَلَيْنَا كُلُّ سَابِغَةٍ دِلَاصٍ
 (٧٧) إِذَا وُضِعَتْ عَنِ الْأَبْطَالِ يَوْمَا
 (٧٨) كَانَ غُضُونُهُنَّ مُتُونُ غُدْرِ
 (٧٩) وَتَحْمَلُنَا غَدَاةَ الرَّوْعِ جُرْدُ
 (٨٠) وَرَدَنَ دَوَارِعَا وَخَرَجَنَ شُعْمَا
 (٨١) وَرِثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءِ صِدْقِ
 (٨٢) عَلَى آثَارِنَا بَيْضُ حِسَانٍ
 (٨٣) أَخَذَنَ عَلَى بُعُولَتِهِنَّ شَهْدَا
- بِه نَحْمَى وَنَحْمَى الْمُخَجَرِينَا
 فَأَيُّ الْمَجْدِ إِلَّا قَدْ وَلَيْنَا
 نَجْزِدُ الْحَبْلَ أَوْ نَقِصَ الْقَرِينَا
 وَأَوْفَاهُمْ إِذَا عَقَدُوا يَمِينَا
 رَفَدْنَا فَوْقَ رَفْدِ الرَّافِدِينَا
 تَسْفُ الْجِلَّةُ الْخُورُ الدَّرِينَا
 وَكَانَ الْأَيْسَرِينَ بَنُو أَبِيْنَا
 وَصَلْنَا صَوْلَةً فِيمَنْ بَلَيْنَا
 وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا
 أَلْمَا تَعْرِفُوا مَنَا الْيَقِينَا
 كِتَابَ يَطْعَنَ وَبَرَّ تَمِيمَا
 وَأَسْيَافُ يُقَمِّنَ وَيَنْحَنِينَا
 تَرَى فَوْقَ النَّجَادِ لَهَا غُضُونَا
 رَأَيْتَ لَهَا جُلُودَ الْقَوْمِ جُونَا
 تُصَفِّقُهَا الرِّيحُ إِذَا حَرَيْنَا
 عُرْفَنَ لَنَا نَقَائِدَ وَافْتَلِينَا
 كَأَمْثَالِ الرِّصَانِ قَدْ بَلِينَا
 وَنُورِئُهَا إِذَا مُتْنَا بَدِينَا
 نَحَازِرُ أَنْ تُقَسِّمَ أَوْ تَهُونَا
 إِذَا لَا قَوْأَ كِتَابَ مُعَلِينَا

- (٨٤) لَيْسَتْ لَيْنٌ أَفْرَاسًا وَبَيْضًا وَأَسْرَى فِي الْحَدِيدِ مُقَرَّبِينَ
(٨٥) تَرَانَا بَارِزِينَ وَكُلُّ حَيٍّ قَدْ اتَّخَذُوا مَخَافَتَنَا قَرِينَا
(٨٦) إِذَا مَارُحْنَ يَمْشِينَ الْهَوَيْنِي كَمَا اضْطَرَبَتْ مُتُونُ الشَّارِبِينَ
(٨٧) يَقْتَنُ جِيَادَنَا وَيَقْنُ لَسْتُمْ بُعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا
(٨٨) إِذَا مَالَمْ نَحْمَنْ فَلَا بَقِينَا لَشَيْءٍ بَعْدَهُنَّ وَلَا حِينَا
(٨٩) ظُفَانٍ مِنْ بَنِي جُشَمَ بْنِ بَكْرِ خَلَطَنَ بِمَيْسَمٍ حَسْبًا وَدِينَا
(٩٠) وَمَا مَنَعَ الظَّعَانِ مِثْلُ ضَرْبٍ تَرَى مِنْهُ السَّوَادَ كَالْقُلِينَا
(٩١) كَأَنَّا وَالْأَيُّوفُ مُسَلَّلَاتُ وَلَدْنَا النَّاسَ طُرًّا أَجْمَعِينَ
(٩٢) يُدْهَدُونَ الرَّهْوسَ كَمَا تُدْهَدِي حَزَاوِرَةٌ بِأَبْطَحِهَا الْكُرِينَا
(٩٣) وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدَّةٍ إِذَا قُبِّبُ بِأَبْطَحِهَا بُيُنِينَا
(٩٤) وَأَنَا الْمُطْعَمُونَ إِذَا قَدَرْنَا وَأَنَا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا
(٩٥) وَأَنَا اللَّانِعُونَ لَمَّا أَرَدْنَا وَأَنَا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا
(٩٦) وَأَنَا التَّارِكُونَ إِذَا سَخِطْنَا وَأَنَا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطْمِنَا
(٩٧) وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوًا وَأَنَا الْعَارِمُونَ إِذَا عُصِينَا
(٩٨) أَلَا أَبْلُغُ بَنِي الطَّمَّاحِ عَنَّا وَيَشْرَبُ ذَيْبُنَا كَدِرًا وَطِينَا
(٩٩) إِذَا مَا اللَّائِي سَامَ النَّاسَ خَسَفًا وَدُعِيًّا فَكَيْفَ وَجَدْتُمُونَا
(١٠٠) لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَضْحَى عَلَيْهَا أَبْنِيَا أَنْ تُقِرَّ الذَّلَّ فِينَا
(١٠١) وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا وَلَكِنَّا سَنَبْدًا ظَالِمِينَ
(١٠٢)

(١٠٣) مَلَأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَمَاءَ الْبَحْرِ تَمَلَّؤُهُ سَفِينَا

(١٠٤) إِذَا بَلَغَ النِّطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَحَرَّاهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَ

عنزة

وهو من فحول الطبقة السادسة من شعراء الجاهلية عند ابن سلام ، وقد وضعه مع عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وسويد بن أبي كاهل ، قال : ولكل واحد منهم واحدة . . وعنزة هو ابن شداد بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قُطَيْمَة بن عَيسٍ ، وله قصيدة ، وهي :

مَادَارَ عَيْلَةٍ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمْ صَبَاحًا دَرَّ عَيْلَةً وَاسْلَمِي

وله شعر كثير ، إلا أن هذه نادرة ، فالحقوها مع أصحاب الواحدة^(١)...

وقال ابن قتيبة في نسب عنزة : هو عنزة بن عمرو بن شداد بن عمرو بن قراد بن مخزوم . . . ونقل عن ابن الكلبي أن شدادًا هو جدُّه أبو أيه ، غلب على اسم أيه ، فنُسب إليه ، وإنما هو عنزة بن عمرو بن شداد . وقال غيره : شداد عمه ، وكان عنزة نشأ في حجره ، فنسب إليه دون أيه .

وإنما ادَّعاه أبوه بعد الكبر ، وذلك أنه كان لأمِّه سوداء ، يقال لها « زَرْيَبَة » . وكانت العرب في الجاهلية إذا كان للرجل منهم ولد من أمة استعبده ، وكان لعنزة إخوة من أمه عبيد .

وكان سبب ادَّعاه أبي عنزة إياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على قوم من

بنى عبس ، فأصابوا منهم ، فتبهمهم العبيسون ، فلحقوم فقاتلوم عما معهم ،
وعنترة فيهم ، فقال له أبوه : كُرْ يا عنترة ! فقال عنترة : العبد لا يحسن الكر ،
إنما يحسن الحلاب والصر^(١) ! فقال : كُرْ وأنت حرٌّ ! . فـكرٌ وقاتل يومئذ
فأبلى ، واستنقذ ما كان بأيدي عدوم من الغنيمة ، فادعاه أبوه بعد ذلك ، وألحق
به نسيبه .

وعنترة أحد « أغربة العرب »^(٢) وكان من أشدَّ أهل زمانه وأجودهم بما
ملكته يده ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى ساءه رجل
من بني عبس ، فذكر سواده وسواد أمه وإخوته ، وعيره بذلك ، وبأنه لا يقول
الشعر ، فقال له عنترة : والله إن الناس ليرافدون بالطعمة ، فما حضرت مرَّ قد
الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط ، وإن الناس ليدعون في الغارات فيعرفون
بتسويهم ، فما رأيناك في خيل مغيرة في أوائل الناس قط ، وإن اللبس ليسكون
بيننا ، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطه فيصل ، وإنما أنت فقع نبت
بقرقر ، وإني لأحتضر البأس ، وأوفي النغم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما
ملكته يدي ، وأفضل الخطة الصمعاء ، وأما الشعر فستعلم . . .
فكان أول ما قال قصيدة : * هل غادر الشعراء من متردِّم * وهي أجود
شعره وكانوا يسمونها (المذهبة)^(٣) .

(١) الصرشد الضرع برباط ، وكان من عادة العرب أن تصر ضروع الحلوبات إذا
أرسلوها إلى المرعى سارحة ، ويسمون ذلك الرباط الصرار ، فإذا راحت عشياً حلت تلك
الأصرة وحلبت .

(٢) أغربة العرب سودانهم ، شبهوا بالأغربة في لونهم ، وهم ثلاثة : عنترة وأمه زبيبة
سوداء ، وخناب بن عمير الشريدي من بني سليم وأمه نذبة وإليها ينسب وكانت سوداء ،
والسليك بن عمير السعدي وأمه سلمكة وإليها ينسب وكانت سوداء .

(٣) الفصل القضاء بين الحق والباطل ، واسم ذلك القضاء الذي يفصل بينهما يفصل =

وكان عنقرة قد شهد حرب « داحس والغبراء » فحسن فيها بلاؤه ، وحدث مشاهدته .

قال أبو عبيدة : إن عنقرة بعد ما تأوت^(١) عبس إلى غطفان بعد يوم جبلة ، وحملت الدماء ، احتاج ، وكان صاحب غارات ، فكبر فعبز عنها ، وكان له بسكر على رجل من غطفان ، فخرج قبّله يتجازه ، فهاجت رائحة من صيّف ، وهبت ناختة ، وهو بين شرج وناظرة ، فأصابته الشيخ فهرأته ، فوجدوه ميتا بينهم^(٢) .

وكان عنقرة يلقب « عنقرة الفلحاء » لتشق في شفته ، وأنثوا اللقب اتباعاً لتأنيث اسمه ، أو لتأنيث الشفة التي وصفت بالفاح ، وكان يكنى « أبا المغلس » والمغلس هو السائر في الغلس ، والسير في الظلام من أمارات الجرأة والشجاعة ، أو أن ذلك إشارة إلى سواد لونه .

وقد عاصر عنقرة الحطيثة وعمرو بن معد يكرب ، وكلاهما أدرك الإسلام ، ووصفه يوما الحطيثة لعمر بن الخطاب ، حين سأله : كيف كنتم في حربكم ؟ فقال : كان قيس بن زهير فينا ، وكان حازماً فكنا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنقرة ، فكنا نحمل إذا حمل ، ونحجم إذا حجم . وذكره عمرو بن معد يكرب

= والفتح بالفتح والكسر الرخو من الكأة وهو أردؤها ، والقرقر : الأرض الطمينة اللينة ، وهذا مثل ، يقال : أذل من وقع بقرقر ، لأن الدواب تنجله بأرجلها ولا أصول له ولا أغصان ، والصمء الماضي ، والمزدم من قولهم ردمت الثوب أى أصاحته . والمعنى هل أبقى الشعراء لأحد معنى إلا وقد سبقونا إليه ، فلم يدعوا مقالاً لقاتل (انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠٦/١) .

(١) تأوت عادت ، أوى وتأوى بمعنى .

(٢) الصيف بتشديد الياء المكسورة الماء الذي يجيء في الصيف ، والريح الناختة الباردة وشرج وناظرة ماء أن لبس .

فى قوله : ما أبالى من لقيت من فرسان العرب مالم يلقى حرّاهما وعبداها ، يعنى بالحرّين : عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب . ويعنى بالعبدين : عنتره ، والسائب بن السلكة . وفى نحو سنة ٦٥٠ م (٥٣٠ هـ) مات الخطيئة ، وقبله فى سنة ٦٤٢ م (٥٢١ هـ) مات عمرو بن معد يكرب . وقبل هذا بأعوام كانت « حرب داحس والغبراء » التى خبت نارها بين سنتي ٦٠٨ م وسنة ٦١٠ م . وقد رجح صاحب كشف الظنون وفاة عنتره سنة ٦١١ م وروى غيره أن وفاته كانت سنة ٦١٥ م . وفى رواية أن عنتره مات مقتولا ، وكان أغار على بنى طيء ، وهو شيخ ، فرماه ابن سلمى ، وقاتل عنتره حتى أتى قومه وهو مجروح ، فقال : وإن ابن سلمى عنده فاعلموا دعى وهيهات لا يُرَجّى ابن سلمى ولا دعى وعاش ابن سلمى قاتل عنتره إلى ما بعد الهجرة ، وكان أحد الواقدين من طيء على النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) .

وكان عنتره قد عشق فى شبابه (عبلة) ابنة عمه ، قبل أن يحرره أبوه ويدّعيه ، فأبى عمه أن يزوجه ابنته وهو عبد ، فخفزه ذلك إلى طلب المعالى ونشدان المجد ، وأثار شاعريته . فاجتمع له الشعر الساس القوى ، والشجاعة النادرة ، والمروءة والبذل ، حتى إذا أصبح سيداً حرّاً وزوجه عمه ابنته عبلة .

وإنك لو اجد فى شعره آثار تلك العظمة النفسية التى وهبها ذلك الفارس العربى ، الذى أصبح اسمه علما على الشجاعة والنجدة ، وعنوانا على الحب الصادق ، والبذل والسخاء ، وجرى ذكره فى العصور يتغنى به العاشقون والسكران والشجعان ، وقد أضيف إلى أخباره كثير ، وحمل عليه من الشعر كثير ، حتى أصبح عنتره قصة تروى فى الأجيال .

(١) انظر شرح ديوان عنتره بن شداد : ل تحقيق عبد النعم شلبى ، وتقديم إبراهيم

وفي شعره الموثوق بصحته وصدق نسبته إليه معالم شاعرية ناضجة ، تعبر عن تجاربها في قوة وخفولة ، وفي لغة تجمع الجزل والسهل على حسب ما يقتضيه كل غرض من الأغراض المختلفة التي عالجها . ففيه الفخر بشجاعته وسخائه ، وفيه الوصف ، وفيه النسب الصادق . كل ذلك في معان تجد فيها الشخصية بارزة ، والجدّة ظاهرة ، فقد خلط الحياة التي عاشها والبيئة التي عاش فيها ، والأحداث التي شهدا ، بهمسات قلبه ، وذوب عواطفه ، ونجوى فؤاده ، حتى كان ذلك الشعر الصادق المتين الذي يشهد لصاحبه بالفحولة ، كما شهدت له الوقائع والأحداث بالبسالة والبطولة .

معلقة عنزة

أشرنا فيما سبق إلى السبب الذي أثار عنزة لإنشاد معلقته ، وهو ما كان بينه وبين رجل من بني عبس سابه ، وعيره بسواد أخوته وسواد أمه ، وأنه لا يقول الشعر ، فكان ذلك هو الذي أثار شاعريته ، وأطلق لسانه بتلك المعلقة التي كانت أول ما قال الشعر ، كما ذكر ذلك ابن قتيبة وغيره .

ولست أطمئن إلى هذا السبب ، الذي يوحى بأن عنزة قد ارتجل هذه المعلقة ارتجالاً بسببه ، ليدل على أن في استطاعته أن يقول الشعر . فقد بلغ المأثور من هذه المعلقة حدّاً كبيراً من الجودة والإتقان والابداع الفني وطول النفس ، يصبح معه القول بأن تلك المعلقة كانت أول ما قال عنزة من الشعر ضرباً من الخيال ، فليس الشعر الذي نقرؤه في تلك المعلقة شعر شاعر مبتدئ ، بل هو شعر ناضج كل النضج ، وهو في الذروة من شعر الفحول الذين راضوا أنفسهم طويلاً على تلك الصناعة ، وفيها أغراض أخرى عبر عنزة فيها ،

إشارة إلى ذلك الحديث ؛ بل إن تلك الأغراض من الممكن أن تكون أو يكون واحد منها سبباً لإنشادها .

وقد بدأها عنتره بذلك المطلع الخالد الذي عثر فيه عن نضج الشعر الجاهلي قبله ، وسبق الشعراء إلى معانيه ، وكأنه يتهيب القول ، لأن السابقين لم يدعوا مقالاً لقاتل ، وأكل ذلك المطلع بذكر الديار التي عرفها بعد توهم ؛ ثم أعقب ذلك بمناجاة دار عبلة وتحيتها واستنطقها علماً تخبره عن أهلها الفطاعين عنها ، فتخفف من لوعته ووجده . وقد ذهب بعض الرواة إلى أن بيت عنتره .

يادار عبلة بالجواء تكلمى وعى صباحاً دار عبلة واسلمى

هو مطلع القصيدة ، وكأنهم ينكرون أن يكون البيت الأول من شعر عنتره ولا حجة لهم في هذا الإنكار ، ومن ذهب هذا المذهب ابن سلام الجحى صاحب الطبقات ، وابن عبدربه صاحب العقد ، وغيرها . وهذا البيت الذي اختاروه مطلقاً يقع ثاني أبيات المعلقة في بعض الروايات ويقع رابعاً في غيرها ، كما سيأتى فيما ثبت من شعر المعلقة ، والبيتان اللذان أغفلهما أكثر الرواة هما :

(٢) أعيك رسمُ الدار لم يتكلم - حتى تكلم كالأمم الأعجم -

(٣) ولقد حبستُ بها طويلاً نأقتى أشكو إلى سفع رواكد جُثم -

ثم أخذ يصف دار عبلة متغزلاً بها ، ويذكر منازلها ومنازل قومه ، ويوازن بين حالها وحاله ، ويذكر صعوبة طلابها وبعد مزارها ، ويصف حبة لها ، وحلاوة ثغرها ، وما ينبعث من نشرها ، فشبه ثغرها بفأرة المسك مرة ، وبالروضة الأنف التي تجود عليها السحب فلا تخلو من الرى مرة أخرى . وهو في كل مرة لا ينسى أن

يذكر ما هي فيه من أمن ودعة ، وما يقاسى هو في غدوه ورواحه من العناء ، ثم أخذ في وصف الناقة التي قد تبلغه دارها ، على نحو ما فعل طرفة ، ولكنه لم يسرف ، وانتقل إلى وصف فرسه الذي يخوض به معامع القتال ، ليذكر بلائه فيها ، وأنه لم يستطع أن ينساها وهو في غمراتها ، والرماح تنهل منه ، والسيوف تقطر من دمه ، وكيف كان بصارع الأبطال فيصرعهم ، ويخرق بسيفه دروعهم ، ثم يطعنهم برمح ، ويعلمهم بسيفه ، ثم يستريح من ذلك قليلا ليناجي حبيبته التي حرمت عليه ، ويذكر إرساله جاريته لتجسس أخبارها ، ثم يعاود ما كان فيه من وصف بلائه في الحرب ، ويذكر ما كان من استحثاث قومه له ودعائهم إياه ليقدم الصفوف ويشنت جموع الأعداء ، ويصل ذلك بالاعتذار إلى حبيبته عن عدم استطاعته زيارتها بسبب تلك الأحوال التي كان يخوضها ، وختم قصيدته بمأساة من الوعيد لا بنى ضمضم اللذين كان عنتره قد قتل أباهما فتوعدها ونذراده .

ويتضح من هذا أن الغرض الغالب على معلقة عنتره هو الفخر ببسالته في ميادين القتال ، وصبره على لقاء الأبطال ، وذلك الغرض مشوب بالغزل ومشوب بالوصف . ومن الممكن الذهاب إلى أن الغرض الأسلى من القصيدة الغزل ، وأن ما أسرف فيه عنتره من ذكر بطولاته ووصف وقائعه قد تذرع به ليغزو قلب حبيبته بشجاعته الفائقة ، ليعوّض بذلك ما فقد من جمال اللون ونسب الأم ، لتكون تلك الشجاعة مفخرته التي فقدتها كثير من حسان الوجوه وكرام أعراق الأبوين .

وفيما يلي نص معلقة عنتره :

- (١) هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهم .
 (٢) أعياك رسم الدار لم يتكلم حتى تكلم كالأعم الأعجم .

- (٣) ولقد حَبَسْتُ بها طويلاً نَاقِي
(٤) يادَارَ عِبْلَةَ بالجِوَاهِ تَكَلَّمِي
(٥) دارُ لَأَنَسَةٍ غَضِيضٍ طَرَفُهَا
(٦) فَوَقَّتُ فِيهَا نَاقِي وَكَأَنَّهَا
(٧) وَتَحُلَّ عِبْلَةُ بِالْجِوَاهِ وَأَهْلُنَا
(٨) حُيِّتَ مِنْ طَلَالٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ
(٩) حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ
(١٠) عُلُقَتُهَا عَرَضًا وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا
(١١) وَلَقَدْ نَزَلَتْ فَلَا تَظُنِّي غَيْرَهُ
(١٢) كَيْفَ الْمَزَارُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا
(١٣) إِنْ كُنْتَ أَرَمْتَ الْفِرَاقَ فَإِنَّمَا
(١٤) مَا رَاعَنِي إِلَّا حَوَلَةُ أَهْلِهَا
(١٥) فِيهَا اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ حُلُوبَةً
(١٦) إِذْ تَسْتَبِيدُكَ بِذِي ذُرُوبٍ وَاضِحٍ
(١٧) وَكَأَنَّمَا نَظَرْتُ بِعَيْنَيَّ شَادِنٍ
(١٨) وَكَأَنَّ فَارَةَ تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ
(١٩) أَوْ رَوْضَةً أُنْفًا تَضْمَنَ نَبْطَهَا
(٢٠) جَادَتْ عَلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ ثَرَفٍ
(٢١) سَحًّا وَنَسْكَابًا فَسُكِّلَ شَيْئُهُ
(٢٢) وَخَلَا الذُّبَابُ بِهَا فَيْلَسَ بِيَارِحٍ
أَشْكُو إِلَى سَفْعٍ رَوَاكِدَ جُمٍّ
وَعَمِي صَبَاحًا دَارَ عِبْلَةَ وَالْمِي
طَوَّعَ الْعِنَاقِ لَذِيذَةَ الْمَتَبِّمِ
فَدَنْ لَأَقْضِيَ حَاجَةَ الْمَتَلُومِ
بِالْحَزَنِ فَالْصَّمَانِ فَاَلْمَتَلَمِ
أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْمِ
عَسِرًا عَلَى طِلَّابِكَ ابْنَةَ تَخْرَمِ
زَعْمًا لَعَمْرُ أَيْكَ لَيْسَ بِمَزْعَمِ
مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الْمَحَبِّ الْمُسْكَرَمِ
بِعُسْنِ زَيْنٍ وَأَهْلُنَا بِالْقَيْلَمِ
زُمْتُ رِكَابُكُمْ بَلِيلٍ مُظْلِمِ
وَسَطَ الدِّبَارِ نَسْفُ حَبِّ الْخَجَمِ
سُودًا كَحَفِيَةِ الْقُرَابِ الْأَسْحَمِ
عَذَبٍ مُقْبِلُهُ لَذِيذِ الْمَطْعَمِ
رَسَاءٍ مِنَ الْغَزْلِ لَآنَ لَيْسَ بِتَوَامِ
سَبَقَتْ عَوَارِضُهَا إِلَيْكَ مِنَ الْقَمِ
غَيْثٌ قَلِيلُ الدَّمَنِ لَيْسَ بِمَعْلَمِ
فَتَرَكَنَ كُلَّ قَرَارٍ كَالدَّرْهَمِ
يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ
غَرْدًا كَفَعَلَ الشَّارِبِ الْمُتَرَّمِ

- (٢٣) هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ
(٢٤) تَمْسِي وَتُضْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةِ
(٢٥) وَحَشِيَّتِي سَرَجٌ عَلَى عَيْلِ الشَّوَى
(٢٦) هَلْ تُبْلِغَنِي دَارَهَا شِدْنِيَّةُ
(٢٧) خَطَّارَةٌ غِيبُ الشَّرَى مَوَارَةُ
(٢٨) فَكَاثِمًا أَقْصَى الْإِكَامِ عَشِيَّةُ
(٢٩) تَأْوِي لَهُ قُلُوصُ النِّعَامِ كَمَا أَوَتْ
(٣٠) يَنْتَبِعْنَ قَلَّةَ رَأْسِهِ وَكَانَهُ
(٣١) صَعْلٌ يَمُودُ بِذِي الْعَشِيرَةِ بَيْضُهُ
(٣٢) شَرِبَتْ بِمَاءِ الدُّخْرُضَيْنِ فَأَصْبَحَتْ
(٣٣) وَكَأَنَّمَا تَنَأَى بِجَانِبِ دَفْئِهَا
(٣٤) هِرَّةٌ جَذِيبٌ كُلَّمَا تَطَفَّتْ لَهُ
(٣٥) أَتَقَى لَهَا طَوْلُ السِّفَارِ مُقَرَّ مَدًّا
(٣٦) بَرَكْتَ عَلَى مَاءِ الرِّدَاعِ كَأَنَّمَا
(٣٧) وَكَانَ رُبًّا أَوْ كَحَيْلًا مُعْقَدًا
(٣٨) يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَيْنِ غَضُوبٍ جَسْرَةٍ • زِيَّافَةٍ مِثْلَ الْقَنْبِقِ الْمُسَكَّمِ
(٣٩) إِنْ تُقَدِّ فِي دُونِ الْقَنَاعِ فَإِنِّي
(٤٠) أَتَيْنِي عَلَىٰ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي
(٤١) فَإِذَا ظَلَمْتُ فَإِنْ ظَلَمِي بِاسِلٌ
- قَدَحَ الْمُسْكَبُ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ
وَأَبَيْتُ فَوْقَ سَرَاةٍ أَذْهَمَ مُلْجَمِ
نَهْدٌ مَرَاكِلُهُ نَبِيلِ الْمَحْزَمِ
لَعِنْتُ بِمَحْرُومِ الشَّرَابِ مُصَرَّمِ
تَطْلِسُ الْإِكَامَ بِوَحْدِ خُفٍّ مَيْسَمِ
بَقَرِيبٍ بَيْنَ الْمَذْسَمِينَ مُصَلَّمِ
حِرَقٌ بِمَانِيَّةٍ لَا تُعْجِمُ طُغْطُمِ
حَرَجٌ عَلَى نَعَشٍ لَهْنٌ نُخْجِمِ
كَالْعَبْدِ ذِي الْفَرَوِ الطَّوِيلِ الْأَصْلَمِ
زَوْرَاءُ تَنْفَرُ عَنْ حِيَاضِ الدَّيْلَمِ
وَحَشِيٌّ مِنْ هَزَجِ الْعَشِيِّ مُؤَوِّمِ
غَضْبِي أَتَقَاهَا بِالْيَدَيْنِ وَبِالْقَمِ
سَفْدًا وَمِثْلَ دَعَائِمِ التَّخْجِيمِ
بَرَكْتَ عَلَى قَصَبِ أَجَشِّ مُهْضَمِ
حَشَّ الْوَقُودُ بِهِ جَوَانِبَ نَقْمِ
زِيَّافَةٍ مِثْلَ الْقَنْبِقِ الْمُسَكَّمِ
طَبٌّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلَمِ
سَهْلٌ مَخَالِقِي إِذَا لَمْ أَظْلَمِ
مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطْعَمِ الْعَلَقَمِ

- (٤٢) ولقد شربت من المدامة بمقدما
(٤٣) بزجاجة صفراء ذات أمير
(٤٤) فإذا شربت فإني مستهلك
(٤٥) وإذا صحوت فأنصّر عن ندى
(٤٦) وحليل غانية تركت مجذلا
(٤٧) سبقت يداي له بما جل طعنة
(٤٨) هلا سألت الخيل يا ابنة مالك
(٤٩) إذلا أزال على رحالة ساج
(٥٠) طورا يجرّد للطمان وتارة
(٥١) يُخبرك من شهد الواقعة أنتى
(٥٢) فأرى مغام لو أشاه حوتها
(٥٣) واقذ ذكرك والرماح نواهل
(٥٤) فوددت تقبيل السيوف لأنها
(٥٥) ومُدجج كره الكماة نزاله
(٥٦) جادت له كفى بما جل طعنة
(٥٧) برحبية الفرعين يهدى جزمها
(٥٨) فشككت بلرمح الأصم نيايه
(٥٩) فتركته جزر السباع يئس منه
(٦٠) ومشك ساقية هتكت فوجها
(٦١) ربذ يدها بالقداح إذا شتا
- رَكَدَ التَّوَّاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمَعْلَمِ
قُرِنَتْ بِأَزْهَرِ فِي الشَّمَالِ مُقَدَّمِ
مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
وَكَا عَلِمَتْ شِمَالِي وَتَكَرَّمِي
نَمَكُو فَرِيصَتَهُ كَنِدَقِ الْأَعْلَمِ
وَرَشَاشٍ نَافِذَةٍ كَلُونِ الْمُقَدَّمِ
إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
نَهَيْتَ تَعَاوُرَهُ الْكُمَاةَ مُكَلِّمِ
يَأْوِي إِلَى حَصَدِ الْقَيْسِيِّ عَرْمَرَمِ
أَغَشَى الْوَغَى وَأَعَفَّ عِنْدَ الْمُغْنَمِ
فِيصُدُّنِي عَنْهَا الْحَيَا وَتَكَرَّمِي
مَنَّى وَيَبْضُ الْمُنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
لَمَعَتْ كِبَارِقُ ثَغْرِكَ الْمَتَبَسِّمِ
لَا تَمْنَعِي هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمِ
بِمُشَقِّفِ صَدَقِ الْكُعُوبِ مُقَوِّمِ
بِالْأَيْلِ مُعْتَسِّ الذَّنَابِ الضَّرْمِ
لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمَحْرَمِ
يَقْضُنَ حُسْنَ بَنَانِهِ وَالْمِصْمِ
بِالسَّيْفِ عَنْ حَامِي الْحَقِيقَةِ مُعْلِمِ
هَتَاكَ غَايَاتِ التَّجَارِ مُلَوِّمِ

- (٦٢) لَمَّا رَأَى قَدْ نَزَلَتْ أُرِيدُهُ
(٦٣) فَطَعَنَتْهُ بِالرَّمْحِ نَمَّ كَلَوْنُهُ
(٦٤) عَمِدَ بِهِ مَدَّ النَّهَارِ كَأَنَّمَا
(٦٥) بَطَلٌ كَانَ ثِيَابَهُ فِي مَرْحَةٍ
(٦٦) يَا شَاةَ مَا قَصَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ
(٦٧) فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي فَقُلْتُ لَهَا ذَهَبِي
(٦٨) قَالَتْ رَأَيْتُ مِنَ الْأَعَادَى غِرَّةً
(٦٩) وَكَأَنَّمَا التَّفْعُتُ بِجِيدٍ جَدَايَةٍ
(٧٠) نُبِذْتُ عَمْرًا غَيْرَ شَاكِرٍ نِعْمَتِي
(٧١) وَلَقَدْ حَفَظْتُ وَصَاةَ عَمِّي بِالضُّحَا
(٧٢) فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ الَّتِي لَا تَشْتَكِي
(٧٣) إِذْ يَتَّقُونَ بَنِي الْأَسْنَةِ لَمْ أُخِمْ
(٧٤) وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِغَارَةٍ فِي لَيْلَةٍ
(٧٥) لَمَّا سَمِعْتُ نِدَاءَ مُرَّةٍ قَدْ عَلَا
(٧٦) وَتَحَلَّمْتُ يَسْمُونُ تَحْتَ لَوَائِهِمْ
(٧٧) أَيْقَنْتُ أَنَّ سَيَكُونُ عِنْدَ لِقَائِهِمْ
(٧٨) لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ
(٧٩) يَدْعُونَ عَنَتَ الرِّيحِ كَأَنَّمَا
(٨٠) مَازَلْتُ أُرْمِيهِمْ بِشُفْرَةٍ نَحْرِهِ
(٨١) فَازْوَرَّ مِنْ وَقَعِ الْفَنَاءِ بَلْبَانِهِ
أَبْدَى نَوَاجِذَهُ لَغِيرٍ تَبَسُّمُ-
بِمُهَنْدٍ صَافٍ الْحَدِيدَةِ مَحْزَمُ-
خُضِبَ الْبَنَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظْلِمِ-
يُحْذَى نَعَالُ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوَامُ-
حَرُمْتُ عَلَى وَلَيْتَهَا لَمْ تَزَمْ-
فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِي وَاعْلَمِي
وَالشَّاةُ مُمَكِّنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمِي
رَشَاءٍ مِنَ الْغِزْلَانِ حُرَّةً أَرْتَمَ
وَالسَّكْرُ مَحْبَبَةٌ لِنَفْسِ الْمُتَعَمِّمِ-
إِذْ تَقْلِصُ الشَّفَتَانِ عَنْ وَضَحِ الْقَمِ-
عَمْرَاتِهَا الْأَبْطَالُ غَيْرَ تَفَعُّمِ-
عَنْهَا وَلَكِنِّي تَضَاقِقَ مُقَدِّمِي
سُودَاءَ حَالِكَةٍ كَلَوْنِ الْأَذَلِ-
وَابْنِي رَبِيعَةَ فِي الْغُبَارِ الْأَقْتَمِ-
وَالْمَوْتُ تَحْتَ لَوَاءِ آلِ مُحَمَّدٍ-
ضَرَبُ يَطِيرُ عَنِ الْفِرَاحِ الْجُنَمِ-
يَتَذَامِرُونَ كَرَزْتُ غَيْرَ مُدَّمِ-
أَشْطَانُ بَرٍّ فِي لَبَانِ الْأَذَمِ-
وَلَبَانُهُ حَتَّى تَمَرَّ بَلْ بِالْأَمِ-
وَشَكَا إِلَى بَعْبَرَةٍ وَتَحْمَحُمِ

- (٨٢) لو كان يَذْرِى ما لِحَاوَرَةُ اشْتكى
 (٨٣) وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأُ سَقَمَهَا
 (٨٤) وَالخَلِيلُ تَقْتَحِمُ الْخُبَارَ عَوَاسًا
 (٨٥) ذُلُّ رِكَابِي حَيْثُ شِئْتُ مُشَايِعِي
 (٨٦) إِنِّي عَدَانِي أَنْ أَزُورِكَ فَاعْلَمِي
 (٨٧) حَالَتُ رِمَاحُ ابْنِي بَغِيضٍ دُونَكُمْ
 (٨٨) وَلَقَدْ كَرَرْتُ الْمَهْرَ يَدْمِي نَحْرُهُ
 (٨٩) وَلَقَدْ خَشِيتُ بَأْنَ أَمُوتَ وَلَمْ تَذُرْ
 (٩٠) الشَّائِمَى عِرْضِي وَلَمْ تُشْتَمْنِي
 (٩١) إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا
 وَلَسَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلِّمِي
 قِيلُ الْفَوَارِسِ وَبِكَ عَنَتَ أَقْدِمِ
 مَا بَيْنَ شَيْظَمَةٍ وَأَجْرَدَ شَيْظَمِ
 لَبِي وَأَخْفِزُهُ بِأَمْرِ مُبْرَمِ
 مَا قَدْ عَلِمْتَ وَبَعْضُ مَا لَمْ تَعْلَمِي
 وَزَوْتُ جَوَانِي الْحَرْبِ مَنْ لَمْ يُجْرِمِ
 حَتَّى اتَّقَتْنِي الْخَلِيلُ يَا ابْنَةَ حَذِيمِ
 لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمْنَمِ
 وَالنَّاذِرِينَ إِذَا لَمْ الْفَهْمَا دَمِي
 جَزَرَ السَّبَاعِ وَكُلُّ نَسْمِ قَشْمِ

الحارث بن حلزة

من شعراء الطبقة السادسة الجاهلية عند ابن سلام ، وموضعه عنده مع عمرو ابن كلثوم ، وعنقرة بن شداد ، وسويد بن أبي كاهل . وهم الذين قال فيهم إن لكل واحد منهم واحدة . . . وقال عن الحارث بن حلزة : وله قصيدة ، التي أولها :

آذَنْتُنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ نَارٍ يُمَلِّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

وله شعر سوى هذا ، وهو الذي يقول في شعره :

لا تسكع الشول بأغبارها إنك لا تدري من النتائج^(١)

وهو الحارث بن حلزة من بني يشكر ، من بكر بن وائل . قال أبو عبيدة :
أجود الشعراء قصيدة واحدة جيدة طويلة ثلاثة نفر : عمرو بن كلثوم ، والحارث
ابن حلزة ، وطرفة بن العبد . وزعم الأصمعي أن الحارث قال قصيدته هذه وهو
ابن مائة وخمس وثلاثين سنة^(٢) . ويقال إنه ارتجى ارتجالاً في شيء كان بين
بكر وتغلب بعد الصلح ، بين يدى عمرو بن هند ، وكان يشده من وراء السجف
للبرص الذي كان به ، فأمر برفع السجف بينه وبينه ، استحسنها لها ، وكان الحارث
متوكفاً على عنزة ، فارتزت في جسده وهو لا يشعر^(٣) .

وقد كان الحارث شاعر بكر سيدياً من ساداتها ، كما كان عمرو بن كلثوم
سيد تغلب وشاعرها ؛ وقد مر في ترجمة عمرو بن كلثوم ذكر الظروف التي أنشد
فيها عمرو بعض معلقته « ألأهبي . . » وهي الظروف نفسها التي أوجت إلى
الحارث بن حلزة أن يرتجل معلقته « آذنتنا بينها أسماء » فإن عمرو بن هند
لما ملك ، وكان جباراً عظيم السلطان ، جمع بكراً وتغلب فأصلح بينهم ، وأخذ من
الحيين رهناً من كل حتى مائة غلام فكف بعضهم عن بعض ، وكان أولئك
الرهن يكونون معه في مسيره ويفزون معه ، فأصابهم سموم في بعض مسيرهم ،

(١) البيت مثل سائر ، الشول جمع شائلة ، وهي من الإبل ما أتى على حملها أو وضعها
سبعة أشهر ، نجف لبنها فلم يبق في ضروعها إلا شول أى بقية ، والأغبار جمع غبر وهي بقية
اللبن في الضرع ، وكسع الناقة بغيرها تركه في خلفها ليفزر لبنها ويشده ، وربما فضحوا ضرعها
بالماء البارد فيرتد اللبن في ظهرها ، فيكون ذلك أسمن لأولادها التي في بطونها وأقوى لها .
يقول : لا تفعل ذلك رجاء أن تستجير نتاج إبلك ، فإنك لا تدري آتوت فيرتها وارث
أو يغير عليها مفير ، فأخذها منك . يحضه على الكرم ، وأن يحلب لأضيافه ولا يبخل . وانظر
طبقات خول الشعراء ١٢٨ .

(٢) خزائن الأدب للبغدادى ١/٢٢٣ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٥٠ ، والعنزة بفتح النون عصا في قدر نصف
الرمح ، فيها سنان أو زج كزج الرمح يتوكأ عليها ، ارتزت ثبتت في جسده مثل رز السكين
في الحائط .

فهلك عامة التغليبين ، وسلم البكريون ، فقالت تغلب لبني بكر : أعطونا ديات أبنائنا ، فإن ذلك لازم لسكم ، فأبت ذلك بكر . فاجتمعت تغلب إلى عمرو بن كلثوم ، فقال عمرو بن كلثوم لتغلب : بمن ترون بكرا تعصب أمرها اليوم ؟ قالوا : بمن عسى إلا برجل من أولاد ثعلبة ؟ قال عمرو : أرى الأمر والله سينجلي عن أحمر أصلع أصم من بني يشكر . فجاءت بكر بالنعمان بن هرم أحد بني ثعلبة ابن غنم بن يشكر ، وجاءت تغلب بعمر بن كلثوم . فلما اجتمعوا عند الملك قال عمرو بن كلثوم للنعمان بن هرم : يا أصم ! جاءت بك أولاد ثعلبة تناضل عنهم ، وهم يفخرون عليك . فقال النعمان : وعلى من أظلت السماء يفخرون ! قال عمرو ابن كلثوم : والله لو لطمتك لكمة ما أخذوا لك بها ! قال : والله لو فعلت ما أفلت بها . . . فغضب عمرو بن هند ، وكان يؤثر بني تغلب على بني بكر . . فكانت بين عمرو بن هند والنعمان بن هرم مشادة غضب بسببها غضبا شديداً ، حتى هم بالنعمان ، فقام الحارث بن حلزة ، وهو أحد بني كنانة بن يشكر ، فارتجل قصيدته ارتجالاً ، وتوكل على قوسه ، فزعموا أنه انتظم بها كفه وهو لا يشعر من الغضب . وكان عمرو بن هند شريفاً لا ينظر إلى أحد به سوء ، وكان الحارث إنما ينشده من وراء حجاب ، فلما أنشده هذه القصيدة أدناه حتى خلص إليه ^(١) .

ولا يكاد يعرف من تاريخ الحارث بن حلزة إلا هذا القدر ، وقد رأينا مما تقدم أنه كان ملوك الحيرة أعظم الأثر في تعريفنا بشيء من تاريخ أكثر شعراء الجاهلية ؛ ولولا انتجاع أولئك الشعراء قصورهم بالحيرة ، والأحداث التي اتصلوا بها ما عرفنا من أمرهم شيئاً . ولعل مرجع ذلك أن العلماء والرواة كانوا هم أيضاً يقصدون أولئك الملوك ، وهم الذين رووا من تلك الأحداث ما رووا ، وليس يعزب عن البال أن التاريخ في أكثر ما كتب فيه تاريخ ملوك وساسة أكثر مما

هو تاريخ رعية وشعوب ، ولم يثبت في أكثره من تاريخ الرجال إلا ما كان له صلة بتاريخ أولئك الملوك والساسة والقادة ، فأهم مراحل حياة طرفة وعمر بن كلثوم والحارث بن حلزة والناطقة الديباني وغيرهم من فحول الشعر في العصر الجاهلي ، إنما عرف منها ذلك الشطر الذي وفدوا فيه على أولئك الملوك مختصمين أو محتكين أو طالبي عطاء وصلة ، وكان هذا هو الذي وجه إليهم الأنظار ، ولولا ذلك لضاعت أخبارهم وغفت آثارهم ، كما غفت آثار الديار في صحراء العرب وباديتها .

معلقة الحارث :

وهي واحدة التي اشتهر بها ، وقد عرفنا من القصة السابقة وحدة الظروف التي جمعت بينها وبين معلقة عمرو بن كلثوم ، ووحدة الهدف أيضا ، فكلما الشاعرين كان محامى قبيلته المدافع عنها ما رميت به من الظلم والاعتداء ، وهو الناطق بمفاخرها ، المسجل لأبجائها ، المباهى بأيامها وقائمه ونجدتها وسخائها ولذلك قال معاوية بن أبي سفيان في وصف المعلقين : قصيدة عمرو بن كلثوم وقصيدة الحارث بن حلزة من مفاخر العرب ، كانتا معلقتين بالكعبة دهرأ .

ويروى أن الحارث قال لقومه بنى بكر بن وائل : إني قد قلت قصيدة ، فمن قام بها ظفر بحجته وفلج على خصمه . فرواها ناساً منهم ، فلما قاموا بين يديه لم يرضهم ، فحين علم أنه لا يقوم بها أحد مقامه ، قال لهم : والله إني لأكره أن آتى الملك فيكلمني من وراء سبعة ستور ، وينضح أثرى بالماء إذا انصرفت عنه . وذلك لبرص كان به - غير أنى لا أرى أحداً يقوم بها مقامى ، وأنا محتمل ذلك عنكم ، فانطلق حتى آتى الملك ، فلما نظر إليه عمرو بن كلثوم قال للملك : أهذا يناطقنى وهو لا يطيق صدر راحلته ؟ ، فأجابه الملك حتى أخفه ، وأنشد الحارث معلقته ، وهو من وراء سبعة ستور ، وهند تسمع ، فلما سمعتها قالت : نال الله ما رأيت كاليوم قط رجلاً يقول مثل هذا القول يكلم من وراء

سبعة ستور! فأمر الملك بالستور فرفعت ، حتى صار مع الملك على مجلسه ،
ثم أطعمه في جفنته . وليس ذلك إلا من أثر إعجابه بقصيدته ، وما ساق من
الثناء لأبائه في ثناياها .

وقد بدأها على عادة الشعراء بذكر المرأة ، فشَبَّ بأسماء ، التي آذنته بفراقها
مع شدة شغفه بها وحرصه على الدنو منها ، مع أن في القيمين من يكره مقامه ،
وأخذ يعدد ديارها ومنازلها التي كان يلقاها بها ، ويبيكي فقدانها ، وبعد أن مضى
في هذا التشبيب قليلا أخذ في وصف ناقته التي يستعين بها على الهم ، فيشبهها
بالنعامة في السرعة والخفة وقد أفرعها الصوت . ثم جعل يذكر تحنى بنى تغلب
على قومه بنى بكر . الذين يخلطون برئسهم بمسيئتهم ، ويلصقون بهم الأخطاء
الثافية ، ويسرّعون إلى إعداد جيوشهم لحربهم . ثم توجه الخطاب إلى رجل
تغلب عمرو بن كلثوم الذي يزين كلامه بالباطل ويسرف في النيل من بنى بكر أمام
عمرو بن هند ، وبين أنهم لا يعبثون بهذه السعاليات فطلما وشى بهم لوشاة
فلم يغالوا من كيدهم شيئا ؛ بل ثبتوا أمام الأحداث التي لم ترزعزع عزتهم الثابتة ،
كأنها الجبال الشاخحة لا تلين للأحداث ولا تنال منها الرياح . وأخذ يذكر
ماقومه من المنعة والأيام والمآثر ، ويصل ذلك بمدح الملك وتذكيره بأيامهم
وأبائهم . وتعد هذه المعلقة سجلا لكثير من الأحداث السياسية والتاريخية
ففيها حديث الحرب بين بكر وتغلب وما كان بينهم من صلح ، وما قدم فيه
من العهود والكفلاء ، وأيام انتصرت فيها تغلب ، وأخرى انتصرت فيها بكر
وذكر للعداء القديم الذي كان بين المنذر ملك الحيرة والتغليبين لما امتنعوا عن
نصرته ، ووصف ولاء بنى بكر للملوك الحيرة . وقد استطاع الحارث بهذه القصيدة
أن يجذب الملك إلى صفه ، وأن يقنعه بالحجة والتاريخ والمنطق ، فكسب
الموقف لقبيلته ، وغلب بنى تغلب الذين وقف شاعرهم قصيدته على الفخر

والمباهاة والمبالغة الظاهرة التي تدعو إلى الاعتقاد بأن ذلك خيال شاعر أكثر مما هو حق يراد تأييده والانتصار له ، في موقف هو أشبه المواقف بموقف الخطيب الذي يقرع الحجة بالحجة ، ويؤيد الدليل بالدليل ، ويؤثر في عقول سامعيه ، ليقنعهم بصدق مايقول ، وذلك كان أهم أسباب نجاح الحارث وإخفاق ابن كلثوم .

ومع هذا المنطق المقنع والحجة المؤيدة بالوقائع والأحداث لم تلق قناة الحارث ، ولم ينسج جلال الموقف وحرصه على النجاح في اجتذاب الملك إلى قومه ، أن يفخر بأجداد قبيلته ، ويهدد الوشاة الساعين بالوقعة بن بنى بكر وعمرو بن هند ، بأن سعاتهم باطلة ، وهي وإن أصابت من الملك أذنا صاغية ، فلن تنال من بنى بكر الذين سبقت أعمالهم في حماية الملوك وفك أغلالهم ، مما لا يستطيعه إلا السادة الأقوياء ، ولم يكن لعمر بن هند أن ينال منهم ، حتى لو وقعت السعاية موقعها من نفسه ، بل ينسحر أن بنى بكر تبع ورعايا لعمر بن هند « هل نحن لابن هند رعاء » إلى غير ذلك مما شئخ فيه بأنفه وباهى فيه بقومه .

أما أسلوب المعلقة فإنه يختلف تماماً عن أسلوب عمرو بن كلثوم في معلقته ؛ فإن معلقة الحارث تبدو فيها أمارات القوة ، في جزالة ألفاظها وجودة تركيبها ، التي تسابر بها روح العصر الذي أنشئت فيه ، وطبيعة الموضوع الذي عالجته . وفيما يلي نص معلقة الحارث :

- (١) آذَنَّا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءَ رَبِّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاهُ
- (٢) بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ شِمَا ، فَادْنَى دِبَارِهَا الْخَلَصَاهُ
- (٣) فَالْمُحْيَاةُ فَالْصَّمَاخُ فَأَعْنَا قُ فِتَاقٍ فَعَاذِبُ فَاوْفَاهُ
- (٤) فَرِيَاضُ الْقَطَا فَاوْدِيَةُ الشَّرُّ بُبٍ فَالشُّعْبَانِ فَلَا بِلَاهُ

- (٥) لَا أَرَى مِنْ عَهْدَتُ فِيهَا فَا بَكِي ۥ
 (٦) وَبِعَيْنِكَ أَوْ قَدَتْ هُنْدُ النَّا
 (٧) أَوْ قَدَتِ ۥ بَيْنَ الْعَمِيقِ فَشَخْصَنِي
 (٨) فَتَقَوَّرَتْ نَارَهَا مِنْ بَعِيدِ
 (٩) غَيْرَ أَنِّي قَدْ أَسْتَعِينُ عَلَى الْمَمُ
 (١٠) بِزَفُوفٍ كَأَنَّهَا دِفْلَةٌ
 (١١) آتَسَتْ نَبَاةً وَأَفْزَعَهَا الْفَدُ
 (١٢) فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَفُ
 (١٣) وَطِرَاقًا مِنْ خَلْفِهِنَّ طِرَاقُ
 (١٤) أَتَلَهَّى بِهَا الْمَوَاجِرَ إِذْ كُلُّ
 (١٥) وَأَتَانَا مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأَنْبِيَا
 (١٦) أَنَّ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ يَفْلُو
 (١٧) يَخْلُطُونَ الْبَرَى مَنَابِذِي الذِّ
 (١٨) زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ مَرَبَّ الْعَمِ
 (١٩) أَجْعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا
 (٢٠) مِنْ مُنَادٍ وَمِنْ مَجِيبٍ وَمِنْ نَصِ
 (٢١) أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمَرْقُشُ عَنَّا
 (٢٢) لَا تَخْلُنَا عَلَى غِرَاتِكَ إِنَّا
 (٢٣) فَبَقَيْنَا عَلَى الشَّنَاءَةِ تَقْمِي
 (٢٤) قَبْلَ مَا الْيَوْمَ بَيَّضَتْ بُعْيُونِ الذِّ
- يَوْمَ دَلَمَّا وَمَا يُجِيرُ الْبِكَاهِ
 إِذَا أَخِيرًا تُلَوَّى بِهَا الْمَلِيَاءِ
 نِ بَعُودٍ كَمَا يُلُوحُ الضِّيَاءِ
 يَخْزَزَا زِي هِيَهَاتَ مِنْكَ الصَّلَاةِ
 إِذَا خَفُ بِالْثَوْرِ النَّجَاهِ
 أُمُّ رِثَالٍ دَوِيَّةٌ سَقْفَاهِ
 اصُّ عَصْرًا وَقَدَدْنَا الْإِمْسَاءِ
 عَ مَنِينًا كَأَنَّهُ إِهْبَاءِ
 سَاقَطَاتُ أَلُوتٍ بِهَا الصَّخْرَاهِ
 ابْنِ هَمَّ بَلِيَّةٌ عَمِيَاءِ
 هَ خَطْبُ نُفَعَى بِهِ وَنِسَاءِ
 نَ عَلَيْنَا فِي قِيلِهِمْ إِخْفَاهِ
 بَ وَلَا يَنْفَعُ الْخَلِيَّ الْخَلَاءِ
 رَ مَوَالٍ لَنَا وَأَنَا الْوَلَاءِ
 أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ صَوْنَاهِ
 هَالِ خَيْلٍ خِلَالَ ذَاكَ رُغَاهِ
 عِنْدَ عَمِيرٍ وَهَلْ لَذَاكَ بَقَاهِ
 قَبْلُ مَا قَدْ وَشَى بِنَا الْأَعْدَاهِ
 نَا حِصُونُ وَعِزَّةٌ قَمَسَاهِ
 امس فِيهَا تَعِيطُ وَإِبَاهِ

- (٢٥) وَكَأَنَّ الْمُنُونَ تَرَدَىٰ بِنَا أُرْ
(٢٦) مُكْتَفَرًا عَلَى الْخَوَادِثِ لَا تَرُ
(٢٧) أَيْمًا خُطْفَةٍ أَرَدْتُمْ فَأَذَوْ
(٢٨) إِنْ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةٍ فَالْصَّا
(٢٩) أَوْ تَقَشْتُمْ فَالْتَقَشْ بِجَشْمِهِ النَّا
(٣٠) أَوْ سَكْتُمْ عَنَّا فَكُنَّا كَمَنْ أَذَى
(٣١) أَوْ مَنَعْتُمْ مَا نَسْأَلُونَ مِنْ حُدٍّ
(٣٢) هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّا
(٣٣) إِذْ رَفَعْنَا الْجِلَالَ مِنْ سَعَفِ الْبَحْ
(٣٤) ثُمَّ مِلْنَا عَلَى تَمِيمٍ فَأَحْرَمَهُ
(٣٥) لَا يَقِيمُ الْعَزِيزُ بِالْبَلَدِ الدَّهْرِ
(٣٦) أَيْسَ يُنْجَىٰ مُوَالِدًا مِنْ حِذَابِ
(٣٧) فَلَكُنَّا بِذَلِكَ النَّاسِ حَتَّى
(٣٨) وَهُوَ الرَّبُّ وَالشَّهِيدُ عَلَى يَوْمِ
(٣٩) مَلَكٌ أَضْلَعُ الْبَرِيَّةِ لَا يُؤْ
(٤٠) فَاتْرَكُوا الطَّيْنِخَ وَالتَّعَاثِيَّ وَإِمَّا
(٤١) وَادْكُرُوا حِلْفَ ذِي الْجَارِ وَمَا قَدْ
(٤٢) حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدَّى وَهَلْ يَنْدُ
(٤٣) وَاعْلَمُوا أَنَّنَا وَإِيَّاكُمْ فِيهِ
(٤٤) أَعْلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَنْ يَنْ
- عَنْ جَوْنًا يَنْجَابُ عَنْهُ الْعَاهُ
نُوهٌ لِلدَّهْرِ مُؤَيِّدٌ صَمَاهُ
هَآ إِلَيْنَا تَمْشِي بِهَا الْأُمْلَاهُ
قَبِ فِيهِ الْأَمْوَاتُ وَالْأَحْيَاهُ
سُرُوفُهُ فِيهِ الصَّلَاحُ وَالْإِزْرَاهُ
مَضَىٰ عَيْنًا فِي جَفْنِهَا أَقْدَاهُ
ثُمَّوهُ لَهُ عَلَيْنَا الْعَلَاهُ
مِنْ ذَوَارٍ لِكُلِّ حَيٍّ عَوَاهُ
رَبَّنِي سَبْرًا حَتَّىٰ نِيهَاهَا الْحِسَاهُ
نَا وَفِينَا بَنَاتُ مُرٍّ إِمَاهُ
لِ وَلَا يَنْفَعُ الذَّلِيلَ النَّجَاهُ
رَأْسُ طَوْدٍ وَحُرَّةٌ رَجْلَاهُ
مَلَكَ الْمُنْذِرُ بْنُ مَاهِ السَّمَاءِ
مُ الْحَيَّارَيْنِ وَالْبَلَاءِ بِلَاهُ
جَدُّ فِيهَا لَمَّا لَدَيْهِ رِفَاهُ
تَتَعَاشَوْا فَنِي التَّعَاثِي الدَّاءُ
مَ فِيهِ الْعُهُودُ وَالْكَفْلَاءُ
مَقْصُوفٌ مَانِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ
مَا اشْتَرَطْنَا يَوْمَ اخْتَلَفْنَا سَوَاءُ
نَمَ غَازِيَهُمْ وَمَنَا الْجَزَاءُ

- (٤٥) أُم عَلِينَا جَرِي حَنِيفَةَ أُوَمَا
(٤٦) أُم جَنَابَا بَنِي شَتِيقٍ فَن يَن
(٤٧) أُم عَلِينَا جَرِي الْعِيَادِ كَا نِي
(٤٨) أُم عَلِينَا جَرِي قُضَاعَةَ أُم لِيذ
(٤٩) أُم عَلِينَا جَرِي لِيَادِ كَا قِي
(٥٠) لِيَسْرَ مِنَّا الْمُضَرَّبُونَ وَلَا قِيذ
(٥١) عَمَّتَا بَاطِلَا وَظُلَمًا كَا تُم
(٥٢) وَتَمَانُونَ مِن تَمِيمٍ بِأَيْدِي
(٥٣) لَمْ يُخَلُّوا بَنِي رِزَاحٍ بِبُرْقَا
(٥٤) تَرَكُوهُمْ مُلْحَحِينَ وَأَبَا
(٥٥) تُنَمَّ جَاءُوا وَاسْتَرْجِمُونَ فَلَمْ تَر
(٥٦) تُنَمَّ فَأُءُوا مِنْهُمْ بِقَاصِمَةِ الظَّهْنِ
(٥٧) تُنَمَّ خَيْلٌ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مَعَ الْفَلَائِ
(٥٨) مَا أَصَابُوا مِنْ تَفْلَسِيٍّ فَمَطَلُوا
(٥٩) كَسَكَالِيْفٍ قَوْمًا إِذْ غَزَا الْمُنْذُ
(٦٠) إِذْ أَحَلَّ الْعَلِيَاءُ قُبَّةً مَيْسُورَ
(٦١) فَنَاقَوْثَ لَهُ قَرَاصِبَةٌ مِنْ
(٦٢) فَهَدَاهُمْ بِالْأَسْوَدَيْنِ وَأَمْرُ اللَّهِ
(٦٣) إِذْ تَمَنَّوْهُمْ غُرُورًا فَسَاقَتِ
(٦٤) لَمْ يُغَرُّوْكُمْ غُرُورًا وَلَكِنْ
- جَمَعَتْ مِنْ مُحَارِبٍ غَزَاءُ
لِذْ فَإِنَّا مِنْ حَرَبِهِمْ بُرَاءُ
طَ بِجَوَزِ الْحَمَلِ الْأَعْبَاءُ
مِنْ عَلِينَا فِيمَا جَنَوْا أَنْدَاءُ
لَنْ لَطَمْنِ أَخَوَكُمُ الْأَبَاءُ
سَ وَلَا جَنْدَلٌ وَلَا الْخِدَاءُ
تَرُ مِنْ حَجَرَةِ الرَّيْضِ الظُّبَاءُ
بِهِمْ رِمَاحٌ صُدُورُهُنَّ الْقَضَاءُ
نَ تَطَاعَ لَمْ عَلَيْهِمْ دُعَاءُ
بِنِهَابٍ يَصْمُ مِنْهَا الْخِدَاءُ
جِجَعٌ لَمْ شَامَةٌ وَلَا زَهْرَاءُ
رِ وَلَا يَبْرُدُ الْغَلِيلِ الْمَاءُ
قِ لَا رَأْفَةً وَلَا إِبْقَاءُ
لُ عَلَيْهِ إِذَا تَوَلَّى الْعَقَاءُ
لِذْ هَلْ تَحْنُ لَابِنِ هِنْدٍ رِعَاءُ
نَ فَأَذْنَى دِيَارِهَا الْعَوَصَاءُ
كُلُّ حَيٍّ كَانَهُمْ أَلْقَاءُ
بَلِغٌ تَشْقَى بِهِ الْأَشْقِيَاءُ
هُمْ إِلَيْكُمْ أُمْنِيَّةٌ أَشْرَاءُ
رَفَعَ الْآلَ جَمْعَهُمْ وَالضَّحَاءُ

- (٦٥) أَيُّهَا الشَّانِي الْمُبْلَغُ عَنَّا عِنْدَ عَمَرٍو وَهَلْ لَدَاكَ انْتِهَاءُ
- (٦٦) إِنَّ عَمْرًا لَنَا لَدَيْهِ خِلَالُ غَيْرَ شَكٍّ فِي كُلِّهِنَّ الْبَلَاءُ
- (٦٧) مَلِكٌ مُقْسِطٌ وَأَكْمَلُ مَنْ يَمُ شَيْءٌ مِنْ دُونِ مَالِدِيهِ الثَّنَاءُ
- (٦٨) لِمِزْمِيٍّ بَمَثَلِهِ جَالَتْ الْحَيَّةُ لِي فَأَبَتْ لِحِصْنِهَا الْأَجْلَاءُ
- (٦٩) مَنْ لَنَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ آيَا تٌ ثَلَاثٌ فِي كُلِّهِنَّ الْقَضَاءُ
- (٧٠) آيَةُ شَارِقِ الشَّقِيقَةِ إِذْجَا وَاجْمِعَا لِكُلِّ حَيٍّ لَوَاهُ
- (٧١) حَوْلَ قَيْسٍ مُسْتَلَمِينَ بِكَبْشٍ قَرَضَى كَأَنَّهُ عِبْلَاءُ
- (٧٢) وَصَدِيتِ مِنَ الْعَوَاتِكِ لَاتِنَا هَاهُ إِلَّا مُبْطِئَةً رَغْلَاهُ
- (٧٣) فَرَدَدْنَاكُمْ بَطْمَنٍ كَمَا يَحْ رُجٌ مِنْ خُرْبَةِ الْمَزَادِ الْمَاءُ
- (٧٤) وَحَمَلْنَاكُمْ عَلَى حَزْمٍ نَهْلَا نَ شِلَالًا وَدُمَى الْأَنْسَاءُ
- (٧٥) وَجَبَّهْنَاكُمْ بَطْمَنٍ كَمَا تَنْ هَزُ فِي بَجَّةِ الطَّوِيِّ الدَّلَاءُ
- (٧٦) وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلَّمَ اللَّهُ وَمَا إِنَّ لِلْعَائِدِينَ دِمَاءُ
- (٧٧) نَمَّ حُجْرًا أَغْنَى ابْنَ أُمِّ قَطَامٍ وَلَهُ فَارِسِيَّةٌ خَضْرَاءُ
- (٧٨) أَسَدٌ فِي اللَّقَاءِ وَرَدُّ هَمُوسٍ وَرَبِيعٌ إِنَّ شَمْرَتِ خَبْرَاءُ
- (٧٩) وَفَكَكْنَا غُلَّ امْرِئٍ الْقَيْسِ عَنْهُ بَعْدَ مَا طَالَ حَبْسُهُ وَالْعَنَاءُ
- (٨٠) وَأَقْدَنَاهُ رَبَّ غَسَّانَ بِالْمُنَى ذَرِ كَرَاهًا إِذْ لَا تُكَالُ الدَّمَاءُ
- (٨١) وَأَتَيْنَاهُمْ بِدِسْعَةٍ أُمْلَا كِ كِرَامٍ أَسْلَابُهُمْ أَغْلَاءُ
- (٨٢) وَصَعَ الْجَوْنِ آلِ بَنِي الْأَوْ سِ عَنُونٌ كَأَنَّهُا دَفَوَاهُ
- (٨٣) مَا جَزَعْنَا نَحْتَ الْعَجَاجَةِ إِذْوَأُ مَتَ بَاقْفَائِهَا وَحَرَ الصَّلَاءُ

(٨٤) وَوَلَدَنَا عَمْرَو بْنَ أُمِّ أَنْسٍ مِنْ قَرِيبٍ لَمَّا أَنَا الْحَبَاءُ

(٨٥) مِثْلَهَا يُخْرِجُ النَّصِيحَةَ لِلنَّقْوِ مِـ فَلَاةٌ مِنْ دُونِهَا أَفْلَاءُ

تلك هي المملقات السبع التي انعقد الإجماع على سِتٍّ منها ، ولم يخالف في السابعة ، وأعنى بها معلقة الحارث بن حلزة ، إلا أبو زيد القرشي صاحب جمهرة أشعار العرب كما سبق ، الذي أغفل ذكر الحارث بين أصحاب المملقات ، مع موافقته في الست السابقة ، وإضافته إليها قصيدة النابغة الذبياني التي أولها « عوجوا خيوا النعم . . . »^(١)

وقصيدة الأعشى التي مطلعها « ما بكاء الكبير . . . »^(٢)

وقد وافقه في اعتبار النابغة والأعشى أبو جعفر أحمد بن محمد إسماعيل النحوى الذى ذكر التبريزى أنه أضاف إلى السبع الطوال المشهورة قصيدة النابغة الدالية التي مطلعها « يادارمية . . . »^(٣)

وقصيدة الأعشى التي أولها « ودّع هريرة . . . »^(٤)

وأضاف التبريزى قصيدة عبيد بن الأبرص « أفقر من أهله ملحوب . . . » ولم يذكر لهذا الإضافة .

ولذلك اقتصرنا من تلك القصائد على ما انعقد عليه الإجماع في القصائد الست الأولى ، وما لم يخالف فيه غير واحد في الحارث . أما ما كان من هذه القصائد موضع شك عند أكثر الرواة فقد آثرنا عدم التعرض له ، لا سيما وأن قصيدة الأعشى (ودّع هريرة . . .) وقصيدة النابغة الدالية لم تذكر على أنهما مملقتان ، بل

(٢) الجمهرة ٨٧ .

(١) الجمهرة ٧٧ .

(٣) شرح القصائد المشعر ٣٠٨ . (٤) شرح القصائد المشعر ٢٨٨ .

على أنهما من قصائد الجاهلية المشهورة . أما قصيدة الأعشى (مابكاء الكبير . .) وقصيدة النابغة الرائية فقد انفرد بهما من المعلقات أبو زيد القرشى ، ولم يتابعه واحد من الرواة فيما نعلم ، ويبدو لأول وهلة أنه اعتمد في ذلك على قول أبي عبيدة : أشعر الناس أهل الوبر خاصة ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة ، فإن قال قائل إن امرؤ القيس من أهل نجد فاعمرى إن هذه الديار التي ذكرها ديار بني أسد بن خزيمة ، وفي الطبقة الثانية الأعشى وليد وطرفة . . . وقال الكميت : عمرو بن كلثوم أشعر الناس ، قال أبو زيد : والقول عندنا ما قال أبو عبيدة : امرؤ القيس ، ثم زهير ، والنابغة ، والأعشى ، وليد ، وعمرو ، وطرفة ^(١) . ومضمون هذا الكلام وجوهره الفاضلة بين الشعراء ، وليس في هذا الكلام ما يدل أية دلالة على حصر أصحاب المعلقات في أولئك السبعة . لولا أن أبا زيد قل بعد ذلك عن المفضل قوله فيهم : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط ، فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة (الجهرة ٤٥) .

ولكن أبا زيد نفسه يخالف إذ يحمل من أصحاب المعلقات - وهم الذين وصفوا بأنهم أصحاب السبع الطوال - عنقرة بن شداد ، ويحمل قصيدته ثامن المعلقات ؛ فكأنه لم يقيّد نفسه بكلام أبي عبيدة ، ولا بكلام المفضل ، وإن كان يوافقهما في إغفال ذكر الحارث بين أصحاب السبع عندهما ، وبين أصحاب المعلقات عنده .

وهذه القصائد التي كتبنا نصوصها هي التي خُصّت باسم (المعلقات) والتي احتفظت بهذا اللقب الذي صرح به أكثر الرواة ، ولذلك اقتصرنا عليها ،

(١) جهرة أشعار العرب لأبي زيد ٤٥ .

وذكرنا من أخبار أصحابها ما رأينا فيه الكفاية ؛ أما ما سواها من القصائد المأثورة
عن شعراء الجاهلية فهي أكثر من أن تحصر ، وقد انتظمتها مجرعات أخر ،
وانفردت بتسميات أخر عند بعض الرواة ، ولم نجد من الأسباب الوجيهة ما يحملنا
على إثارة بعضها وإضافته إلى المملقات دون بعض ، فإن موضع ذلك دراسة عامة في الشعر
الجاهلي ، لا تمتاز فيها المملقات عن غيرها من الشعر الجاهلي ، ونعتقد أن التعرض
لتلك القصائد يخرج بنا عن مجال هذه الدراسة المخصصة لمملقات العرب دون
سواها من مأثور شعر الجاهلية .

الفصل الثالث

المجتمع العربي كما صورته المعلقات

يستطيع الناظر في تلك القصائد أن يتخذ من مجموعها صورة كاملة للشعر العربي في أقدم عصوره ، وهى الصورة التى انتهت إليها محاولات الشعراء ، واطمأنت إليها أذواقهم الفنية ، وأقرّهم عليها الذوق الأدبى العام .

ويستطيع كذلك أن يجد فى تلك القصائد ما يعينه على تبين معالم البيئة الجاهلية التى عاش فيها أولئك الشعراء ، والتعرف إلى طبيعة العرب وميولهم وتقاليدهم ، وما كانوا يزاولون من أعمال فى تلك البيئة فى ذلك الزمان البعيد . فلقد صورت تلك المعلقات ذلك الجنس العربى الذى سكن الجزيرة قبل الإسلام ، تصويراً يتسم بسمات الصدق والصراحة والحرية ، وهى الصفات التى كان أولئك العرب يحرصون عليها فى حياتهم الخاصة ، وفى حياتهم العامة التى كانوا يتصلون فيها بغيرهم من القبائل أو الأمم الغريبة عنهم . فإن أولئك القوم - إن عاشوا أفراداً أو جماعات - كانوا أقرب إلى الطبيعة ، وكانوا على وفاق مع تلك الطبيعة ، ولذلك وصف شعرهم هذه الطبيعة بكل ما فيها من أسباب الرغد ، وظواهر الخشونة والشظف ولذلك كان أحسن ما يوصف به ذلك الشعر هو صفة الصدق .

وإنك لتنظر إلى شعر المترفين الناعمين منهم كما تنظر إلى شعر الذين قاسوا مرارة الحرمان ، وخاضوا غمرات القتال ، ونالت من دمائهم السيوف والرماح ؛ فلا تجد الفرق كبيراً بين شعر هذا وشعر ذاك ، وإنما تجد صوراً كثيرة للحياة العربية ، تتلاقى فى مجموعها ، ويتم بعضها بعضاً ، حتى تستطيع أن تحصل على الصورة الكاملة التى

تنشدها ، ولا يخل ذلك بسمات الشخصية التي تبدو بكل جلاء في كل قصيدة من تلك المعلقة على حدة .

فشخصية امرئ القيس بارزة في معلقته في ذلك الغزل الذي عرف به ، وفي الفروسية التي كان يهيم بها .

وشخصية طرفة في فتوته وغروره ورحلاته وتحله من القيود لا يخفى على الناظر في معلقته

والشخصية الواحدة التي تنفر من الحرب وتعشق الدعة والأمن والسلام تعلن عن نفسها في معلقة زهير .

والبادية بأخلاقها ومنطلها واضحة المعالم في معلقة ليبيد التي تدل معانيها وألفاظها على لون متميز من الحياة ، هو ذلك اللون الذي عاش فيه ليبيد في جاهليته .

كما تجمد النحر الفاخر الذي يشعرك بطيش الشبان الذين يتجاوزون حد المقول في زهوم ومباهاتهم ومبالغاتهم ، تجمد بارزاً في معلقة عمرو بن كلثوم .

وتجمد العقل والمنطق والحجة المقنعة في حكمة الشيوخ وحلمهم وحنكتهم ، وهي الصفات التي كان يتحلى بها الحارث بن حنظلة ، والتي ظهرت معالمها بكل وضوح في معلقته .

كما تجمد شخصية عنبرة ، وقد تنازعها الحب المشبوب والشجاعة والفداء ، كما تبدو في معلقته التي ترى فيها أثر ذلك التنازع قويا بارزاً .

ولكنك مع هذه الشخصيات البارزة في المعلقة ، تراها جميعاً وقد تلاقى عند التصوير الصادق للطبيعة بأجلى معانيها ، وبأوسع ما تدر عليه تلك الكلمة ، من غير محاولة للزويق الذي يخرج بها عن معنى الطبيعة . وها أنت ترى قصيدة واحدة مثل معلقة امرئ القيس ، وقد جمعت المتناقضات ، فأنت ترى فيها الأطلال والغدران وبعر الآرام ، إلى جانب فتيت المسك فوق فراش نثوم الضحى ،

وترى فيها جذع النخلة إلى الأظم المشيد بالجندل . ولكنها ليست متناقضات في الحقيقة بل هي الطبيعة التي يعيش فيها الشاعر ، ويقع عليها حسه وبصره . ولو أراد الشاعر أن يتعمد ويتكلف لاختار ما يعجبه ، وألف بين ما يستحسن من المفاخر والأحوال . ولكنه كما قلنا صادق في العبارة عما يجد ، وعما يحس وعما يرى ويسمع . ولن ترى في هذه القصائد الطوال ما يخرج عن نفس العربي وعواطفه وانفعالاته بالحياة ومظاهرها وأحداثها . كما يتضح ذلك من الإشارات الآتية التي نلم فيها إلاماً بما اشتملت عليه البيئة الجاهلية من مواقع وجبال ومياه وأرض وسماء ، وأخلاق ومثل ، وحروب ووقائع صورها أصحاب المملقات .

(١) المواقع والجبال :

وإنك لتتظر إلى المملقات فتراها وقد زحرت بالمعاهد والمواقع التي ألفها الشعراء في حدائهم وشبابهم ، والتي كانت مرتع لهوهم ، وموطن أحبتهم في ظنهم وإقامتهم ، وموضع حروبهم وأيامهم وقد خللت تلك المواضع في هذا الشعر الفحل الذي احتوته المملقات ، فسارت أسماؤها في العصور ، ولانت بها الألسنة ، مع ما قد يكون فيها من الغرابة ، والسر على النطق الذي يحسه من يقرأها للمرة الأولى ، حتى صارت تلك المملقات مصادر لتلك المواضع والجبال والوهاد ، ولم تخل من ذلك معلقة من المملقات :

ففي معلقة امرئ القيس^(١) : سقط اللوى بين الدخولِ فحوَمَل (١)
فَتَوَضَّحَ فَالْمِرَّة (٢) وهي منازل بني كلاب الذين منهم أم الحويرث ، وهي هرة ،
أم الحارث بن حصين بن ضمضم السكبي ، وأم الرباب من كلب أيضاً ، وهما
الثان ذكرهما امرؤ القيس ، وذكر مقامهما بمأسَل (٧) وفيها دارة جُلْجُل (١٠)

(١) وضعت بجانب كل علم رقاً يدل على البيت الذي ورد فيه في كل معلقة إثباتاً للايجاز ،
وبعداً عن التكرار . وكذلك فعلنا في سائر نقاط البحث

التي ذكر لهوه فيها من العذارى ، وقال هشام الكلبي : دارة جلجل عند غمر كندة ^(١) وقال الأصمعي وأبو عبيدة : « دارة جلجل » في الحمى ^(٢) . وفيها وجرة ^(٣٧) التي اشتهرت بوحشها ، وهي موضع بين مكة والبصرة أربعون ميلاً ما فيها منزل أبداً فهي مساكن للوحوش ^(٣) . وفيها ضارج والمذيب ^(٧٧) اللذان قعد الشاعر بينهما يرقب البرق الذي يضيء سناه ، وضارج موضع باليمن والمذيب موضع بالعراق يشير إلى سناه الذي بعد تأمله إياه ، ويروى « بين حامز وبين أكام » وهو من بلاد غطفان . وفيها قطن والشَّ والستار ويذبل ^(٧٨) قال البكري في معجم ما استعجم : « قطن » جبل بنجد في بلاد بني أسد على يمينك إذا فارقت الحجاز ، والشيم جبل أيضاً ، والستار جبل بالحجاز ، ويذبل جبل بالحجاز أيضاً ، ويقال له « يذبل الجوع » لأنه أبداً مجذب . وفيها كتيفة ^(٧٩) وهي موضع . والقنان ^(٨٠) وهو اسم جبل لبني أسد . وتيماء ^(٨١) وهي مدينة كثيرة النخل والتين والضب بين حوران ومدينة الرسول عليه السلام . وثبير ^(٨٢) وهو جبل بمكة ، وهي أربعة أئيرة بالحجاز : ثبير الأئيرة وهو بمكة ، والثاني ثبير غينا ، والثالث ثبير الأعرج ، والرابع ثبير الأحذب ، أراد الشاعر واحداً منها . والجيمر ^(٨٣) وهو جبل لبني فزارة . وصحراء الغبيط ^(٨٤) وهي أرض بني يربوع والغبيط أكمة يرتفع طرفاها ويطنن وسطها وفي مملكة طرفة من أسماء البلاد والمواضع والجبال برقة نهد ^(١) التي ذكر أن بها أطلال خولة ، التي تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد ، والبرقة الأرض ذات الحجارة المختلفة الألوان ، والتهمد السمينة ، وهما علم على جبل في الحمى حوله أبارق كثيرة في ديار غنى ، وموضع في ديار بني عامر . ودد ^(٣) اسم موضع .

(١) غمر كندة موضع وراء وجرة ، بينه وبين مكة مسيرة يومين (انظر مراد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع : ص ١٠٠٠ .
(٢) شرح القصائد العشر للتبريزي ١٣ .
(٣) نهاية الأرب في شرح مطلق العرب ١٨ .

وعَدَ وَلِي (٤) وهى قرية بالبحرين . وذكر التبريزى أنها جزيرة من جزر البحر من أوال وأوال أسفل من عُحْمَان . والقَفَّان (١٥) وهما ثنية «قف» وهو ماغلظ من الأرض وارتفع ، فلم يبلغ أن يكون جبلا ، والتفُّ واد من أودية المدينة ، ثناء على عاداتهم فى تشيئة المفرد ، وجمعه لإتمام النظم . وضرغد (٨١) وهى أرض لبني هذيل وبني غاضرة وبنى عامر بن ثعلبة ، وقيل هى حرة بأرض غطفان ، وقيل اسم جبل . وفى معاقلة زهير : حومانة الدراج والمتلم (١) التى ذكر أنهما موضع دمن أم أوفى ، والحومانة المكان الغليظ ، أو القطعة من الرمل ، والدراج والمتلم موضعان بالعالية . والرقتان (٢) قال الأصمعى : الرقتان إحداهما قرب المدينة والأخرى قرب البصرة ، والمعنى أن دارها بينهما . وقال الكلبي : الرقتان بين جرثم وبين مطلع الشمس بأرض بنى أسد ، وهما أبرقان مختلطان بالحجارة والرمل ، والرقتان أيضاً حذاء «ساق النرو» ، وساق النرو جبل فى أرض بنى أسد ، والرقتان أيضاً «بشط فلج» أرض بنى حنظلة . والعلياء وجرثم (٧) والعلياء بلد ، وجرثم ماء لبني أسد . والقفان (٨) وهو جبل لبني أسد . والشو بان (١٠) وهو واد ، وهو أيضاً اسم جبل أو أرض . ووادي الرّسّ (١١) وهو ماء ونخل لبني أسد ، والرئيس حذاءه . والعراق (٣٣) الذى كان لأرضه غلات عظيمة تضرب بها الأمثال . والمتلم (٤٢) وهو موضع بين اللوى وجهرم .

وفى معاقلة اييد : مِئى ، والقَوْل ، والرّجام (١) ومنى اسم موضع غير الذى فى الحرم ، وهو قريب من طخفة بالحمى «حمى ضرية» ، وطخفة موضع بعد النجاج وبعد اسرة فى طريق البصرة إلى مكة ، و«ضرية» قرية لبني كلاب على طريق البصرة إلى مكة ، وهى إلى مكة أقرب . والريان (٢) وهو واد بالحمى ، قال ياقوت فى معجم البلدان : «الريان» اسم جبل فى بلاد بنى عامر ، وإياه عنى اييد بقوله «فدافع الريان عُرْمى رسمها» والريان جبل فى طريق البصرة إلى مكة ، والريان أيضاً جبل فى بلاد طيء ؛ وقال صاحب اللسان : «وريان» اسم جبل ببلاد بنى عامر ،

قال لبيد « فدافع الريان عُرَى رسمها » . والجليلتان (٦) وهما في الأصل تشفية جليلة ، وهى ناحية الوادى ، ثم جُمِلت علما على موضع بعينه . وتوضح ووجرة (١٤) وقد سبق هذا الموضعان في معلقة امرئ القيس . وبيشة (١٥) واد من أودية تهامة . وفيد ، والحجاز (١٧) وفيد موضع في نصف المسافة بين مكة وبغداد ، وهى منزل من منازل الحاج . ومشارق الجبلين ، ومحجر وفردة ورُخام (١٨) أراد بالجبلين أجاً وسلمى ، والمحجر وفردة ورُخام أسماء مواضع متقاربة . وصوائق ووحاف القمر وطلحام (١٩) أسماء مواضع ، والقهر اسم جبل . وأحزّة الثلبوت (٢٧) والأحزّة جمع حزيز ، وهو المكان النليظ ، والثلبوت واد أو أرض بين طيء وذيبيان . وصُعائد (٤٥) اسم موضع . وتبالة (٧٥) اسم موضع كثير الخصب ، ومن أمثالهم ، « ما نزلت تبالة لتحرم الأضياف » ، وهى بلد مشهور بتهامة في طريق اليمن ، وهى مما يضرب المثل بخصبها ، وذكروا أن عبد الملك ولى الحاجاج عليها ، فلما أتاها استحققها ، فلم يدخلها فقالوا « أهون من تبالة على الحاجاج »

وفى معلقة عمرو بن كلثوم : الأندرين (١) وهى قرية بالشام كثيرة الخمر جيدة . واليامة (٥) وهى مدينة بنجد . وذو طُلُوح ، والشامات (٢٨) موضعان . ونجد (٣١) فى قوله « يكون ثفالها شرقى نجد » وفى رواية أخرى « شرقى سلمى » وهو اسم أحد جبلى طيء : أجاً وسلمى . ورهوة (٤٦) اسم جبل . وخزازى (٦٨) وهو اسم جبل وموضع ، وخزازى ، وكبير ، ومتالع ، أجيال ثلاثة بطحفة ما بين البصرة إلى مكة ، وقيل خزاز جبل لبني غاضرة خاصة . وذو أراطى (١٩) اسم مكان ، وهو واد لبني أسد . والأبطح (٩٣) وهو واد فيه دقاق الحمى ، وأراد به « أبطح مكة » لأن الناس يجتمعون فيه من كل وجه .

وفى معلقة عنتره : الجواء (٢) بلد فى نجد يسميه أهل نجد « جواء عدنة » . والحزن ، والصمّان ، والمتنم (٧) الحزن وموضع لبني يربوع ، والصمّان جبل وموضع لبني تميم ، والمتنم مكان . وعنيزتان ، والغيم (١٢) وعنيزة موضع بين

البصرة ومكة ، وهى أيضاً بئر على ميلين من القريتين ، يطلن الرّمة لبني عامر ابن كرز ، وعنيزة من أودية اليمامة قرب سَوَاج ، وقرى عنيزة بالبحرين^(١) ، والغيل اسم موضع . والدُّخْرُضَان والديلم^(٣٢) والدحرَضان اسم موضع ، وقيل هما دُخْرُضٌ ووشيم ، فغلب أحدهما على الآخر ، وهما ماءان بين سعد وقشير ، وقيل : هما وراء الدهناء ، قيل : ودحرَض ماء لآل الزبرقان ، والديلم ماء من مياه بنى سعد . والرداع^(٣٦) وهو اسم ماء .

وفى معلقة الحارث بن حلزة : بُرْقَة شماء ، والخُلصاء^(٢) والبرقة والأبرق والبرقاء رابية فيها رمل وطين ، أو طين وحجارة مختلطان ، وشماء هضبة فى حِجَى ضَرِيّة وهى أرض بنجد ، والخُلصاء بلد بالدَّهْناء ، وقيل أرض بالبادية ، فيها عين ماء لعبادة بالحجاز . والحياة ، والصفاح ، وفتاق ، وعاذب ، والوفاء^(٣) والحياة هضبة أسفل من أبان الأسود غير بعيد ابني أسد ، والصفاح أسماء هضاب مجتمعة وموضع بين حُنين وأنصاب الحرم على يسرة الداخل إلى مكة من مُشاش ، وفتاق اسم جبل ، وعاذب اسم واد أو جبل قريب من رَهْمَى ، وهى فى الصمان فى ديار بنى تميم ، والوفاء أرض . ورياض القطا وأودية الشَّرْبُوب والشعبتان والأبلاء^(٤) ورياض القطا رياض بعينها يكثر فيها استنقاع الماء ودوامه فتعشب فتأنفها الطير لذلك ، والشَّرْبُوب واد فى ديار بنى سليم ، قال الأصمعى إنما أراد فوادی الشرب فاضطره الشعر إلى الجمع ، وقال غيره : العرب توقع الجمع على الواحد ، من ذلك قوله تعالى « فنادته الملائكة » أى فناداه جبريل عليه السلام ، والشعبتان أكمة لها قرنان ناتئان ، والأبلاء اسم بئر . والعلياء^(٦) المكان المرتفع من الأرض ، وإنما أراد العالية ، وهى الحجاز وما يليه من بلاد قيس . والعقيق وشخصان^(٧) وفى ديار العرب أعقّة ، منها عقيق عارض اليمامة ، واد واسع ، وفيه قرى ونخل كثير ، يقال له عقيق تمر ، ومنها عقيق المدينة فيه عيون .

(١) انظر مراسد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ٢/ ٩٦٨ .

ونخل ، وشخصان تثنية شخص موضع ، ويقال أكمة لها شعبتان . وخرزازی (٨) جبل بين المقيق وشخصين . وملحة والصاقب (٢٨) والصاقب جبل ضخم تلقاء ملحة . والبحرين والحساء (٣٣) والبحرين واسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان من جزيرة العرب ، وعمان آخرها ، ومدينتها هَجَر ، وبينها وبين البصرة خمسة عشر يوماً ، وبينها وبين عُمان مسيرة شهر ؛ والحساء مياه لبنى فزاة بين الرَبْذة ونخل يقال لمساكنها ذو حِساء . والحياران (٣٨) وهما بلدان غزا فيهما المنذر بن ماء السماء ومعه بنو يشكر ، فأبلاوا بلاداً حسناً . وذوالحجاز (٤١) موضع بمكة ، وهو الموضع الذي أخذ فيه عمرو بن هند الملك على تغلب اليهود ، وأصلح فيه بين الحيين ، وأخذ منهم دهنًا من أبنائهم من كل حي مائة غلام ، فيما تقول الروايات . وذونطاع (٥٣) قرية من قرى اليمامة ، ومياه في بلاد بنى تميم . والعلاء والعوصاء (٦٠) في بلاد الشام ، وهما أقرب أرض أنزلها النعمان « ميسون » بعد أن قتل أباهما . وحزم نهلان (٧٤) والحزم ما غلظ من الأرض وكثرت حجارتها ، ونهلان جبل ضخم بالعالية ، وقيل في بلاد بنى نخير .

ذلك أكثر ما ورد في تلك المعلقات من أسماء المواضع والجبال ، لم تذكر مجرد السرد ، وإنما ذكرت لدلالاتها ، ولارتباطها بحياتهم ومنازلهم ورحلاتهم ووقائعهم . إلى جانب ما تفيض به المعلقات من ذكر الأودية والكتبان والعيون والمياه ؛ وغيرها مما يتصل بطبيعة الأرض التي عاشوا فيها ، والصحراء التي جمعت شتات تاريخهم ؛ وحفظت معالم أوطانهم .

(٢) الجو والرياح والمطر والنجوم :

وكذلك عبر شعر المعلقات عن سماء العرب ونجومها ، وما يتعاقب عليهم من الرياح والأمطار ، إذ كانت تلك المشاهد الطبيعية شديدة الاتصال بحياتهم ،

عميقة التأثير في نفوسهم ، فقد مدّوا عيونهم على الصحراء ، ورفعوها نحو السماء ، فاتصلت الأرض بالسماء ، والجبال بمسارح النجوم في خواطرهم ، واتخذوا منها دليلاً في حلهم ومرتحلهم ، يهديهم سبلهم ، ويعرفون بها أين هم من تلك المغاوير الواسعة ، والكثبان المتشابهة . وكانت السماء مرتجماً يتربقون سحبها ، ويتوقعون غيثها الذي ينمي لهم النبات السكلاً والعشب ، فيأكلون ويرعون أنعامهم ، ورددوا حركات الرياح التي تدفع السحاب ، وتخفف عنهم حدة الطبيعة المتطرفة .

ومن ذلك في معلقة امرئ القيس : الجنوب والشمال (٢) اللذان ذكر امرؤ القيس أن منازل جيبته لم تعف آثارها بسببهما ، بل هي باقية ، ولو عفت لاستراح ، أولم يعرف رسمها للريح وحدها ، وإنما عفا العطر والريح وغيرها ، قال صاحب القاموس : والجنوب ريح تخالف الشمال مهبها مطلع شهيل إلى مطلع الثريا^(١) . وقال القلقشندي : إن مهبها من حد القطب الأسفل إلى مطلع الشمس ، وتسمى بالديار المصرية « القبليّة » لأنها تأتي من القبلة فيها ، وتسمى بها أيضاً « المريسيّة » لأن في الجهة القبليّة بلاد المريس ، وهم ضرب من السودان ، قال : وهي أردأ الرياح عند أهل مصر^(٢) ؛ أما الشمال بالهمز والتخفيف ، فقد ذكر أن مهبها من حد القطب الشمالي إلى مغرب الشمس ، وسميت شمالاً لأنها على شمال من استقبال المشرق . وفيها يقول الفيروز آبادي (٤٠٢ / ٣) هي التي تهب من قبل الحجر أو ما استقبالك عن يمينك وأنت مستقبل . قال : والصحيح أنه مامهته من مطلع الشمس وبنات نعش أو من مطلع النعش إلى مسقط النسر الطائر^(٣) ، ويكون اسماً وصفة ، ولاتسكاد

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي ٤٩ / ١ ، وشهيل كوكب آخر منفرد عن الكواكب ، ولقربه من الأفق كأنه أبداً يضطرب ، وهو من الكواكب البائنية . قال ابن تقيّة : ومطلمه عن يسار مستقبل قبله المراق . قال : وهو يرى في جميع أرض العرب ، ولا يرى في شيء من بلاد أرمينية .

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي ١٦٧ / ٢ .

(٣) بنات نعش سبعة أنجم على الغرب من القطب الشمالي ، منها أربعة في صورة نعش وثلاثة أمامه مستطيلة . وهي المبر عنها بالبنات ، وتعرف هذه ببنات نعش الكبرى ،

تهب ليلاً . . وذكر الصَّبَا (٨) الذى يتضوع المسك من أم الحويرث وجارتها أم الرباب كما يتضوع نسيمها ، والصَّبَا هى التى تأتى من المشرق ، وتسمى القَبُول أيضاً ، لأنها فى مقابلة مستقبل المشرق ، قال فى صناعة الكتاب : وأهل مصر يسمونها الشرقية ؛ لأنها تأتى من مشرق الشمس . وأصول الرياح أربعة : الصَّبَا ، والدَّبُور ، والشَّمال ، والجنوب . . والثَّرْيَا (٢٩) التى ذكر تعرضها وشبهه بتعرض أثناء الوشاح المفصل ، حينما دبّ إلى صاحبتة وتجاوز إليها الأحراس ، والثَّرْيَا ستة أنجم صفار يظنها بعض الناظرين سبعة أنجم ، وهى فى شكل مثلث متساوى الساقين ، وبين نجومها نجوم صفار جداً كالرشاش ، وأول ما يطلع منها ويغيب هو الجانب العريض دون الأخاذ منها . . وذكر الليل الذى تطاول عليه ، والصبح الذى ليس أمثل من الليل (٥٠ و ٤٩) وذكر نجومه التى يراها لا تزال مواضعها ، وكأنها شدت بجبل يذبل فلا تستطيع حراكاً . . وذكر الثريا مرة أخرى (٥٢) فى معرض الشكوى من طول الليل ، وكأنها علفت فى موضعها مشدودة بحبال من الكتان إلى حجارة صم ، فلا تستطيع المضى . . وذكر البرق ووميضه والحيّ السكّل (٧٥) والحيّ ما ارتفع من السحاب ، والسكّل المستدير كالإكليل ، والسكّل المبتسم بالبرق ، وشبه البرق فى تحركه ولمعانه بلع اليدى ، وفى تألقه بمصباح الراهب (٧٦) أميلت فتيلته بصب الزيت عليها ، وفى قوله أمال السليط بالفتيل قلب ، وإعما المراد أمال الفتيل بالسليط . . وذكر قعوده مع أصحابه بين ضارج والعذيب (٧٧) ينظرون إلى هذا السحاب بشيمون برقه ، ذلك السحاب الذى امتدّ وانتشر فى الأفق وتناوت أطرافه ، فنزل مطر يمناه على جَبَلَى نجد قَطَن والشيم ، ومطر يسراه على جبل الحجاز ستار ويذبل (٧٨) . وهذا السحاب يصبّ ماءه حول

وبالقرب منها سبعة أنجم على شكلها . والنسر الطائر ثلاثة أنجم ، سمي بذلك لأنهم يحملون اثنين منها جناحيه ، ويقولون قد بسطهما كأنه طائر ، والعامّة تسميه الميزان .

كثيفة ، فإذا سبال ماؤه اقتلع الأشجار لكثرتة ، وقوة جريانه ، وألقاها على رءوسها (٧٩) وقد مرّ على جبل القنان شيء مما تنائر من ذلك المطر ، فأنزل هذا القدر اليسير منه الوعول أو الظباء من مغازلها ، وإذا كان هذا حال رشاشه وما تنائر منه ، فكيف يكون حال ذلك المطر نفسه ؟ (٨٠) . . وهذا المطر أصاب تيماء فيما أصاب ، فلم يترك بها نخلة إلا قلبها ، ولا حصنا إلا هدمه ، اللهم إلا ما كان من هذه الحصون مبنيًا بالصخور العظيمة فإنه لم يهدمه (٨١) . . ووصف ما فعل هذا المطر بشير (٨٢) الذي بدا في أوائل هذا المطر كأنه كبير قوم تزل بكساء مخطط ، يريد أن المطر لما نزل على هذا الجبل وسحّ من جوانبه خطط فيه خطوطا ، فكأنه في تلك الحال كبير قوم تلك حاله . . وكذلك ما فعل بذرا رأس جبل الجيمر (٨٣) الذي بدا صبيحة ليلة ذلك المطر مما حمله السيل إليه وأداره بجوانبه ، كأنه الخشبة التي تعطف بالمنزل وتحيط به . . وهذا المطر ألقى بصحراء الغبيط (٨٤) ما كان يحمله من الماء ونشره بأطرافها ، كما ينشر الرجل اليماني التاجر الحمل من الثياب ما في عيابه منها لمرضها على من يشتريها ، والمراد أن المطر لما نزل بهذه الصحراء خرج منه نبت مختلف ألوانه ، فكانت كثياب مختلفة الألوان نشرت في أرض . . وكان مكاكي الجواء غدوة ليلة ذلك المطر سقين خراصافية لذاعة ، فمن لا يزلن يتغنين (٨٥) . . وكان الأسود ، وقد غرقت في سيول ذلك المطر ، أصول البصل البرى (٨٦) فهذه الأسود قد تلعطت بالطين ، حتى كأنها أصول البصل لكثرة ما عليها من طين . وهكذا أبدع امرؤ القيس في وصف المطر وفعله بالبادية ومنازلها وأشجارها وجبالها وحيوانها ما شاء ، في تلك التشبيهات التي تعتمد على طبيعة البادية وما فيها من الأحياء والجماد .

وفي معاقبة طرفة : ذكر الشمس (٩) التي كسا ضوءها ثغر حبيبتها ، فأصبح

براقاً حاشاً لثتها، فإنها حواء تضرب إلى السمرة ولا يريق فيها ، وإنما نفي عنها ذلك لأنهم لا يستحسنون اللثة إذا كانت براقاً، وإنما يستحسنونها إذا كان في لونها ميل إلى السواد . وذكر الشمس مرة أخرى (١٠) حين ذكر أن لحبيته وجها مشرقاً كأن الشمس أعارته ثوباً نقياً خالصاً من أثوابها، ليس فيه غصون ولا شقوق كوجه المسنة أو المريضة ، وذكر الولي (١٥) في قوله إن ناقة نزلت في الربيع القفّين على النوق الشول ورعت بنت الوادي للولي وهو الذي أصابه الولي ، وهو المطر الثاني من أمطار السنة إلى الوسطى ، وهو المطر الأول والآل (٤٣) في قوله « وقت خب آل الأممز المتوقد ، والآل ما يرى طرفي النهار في الصحراء كأنه ماء وليس بماء ، وما يرى وسط النهار فهو سراب . والدجن (٦٠) وهو إلباس الغيم السماء .

وفي معلقة لبيد : المربيع والنجوم والودق والرواعد والجود والرهام (٤) والمراجع هي الأمطار التي تكون في أول فصل الربيع ، والنجوم الأنواء ، والودق المطر ، والرواعد السحاب جمع راعدة ، والرعد صوتها ، يصفقها الريح بعضها في بعض ، فيحصل من تصادمها واحتكاكها هذا الصوت الذي يسمع منها ، والجود المطر الغزير حتى لا ينظر فوقه ، والرهام جمع رهمة ، وهي المطر الضعيف الدائم . وذكر السارية ، والغادي المدجن ، والإرزام (٥) والسارية السحابة تسرى ليلاً ، والغادي السحاب الذي ينشأ غدوة ، والمدجن المطبق الذي استوعب أقطار السماء ، والإرزام التصويت ، يقال : أرزمت السحابة إذا اشتد صوتها . والسيول (٨) جمع سيل وهو الماء الكثير السائل ، وصفها وقد كشفت عن آثار الديار لأنها غسلت ما كان متراكماً عليها من القرب ، فكأن تلك الطلول كتب غابت فيها الكتابة أطول عهدا بالكاتب ، وكأن تلك السيول أقلام تجدد كتابة تلك الكتب وتظهر ما خفي منها . والسراب (١٥) الذي يلوح للنظر

في الظهيرة أنه ماء وليس بماء . والصَّهْبَاءُ (٢٤) وهي سحابة في لونها صُهباء ، أي حمرة . وريح المصايف والسهم (٣٠) التي حركت الحشيش فهاج ، أو تحركت ريح الصيف سرورها وسموها ، والسهم ريح حارة . وأسبل واكف من ديمة يروى الخائل دائماً تسجامها (٤٠) أسبل سال واستزحى ، وقال أبو زيد : أسبلت السماء إسبالاً ، وهو المطر يكون بين السماء والأرض حين يقع من السحاب قبل أن يصل إلى الأرض ، والواكف المطر يكف منها ، والديمة مطر يدوم ويسكن ليس بالشديد ، والتسجام الصب . وهذا المطر متواتر في ليلة كفر النجوم ظلامها أو غمامها (٤١) والمتواتر المتتابع ، وكفر النجوم غطاها وسترها ، ومنه قيل لليل كافر لأنه يستر الأشياء بظلمته ، والفلاح كافر لأنه إذا أتى الحب في التراب ستره به ، والغمام السحاب واحده غمامة . ورقص اللوامع بالضحأ وأردية السراب (٥٣) أي يقضى لبائته بتلك الناقة إذا اضطرب الآل ، وهو الذي يراه الإنسان بالضحأ ، كأنه يرتفع وينحط ، وإذا البست الإكام أردية السراب . والليلة الطلقة (٥٧) التي لا برد فيها ولا مطر . « وغداة ريح قدوزت وقررة قد أصبحت بيد الشمال زمامها » (٦١) الغداة أول النهار ، والقرة البرد ، يقول : رب غداة باردة ، قد هبت فيها ريح الشمال ، فزادت في بردها ، دفعتهما عن نفسي وندمانى بالشراب . « حتى إذا ألت يدأ في كافر وأجن عورات الثنور ظلامها » (٦٥) الضمير في ألت للشمس ولم تذكر قبل هذا ، والكافر الليل لسره الأشياء بظلامه ، وأجن ستر . وذكر تنارح الرياح (٧٧) وهو تقابلها ، تهب الصبأ وتقابلها الدبور ، وتهب الشمال وتقابلها الجنوب .

وفي معلة عمرو بن كلثوم : ذكر تصفيق الرياح للدروع (٧٨) وهو ضربها ، ويروى « عرينا » موضع « جرينا » معناه أصابتهن ريح باردة ، والعرية الريح الباردة .

وفي معلة عنترة : ذكر الروضة الأنف التي تضمن نبتها غيث قليل الدمن

ليس يعلم (١٩) أى أن المطر سقط عليها فطَيب رائحتها ، وقد جادت عليها كل عين ثرة أو بكر حرة فتكن كل قرارة كالدرهم (٢٠) أى أصابتها بالجوود وهو المطر الغزير ، والبكر من السحاب التى لم تنطر بعد فهى أكثر ماء ، والحررة الخالصة من البرد والريح ، ويرى « كل عين ثرة » والعين : المطر لا يقلع خسة أو ستة أيام ، وثررة كثيرة المطر دائمته ، والقرارة مستقر الماء فى الوادى . والسحّ والتسكاب (٢١) والسحّ صب المطر ، والتسكاب السكب .

وفى معلقة الحارث : ذكر المواجر (١٤) وهى أنصاف النهار واحدها هاجرة . والماء (٢٥) وهو السحاب الرقيق .

(٣) نبات الصحراء :

وفى المعلقات ذكر بعض ما يعرفون من نباتات البرية وأعشابها ، وما يمرون به فى غدواتهم وروحاتهم ومرعاهم من تلك النباتات التى يرعونها ، أو يشمون شذاها ، أو تأمر عيونهم بحال منظرها ، أو يستعملونها فى بعض أغراض حياتهم .

ومن ذلك فى معاقمة امرئ القيس : حب الفلفل (٣) الذى شبه به بحر الآرام الذى تنافر فى عرضات الديار . والسمرات والحنظل (٤) والسمرات جمع سمرة ، وهى شجرة ذات شوك ، وناقف الحنظل هو الذى يشقه عن المبيد ، وهو حب الحنظل وإنما شبه نفسه به ، لأن ناقف الحنظل تدمع عيناه لحرارة الحنظل . والقرنفل (٨) الذى شبه برائحته رائحة المسك الذى تضوع من صاحبتة أم الحويرث وجارتها أم الرباب ، الذى ذكره مرة أخرى (١٧) فى قوله « إذ يقينا جناة القرنفل » . والأقحوان الذى شبه به ثمر صاحبتة (١٨) . والنخلة التى شبه بقنوها^(١) فرعها

(١) القنوب بالكسر وبضم العنق ويقال له السكباسة .

الأسود الفاحم الذى يزين منها (٣٩) . والى ذكرها مرة أخرى حين ذكره تيماء المعروفة عندهم بكثرة النخيل ، وهى بين حوران ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . والاسجِل (٤٣) وهى شجرة دقيقة أغصانها فى استواء ، تشبه بها الأصابع دقة واستواء . وذكر دوح الكنهبل (٧٩) والدوح جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة والكنهبل بضم الباء وفتحها ضرب من الشجر . (٨١) وقد وصف المطر الذى أصاب تيماء بأنه لكثرتة لم يترك بها نخلة إلا قلبها ولا حصنا إلا هدمه ، وذكر المنصّل وهو البصل البرى (٨٦) وأنايشه وهى أصوله التى ينبش عنها . وفى معلقة طرفة ذكر السرّد (٦) وهو ثمر الأراك ، وذكر الخيلة وهى الروضة المشبة (٧) والبرير وهو ثمر الأراك إذا أدرك ، والمنور (٨) وهو الأقحوان النبات فى الأرض السهلة . وذكر الضال (٢١) وهو شجر السدر البرى . والمشر والخروع (٦١) والمشر شجر فيه حرّاق لم يقتدح الناس فى أحسن منه ، ويحشى فى الحداد لئنه ، والخروع نبت لا يرى .

وفى معلقة زهير : ذكر العهن (١٣) وهو القطن مصبوغاً أو غير مصبوغ والمراد به فى هذا البيت المصبوغ ، لأنه شبهه بحب الفنا وهو شجر له حب أحمر ، وهو الذى يقال له عنب الثعلب .

وفى معلقة لبّيد : ذكر الأيهقان (٦) وهو عشب يطول ، وله وردة حمراء وورقه عريض ريوكل ، أو هو الجرجير البرى واحدته أيهة ، والتمام (١١) وهو نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص ، تحشى به خصائص البيوت واحده ثمامة ، والأثل (١٥) وهو نوع من الطرفاء ، الواحدة أثلة . والسفا (٣٠) وهو شوك شجر البهمى ، والمرفج (٣٢) شجر سهلى ، والفلام (٣٤) نبت يكون على الأنهار ، واليراع (٣٥) وهو القصب ، والجرداء (٦٦) وهى النخلة التى انجردت كرها وليفها .

وذكر عمرو بن كلثوم الدين (٦٩) وهو الحشيش اليابس الذى حبس قومه لإلهم على طعامه حتى ظفروا ولم ينل منهم عدو .

وفى معلقة عنقرة : الخنم (١٤) وهو آخر ما يبس من النبات ، واحدته
خنمة . والعظم (٦٤) وهو بنت يختضب به .

وفى معلقة الحارث بن حلزة : العود (٧) الذى يتبخر به ، والسعف (٣٣)
وهو أغصان النخلة ، واحدتها سفة .

(٤) حيوان البادية :

وفى المعلقة إشارات لبعض حيوانات البادية ، وفيها تفصيل لبعضه الآخر
وكان الذى أفاض شعراء المعلقة فى ذكره ، وفصلوا فى نعمته هو أكثر أنواع
الحيوان لهم نفعاً ، وأشدّه بحياتهم اتصالاً .

وقد كان للخيّل الحظ الأوفى من عناية العرب فى الجاهلية ، إذ كانت شديدة
الاتصال بحياتهم فى الحرب ، وكان صهيلها من الأصوات التى ألقوها فى شتى
ظروفهم ومقاماتهم وحلهم وترحالهم .

ولقد أفاض امرؤ القيس فى ذكر الخيل ونعتها بنعوتها فى كثير من أبيات
معلقته ، ولا سيما الأبيات التى تبدأ بالبيت السابع والخمسين وتنتهى بالبيت
الرابع والسبعين ، فإنها جميعاً تذكر الخيل التى كان يباهى بها امرؤ القيس
ويتأنق فى أوصافها فى أكثر شعره ، وفى هذه الأبيات ذكرها كرمها كونه الصيد،
والطير لا تزال فى عشائها ، على فرس ماض فى سيره ، عظيم الجثة ، لا يفوته من
الوحش هارب ، فكأنه قيد فى أرجلها ، وهذا الفرس مكرّ إذا أريد منه
السكر ، مفترّ إذا أريد منه الفرار ، مقبل إذا أريد منه ذلك ، مدبر إذا أريد منه
الإدبار ، وذلك جميعاً من قوته لا يعجز عن شيء منه ، وليس مراده أن هذه
الأشياء الأربعة تقع منه فى وقت واحد ، لأن ذلك غير ممكن بحال ، وأنه كصخرة
ألقاها السيل من أعلى الجبل إلى أسفل الوادى فى السرعة وصلابة الخلق . وهذا
الجواد لا كتناز لحمه وملاسه ظهره لا يثبت عليه اللبد ، كما أن الحجر الأصم
لا يثبت عايه المطر ، وإنما يزلق عنه ، وهذا الذى ذكره من صفة جواده ممدوح
فى الخيل . وهذا الفرس على ضموه خفيف الحركة سريع الانتقال ، وإذا

عدا سمع لجريه صوت كصوت القدر، إذا كان يفل على النار، وإن كان بين اليتيمين تناقض في المعنى، لأنه وصفه هنا بذبول الخلق وضمور البطن، ووصفه من قبل باكتناز اللحم، حتى إن اللبد ينزل عنه لكثرة ما عليه من اللحم، وقد ساوى كفله وعنقه.

وهذا الفرس في حال إعيائه وفتور أعضائه من كثرة التعب يصب الجري صباً، كما يصب الماء إذا كلت الخيل الجياد السواجم، وأثارت الغبار في الأرض المذلة بحوافر الدواب وهو لشدة سيره وسرعة عدوه ينسل من تحت راكبه نسلاً، فيسقط راكبه، ولا يثبت على ظهره راكب، خفيفاً كان أو ثقيلاً فإذا ركه الغلام الخفيف زلق عن ظهره، وإذا ركه الرجل الكبير الثقيل الجسم سقط فهلك. وهو في سرعة جريه كأنه خذروف الصبي قد أحكم قتل خيطه، وتتابعت كفاه بإدارته.

ولهذا الفرس خاصرتان كخاصرتي الفزال في الضمور وساقان كساق النعامة في الطول، وإرخاء كإرخاء الذئب في السرعة، وتقريب كتقريب ولد الثعلب في وقوع قدميه موضع يديه، فقد شبهه بأربعة أشياء في بيت واحد. وهذا الفرس عظيم الجرم، طويل الذنب يكاد يمس ذنبه الأرض، كثير شعر الذنب، إذا قام الإنسان خلفه رآه قد سد ذنبه ما بين رجله فلا يرى منها شيئاً، ووصف ذنبه بأنه ليس بمائل إلى شق، وذلك من دلائل العتق وكرم الأصل. ثم شبه جانبي صلب الفرس إذا اعتمد على رجله بالحجر الذي يندق عليه الطيب للعروس، أو الحجر الذي يكسر به الحنظل، يريد أنه أملس الظهر مكتنز اللحم، وفي هذا الوصف رجوع مرة أخرى إلى وصفه بالسمن بعد أن عدل عنه ووصفه بالذبول والضمور. ثم شبه آثار دماء الوحوش على عنق هذا الفرس بما بقي من الحناء على الشعر الأشيب، يريد أن دماء الصيد على نحوره قد جفت وتراكت لكثرتها، وذلك كناية عن كونه كثير السمي في طلب الصيد، وأنه لا يفوته منها هارب.

وبعد تلك الأوصاف الدقيقة يعرج امرؤ القيس على ما يفعل بهذا الفرس من الخروج به إلى الصيد، وصنيعه في ذلك، فيذكر قطعاً من بقر الوحش، ويشبه إنانه في السمن واكتناز اللحم والتبخر في المشى بعدارى عليهن ملاحف طويلات الذبول تسحب خلفهن وهن يطفن حول الصنم، وتلك النعاج من بقر الوحش أقبلت عليه مجتمعات فلما تَبَيَّنَتْهُ نفرت منه وفرت عنه متفرقات بعضهن عن بعض، فسكانها الخرز اليماني في عنق صبي كريم كثير الأعمام والأخوال، قد فصل بين خرزاته بجواهر، فلما أدبرت النعاج جرى فرسه في إثرهن، فأدرك به أوائلهن، والمتأخرات منهن لا يزان في ضجة أو شدة، أو مجتمعات لم يتفرقن، وهذه مبالغة في قوة الفرس وشدة وقدرته على العدو، حتى كأنه بهذه المثابة؛ وقد استطاع أن يجمع بين ثور وبقرة في شوط واحد فقتلها تباعاً، وهو لم يعرق فيفسله العرق، وهذا كناية عن كون هذا الفرس فعل هذا كله ولم يمتس إعياء ولا تعب فيعرق؛ وذلك الفرس بعد التعب الذي ناله طول يومه في الصيد قضى ليلته تلك مسرجاً قائماً على قوائمه مقيداً، وأنه بات يكلؤه طول ليلته خيفة عليه.

ذلك ما أتت عليه ملحقة امرؤ القيس من وصف الفرس، ركوبهم في الصيد والقتال، وقد تمثلت في هذا الوصف نموت الخيل الجياد في نظر العرب.

أما طريقة فقد ذكر الخيل في أمانيه الثلاث التي عداها من لذة الفتى التي لا يبالي للموت إذا فقدتها، فإن ثانی الأشياء التي يحرص على الحياة من أجلها كره لإغاثة الملهوف، ونجدة المستصرخ المسكروب، فرساً في يده انحناء قليل، وهذا محمود في الخيل، فإذا خش كان مذموماً، وكان هذا الفرس ذئب الغضا في ورود الماء أثير وأفزع، وهو إذا كان فيه هذان الأمران كان أسرع ما يكون من الحيوان عدواً وأخفه حركة وأكثره نشاطاً (٥٩)

وفي معاقبة لبعد قليل من ذكر الخيل ، وذلك حين فخر بحمايته الحية تحمل سلاحه
فرس متقدمة سابقة في العدو قد توشح بلجامها (٦٣) وذلك أن الفرسان كان
أحدهم يتوشح بلجام فرسه ، ليكون ساعة الفزع والحاجة إلى الركوب قريباً منه ،
وأنه خبّ بها ، ثم أحضر بها ثانياً ، فلما عرقت خفت أعضاؤها للعدو ، فاشتدت
في عدوها اشتداداً قلق له رحلها ، وسال منه نحرها عرقاً ، وابتل حزامها من ذلك
العرق ، وهي ترفع رأسها نشاطاً ، وتجذب عنانها من كف راكبها ، وتعتمد
في سيرها ، كأنها حامية قد جدّ جماعتها في طلب الماء السكّرة ما نالهن من
العطش ، فهن أسرع ما يكنّ طيراناً (٦٧ و ٦٨ و ٦٩) .

ووصف عمرو بن كلثوم الخيل حين ذكر صنيع قومه بسادة غيرهم ، من
الذين يحمون اللاجيء إليهم ويدفعون الضيف ، إذ يقتلونهم ويحبسون خيلهم
الصامتات عليهم فتقف مطمئنة لا يروعها شيء ولا يفزعها مفزع (٢٦) : وحين
ذكر أن قومه أبداً على أحد حالين : فأما إذا خشوا على بنينهم من العدو أصبحوا
متيقظين مستعدين للقتال للدفاع عنهم ، وأما يوم لا يخشون عليهم فيتركونهم
في منازلهم ، ويمعنون في الغارة على الأعداء وطلب السكسب (٥٠ - ٥١)
وحين ذكر أن ما يحماهم يوم الفزع هي الخيل الجرد (٧٩) وهي القصيرة الشعر ،
وهو وصف السكراهم ، وقد استنقذوها من قوم آخرين ، فاصطفوها وتخيروها ؛
ويلطف هذه الجياد كرائم نسائهم (٨٧) عناية بها ، وإدراكاً لأهميتها .

وفي مقام الفخر بالفروسية والبطولة ، ذكر عنتره الخيل حين وازن بين حال
حبيبتة علة التي تسمى وتصبح منعمة موطأ لها الفرش والحشاشا ، وحاله وهو
يربت على ظهر فرسه ، وحشيتة السرج على فرس ضخم الأطراف والقوائم
(٢٤ - ٢٥) وحين ذكر حبيبتة بطول ما أبلى ، وهلا سالت الخيل عنه
إن كانت جاهلة ، إذ كان مقبياً على فرسه الذي تعاوره السكاة (٤٩) والذي كان

يجرده للطمان ولاقتحام جيش الأعداء ، فإذا نكبي فيهم عاد به إلى جيش قومه (٥٠) وذكر دعاء قومه إياه لاقتحام غمرات القتال ، فلما أشرع الأعداء الأسنة نحو فرسه ليعقروه ويأسروا راجبه ، كانت أشبه شيء بالجلال التي ترسل في البئر ليستقي عليها (٧٩) وأنه ما زال يكر عليهم بفرسه حتى عم الدم جسمه فكان عليه كالقميص ، حتى مال ذلك الجواد عن القوم لكثرة ما ناله من رماحهم ، ودمعت عينه وحجم كأنه يشكو إلى فارسه ذلك ، ولو كان يعلم الكلام لأفصح بالشكوى (٨٠ و ٨١ و ٨٢) ولقد كانت الخيل تقتحم الفبار بسرعة وهي عوايس لهول الموقف وجده ، وكان منها الطويل والقصير الشعر (٨٤ و ٨٥) .

أما الحارث بن حنظلة ، فقد وصف إغارة بني تغلب على قومه من بكر ، وأنهم كانوا يحكمون أمرهم ليلاً ، ليصبحهم بما اتفقوا عليه ، فيسمعونهم الضوضاء والصياح وصهيل الخيل ودرغاء الإبل (٢٠) وذكر خيل الفلاق وهو رجل من بني يربوع بن حنظلة من تميم ، كان على هجان كسرى ، وكان أغار على بني تغلب فقتل فيهم (٥٧) .

وهكذا نرى الخيل قد شغل ذكرها ووصفها مكاناً بارزاً في أكثر الملاحظات في غرضها الذين تستخدم فيهما ، وهما الصيد في إبان الأمن والسلام ، والحرب في مواقف النجدة والقتال .

أما الإبل فقد شغلت أيضاً مكاناً بارزاً في بعض الملاحظات ، إذ كانت منزلتها عندهم هي منزلة الخيل إن لم تفقها ، إذ كانت ركوبهم في رعيهم وفي ترحالهم ، وكان لحما قرى ضيفانهم ، وكانت هي الفداء الذي يستل السخينة من القلوب ويطفيء نائرة الحرب .

وقد ذكر امرؤ القيس يوم «دائرة جلجل» وما كان من ذبحه ناقته للعدارى ،

وأطعامهن لحمها الذى استطبنه ، كما استطبن شحمها الذى يشبه الأطراف المسترسلة من الإبريسم الأبيض (١٢) وذكر ركوبه مع صاحبه على بعيرها بعد أن عقر بعيره ، وخشيتها على بعيرها أن يثقل عليه حمل متاعها ومتاعه (٧١) .

أما طرفه فقد أفاض فى ذكر ناقته ووصف جسمها وقدرتها على السير السريع الآمن ، فإذا عزم أمراً أمضاه بناقة ضامرة سريعة السير ، تصل سير الليل بسير النهار ، لا تنى ولا تغتر (١١) وهى ناقة مأمون عنارها فى عدوها ، ضخمة كأن عظامها ألواح التابوت ، إذا ركبت بها متن الطريق الواضح زجرتها فأسرعت (١٢) وهى كالجل فى متانة خلقها ، عظيمة الوجنت ، سريعة السير ، فإذا مشت بين العدو والسير كانت كأنها نعامة عرضت لظلم قليل الشعر (١٣) فإذا كانت الناقة هكذا سرعة فى مشيها فى تلك الحالة ، فكيف يكون حالها إذا اشتدت فى عدوها وبذلت أقصى جهدها ، وهى تعارض فى سيرها كرام الإبل حين تنبع رجلها يدها فوق الطريق المذلل ؟ (١٤) ووصف الناقة بأنها نزلت فى الربيع القفين ترمى نبت الوادى المطور أولاً وثانياً ، مع طائفة من الإبل وذلك أدعى لإقبالها على الرعى للأنس بحنسها (١٥) وهى ناقة مؤدبة متعلمة فن أهاب بها رجعت إليه ، وإذا دنا منها الفحل انقته بذنبها (١٦) وذنبها أبيض ، كأنه جناح نسر قوى ، وهى لا تزال تلعب بذلك الذنب ، فتارة تضرب به على عجزها ، فيسكون خلف الرديف ، وتارة تجمله بين ساقها ، فتضرب به على أخلاف يابسة قد ذبلت وانقطع لبنها ؛ ولها فخذان سمينان قد اكتمل لحمها ، طويلان كأنهما بابا قصر منيف ، ولها فقر مطوية مترافعة متداخلة ، كأن أضلاعها المتصلة بها قسئ ، ومقدم عنقها قد ضم وأصق بخرز عنقها أحكم إلصاق ، وجعل بعضه على بعض ، وكأن إبطيها فى السعة بيتان من بيوت النور الوحشى ، وكأن أضلاعها قسئ معطوفة تحت صلب قوى بحكم الوضع . ولها مرققان بعيدان عن جنبها فكأنها سقاء قوى ، حل بكل يدلولاً ، ومشى بهما ، وقد باعدهما عن جنبه ، فارتفع

يذلك مرفقاء عن جنبيه . وهى فى ضخامة جسمها وحسن خلقها وتراصف أعضائها كقنطرة رجل رومى بالغ فى صنعها وتقوية بنائها . وفى لونها صهبة وفى ظهرها شدة ، يبعد ذميل رجلها ، ويكثر تحرك يديها فى السير ، وكنى بكونها صهاية اللون عن كرم أصلها . ويدها قد فتلتا فتلا محكما جأى عضديها عن دفيها ، وأميل عضداها تحت جنين كأنهما سقف قد أسند بعضه إلى بعض ، حتى قوى واستحكم . ولشدة مرحها تعتمد إذا سارت على أحد شقيها وتندفق فى سيرها ، وهى عظيمة الرأس وذلك من دلائل قوتها واستكمال خلقها ، وقد رفع لها كتفان بقوائم طويلة تبعد جسمها عن الأرض . وكأن آثار النسع فى جلدها آثار طرق مورد على صخرة ملساء فى أرض صلبة ، ومراده وصفها باكتناز اللحم وتماسكه .

وعنفها طويل ، إذا رفعت كان فى ارتفاعه كسكان ضرب من السفن معروف عندهم ، إذا كان سائراً فى الماء . ورأسها صلب ، كأنه حديدة العلاء ، وكأن طرفه اجتمعا على مبرد حديد ، وهذا آكد ما يكون من الدلالة على صلابة رأسها .

ولتلك الناقة خد كأنه فى نعومته قرطاس الرجل الشامى ، ولها شفة كأنها جلد الرجل اليمانى لم يسقط عنه شعره . ولها عينان تلعمان كأنهما مرأتان قد توطنتا فى كهفين ، وأحيطتا بعظامين كأنهما حجر القلت^(١) . وإنما قيد الحجر بكونه حجر قلت لأن القلت هو الذى يشبه العين ، فالما الذى فيه يشبه حجم العين ، واستدارة الصخر حول ذلك الماء يشبه استدارة العظم وإحاطته بالعين ، وليدل بذلك على فضل قوة ذلك العظم ، فإن الصخر إذا كان فيه ماء كان أصلب وأتم قوة . وهاتان العينان سليمتان ، تطرحان الأذى عن أنفسهما ، وهما واسعتان كعيني بقرة وحشية أريعت ، ولها ولد ، فهى تحمق بعينها لتتقى الصائد وتحفظ ولدها ، فهى أوسع ما تكون حينئذ عينا .

(١) القلت : النقرة تكون فى الصخرة يستنقع فيها الماء .

ولما أذنان صادقنا الحسّ تامنا الإدراك ، فهى تدرك بهما ما علا وما خفى من الأصوات ، فلا ينفى عليها شيء جليل أو دقيق . ولها قلب ذكى ، قوى الفطنة ، كثير الحركة ، مجتمع الخلق ، كأنه حجر مرداة^(١) من صخور ذلك الحبل أو كرداة صخر بين أضلاع تشبه أحجاراً عراضا صلبة موثقة ، وشفتها العليا مشقوقة ، ومارن^(٢) أنفها كذلك ، وهى إذا أدنت رأسها من الأرض ازدادت فى سيرها .

وهى ناقة مهذبة مروضة ، لا تتعب راكبها ، فهو إن شاء منها أن تسرع فى سيرها أسرع ، وإن شاء منها أن تخفف من سيرها قللت ، وإن شاء منها أن تجعل رأسها فوق واسطة كورها وتسبح بيدها ورجليها فطلت .

وهو على مثل هذه الناقة يمضى ويقطع الفلوات إذا جزع رفيقه منها ، وقال له : أفديك من هذه الفلاة وأفتدى نفسى ، وظن أنه هالك ، وإن لم يكن هناك خوف لما داخله من الذعر ، وخالط حشاشة قلبه من الجزع .

وإذا وقع الناس فى شدة وتساءلوا عن المرجى لكشفها ، تيقن أنهم إنما يعنونه بقولهم هذا ، فأقبل على ناقته ضربا بالسوط ، فاشتدت فى سيرها ، وقد تحرك الآل على الأما كن الغليظة التى يشق المشى عليها ، وهى تتبختر فى مشيتها كأنها جارية عرضت على أهل مجلس ، فقامت تتبختر ، وترخى أذيالها ، لترى سيدها أذيالها البيض . وإما قال « ترى ربهـا » لأن سيدها إذا كان فى المجلس كانت أشد مبالغة فى التبختر وسحب الأذيال ؛ لتسرّ فؤاده ، وتستدعى رضاه .

وذكر من عاداتهم فى الإبل ما يفردون البعير الأجرب ، ويمنعونه من دخول معاطن الإبل ، لئلا تسرى عدواه إلى غيره .

ولقد كانت الإبل مظهر نعمتهم ، ولذلك كانوا يحرسون عليها ، ولا يرعونها

(١) المرداة : الصخرة التى تردى بها الصخور ، أى تضرب بها لتكسر .

(٢) المارن : مالان من قصبة الأنف .

إلا فتى يقطا يحسن رعيها والحفاظ عليها؛ إذ كان فيهم اللصوص الذين يتحينون غفلة الرعاة. وفي معلقة طرفة شيء من خبر ذلك، فقد كانت له ولأخيه معبد إبل وكانا يرعيانها معاً، وكان طرفة ربما رعى به وحده، وردّ أخاه معبداً، فقال له أخوه معبد يوماً : لا تسرح في إبلك وحدك ، كأنك تظن أنها إن أخذت ردها عليك شعرك ! قال له : إني أخرج فيها أبداً ، حتى تعلم أن شعري سيردها إن أخذت ، حتى أغار عليها قوم من مضر فاستاقوها ، فجد طرفة في نشدانها (٨٣) كما فخر بأنه لا ينثنى عن عقر الإبل لندمائه ، سواء كانت له أو لغيره ، فيقول : رب إبل نائمة مشيت بينها ألتبس بغيراً أذبحه للندمان ، فثارت ثقالها من مخافتي ، وقامت من مباركها ، فرت بي منها ناقة ضخمة سمينة ، قد جف ضرعها وهى من كرائم نوق شيخ صحاب سبيء الأخلاق من قومه ، فلما ذبحتها قال ذلك الشيخ : إنك قد أثبت بداهية لذبحك هذه الناقة التى لا يذبح مثلها لضييف ، قال لمن حوله : ماذا ترون بهذا الرجل الذى ظلمكم ، وتعمد إبداءكم فى أكرم أموالكم ؟ ، يعنى كفّوه عنه ، وإلا لم يترك لكم شيئاً . ثم عدل الشيخ عن هذا ، وقال : دعوه فإنما هوله ، لأننى سأخلفه عليها ، ثم قال : ردّوا ما ندّ من الإبل لثلاث يعقره أيضاً ، فلما شوى الإمام حوارها^(١) الذى نزل من بطنها عند شقه على الملة^(٢) ، أقبلوا على أكله ، كما أكلوا قطما من سديفها المسرهد^(٣) .

وبكل هذا الذى سلف أتى طرفة فى معلقته على الكثير من أوصاف الإبل ورعيها ، وقرى الأضياف والندمان بلحمها ، واستطاعت المعلقة أن تنهض بشرح هذه الأغراض على ذلك النحو من الوضوح والتفصيل .

وذكر زهير بن أبى سلمى فى معلقته ناحية أخرى من النواحي الأخرى

(١) الحوار : ولد الناقة .

(٢) الملة : الرماد الحار المخلوط بالجر .

(٣) السديف : قطع السنام ، والمسرهّد : المنتهى فى السمن

التي كانوا يصطنعون فيها الإبل ، وهي تقديم الإبل ديات للقتلى ، لتلتئم بها الجراح ، وتستل الضفائر والأحقاد ، فقال أن الجروح تحمى بالمئين من الإبل أى تسقط الدماء بدفع دياتها ، وإن هذه الديات يدفعها نجوماً متفرقة من كرامهم من لم يحترم جرماً ، ولم يُرقَ ملء محجم من دم ، وإنما تحملها كرمًا وفضلاً لإصلاح ذات البين وصلة الرحم (٢٣ — ٢٤) .

وفى معلقة لببّد كثير من أوصاف الإبل وما ينتفع به منها ، فيذكر أن من لم يستقم لك فى ودّه فأنت قادر على قطيعته بركوب ناقة قد اعتادت الأسفار حتى أهزلتها ، فدق ظهرها ، وجف سنامها ، وفيها بقية من قوة ، وتكون هذه الناقة التي قد ذهب لحمها وانكشفت عظامها وتقطعت سيورها التي شدت بها أرساغها ، خفيفة فى السير قادرة عليه ، كأنها سحابة خفيفة ذهبت مع ريح الجنوب ، أو كأنها أتان أشرقت أطباؤها باللبن ، واسودّت حلمتها ، وقد حملت من حمار وحش فى حقويه يياض ، وقد أهزله طرد الفحول عنها وضربها وعضها (٢٥ — ٢٠) وبتلك الناقة يقضى لبائته إذا اضطرب الآل ، ولبست الآكام أودية السراب ، يريد أنه يبكر فى الخروج عليها ، ثم يديم السير عليها إذا اشتدت الظهيرة ، وذلك لجلدها على الحر والتعب (٥٣) .

وذكر لببّد ما يفعل الأيسار بالجزور^(١) ، فيقول : رب جزور قوم مقارين قرنتهم عليها ، وأخذتها منهم بقداح متشابهة العلامات ، ثم دعوت الناس إليها ، يريد أنه من المظفرين فى الميسر ، فما قاصر إلا قر ، والعرب فى الجاهلية كانوا يتمدحون بهذا . وكان يدعو بهذه القداح ليقاصر بها على ناقة عاقر أو مطلق وإنما خصّهما بالذكر لسمن الأولى ، وجودة لحم الثانية ، يبذل لحمها للجيران أو يوزع

(١) الجزور التي جزرت أى نحرّت ، والأيسار : جمع ياسروم الذين يضربون فى الجزور بالقداح والميسر .

بينهم ، أو أنه دعا بهذه القداح من أجل امرأة عاقر لا تحمل وأخرى ذات ولد ، ليس لهما من يعولهما ، فهو يقامر ليحصل لهما على ما يأكلانه ، ثم يفرق ما بقي على جيرانه ، فالضيف والجار الغريب المقيم في جوارهم إذا نزل بهم صادقا عندهم من الخيرات والفواكه والرطب ما يصادف النازل في تباله من الخيرات ، يشير بذلك إلى سعة يدهم ، وعنايتهم بضيفهم وجارهم ، والحفاوة بهما ، والمبالغة في إكرامهما (٧٣ - ٧٥) .

وفي معلقة عمرو بن كلثوم شبه ذراعى امرأته بذراعى العيطل وهى الطويلة من النوق الأدماء ، وهى البيضاء الخالصة البياض ، والبكر وهى من النوق التى ولدت بطناً واحداً ، ويروى بفتح الباء وهو الشاب من الإبل (١٤) ووصف وجده وحزنه لفراق حبيبته ، بأنه فاق حزن ناقة أضلت حوارها ، فسكرت الحنين إليه (١٩) وتذكر الصبا لما رأى الحولة ، وهى الإبل التى يحمل عليها ، وقد حدثها الحداة ساعة الأصيل (٢١) .

وفي معلقة عنتره إشارات إلى الإبل فى مواضع متفرقة ، لأن أكثر هذه المعلقة يدور حول الفخر ببسالته وحسن بلائه فى الحرب ، وأداة ذلك الخيل التى قدمنا ما ذكر من أوصافها . وما ذكر فيه الإبل قوله إنه وقف ناقته عند دار حبيبته أو أطلالها (٦) وأنه علم بقرب رحيلها حين رأى إبلهم تسف حب الخنم^(١) وذلك لأن من عادتهم إذا جاء الرقيم أن يتفرقوا فى طلب السكلا ، فإذا انقضى الرقيم ويبس النبت رجعوا إلى ديارهم (١٤) وحين وصف دار حبيبته بالبعد حتى أنه ليستبعد الوصول إليها على مثل تلك الناقة التى وصفها بقوة الجسم وسرعة السير وبعد عهدها بالحمل والولادة ، والتى يكسر ظهور الإكام وهو راكب عليها كأنها الظليم (٢٦ - ٢٨) وقد شربت الناقة من ماء الدحرضين ونجافت عن

(١) الخنم آخر ما يبس من النبات واحده خنمة ، وروى بجاهين غير معجمتين ومنها واحد .

حياض الله يلم لأنها تخافها ، وبها من الحدة والنشاط ما كأن هراً تحت إبطها ينهشها ، إذا عطفت عليه وهي غضبي لتصد عنها دفعها بيده وفه ، وقد أبقى لها طول السفر عليها سناما عالياً وقوائم كأنها الدعائم ، يريد أنه لم ينهكها ، وقد بركت على موضع قد نصب مأوّه ، وجفّ أعلاه ، وصار له غشاء رقيق ، فإذا بركت عليه سمع له صوت لتكسره تحتها ، أو أنها بركت فحفت فسكأن صوتها صوت المزمار . وكأن عرقها الذي يسيل من رأسها دبس أو قطران جعل في قفم وأضرمت النار تحته فهو يترشح ، وعرق الخيل والإبل أول ما يخرج أسود ، فإذا دبس اصفرّ . (٣٢ — ٣٧) .

وكما استعان طرفه بناقته التي يمضي عليها همه ، ولجأ إليها ليبد فراراً ممن خان عهده ، ولم يصف له ودّه ، ووقفها عنتره عند أطلال حبيته ، استعان الحارث بن حلزة على إمضاء همه ، وقضاء وطره ، بناقة سريعة السير ، كأنها نعامه طويلة الساقين ، وهذه النعام سمعت صوتاً خفيفاً ، وخافت على نفسها الصياد ، وقد أدركها الليل ، فهي تريد أولادها . والفرس من هذا كله المبالغة في سرعتها وشدة عدوها ، فأنت ترى من خلفها من رجع قوائمها وضربها الأرض بها غباراً دقيقاً كأنه الهباء ، وترى خلفها أطباق نعلها ، قد سقطت في أماكن مختلفة . وإنما أبلأها سلوكاً للمفاوز ، وهو يتلمى بالركوب على هذه الناقة والسير عليها في الهواجر ولم يعيه هم يلحقه (٩ — ١٤) .

أما الظباء وبقر الوحش فقد كثر ذكرها ووصفها في المعلقات في معارض شتى ، كأن توصف آثارها في الديار التي ارتحل أهلها ، أو في معرض التشبيه بها في سعة العيون ، أو في سرعة العدو ، أو في ألوانها .

ومن ذلك في معلقة امرئ القيس ما وصف به ديار حبيته التي رحلت عنها ، وأنه صادف في عرصاتها بحر الآرام ، وهي الظباء الخالصة البياض (٣) وما وصف به حبيته حين تعرض عنه بوجهها فيبدو منها خد أسيل ، وتقبل عليه بوجهها فتتقى

نظره إليها بعين ظلية من ظباء وجرة لها أظفال (٣٧) وفي قوله إنها تبدى عنقا كعنق الظبي، غير متجاوز القدر المحمود منه، ولا هو معطل عن الحلي كعنق الظبي (٣٨) وفي تشبيهه خاصرتي فرسه بخاصرتي الغزال في الضمور (٦٤) وفي ترقبه للصيد وعشوره بسرب من بقر الوحش، كأن إنائه في السمن واكتناز اللحم والتبخر في المشي عذارى عليهن ملاحف طويلات الذيل تسحب خلفهن (٦٨). وتلك النعاج من بقر الوحش أقبلن عليه مجتمعات، فلما رأينه قرن منه، وفرن عنه متفرقات بعضهن عن بعض، فكأنهن في تلك الحالة عقد خرزيماني في عنق صبي كثير الأعمام والأخوال، قد فصل بين خرزاته بجواهر، فلما أدبرن جرى فرسه في إثرهن فأدرك أوائلهن، والمتأخرات منهن لا يزلن في ضجة، واستطاع فرسه أن يجمع بين ثور وبقرة من بقر الوحش في حملة واحدة، فقتلها تباعاً ولم ينضج جسمه بشيء من العرق (٦٩ — ٧١) ويصف المطر الذي نزل على القنان^(١) فأنزل منه العُصم جمع أعصم وهو الوعل، أو الظبي المعتصم بأعلى الجبال (٨٠).

وفي معلقة طرفة ذكر الأحوى (٦) وهو الظبي في ظهره حمرة تضرب إلى السواد، ينفض الرد وهو نمر الأراك، حين يكون شادنا، والشادن الغزال إذا تحرك واشتد فاستغنى عن أمه، وقال إن هذا الظبي قد لبس عقد أوأو وعقد زبرجد، وتحلى بهما جميعاً، وهذا لا يكون من الظبي، وإنما يكون من إنسان يشابهه، وهو حبيته التي قال إنها تشبه الغزالة التي تخلفت عن صواحباتها، وأقامت على ولدها، تنظر بعينها إلى من ذهب عنها، فتعد عنقها لذلك، وتتناول أطراف نمر الأراك فتهدل أغصانها عليها فتكون كالرداء لها (٧) وإنما شبه محبوبته بالظبية في تلك الحال لأن الغرض تشبيهها بالظبية في طول العنق، وهي أطول ما تكون عنقا في مثل تلك الحال.

والمعنى الذى ذكره امرؤ القيس ، وهو أن ديار حبيته أصبحت مراحاً للأرّام ، هو الذى ذكره زهير بن سلمى حين ذكر أن دار حبيته بالرقتين قد أصبحت مراحاً لبقر الوحش والظباء ، وأنهن يمشين خلفه ، يخلف بعضهن بعضاً ، وأنهن ينمن أولادهن إذ يرضعن ، ثم يذهبن يرتعن ، فإذا ظنن أن أولادهن قد أنفدن ما فى أجوافهن صوتن بهن ، فينهضن من مجامهن ليرضعن (٣) .

وفى معلقة ليلى ذكر لنعاج توضع وظباء وجرة (١٤) حين وصف الظعائن وقوله إنهن تحملن جماعات ، فكأنهن فى هوداجهن على رحالهن بقرات وحش فى حسن عيونهن ، أو ظباء وجرة عاطفات على أطفالهن ، وإنما قيدهن بهذا الوصف لأنهن حينئذ أحسن عيونا منهن فى سائر حالاتهن . وفى مجال الموازنة بين ناقته والأتان ، والتماسه موازنة أخرى بينها وبين البقرة الوحشية (٣٦) للنبوة ، أى التى أكل السبع ولدها ، فهى مذتورة ، قد خذلت أصحابها من الوحش وأقامت على ولدها نرعا ، وتلفت إلى البقر ، فإذا رأتها طابت نفساً وعلمت أن القطيع لم يفتها بعد ، ووصفها (٣٧) بأنها خنساء ، من الخنس ، وهو تأخر الأنف وقصره أن يبلغ إلى الشفة ، والبقر كلها خنس ، وقد ضيعت ولدها فافتسته السباع ، فهى لا تزال تطوف الأرض تفتش عليه وتبكيه ، بعد أن رآته معفراً بالتراب ، قد تجاذبت أعضاء ذئاب غبس^(١) تسكسب ما تأكل (٣٨) بعد أن صادفت من هذا الغزال غفلة فأصيبته منها (٢٩) .

ثم يستطرد فى وصف هذه البقرة ، فهى معطوبة ، تمطر هادئة تروى الخمائل دائم تسكابها ، وهذا المطر يعلو ظهرها متتابعاً أو متقطعاً فى ليلة أطبق غيمها فستر النجوم ، وهى تسكن فى أصل شجرة مرتفعة أغصانها لا تسترها ، بعيدة عن سائر الأشجار ، وقد وقعت هذه الشجرة فى كثيب من الرمل ينال ولا يتماسك ، وهذه البقرة

(١) النبس : جم أغبس ، من الغبس ، وهى صفرة إلى سواد .

كلما تحركت بالليل أشرق لونها ، فهي كالدارة انقطع سلكها فسقطت ، وإنما وصفها بذلك لأنها إذا سقطت من الجبل كان ذلك أضواؤها ، ولما انقشع ظلام الليل بإشراق نور الصباح أصبحت هذه البقرة وقواؤها لا تثبت على الأرض من الطين ، فيقيت حائر فزعة تتردد في أطراف هذا المكان سبع ليال ، حتى إذا يئست البقرة من ولدها ، وجف ضرعها الذي كان ممتلئاً لبناً وبلى ولم يبله أن أرضعت وفطمت ولكن شككت فحزنت وتركت العلف ، فانقطع لبنها وجف ضرعها . فلما سمعت صوت الناس أفرعها إذ لم تر أشخاصهم ، وحق لها أن تفرع من أصواتهم ، لأنهم هلاكها ، لتوقع صيدهم إياها ، خائفة أن تؤتى من خلفها وأمامها وهي تحسب أن كلا الجانبين أولى بالخوف من الآخر .

فلما يئس الرماة أن تبلغها سهامهم ، أرسلوا عليها كلاباً مضراً بالصيد معودة عليه ، يابسة قلائدها التي في أعناقها من كثرة البروز للهواء والشمس ومطاردة الوحوش في القفار ، فلما لحقت الكلاب هذه البقرة رجعت البقرة عليهم تطعنهم بقرن كأنه الرمح حدة وطولا ، لتدفعهم عن نفسها وتمنعهم عنها ، وقد علمت أنها إن لم تدفعهم عنها عقرنها ، فهي أشد ما تكون مقاومة لمن خلوفها على حياتها منهم . وقد حملت هذه البقرة على « كساب » إحدى كلاب الصيد ، فطعننها بقرنها فصرعتها وتركتها مضرجة بدمها ، ثم كرت على أخيها « سُحام » فطعننته فتركته صريعاً في محل السكر (٤٠ - ٥٢) .

وهذا وصف فريد وتصوير رائع لتلك البقرة الوحشية ، ووصف لحالتها وما تقاسى من آلام الطبيعة القاسية في تلك الصحراوات الواسعة ، وما يفعل المطر بها ؛ وما تفعل السباع الضارية بصغارها ، وما تجد من الحيرة والفرع بين النظرة الحانية الحزينة على صغيرها الذي انتهشته تلك السباع ، وبين القطيع من بقر الوحش الذي كانت تقوده ، وكيف أحست بالصوت الخافت ينبعث من

أحد الصيادين ، وإطلاقه كلابه نحوها لتحصرها ، ووصف دقيق لدفاعها عن نفسها . . وهى صورة دقيقة تفيض بالحركة ، وتضطرب بالمشاعر التى أجاد الشاعر العبارة عنها ، وانفرد بالإبداع فى تفصيلها فى هذه المعلقة .

أما عنقرة فما أقل حديثه عن الظباء وبقر الوحش ، ومن ذلك القليل ما شبه فيه جيد حبيبته بجيد الجداية (٦٩) والجداية ما أنت عليه خمسة أشهر أو ستة من أولاد الظباء الحرة التى على أنفها بياض .

تلك أهم الإشارات إلى حيوان البادية ذى الشأن فى لهوهم وصيدهم وتشبيهم وقتالهم وعدا ذلك إشارات إلى بعض ما عرفوا من صنوف الحيوان .

فقد ذكر امرؤ القيس «النعام» وبيضاها فى تشبيهه لون صاحبتة بلون بيضة النعام المخلوط بياضاها بصفرة (٣٦) وهذا اللون أحسن ألوان النساء عند العرب وذكر «الأساريح» (٤٣) وهى دواب رملية تكون فيه مثل شحمة الأذن ، وقد شبه بها أصابع حبيبته لئنها . وذكر الطير (٥٧) التى يغدو للصيد وهى لاتزال فى وكناتها . وشبه ساقى فرسه بساقى النعام فى الطول ، وشبه إرخاء فرسه بإرخاء «السرхан» ، والإرخاء جرى فى سهولة ، والسرхан الذئب ، وشبه تقريب فرسه بتقريب «التنفل» ، وتقريب الفرس فى العدو هو رفع يديه معا ووضعهما معا ، والتنفل ولد النعلب (٦٤) وذكر مكاكى الجواء (٨٥) والمسكاكى جمع «مكاء» بالمد والتشديد على وزن رمان ، وهو طائر كثير الصغير . وذكر السباع (٨٦) جمع سبع ، وهو كل حيوان مفترس أسداً كان أو غيره .

وذكر طرفه «السفنجة» و«الأزعر الأربد» (١٣) والسفنجة النعام والأزعر ذكر النعام الذى لونه كلون التراب . شبه ناقته إذا سارت سيرا بين العدو والمشي بضامة عرضت لظلم قليل الشعر كأن لونه التراب ، والنعام أسرع ما تكون عدواً إذ ذاك ، فإذا كانت ناقته هكذا فى سرعة مشيها فى تلك الحالة ، فكيف

يكون حالها إذا اشتدت في عدوها وبذلت أقصى جهدها ؟ وذكر المضرحي (١٧) وهو العتيق من النسور يضرب إلى البياض ، أو هو الصقر الطويل الجناح وشبه عيني ناقته بعيني بقرة وحشية، أريمت ، ولها ولد ، فهي تحرق بعينها لتتقي الصائد، وتحفظ ولدها ، فهي أوسع ماتسكون حينئذ عيناً (٣٣) وذكر الخفديد (٣٩) وهو ذكر النعام ، والسيد (٥٩) وهو الذئب شبه به فرسه ، والحية (٨٤) رقد شبه نفسه برأسها المتوقد .

وذكر زهير العين والأرآم (٣) والعين البقر الوحشي واحدتها . عَيْنَاء ، سميت بذلك لسعة عيونها ، « والأرآم » وهي الظباء الخالصة البياض ، جمع رُم ، و « الأظلاء » جمع طلا ، وهو ولد الظبي والبقرة ، وذكر الأسد ذا اللبد الكثير اللحم (٣٨) .

وفي معلقة أبيد ذكر للظباء والنعام (٦) وكذلك « العين » (٧) وأطلاؤها ، و « نِجَاجُ تُوضِيعَ » ، « وظباء وَجَرَّة » و « أَرَامُهَا » (١٤) و « والأحقب » وهو حمار الوحش (٢٥) وقد شبه ناقته بأتان أشرفت أطباؤها باللبن واسودت حلمتها ، وقد حملت من حمار وحش ، أهز له طرد الفحول عنها وضربها وعضها . وهذا الحمار ذكر من أوصافه أنه يُعَلَى تلك الأتان الإكام ، إبعاداً لها عن الفحول لئلا يمتسها منها أحد ، وهو في شك من حملها لا متناعها عليه في السير معه ، وإنما وصفه بذلك ليدل على شدة سوقه إياها ، وطردها إلى رؤوس الإكام (٢٦) . وما زال ذلك الحمار وتلك الأتان على مثل حالهما حتى مرّت عليها الشتاء وجاء الربيع ، فصارا يكفيان بأكل رطب الحشيش عن الماء ، ثم رجعا بأمرهما إلى طلب الماء لجرى الصيف ، وقد رمى التراب وشوك الشجر مآخيز الخوافر ، فعدوا إلى الماء عدوا سريعاً أثار الغبار ، فارتفع من تحت أرجلهم وكأنه دخان نار مشتعلة لتكاثفه وانمقاده ، أو كأنه نار هبت عليها ريح الشمال .

لقد مضى الحمار إلى الماء وقدمها أمامه ، لكيلا تفر منه ، وتلك عادته ، والأبن لا ترد الماء حتى يتقدم الفحل ، فيشرب ، وينظر هل بالماء ما يريه أولا . ولقد خاضا النهر حتى توسط ، وشققتا التبت الذى على الماء (٢٧ — ٣٤) .

كما ذكر ليبد « الوحشية المسبوعة » (٣٦) وهى البقرة التى أكل السبع ولدها و « والفريز » (٢٧) وهو ولد البقرة ، « الدجاج » (٦٢) التى تصيح سحراً ، و « الحمامة » (٦٦) وذكر عمرو بن كنثوم (٢٩) الكلاب وهريرها .

وذكر عنزة « الغراب الأسحم » (١٥) و « الذباب » (٢٢) و « قلعص النعام » (٢٩) وهى أولادها وأحدها « قلعص » . وذكر الشاة (٦٦) التى كفى بها عن المرأة و « الجدابة » (٧٩) وهى من الظباء ما أتى عليه خمسة أشهر أو ستة ، و « النسر » (٩١) .

وفى معلقة الحارث بن حلزة ذكر للربيض (٥١) وهو جماعة من الغنم .

وذلك أهم ما عرضت له المملقات بالذكر من سائر صنوف الحيوان التى كانوا يعرفونها فى صحرائهم ، ويعتمدون على بعضها فى حياتهم .

الحياة الجاهلية فى المملقات

ولقد صورت المملقات المجتمع العربى كما هو ، فبرزت فيها صور مختلفة لذلك المجتمع ، ويمكن أن تعد تلك الصور صوراً متكاملة ، يتسكون من مجموعها رسم واضح لذلك المجتمع فى أكثر نواحيه ومختلف حالاته ومتعدد ألوانه .

وأهم هذه الصور ما رسمته المملقات لحياة الظعن والترحل ، التى كانت تمثل حياة الغالبية العظمى من بدو الصحراء ، الذين كانوا فى سفردائم ، متبعين مساقط الغيث ومناابع الماء ومواطن الرعى ؛ حتى إذا زايها السحاب ، وجف معينها ويس كلوها ، تحوّلوا إلى غيرها من المواطن وراء الماء الذى يستقون منه ، ويسقون

غنمهم وإبلهم وخيولهم ، ويحذون عنده من العشب ما يطعمه حيوانهم الذى يركبون ويتخذون من ألبانه ولحومه طعامهم ، ومن أصوافه وأوباره وجلوده أئاثا ومتاعاً إلى حين ...

وذلك اللون من الحياة صورّه أكثر أصحاب المعلقات فى مطالع معلقاتهم حين وصفوا ما يخلفه الظاعنون من آثار منازلهم ومضارب خيامهم ، فى معرض تذكّرهم للهوبها ، والتشبيب بفتياتها اللاتى رحلن عنها إلى منازل أخرى مع عشاثرهنّ فيقف الشعراء عند أطلال تلك المنازل ، واصفين ما خلفه الراحلون من النوى والأحجار ، وباكين لفراق الأحباب الذين حملوا معهم قلوبهم فى جملة ما حملوا من الأثاث والمتاع .

وصف ذلك امرؤ القيس فى ستة أبيات فى مطلع معلقته ، ناشد فيها رفيقيه الوقوف معه ، وإعانتته بالبكاء ، عند تذكّر حبيبته التى فارقت منزلها بسقط الهوى بين الدخول وحومل وتوصيح والمقراة ، والذى لا تزال آثاره باقية لم تدرس لاختلاف ريحى الجنوب والشمال عليه ، فإذا غطّته إحدى الريحين بالتراب كشفت عنه الأخرى فظهر ، وقد أقفر من أهله ، ولم يبق به أنيس من سكانه ، فخلقتهم عليه الظباء تسرح ، وقد بدا بعرها منشورا كأنه حب الفلفل .

وكذلك فعل طرفة فى مطلع معلقته فى خمسة أبيات من ذلك المطلع ، ذكر فيه أن لحبيبته «خولة» أطلالاً ببرقة نهمد ، كأنها آثار الوشم على اليد ، أى أنه لم يبق من ديار هذه المحبوبة إلا ما يساوى الأرض ، وأما ما كان مرتفعاً عنها فقد ذهب وتلاشى ، ولذلك شبهه بالوشم ، لأن أثره مساو لظاهر اليد ، وشبه مراكبها التى فارقت بالسنن العظام بمجارى المياه الضخمة ، وهى تارة تعتدل فى الطريق ، وتارة تميل عنه ، كما أن ملاح السفينة يحور بها مرة ، ويهتدى بها مرة أخرى .

ولا يبعد عما ذكره الشاعران ما ذكره زهير عن منازل «أم أو فى» التى وقف

عليها ، وسألها عن أهلها سؤال توجع وتذثر ، لا سؤال جاهل يلتمس جواباً ، وإنما جمل الدمنة بالحومانة — وهى ماغلظ من الأرض — لأنهم كانوا يتحرّون النزول فيما غلظ من الأرض وصلب ، ليكون بم عزل من مياه السيل ، ولئيممكنهم حفر النوى وضرب أوتاد الخيام ، ونحو ذلك مما لا يتيسر فى الأرض اللينة ، وفيما وصف فيه أطلال ديارها بالرفتين، التى عفت ودرست ، ولم يبق من آثارها على وجه الأرض إلا كما يبق على ظاهر اليد من الوشم ، فقد ساوت التراب ولم يبق منها ما شخص أو ارتفع عنه . وفيها من العين والأرآم شئ كثير ، وأنهن يمشين خلفه يخلف بعضهن بعضاً ، وكل ما وجدته فى ديارها من آثارها تلك الأثافي ، وهى الحجارة التى كانوا ينصبون عليها قدورهم . والنوى^(١) وهو حاجز من تراب كانوا يرفعونه حول بيوتهم لئلا يدخلها الماء ؛ وعواد زهير ذكرى رحيل صاحبتة فى جماعتها ، فيسأل صاحبه إن كان يرى من فوق ذلك الماء نساء فى هوداجهن قد طرحن على الهوداج أنماطاً^(٢) جياداً أطرافها حر ، كأن لونها الدم ؛ وهو لا يرى شيئاً من ذلك ، وإنما صورته له الوم كأنه يراه ، كما كان رآه يوم خرجن من وادى السوبان . ثم عرض لهن مرة أخرى فقطعنه ، وقد رآهن يوم خرجن للسفر سحرة يقصدن ذلك الوادى الذى يعرفه جيداً ، كما تعرف اليد طريق الفم ؛ ولطول السفر بليت الرحال فتساقط فتات العهن المصبوغ من هوداجهن فى كل منزل نزان به ، وكأنه حب غيب الثعلب وهو محجى لم يكسر ، وإنما قيد بذلك لأنه إنما يكون أحمر إذا كان محجى ، فإذا كسر حال لونه وتغير فلما وردن المياه التى ينزلنها فى غير زمن الربيع أقمن عليها ، ونصبن خيامهن عليها ، وقد ألقين عصا التسيار ، واطمأنن إلى هذا المنزل .

(١) النوى هو الحفير حول المباء أو الخيمة يمنع السبل .

(٢) الأنماط جمع نمط وهو ما يفرش من الثياب .

أما لبيد فقد افتتح قصيدته بذكر غناء الديار التي كان ينزلها أحبائه . نرى ، وقد توحش موضعا القول والرجام لظن الأوبة عنهما ؛ وقد خلت منهم مدافع الرّيان بارتحلهم عنها ، ولم يبق على ظاهر الأرض من ديارهم إلا كل خامد لاحق بالأرض ، كالكتابة على الأحجار ، كما شبه غيره تلك البقايا بالوشم الذي يبقى على ظاهر اليد ، ودعا لتلك الديار المقفرة بأن تسقيها أمطار الربيع ، حتى تخضل رباهها وتخضر وهادها ، وبعاودها من جمال المنظر ما فقدته بخلوها من أنيسها وارتحالها عنها . ووصف كما وصف غيره بقرات الوحش العيين ، وهنّ حديثات عهد بالولادة ، قد أقمن على صفارهنّ رضعنهنّ ، وانبثت في تلك الصحارى حتى ملأتهنّ ، فقد عدمت تلك المعاهد أن تكون مغاني للانس وصارت مغاني للوحوش .

ولما تهاطلت الأمطار على تلك الديار كشفت آثارها بفصل ما كان متراكما عليها من التراب ، فكان تلك الطلول كتب غابت فيها الكتابة لطول عهدا بالكاتب ، وكان تلك السيول أقلام تجدد كتابة تلك الكتب ، وتظهر ما خفي منها ، أو كأنها واشمة عدت إلى وشم قد ضعف أثره على اليد ، فرجعت وأعادته بذرّ النثور على داراته ليبدو جديداً .

وقد وقف الشاعر يسأل تلك الدّمن الثّمم ، ثم يصحو فينكر من نفسه أن تخاطب أحجاراً لا تبين ، وذكر كما ذكر غيره أنها خلت من أهلها الذين كانوا بها وارتحلوا عنها بكرة ، ولم يتركوا إلا النوى والتمام ، وقد شاقته ظُمن الحى حين ركن الهوادج وارتحلنّ عليها . . . ويأخذ بعد ذلك في وصف هودجهم فوق الإبل وصفاً دقيقاً أخذاً .

وأشار عمرو بن كلثوم في مطلع معلقته إشارة سريعة إلى الظن^(١) التي استوقفها ليخبرها باليقين من شجاعته وحسن بلاه قومه . وبعد أبيات يذكر صباه

(١) الظن : جمع ظئنة وهى المرأة ، ما دامت فى الهودج .

ويفصف أشواقه لما رأى حولتها ، وقد حدثتها الحداة ، وجَدَّت في المسير نحو غايتهما ، بعد أن غادرت الجبامة ، وحال دونها السراب ، فقرأت لهم مرتفعة تلوح كالسيوف المسلوكة من أعمادها ، وإنما خيلها لهم السراب كذلك .

وتلك الظاهرة — ظاهرة الرحيل ووصف الظمائن في مطالع المملقات — برزت في قصيدة عنتره الذي عرف الديار ، ديار حبيبتيه عبلة بعد توهمه ، وبعد أن أعياه رسمها الأصم ، وحبس بها طويلا ناقته يشكو إلى أطلالها الصامتة ما فعل به هجر حبيبتيه ورحيلها إلى أرض أعدائه ، حتى صار مطلبها عليه عسيرا ، لعدم إمكانه التخلص إليها ، بعد أن زمت ركائبها سيرا ، فلم يعلم خبر رحيلها إلا حين رأى إبل قومها ، نسف حبا الخميخم ، وهو آخر ما يبس من النبات ، وذلك لأن من عادتهم إذا جاء الربيع أن يتفرقوا في طلب الكلأ ، فإذا انقضى الربيع ويبس النبات عادوا إلى ديارهم .

وبرزت تلك الظاهرة كذلك في مطلع معلقة الحارث بن حلزة ، التي بدأها بذكر حبيبتيه أسماء التي آذنته بفراقها ، بعد عهده بها ببرقة ثماء ، وبالخلاص وبالحياة ، والصَّفاح ، وأعناق فتاق ، وعاذب ، والوفاء ، ورياض القطا ، ووادي الشربب والشعبتين ، والأبلاء ، التي كان يعمد بها كلها من كان يواصله ، ثم تحملت عنهم أو خلفتها خاوية ، فهو يبكي شوقا إليها ، وإن كان يعلم أن البكاء لن يردّها إلى معاهدها ، ولن يغنى عنه شيئا ، غير أنه يبكي ليشفي بعض مابه من الحزن . ويذكر آخر عهده بها حين رأى نارها تلوح بالعلياء ، ولم يعلم أين مكانها حتى تأملها ، فلم أنها بين العقيق وشخصين ، فظنّها قريبة منه ، فطمع في اصطلائها ، حتى عرف أنها بعيدة عنه فيئس ، وعاوده الحزن والحنين .

حياة الحرب والسلام :

وعلى ذلك النحو صورت المملقات حياة الصحراء ، وما يعانى ساكنها الذى لا يستقر على حال ، بل يقضى حياته فى ظعن وإقامة ، وحل وترحال ، والبيئة هى التى تحركه وتوجهه ، وفى تحريكها وتوجيهها ، تنور عواطفه ، وتفيض نفسه بمختلف الأحاسيس ، التى صورها الشعراء على ذلك النحو — والذى أوردنا شيئاً منه فى تلك المواضع البارزة من صدور المملقات ومطالعها .

وتلك الحياة نفسها هى التى أثرت فى أخلاق العربى وسلوكه ، فهى التى أفقدته الأمن بما أفقدته من الاستقرار ، والأمن والاستقرار متلازمان ، فلا مستقر إلا للأمن المطمئن الذى اطمأن إلى البقعة التى يحيا فيها ، بما يجد فيها من أسباب العمل والعيش ، وكلاهما ينسق حياته ، ويجعلها تجرى على نظام وتيب ؛ وإلا إذا اطمأن إلى من حوله من الناس الذين يشغلهم العمل كما يشغله ، وتنظم حياتهم كما تنتظم حياته ، حين يجد كل منهم مورد رزقه ، وقد هيأته له الطبيعة ، يغدو إليه فى جد ، ويقبل عليه فى استقامة ، ويروح إلى أهله بثمرة ذلك الجد والكفاح ، ولا يجد من الوقت ما يفكر فيه فى شر يصيب به من يعرف ومن لا يعرف .

إن شيئاً من ذلك لم تهيه الطبيعة فى تلك الصحراء إلا لعدد قليل من سكان الجزيرة فى جاهليتهم ، وبقيت الأكرية منهم تعبت بهم تلك الطبيعة القاسية ، وتبخل عليهم تلك الأرض المجدة ، وتضن عليهم السماء بغيثها ، فقصوا حياتهم مشردين ، ومالم يغالوه عفواً من أسباب العيش أصابوه اغتصاباً ، ولا غلبة عندهم لحق ، ولا صوت لضمير ، ولا منطق للأحداث ، وإنما الغلبة للقوة ، والمنطق المحترم هو منطق الرماح ، وصليل السيوف .

ومن هنا زخرت المملقات بذكر الحروب ، والحديث عن القادة ، والتباهى
بالحشود والجنود ، وبالقتلى والضحايا والسبايا ، وبالغنائم والأسلاب ، وفاضت
بذكر مواقع القتال ، وشن الغارات ، والفتك والنهب والسلب ، ثم أصوات
قليلة تذكر بعممة السلام الذى حرّمته ، ولذة الأمن الذى فقدته .

على أن المملقات كلها ليست على درجة واحدة من العناية بإبراز هذا الضرب
من الحياة ، حياة الحرب والقتال ، فإن بعضها قد غلب عليه ذلك الفرض حتى
كانها لا تقوم إلا به ، على حين أن البعض الآخر لا يعرض له إلا لماماً . ومرجع ذلك
إلى اختلاف أصحابها فى حياتهم وطباعهم ، وإلى تباين أمجادهم ، واختلاف موارد
أرزاقهم ، وإلى القبائل والجماعات التى ينتمون إليها ، وماركب فى نفوس أبنائها
من حب للخير والسلام ، أو نزوع إلى الشر والخصام .

ويؤكد هذا الاختلاف فى طباعهم ومنازعتهم أن معلقة امرئ القيس على
طولها لم تعرض للحرب أو القتال قليلاً أو كثيراً . وسبب ذلك أنه أنشدها فى حياته
الأولى ، تلك الحياة العابثة المماجنة التى قضى فيها شبابه فى حياة أبيه ، على الرغم من تلك
المعارك التى خاضها أبوه وأعمامه فى قتال الثائرين على ملكتهم ، أو الخارجين على
طاعتهم ، والتى انتهت بقتل أبيه حُجْر ، ولكن امرأ القيس لم يكن رجل
سيف أو رمح ، بل كان رجل صيد ولهو وخمر وقيان ، لا يشغله عنها شيء ،
ولذلك خَلَّتْ معلقته تماماً من ذكر الحرب والقتال ، والتارات والغارات التى
كانت عند كثير منهم سبيلاً إلى الكسب والمغنم ، فقد كان فى ماله ومال أبيه
غناء عما لم يعمده ، ومالا تطيقه نفسه المرفهة الناعمة ، التى تفزعها صورة الحرب ،
ويزعجها منظر الدماء .

ذلك على حين أن صورة الفتوة العربية ، والحمية الجاهلية وما تستلزمه من
صفات النجدة والشجاعة ، تبرز بوضوح فى معلقة طرفة بن العبد ، إنه يذكر أن

قومه كثيراً ما يخوضون غمرات القتال ، وكثيراً ما يدعون فتيانهم إلى اقتحامها ،
للذودِ عن حمام ، أو للثأرِ ممن وترهم ، فإذا وقعوا في أمر فظيع ، وسألوا عن فتيانهم
الذين يرجونهم لكشف الغمة تيقن طرفة أنهم إنما يعنون إياه بدعوتهم ، فلم يكسل
ولم يتبلد (٤٢) ومدح نفسه بأنه ليس من أولئك الذين يخنفون في القلاع من طالبي
نصرتهم ، بل إنه ينزل بحيث يراه كل من يستصرخه ويستنجد به ، وذلك دلالة على
الكرم والروء (٤٥) وأن هذا هو لون الحياة الذي ألفه ، فلا يستطيع العدول عنه ،
فيقول لمن عدله في كثرة شهوده الحرب ، واقتحامه الوغى ، حرصاً على سلامته ،
وإبقاء على حياته : أفى استطاعتك أن تضمن لى الخلود إن أنا نكصت عن القتال ،
وآثرت السلامة حرصاً على حياتى وإبقاء على نفسى ؟ (٥٥) إنه لو كان حرصاً
على حياته لحرص عليها ، لأعرض لا ينثنى عنها ، ومنها امتطاؤه صهوة فرسه
الجواد ، الذى لا يفتأ يكرّ عليه ، لإغاثة ملهوف ، أو نجدة مستصرخ مكروب (٥٩)
وهو إن دُعِيَ للخطوب الجسام كان ممن يحمى فيها ، وإن دم الأعداء قومه
فقاتلهم بأقصى جهدهم لم يألُ في ردِّهم بأقصى ما يملك من الشجاعة والجهد (٧٥)
وهو رجل خفيف قليل اللحم ، لا تعوقه بدانته عن سرعة الحركة ، وهذا مما تتمدح
به العرب ، لأن كل مفاخرهم محصورة في لقاء الأبطال ، ومقارعة الأقران ، وإغاثة
الملهوف ، وقطع الفلوات (٨٤) .

ولقد أقسم طرفة ألا يزال جنبه بطانة اسيفه القاطع ، لا يفارقه أبداً ، بل
يظل ملازماً له متقلداً إياه ، وليس كل سيفٍ يُمْنُ عن صاحبه إذا انتصر به ،
ولكن هذا الحسام إذا قام لينتصر به انتصر ، أو لينتقم به من عدوه أغت
الضربة الأولى عن الضربة الثانية ، أى أنه حسام بتار ، يقطع ضريبته بضربة
واحدة ، فهو موثوق بمضائة لا يذبو عن الضريبة ، فإذا ضرب به مرة واحدة ،
وقيل لحامه : كف عن الضرب ، قال حامله : كفىنى فقد بلغت المراد ، وهو

قطع الضريبة . وإذا دم الناس أمر فزعوا منه إلى سلاحهم كان طرفة منيعاً بهذا السيف ، لا يستطيع أحد أن يصل إليه بشر ، ومن جرؤ على الثُّنُوْ منه ضربه به فأصماه (٨٤ — ٨٨) ويذكر يوماً حبس فيه نفسه على القتال في موطن يتهيب فيه الشجعان الحرب ، وتضطرب فيه الفرائص من كثرة الهول والجزع ، أما هو فقد صدق القتال ، وثبت في الميدان محافظة على ما يجب عليه حفظه ، وتهدأ للأقران ، حتى لا يجدوا فيه مطعماً بعد ذلك اليوم الذي أربعهم فيه بقتاله ، وما أبدى فيه من ضروب البسالة (١٠١ و ١٠٢) .

ذلك طرفة ، إن لم يذكر قتالا بعينه ، ولم يصف معركة بذاتها ، ولا موقعة بنفسها ، فقد ذكر ما يعد نفسه له الفتى العربي ، الذي يرى بلاده وقد خضبت الدماء ساحاتها ، وحرمت الغارات أهلها نعمة الأمن ولذة السكرى .

والحرب في معلقة ليبد قليل ذكرها ، لما شغلها به من الفخر بكرمه ، ووصف ناقته ، وما ذكر من صفات البقر وجر الوحش وغيرها . ومع ذلك لم تخل قصيدته من ذكر بسالته وبلائه في القتال ، وإن كان استطراده يخرج به عما بدأه من الحديث عن ذلك إلى الحديث عن جواده ، فقد ذكر أن القبيلة تلجأ إليه لحمايتها (٦٣) فيحميها ، ويدفع عنها أعداءها على فرس سابق متقدم في العدو ، وقد توشح بالهجم ، ليكون ساعة الفزع والحاجة إلى الركوب قريباً منه . وقد علا لحاية الحىّ جبلاً أغير ، وأرضا مخوفة قريبة من أرض عدوه ، خلول طول يومه يرقبهم على ذلك الجبل ، حتى هجم الليل وغابت الشمس .

وتلك صورة من حياة الحرب والغارات التي عاشت فيها العرب في الجاهلية ، وإن كان الاستطراد إلى وصف الفرس كما قدمنا قد جعل الشاعر يوجز في رسم تلك الصورة إلى ذلك الحد القليل .

أما المعلقات الأربع الباقية فقد فاضت بالحديث عن الحرب والمواقع التي خاضتها العرب في الجاهلية ، ووصفت في شيء من التفصيل كثيراً من أخبارها وأيامها المشهورة عندهم ، وتحدثت عن الغارات والتارات ، وذكرت السكاة والأبطال والقتلى والأسرى والدِّيَّات ، والخيل والسلاح ، وأحاديث الصلح والمهادنة ، والعهود والمواثيق التي أبرمت ، ثم نقضها دعاة الحرب والخصام .

وكلُّ معلقين من تلك المعلقات الأربع تتصل بحرب من حروبهم المشهورة التي دامت سنواتٍ طويلاً ، حتى ضرجت الأرض بالدماء ، وشكلت الأمهات أولادهن ، وهلك الحرث والنسل .

فإن معلقة عنقرة بن شداد العبسي ومعلقة زهير بن سلمى تعرضان لكثير من التفصيلات التي تتصل بالحرب المعروفة عندهم بحرب « داحس والغبراء » تلك الحرب التي هاجت بين عبس وذبيان ابني بغيض بن ريث بن غطفان ، وكان السبب الذي هاج هذه الحرب ، فيما يروى الرواة ، أن قيس بن زهير وحمل بن بدر تراهنا على داحس والغبراء أيهما يكون له السبق ، وكان داحس فحلاً لقيس بن زهير ، والغبراء حجراً للحمل بن بدر ، فأمكن حمل بن بدر في الشاب فتیاناً على طريق الفرسين ، ليردوا وجه داحس عن الغاية إذا جاء سابقاً ، فلما شارف داحس الغاية ، ودنا من الفتية وثبوا في وجهه ، فردوه عن الغاية . وقد ذكروا أن هذه الحرب دامت أربعين سنة .

أدرك عنقرة بن شداد تلك الحرب شاباً ، وخاض غمارها ، وأبلى فيها أحسن بلاء ، وفي معلقته كثير من وصف بسالته وإقدامه ، وإشارة إلى بعض أحداث تلك الحرب ورجالها ، ولا نعدو الواقع حين نقرر أن أهم ما عالجته معلقته غرضان ، أولهما تشبيه بحبيته علة التي ضنت عليه بوصالها ، وضم أولياؤها بها عليه ، وإبرازه

إياها في صورة المنعمة المقرفة ، التي تسمى وتصبح على فراشها الوثير ، وهو يقضى ليله ونهاره على صهوة جواده ، يقارع الأبطال في ثبات واستبسال ، وذلك هو الغرض الثانى الذى طغى على سائر أغراضها ، وحفظ لنا صورة من صور الحياة عند أولئك الأبطال المغاوير ، الذين يقضون شبابهم على صهوات جيادهم ، قابضين على سيوفهم ، شاهرين إياها في وجوه أعدائهم ، وكل ذلك في سبيل حماية أحيائهم ، والحفاظ على أمجادهم ؛ أو في سبيل الكسب والمغانم التي يظفرون بها من غاراتهم التي كثيرا ما يشنونها على ضحاياهم ، إذا صادفوا منهم شرّة ، أو تحمّينوا منهم غفلة .

يقول مخاطباً عبلة التي أرخت قناعها لتخفى وجهه عنه ، حياءً أو دلالاً :
 إن أسترى وجهك عنى فإنى أنا الحامى لمثلك أن تستبى وتبتذل ، فأنا جدير منك بسهولة المعاملة . ويستطرد في ذكر بلائه في القتال ، وكثرة ما يصرع من الأبطال ، فهو حاذق للطعن ، لا يطمئن إلا في المقاتل ، وإن قلبه حاضر معه ، يعرف كيف يطمئن برمح ، فيصيب من عدوه مقتله بطعنة نافذة ، يقطاير منها دمه ويتفرق . ولو سألت عنه الخليل لعرفت منها ما قد تجهل من أمره ، وعرفت كيف كان يدفع فرسه لاقتحام جيوش الأعداء ، فإذا كان النصر وكانت الغنائم عفّ عنها وتركها لغيره ، إذ كان لا يحارب من أجل تلك الغنائم ، وإنما يحارب بطولة وفتوة ، وحماية للحرمان .

ويذكر عنقرة في سبيل فخره بشجاعته كثيراً من عاداتهم في القتال ، وأوصافهم في الحرب ، وعدتهم في اللقاء ؛ فقد ذكر الفارس المستلثم (٣٩) وهو اللابس اللأمة ، وهى الدرع ، والمدجج وهو الذى يتوارى بسلاحه ، والسكى وهو الذى يستر نفسه بالدرع والبيضة (٥٥) وكلاهما يخشى الأبطال لقاءه ، لأنه ينال منهم ولا ينالون منه ، ولكنه طعنه برمح الأصم شكت ثيابه ؛ وتلك عاداتهم في تعظيم من يتصدون اقتالهم ، وتمجيد بسالتهم حتى إذا قتلهم كان ذلك

أدعى إلى الاعتراف ببطولتهم ، لأن العظيم من يغلب العظيم ، والبطل هو الذى يتصدى لقاء الأبطال المغاوير فيضرعهم ، وكانوا يوصون أبطالهم بالثبات ، ويقدمون شبابهم أول الصف لقاء السكاة ، يتقون بهم الأسنة ، وكانوا يحرص بعضهم بعضاً ؛ وينادون المعروفين منهم بالشجاعة (٧٩) وكان أولئك الأبطال يجدون فى ذلك النداء اعترافاً بفضائلهم ، وشفاء لما فى صدورهم ، فيحرصون على الموت ، لتوهب لهم ولأقوامهم الحياة .

وفى معلقة عنزة إشارة إلى اليوم المعروف عندهم بيوم المريقب ، وهو يوم انتصرت فيه عبس على فزارة ، إذا التقوا بذى المريقب من أرض الشربة فاقتلوا ، فكانت الشوكة فى بنى فزارة ، قتل منهم عوف بن زيد بن عمرو بن أبى الحصين أحد بنى عدى بن فزارة ، وضمضم أبو الحصين المرمى ، قتله عنزة الفوارس ، ونفر كثير ممن لا تعرف أَمَاوهم ، وقد بلغ عنزة أن حصيناً وهرماً ابني ضمضم يشتمانه ويوعدانه ، فقال فى معلقته .

وَلَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تُدَرْ لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمْضَمٍ (٨٩)
الشَّامِئِ عِرْضِي وَلَمْ أَشْتُمَّهُمَا وَالتَّاذِرِينَ إِذَا لَمْ يَلْقَهُمَا دَرِي (٩٠)
إِنْ يَفْعَلَا فَلَتَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا جَزَرَ السَّبَاعِ وَكُلَّ نَسْرِ قَشَمٍ (٩١)

فقد ذكر أنهما أكثرا من شتمه ، وآليا لئن نقيهما ليقتلانه بأبيهما ، وأنه يخشى أن يموت قبل أن تدور عليهما دائرة الحرب ، أى قبل أن يقتلا ، ثم قال : إن يفعل ما سبق من الشتم والتوعد فهما حريان بذلك ، فقد قتلت أباهما ، وتركت عقيرته للسباع والذسور .

وإذا كان عنزة قد بدا فى هذه المعلقة فى صورة البطل الذى ألف الحرب ، ولا يجد لذة العيش إلا فى لقاء السكاة ، وفى صراع الأبطال ، وفى منظر الدماء

تسيل من جراح صرعاه ، وفي وقع الرماح التي يتقيها بمجنه إذا يمجته ، أو في لبنان
أدمه الذي تسرّبل بالدم ، حتى شكّا إليه بعبرة وتمحّم ، ويشعر بالسمادة
حين يناديه قومه للذب عنهم بقولهم « ويك عنتر أقدم » ، ويجد في كل أولئك
من المتعة بمظاهر الفتوة والاعتراف بها ما يفوق كل متعة في حديثه عن حرب
« داحس والغبراء » التي خاض غارها ، وأبلى فيها خير ما يبلى فارس مقاصر .
وإذا كان عنتر ذلك الرجل الذي لا يروى إلا بمنظر القتال وسفك الدماء ، فإن
حديثاً آخر يليقه أحد الذين شهدوا هذه الحرب بعيونهم ، ونعمة أخرى تصدر
عن رجل مجرب عركته الأحداث ، وعرف الحرب ، وقدر ويلاتها ، ومدى
ما يجره السفهاء من دعة الحرب على أقوامهم ، وعلى بلادهم من الخراب
والدمار ، فلا يفتأ يحذر العرب من تلك الأحوال التي تنزل بالمنتصر كما تنزل
بالمهزم على حد سواء .

ذلك الصوت الهادي ، الذي يقدر نعمة الأمن فيدعو الأقوام إلى اغتنامها ،
وعلى استئلال الإحن والأحقاد من نفوس العرب ، ليقطفوا ثمرات الأمن والاستقرار
هو صوب زهير بن أبي سلمى الذي شهد حروب غطفان ، فانبعث صوت الحكمة
في معلقته ، ولذلك كان هذا الشاعر الكبير جديراً أن يوصف في ذلك الزمن
البعيد بأنه رجل السلام ، وأخلص دعاة الأمن والاستقرار في تلك الحياة العربية
التي خضبت أرضها الدماء ، وترملت فيها النساء . وتيمم الولدان .

إن زهيراً يذكر صلحاً وقعة الفريقان المتحاربين ، وقد نقض هذا الصلح ،
فتشقق دماً ، حتى سعى عظيمان من غطفان هما الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ،
فأصلحاه ، ولقد أكرم زهيراً هذا الصنيع الذي تداركا به قبيلتي عبس وذبيان
بعدما هلكوا وأفنى بعضهم بعضاً ، وتحالفوا على الحرب حتى الموت ، ووقع
بينهم الشؤم حتى كاد يبيد عن آخرهم ؛ ولذلك يقسم زهير بذلك البيت الذي

تسكبه العرب وتقدسه ، والذي طاف حوله الطائفون من قريش ومن قبيلة جرم الذين كانوا ولاية البيت قبل قريش حتى بغوا بمكة ، واستحلوا حرمتها ، وأكلوا المال الذي كان يهدى إليها ، بقسم زهير يميناً بأن هذين السيدين خير الرجال في حالة اليسر وفي حالة العسر . ويروي زهير مقالتهما أو ما كانت تتحدث به نفوسهما ، يقول لهما : لقد قلتما إن تمكّن من الصلح ببذل المال ندفعه ديات للقتلى من الفريقين ، نسلم من الحرب ومن إراقة الدماء ، فلما بذلتما جهدكما في ذلك واستفرغتما وسعكما ، وبذلتما الأموال في هذا السبيل ، أصبحتما من هذه الحرب المتوقعة على خير منزلة بعيدين فيها من عقوق الأقارب وقطيعه الرحم ؛ وأصبحتما عظيمين في أشرف القبائل كلها معدّة غيرها ، وغير بدع ذلك ، فإن من فعل فعلكما وسمى سعيكما وبذل ما بذلتما من الأموال قد أبيع له المجد ، وصار عظيماً في نفسه ، واستحق أن يعظمه الناس .

إن هذه الجراح التي تشققت أصبحت تعفى وتنجى آثارها بالمئين من الإبل التي تدفع ديات للكلومين ، وهذه الديات تدفع نجوماً متفرقة بدفعها من لم يحترم جرماً ، ولم يرق ملء محجم من دم ، وإنما تحملها في ماله تطوعاً وكرماً وفضلاً ، لإصلاح ذات البين وصلة الرحم . تحملتما الحماة ، ودفعتما الديات لإصلاح ذات بين الفريقين حتى أصبح يجري فيهم من مالكم الموروث شيء كثير .

ثم يتوجه زهير بالحديث إلى الأحلاف من أسد وغطفان وطبي* ، لأن خزاعة لما أجلت بنى أسد عن الحرم خرجت لخالفت بنى طبي* ثم غطفان ، فيقول : أبلغ أولئك الأقوام أنكم قد تعاقدتم وحلفتم بكل قسم على الصلح وترك القتال ، فلا تحنثوا في أيمانكم ، ولا تنقضوا عهودكم بإعلان الحرب مرة ثانية ، أو أنكم أقسمتم كل قسم على نقض عقدة الصلح وإضرار نار الحرب ثانياً الأخذ بثأر من قتل منكم ، فلا تسكتوا ما أضمرت في نفوسكم من الغدر ونقض الصلح

ليخفى ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ومهما كتم الإنسان شيئاً وبالغ في كتمانها علمه الله ، فإما أن يؤخر عقابه ليوم الحساب ، أو يعجله فينتقم من صاحبه ، لأن كل إنسان مجزى بعمله لا محالة .

ثم يحضهم على قبول الصلح ، ويقول لهم : لا ينبغي لكم الرجوع إلى الحرب بعد أن جربتموها وذقتم مرارة طعمها ، وليس الحديث عنها ظناً ، بل حقيقة عرفتموها بأنفسكم ، وبلوتموها في رجالكم وفتيانكم . إذا أترتم الحرب ذنمتم عواقبها ، وإذا عودتموها تعودت عليكم ، قاتلهت فاستأصلتكم ، بعد أن تعركم كما تعرك الرحي ثفالها . والنرض من هذا كله تفضيع أمر الحرب ليكفوا عما عزموا عليه من إضرار نارها ثانية ، ويضطرهم للبقاء على الصلح ، لأن هذه الحرب تله لهم من الحوادث المشثومة أولاداً كل ولد منهم أشأم على نفسه وقومه من عاقر الناقة وتنذى أولئك الأولاد وتربهم ، ثم تقطعهم إذا حان فطامهم يريد أن الحرب كلما طالت وامتد وقتها ولدت آثاراً سيئة مشثومة ، حتى إذا انتهت تلك الحرب بقيت آثارها ، إنها تغل لهم من الأهوال ما تغله قرى العراق من قفيز ودرم ، وهذا تهكم واستهزاء بهم ، فلما انتهى من كف أولياء المقتول عن الحرب ، وحذرهم عواقبها المشثومة ، عاد للاعتذار عن أولياء القاتل وبيان أنهم لم يكونوا يعلمون بما وقع من صاحبهم ، لا ينبغي أن تضاف جريرته إليهم ، وأتى على بنى ذبيان الذين لم ينقضوا الصلح ولم يهتموا به ، وما كان من حصين ابن ضمضم فقد كان منه على غير رضا منهم ولا اختيار ، ولا سابقة علم بما سيكون ، وإلا لحالوا بينه وبين ما كان صمم عليه ، فإن هذا الرجل أضمر في نفسه خطة ، لم يطلع عليها أحداً ، بل مضى فيها غير مُبالٍ بمغبته ، إنه صمم على أن يدرك ثأره بقتل رجل من بنى عبس ، فحمل على الرجل العبسى ، ولم يعلم أكثر قومه بذلك فيحولوا بينه وبين الرجل ، فقتله بعد الصلح ، وحيث حطت الحرب أوزارها

وسكنت ، لأن من طبيعته الظلم ، إن ظلم انتقم لنفسه ، وإن لم يظلم ابتداءً هو بالظلم . ولقد كانوا في صلاح من أمورهم بمد الصلح ، ثم صاروا إلى حرب تستعمل فيها السلاح ، وتسفك فيها الدماء ؛ فلم يحمدا عاقبة أمرهم ونتيجة حربهم .

لقد دفع أولئك السادة مادفعوا من الديات عن دماء لم يسفكوها ، فقد حملوا دم ابن نهيك ؛ ودم ابن الحزم ، ودم نوفل ، ودم وهب ، على غير مشاركة في دمائهم أو قتل برماحهم ، وإنما قتلوا بيد غيرهم من ذبيان ؛ وقال أبو جعفر^(١) : إن هؤلاء قتلوا قبل هذه الحرب ، فلما شملتهم هذه الحرب أدخلوا كل قتيل كان لهم في هذه الحرب ، فطالبوا بهم حالات وقودا حتى اصطلعوا ؛ ولقد قام السادة يدفعون عقل^(٢) كل قتيل ، مع أنهم لم يشاركوا في دمائهم فيقتلهم ، ولكنهم مع ذلك دفعوا دياتهم ألفاً بعد ألف كرماء منهم وفضلاً ، وكفلاً للحرب بين الفريقين وصلة للرحم . لقد كانوا يسوقون هذه الديات لقوم هم أولياء القتلة ، كى يؤدوها إلى قوم هم أولياء المقتولين غرامة عما لزمهم من السماء ، بلا عدة ولا مطل وتسويق فلم يشعروا إلا وهذه الديات قد طلعت عليهم من ثنية الجبل ، يشير بذلك إلى وقائهم ، وسرعة إنجازهم وعدمهم .

وتلك الإبل المساقة في الديات إنما هي لقوم ذوى بسار كثيرى الحلال والبيوت ، يلجأ الناس إليهم ، ويعتصمون بهم ، إذا رمتهم الليالى بما يعظم على نفوسهم ، وينقل عليهم حمله ، وأراد بالقوم قوم الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، الذين عرف كرمهم وعزة جانبهم ، وأن من كان له ثأر عندهم لم يدركه لعزتهم ومنعتهم ومن جنى منهم جناية عليهم لم يسلموه لأولياء الجنى عليه ليقنادوا منه ، لعزم

(١) شرح القصائد العشر للبريزى ١٢٣ .

(٢) العقل : الدية ، سميت بذلك لأنها تقبل عن القتل ، أو لأن الذى يدفعها إذا أتى بها عقلاً بفناء دار أولياء القتول .

وضرفهم ، بل تذهب جنابة جانبيهم هدرًا . ومعنى هذا أن أولئك الأيسار لم يبذلوا ما بذلوا خوفًا من الحرب ، ولا جبنًا عن القتال ، وإنما هي طبيعة ركبت فيهم من إيثار الأمن ، والاستجابة لصوت الضمير .

وبمثل هذا تتصل المعلقة بتلك الحرب الضروس التي طحنت عيسًا وذبيان ، وقتلت كثيرًا من أبطالهم ، وخلدت أسماء سادتهم وكرامهم الذين كان لهم شأن في إثارة الحرب ، أو رفع راية السلام .

ولقد كان ذكر زهير الحرب في معرض التهويل لشأنها ، والتذكير بأهوالها التي تدعوا إلى الفرق والانقباض ، ودعوة صريحة للسلم ، وبذل ما يستطيع في سبيل تحقيقه من الجهد والمال والعفو والتسامح .

وبذلك اختلفت الشخصيتان ، شخصية عنزة وشخصية زهير ، مع اتفاقهما في الغرض والموضوع ، فكلاهما وصف حرب « داحس والغبراء » ، وكلاهما وصف أهوالها ، وإن كان الأول قد صور نفسه في صورة الفارس الجريء للغامر ، الذي يقرع طبولها ، ويهجم على أبطالها ، ويطرب لوقع الأسنة وصليل السيوف . أما الآخر فإنه يفرق لأهوالها ، ويفزع لرؤية الدماء وهي تتقاطر من جراح المسكومين ، ويطرب لأصوات السلام التي تدعو إلى إعادة الأمن والاستقرار .

ولا شك أن المجتمع العربي يصوره كلا الرجلين ، وتصوره كاتبا المعلقين ، إذ أن فيه شيوخًا حكماء ، وشبانًا عقلاء . وإلى جانب أولئك فيه الفتية المغامرون الذين لا يعينهم شيء من العواقب الوخيمة التي تؤدي إليها الحرب ، من إزهاق الأرواح وإهلاك الحرث والنسل ، ونشر الإحزن والأحقاد ، بين الإخوة وبنى الأعمام ، ونور يث الخصاص بين العشائر والقبائل ، بقدر ما يعينهم أن يوصفوه بالبطولة ، وأن يتراوى الرواة أخبارهم ، ويشيع في الأحياء قصص بطولتهم .

ولا يزال كثير من هذه الصّور يعيش في زماننا في بعض البيئات الريفية ،
التي تعيش بعيدة عن أضواء العلم وأنوار المدنية ، وتؤثر أن تعتدى على الحرمات
أو تدفع عن نفسها عار الاعتداء ، ولا ترضى إلا بأن تكون غالبية بالحق
أو بالباطل ، وتنفر كل النفور من الاحتكام للمنطق ، والخضوع لأحكام القانون .
وتلك الصّور التي نراها أو نقرأ عنها ، تصوّر إلى حدّ كبير البيئة العربية
في الجاهلية ، قبل أن تشرق عليها شمس الإسلام بمحدوده وقوانينه التي نظمت
حياتهم ، وقادتهم إلى المجد والسيادة .

* * *

أما المعلقتان الأخريان ، فهما معلقة غمروب بن كاثوم ، ومعلقة الحارث
ابن حلزة .

وكتابهما تتصل بحروب ربيعة ، وأشهرها « حرب البسوس » التي كانت بين
بكر وتغلب ، والتي هاجها مقتل كليب بن ربيعة ، وهو الذي يقال فيه « أعزّ
من كليب وائل » فقد قاد معداً كلها يوم خزازي ، ففض بهم جموع اليمين
وهزمهم ، فاجتهدت عليه معدّ كلها ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيته وطاعته
ضبر بذلك حيناً من دهره ، ثم داخله زهو شديد ، ونهى على قومه ، لما هو فيه
من عزة ، وافتقار معدّ له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب
فلا يرعى حماه ، ويحير على الدهر ، فلا تحفر ذمته ، ويقول : وحش أرض
كذا في جوارى فلا يهاج ، ولا تورّد إبل أحد مع إبله ، ولا نوقد نار مع ناره
حتى قالت العرب « أعزّ من كليب وائل » . وكانت بنو جُشم وبنو شيبان
في دار واحدة بتهامة ، وكان كليب بن وائل قد تزوج جلييلة بنت مرة بن ذهل
ابن شيبان ، وأخوها جساس بن مرة . وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة
جساس بن مرة ، وكانت نازلة في بني شيبان مجاورة لجساس ، وكان لها ناقة يقال

لها « سراب » ولها تقول العرب « أشأم من سراب » و « أشأم من البسوس » فترت إبل لسكليب بسراب ناقة البسوس ، وهي معقولة بفناء بيتها ، جوار حساس بن مرة ، فلما رأت « سراب » الإبل نازعت عقلاها حتى قطعته ، وتبعت الإبل واختلطت بها ، حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض معه قوس وكنانة ، فلما رآها أنكرها ، فاشتد عليها بسهم ، فنفرت الناقة وهي ترغو ، فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها ، وصاحت : واذا له !! واجاراه ! وخرجت فأحسست حساساً ، فركب فرسا له مغرورا به ، فأخذ آله ، وتبعه عمرو بن الحارث ابن ذهل بن شيبان على فرسه ، ومعه رمحه ، حتى دخل على كليب الحمى ، فقال له : يا أبا الماجدة عمدت إلى ناقة جارتى فقترتها ، فقال له : أترأك مانعاً أن أذهب عن حمائى ؟ فأحسسه الغضب ، فطعنه حساس ، فقصم صلبه ، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه ، فقطع بطنه ، فوقع كليب وهو يفحص برجله ^(١) . وقد مكثت هذه الحرب أربعين سنة ، وكانت فيها الغارة بين الرجلين أو الثلاثة ، حتى أكلت العداوة صدورهم ، وأنت على الأخضر واليابس ، وأودت بهم ولم وشبابهم ، وتعددت الأيام بينهم ، فكانت الحرب سجالا .

وقد خللت المملكتان بعض تلك الأحداث بين الحيين ، وعرضت لجهود الصالح التي بذلها دعاة الأمن والسلام ، كما خللت بعض المواقع التي نال فيها بعضهم من بعض ، في معرض الزهو والفخر بأجداد الآباء والأجداد الذين أبلوا في تلك الوقائع ، وكسبوا لحياتهم نصراً ، فعمرو بن كلثوم يذكر حبييته بما كان من قومه من قتال أقر العيون وأثلج الصدور (١٠ - ١١) ورب سيد قوم يحمى الملجأ ويدفع الضيم قتلوه ، وحبسوا خيلهم عليه ، فوقفت عليه صافنة مطمئنة ، لا يروعا شيئاً ، ولا يفزعها مفزع ، وأنهم حموا « ذا طلوح » و « الشامات »

وما بينهما ، وطردها أعداءهم منها ، وفرقوا منهم من لا يفرق لمنته وعزته .
وأن بنى تغلب كانوا إذا حاربوا قوماً طعنهم كما تطعن الرحى الحنطة ، وشملت
حربهم شرقى نجد كله ، وأتت على قضاة كلها . فيعمون ذوبهم بالخير ويعفون
عن أموالهم ، ويحملون عنهم ما حملهم من الديات مما لا يحمله إلا الكرام . وإذا
تباعد الناس عنهم فى الحرب طاعنهم بالرمح ، فإذا خالطهم ضربهم بالسيوف
يشقون بها رؤوسهم (٢٦ - ٣٨) إلى أن يقول : نحن أبدأ على أحد حالين ،
أما إذا خشينا على أبنائنا من العدو أصبحنا متيقظين مستعدين للقتال للدفاع
عنهم ، وأما يوم لانحشى عليهم فتركهم فى منازلهم ، ونمنا فى الإغارة على الأعداء
برأس من بنى جشم بن بكر (٤٩ - ٥١) .

ويتأدى عمرو بن كلثوم فى الفخر بأسلافه الذى ورث أمجادهم فى الحرب
والسلم من أمثال علقمة بن سيف ، وهو الذى أنزل بنى تغلب الجزيرة ، ومهلل
الذى كان صاحب حرب وائل أربعين سنة ، وهو جد عمرو بن كلثوم من قبل
ألمه ، وزهير جده من قبل أبيه ، وعتاب جده ، وكلثوم أبيه ، وذى البرة ، وهو
رجل من بنى تغلب بن ربيعة ، وقيل هو كعب بن زهير ، وإنما قيل له « ذى البرة »
لأنه كان على أنفه شعر خشن فشبه بالبرة^(١) ، ومن أمثال كليب الذى ضربت
جزرته الأمثال (٦١ - ٦٥) .

كما فخر بأسلافه ، وما أبلوا فى « يوم خزازى » وكان أول يوم امتنعت فيه معدة
عن الملوك ملوك حمير ، فأوقدوا ناراً ثلاث ليال ، وكذلك « يوم أراطى » الذى
صبروا فيه على الحرب ، وصدقوا القتال ، حتى ظفروا فلم يطمع فيهم عدوم
(٦٨ - ٦٩) .

وذكر أعداءهم بنى بكر بما عرفوا من شدتهم فى الحرب ، وصبرهم على .

(١) البرة الحلقه فى أنف البعير .

مكروها ، وما جرت برا منهم في الحروب التي وجدوهم قادرين عليها ، وممهم عدتها من البيض والدرق والدروع السابغة المحكمة اللينة التي إذا شد عليها النطاق ثننت لئنها ، وظهرت لها غضون ، وتحملهم الخليل الكريمة التي استنقذوها من غيرهم (٧٣ — ٧٩) سائل عنهم بنى الطماح من بنى وائل ، وبنى دعى بن جديلة من إباد ، فإن هذين الحيين جرت برا بنى تغلب فوجدوهم أبطالاً مغاوير ، وأن الناس إذا حملهم الملوك على الظلم والاستكانة أبى بنو تغلب الظلم والاستكانة ورفعوا في وجوههم أعلام الثورة والإباء (٩٩ — ١٠٠) .

أما الحارث بن حازرة فقد خلط فخره بقومه بنى بكر بالحكمة والتعقل ، فأخذ على بنى تغلب تجنيهم ، فهم يفلون عليهم ، ويحملونهم ذنب غيرهم ، ويطلبون منهم ما ليس لهم بحق ، ويلحقون في الإساءة إليهم ، ويظالبونهم بمجناية كل من جفى عليهم ، وأنهم يبيتون أمرهم ليلاً ، ليصبحوهم بما يبتوا لهم ، وأن بنى بكر زادوا على هذا الظلم رفعة وامتناعاً ، وامتلاً أعداؤهم غيظاً لما رأوا من ثبات عزم واستقرار مكائهم . وكان المنية برميها إياهم بمصائبها ترمى جبلاً ، فهي لا تضره ولا تؤثر فيه ، وأنهم أشرف فرسان بئسهم ينبغي أن تجول الخليل ، وأن تأبى أن يحلى ركبائها عن أوطانهم ، فهم يحمون الحوزة ، ويذبون عن الحرم (١٦ — ٢٦) .

وليس يشرف بنى تغلب أن يذكروا الوقائع والأيام التي كانت بينهم وبين بنى بكر ، فإذا أثاروا ما كان بينهم بين موضوعي ماحة والصاقب من القتل في الوقائع ظهر لهم ما يكرهون ، فقد قتل بنو بكر قوماً من بنى تغلب ، ولم يستطع التملبيون أن يثاروا لقتلهم ، وإذا استقصوا انكشف الأمر ، وصاروا إلى ما يكرهون بانكشاف عارهم وهزيمتهم (٢٨ — ٢٩) .

ثم يذكروهم بما كانت العرب من نزار تملكهم الأ كاسرة ملوك فارس ،

وكانت غسان تملكهم الروم ، فلما غلب كسرى على بعض ما في يديه وضعف غزا العرب بعضهم بعضاً ، وأكل القوى منهم الضعيف فيقول الحارث : نحن حين كان الناس هكذا لم يطمع فينا أحد ، لأننا أعزهم وأمنهم ، فلا تطمعوا فينا ، بل إن بنى بكر الأقوياء استطاعوا أن يغيروا على القبائل ، حتى أغاروا على تميم فقد خرجنا من البحرين مغيرين على الناس ، فمازلنا نغير وننتهب ، حتى وصلنا إلى الحساء لم يستطع أحد أن يصدنا ، ثم ملنا على تميم ، فلما صرنا في ديارهم دخلنا في الأشهر الحرم ، فكففنا عن قتالهم ، وفيما من بناتهم إماء أسرناهن قبل دخول الأشهر الحرم (٣٢ - ٣٤) .

ثم يعيد إلى أذهانهم حلف « ذى الجواز » ، وهو الموضع الذى أخذ فيه عمرو بن هند الملك على تغلب اليهود ، وأصلح فيه بينهم وبين بنى بكر ، وأخذ منهم رهنا من أبنائهم من كل حى مائة غلام ، ويذكرهم اليهود التى أعطوها على الكف عن القتال ، وحذرهم عواقب الجور والتحدى . وإن كانت كندة قد غزت بنى تغلب ، فقتلت فيهم ، وأسرت منهم ، فليس ثم ذلك واقعاً على بنى بكر ، وليس بنو بكر ملومين كذلك إذا أغار على بنى تغلب بنو حنيفة ولصوص بنى محارب ، أو اعتدى عليهم بنو عتيق أو هزهم العباديون^(١) الذين أصابوا فى بنى تغلب دماء فلم يدرك بنو تغلب ثأرهم منهم ، أو جنى عليهم بنو قضاة الذين أغاروا عليهم ونالوا منهم ؛ أو اعتدت عليهم قبائل إياد الذين أصابوا منهم ما أصابوا . ثم يقول لتغلب : ليس من بنى بكر المضربون وليس منهم قيس ولا جندل ولا الحداء ، إنهم قوم من تغلب ضربوا بالسيوف ، ولم يثار لهم .

وكل هذا ذكره الحارث بن حلزة تعبيراً لبني تغلب وتهكاً بهم ، فقد

(١) العباد بالكسر قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية ونزلوا الحيرة .

تطاولوا في الفخر ، ولم يذكروا إلا نصرهم ، مع أن هزائمهم والأيام التي تسكبوا فيها معروفة مشهورة في أحياء العرب .

وتأدى الحارث في التهمك بهم ، فذكر ما كان من عمرو أحد بنى سعد بن زيدمناة بن تميم ، الذي خرج في ثمانين رجلا من تميم غازين ، فأغار على ناس من بنى تغلب يقال لهم بنو رزاح ، وكانوا ينزلون أرضا يقال لها نطاع ، قريبة من اليمن ، فقتل فيهم ، وأخذ أموالا كثيرة ، وتركهم مقطعين بالسيوف ، ورجع بفنائم لا يسمع فيها صوت الحادى ، لأن الإبل والواشى التي استاقها منهم كانت لها جلبة ورغاء ، فمن أجل ذلك لا يسمع فيها صوت الحداة . وقد رجع بنو رزاح إلى بنى تميم يسترجعون منهم ما أخذوا ، فلم ترجع لهم ناقة سوداء ولا بيضاء . ثم جاء الغلاق ، وهو رجل من بنى يربوع بن حنظلة من تميم ، فأغار على بنى تغلب فقتل فيهم ، ولم ينتصر لهم أحد ، أو يأخذ بثأرهم (٤١ — ٥٨) .

ثم أخذ الحارث في شرح ما أسدى قومه إلى عمرو بن هند الملك لما رأى تحريض عمرو بن كلثوم إياه على بنى بكر ، قال الحارث : نحن أنصح الناس الملك ، وأصدقهم في خدمته ، وأكرمهم عليه ، وأقربهم منه منزلة ، ولنا عنده ثلاث علامات ، وفي كلهن يقضى لنا الناس بذلك :

(١) أن قوماً من بنى شيبان جاءوا يغيرون على إبل لعمر بن هند ، وعليهم قيس بن معد يكرب ، فيهم الأشراف من كندة أبناء العواتك ، فردم بنو يشكر عنها ، وأوقعوا النسكاية فيهم ، وحملوهم على حزم نهلان ، فلبثوا إليه فراراً ، وقد دميت من الجراح أنساؤهم .

(٢) أنهم ردّوا حُجراً ومن معه ، وقتلوا منهم خلقاً . وكان حجر هذا غزا امرأ القيس أبا المنذر بن ماء السماء بجمع من كندة ، فخرجت إليه بكر بن وائل

مع امرئ القيس فردّته . وقتلت جنوده ، وقد شبّه الشاعر تحرك الرماح في أجسامهم بتحرك الفلّاء في البئر لثقلها ، ليدل بذلك على شدة الطعن ، وأن الرمح ما كان يخرج من جسم المضروب إلا بعنف .

(٣) وأتانا الجون ملك كندة في كتيبة محكمة ، فلم نجمزعه ولم نخف ، ولـكنا قاتلناه ، فهزمنا من معه من الفرسان ، وأخذناه أسيراً حتى سلجناه للمنذر .

ومن هذا يمكن القول أن هاتين المطلقتين — معلقة عمرو بن كلثوم ، ومعلقة الحارث بن حلزة — قد تضمنتا كثيراً من أسماء المواقع التي تحاربت فيها بشو تغلب وبنو بكر في تلك الحرب التي سميت « حرب البسوس » كما اشتملتا على ذكر كثير من الإغارات التي قام بها الحيّان على غيرهم من قبائل العرب وغيرها ، التي أبلى كل حى فيها ضروب البسالة والنجدة ؛ كما اشتملتا على أسماء كثير من رجالهنّ وساداتهنّ وأبطالهنّ .

وكل هذا تصوير للمجتمع الذي ملئت صدور أبنائه بالأحقاد ، وقاضت أرضه بالدماء ، وامتلات أجواؤه بأحداث القتل والأسر والإغارة للثأر لضحاياهم ، أول النهب والسلب .

وهو كذلك تصوير للحياة الجاهلية في ناحية من أبرز نواحيها ، وتصوير لأخلاق العرب في تلك المرحلة المظلمة من مراحل التاريخ التي عاش فيها العرب قبل أن تبزغ عليهم أضواء الإسلام ، فتحيل ظلامهم نوراً ، وفزعهم أمناً وسلاماً .

أدوات القتال :

وفي المملكات تتردد أسماء أسلحة العرب ، وأشهر أدواتهم في الحرب والقتال ، وقد ذكر عنقرة من عدتهم في الحرب القسيّ (٥) جمع قوس . ذكر صاحب

صبح الأعشى أن القسي على ضربين : أحدهما القسي العربية ، وقال في وصفها :
هى التى من خشب فقط ، ثم إن كانت من عود واحد قيل لها « قضيب » ،
وإن كانت من فِئَمَين قيل لها « فِلق » .

والآخر القسيّ الفارسية ، وهى التى تركب من أجزاء : من الخشب والقرن
والعقب^(١) والفراء .

ولأجزائها أسماء يخص كل جزء منها اسم ، فوضع إمساك الرامى من القوس
يسمى « المقبض » ويجرى السهم فوق قبضة الرامى يسمى « كبد القوس »
وما يعلف من القوس يسمى « سية القوس » وما فوق المقبض من القوس ،
وهو ما على يمين الرامى يسمى « رأس القوس » وما أسفله ، وهو ما على يسار
الرامى ، يسمى « رِجل القوس » و « الثبل » ما يرمى به عن القسيّ العربية .
و « النشاب » ما يرمى به عن القسيّ الفارسية . ويجرى الوتر من السهم يسمى
« الفوق » وحديده يسمى « الفصل » والريش يسمى « القُدْذ » والسهم قبل
تركيب الريش يسمى « القِدْح »^(٢) .

كما ذكر عنقرة الرمح (٥٦ — ٥٨) وهو آلة الطعن . والرماح ضربان :
أحدهما : ما يتخذ من القنأ ، وهو قصب مسدود الداخل يثبت ببلاد الهند ،
يقال للواحدة منه « قناة » ويقال لمفاصلها « أنابيب » ولعقدها « كُوب » .
فإن كان قد نشأ في نباته مستقيماً قيل له « الصعْدة » ، وإن احتاج إلى تقويم مقوم
قيل له « منقّف » .

والآخر : ما يتخذ من الخشب كالزان ونحوه ، ويسمى « الذابل » . ويقال

(١) العقب بالتحريك هو العصب الذى تعمل منه الأوتار .

(٢) انظر صبح الأعشى في صناعة الإنشاء / ١٣٥ .

للحديد الذى فى أعلى الرمح « السَّان » ولذى فى أسفله « الزُّجج »
و « العَقَب »^(١) .

وكانوا يطعنون أعداءهم بالرماح ، ثم يجهزون عليهم بالسيوف ، ذكر ذلك
عنتره (٦٣) وذكر السيوف « المهند » ، والمهند والمهندى ما طبع ببلاد الهند ،
وكان لهم فيها حذق ومهارة فائقة ، فكانت تنسب إليهم ، كما يقولون للسيوف
المطبوع باليمن « يمان » وكما يقولون « مَشْرِفَى » لاذى طبع بالمشارف ، وهى
قرى من قرى العرب قريبة من ريف العراق . وقال بعضهم إن تهنيذ السيوف
معناه شحذه .

وذكر طرفة بن العبد فى معاقته « الحُسَام المهند » والحسام من أوصاف
السيوف ، وهو القاطع ، أخذاً من الحَسَم ، وهو القطع ، قال طرفة : إن المرء لأن
يُضرب بالسيوف المهند الحاد القاطع حتى يموت خير له من أن يناله أذى من
ذى قرابته يسوؤه ويؤلم قلبه ، وأن من أصابه من أجنبي ما يشق عليه عزاه
عن ذلك بعد ما بينهما ، وليس كذلك القريب (٨٠) .

وكذلك « العَضْب » (٨٥) وهو السيوف القاطع الذى وصفه بأنه رقيق
الشفرتين مهند ، والشفرتان : مثنى الشفرة وهى حد السيوف ، ووصفه بأنه حسام
يغنى عن صاحبه إذا انتصر به ، فإذا قام لينتصر وينتقم به من عدوه أغنت
الضربة الأولى عن الضربة الثانية ، يريد أنه قاطع جداً ، فهو يقطع الضريبة
بضربة واحدة ، وليس « بِمَضْد » وهو ما اتخذ من السيوف لقطع الأشجار ، بعد أن
كُلَّ حذّه ، فيعضد به الشجر (٨٦) وذكر « حاجز السيوف » وهو حذّه (٨٧)
و « قائم السيوف » وهو مقبضه (٨٨) وذكر زهير السلاح الشائكة (٣٨)
وهى الحديد القاطعة .

وفى منطقة لبيد (٥٠) « السَّهَرِيَّة » وهى الرماح ، نسبة إلى بلدة يقال لها سَهَرَة من بلاد الحبشة ، وقيل إلى السَّهَرَة ، وهى الصلابة ، ومنه « اسمَهَر » الأمر « إذا اشتد ، وقال صاحب اللسان : إن السهريَّة هى القناة الصلبة ، وهى منسوبة إلى « سمهر » اسم رجل كان يقوم الرماح . يقول لبيد فى وصف بقرته الوحشية : لحقت كلاب الصيد تلك البقرة ، فرجعت البقرة عليهن تطعنن بقرن كأنه الرمح حدة وتعام طول .

كما ذكر لبيد « الشَّكَّة » (٦٣) وهى اسم لجميع السلاح ، وقولهم « شائك السلاح » أى سلاحه شوكة ^(١) .

وفى معلقة عمرو بن كلثوم ذكر للأسياف (٢٢) فى قوله إنهم ساروا عن اليمامة وحال دونها السراب ، فترأت لهم مرتفعة كأنها السيوف المسلولة من أعغادها ، وإنما خيلها السراب لهم كذلك ، و « رايات الحرب » (٢٤) التى يوردونها بيضا ، ويعودون بها حمرا قد رويت من الدماء . . وأنهم يطاعنون أعداءهم بالرمح (٣٥) إذا تراخوا عنهم ، فإذا خالطوهم ضربوهم بالسيوف . ووصف رماحهم (٣٦) بأنها مُعْمَر ، ويوصف الرمح بالأسمر لأن لون القنا الشمرة ، وهو أجودها ، وبأنها لذن أى لينة ، وبأنها ذوابل ، جمع ذابل أى يابس ، وهو الذى يتخذ من الخشب كالزنان ونحوه . وقد وصف الرماح بأنها لينة فيها بعض ييس أى أنها لم تجف كل الجفاف فتتشق إذا طعن بها وتندق ، ووصف السيوف « البيض » بأنها لا تنبو عن الضريبة . وشبه أصلهم « بالقناة » التى أعييت على الأعداء أن تلين (٥٧) . وذكر « النفاق » وهو الحديدة التى تقوم بها

(١) يقال رجل شاكى السلاح ، وشائك السلاح ، أى ذو شوكة وحادى سلاحه . قال الأخفش : شاكى السلاح مقلوب من شائك . وقال النحاس : القلب عند البصريين مثل شاكى السلاح وشائك ، وجرف هاروهاً ر ؛ وأما ما يسميه الكوفيون القلب نحو جبد وجذب فليس بقلب عند البصريين ، وإنما هما لفتان .

الرماح ، وإذا عضّ الثفاف بتلك الفناة نفرت صلبة شديدة (٥٨) وإذا انقلبت في ثقافها صوّتت ، وشجّت قفا من يشقها .

ووصف كتابهم ولباسها في الحرب ، ومنه « البَيْض » جمع بَيْضَة ، وهي آلة من حديد توضع على الرأس للوقاية من الضرب ونحوه ، وليس فيها ما يرسل على القفا والآذان و « اليَلْبَ المياني » (٧٥) قال ابن السكيت : هو الدرع ، وقيل الديباج ، وقيل ترسة تعمل في بلاد اليمن من جلود الإبل لا يكاد يعمل فيها شيء . وقال الأصمعي : اليلْب جلود يخزّز بعضها إلى بعض تلبس على الرؤوس خاصة ، وليست على الأجساد . وقال أبو عبيدة هي جلود تعمل منها دروع تلبس ، وليست بترسه . وقيل اليلب جلود تلبس تحت الدروع^(١) ووصف الدروع التي يلبسونها في الحروب (٧٦) بأنها « سابعة » أي طويلة تامة ، وبأنها « دِلاص » والدِّلاص المحسكة ، أو اللينة التي تزل عنها السيوف ، و « النجاد » حائل السيف ، ويروى « فوق النطاق » والنطاق ما يشدّه الوسط ، ولها غضون أي هي لينة ، فإذا شد النطاق عليها تنفّثت لينها ، وظهر لها غضون ، وهم من طول لبسهم هذه الدروع اسودّت جلودهم (٧٧) وشبه الدروع في صفاتها بالماء في الغدُر (٧٨) وعرض للذسوة اللائي أخذن على فوارسهن عهداً إذا اقتحموا غمار الحرب ، ولاقوا الأبطال المعلنين ، وهم الذين معهم الأعلام ، ليبين مكانهم في الجيش ، ليأمرن الأبطال ، يأخذن سلاحهم وما عليهم من الدروع والبيض .

وفي معاقبة عنقرة بن شداد ذكر للرماح وهي تنهل من دمه ، وبيض الهند وهي تقطر من دمه (٥٣) وذكر للمدجج الذي يتوارى في سلاحه ويكره الفرسان لقاءه (٥٥) ولكن عنقرة عاجله بطاعته من رمحه المثقف (٦٥) وهو المصلح المقوم ، ووصف هذا بأنه صدق الكعوب أي صلب ، والكعوب عقد الأنايب . وذلك أهم ما عرضت له المعلقات من أنواع السلاح وأدوات القتال .

المرأة العربية في المعلقة :

ولقد شغلت المرأة مكانا بارزا في تلك المعلقات ، ولم تخل واحدة منها من ذكر المرأة ، ووصف الأيام بها ، والخنين للقائها ، والجزع لفراقها . وفي مطالع المعلقات من ذلك شيء كثير ، وفي أثناء معظمها شيء كثير أيضا من الحديث عنها ، ووصف ما يتكلفه العربي في الديب إليها ، وما يتجشم من الأخطار ليدور في نظرها في صورة البطل ، الجدير بإعجابها ، الذي يحمي حماها ، ويقاوم من أجلها ، وهي تخايله في حركاته وسكناته ، ولا ينساها في أوقات الدعة والسلام ، وفي ميادين الوغى ومصارعة الأبطال .

وكل هذا يدلنا على ما كانت المرأة العربية تنعم به من المنزلة في المجتمع ، وما كانت تشغل من قلب الرجل العربي في الجاهلية .

وتشغل المرأة في معلقة امرئ القيس مكانا بارزا من أول أبياتها ، فقد استوقف رفيقيه ، ليعيناه بالبكاء عند تذكر حبيبته التي فارقته ، ومر بأطلال منازلها ، التي تماقت عليها ريح الجنوب وريح الشمال (١ - ٢) ووصف حيرته غداة بينها ، وبكاء يوم تحمل أهلها (٤) وكيف وقف أصحابه عليه مطيهم يواسونه ويشجعونه على احتمال مرارة الفراق ، وهو لا يجد شفاء لوجده إلا العبرات يريقها (٥ - ٦) ويذكر ما لقي من هوى « أم الحويرث » وجارتها « أم الرباب » وكيف كان يضوع المسك من أردانها ، وشبه ما كان يفوح منهما من روائح المسك بنسيم الصبا إذا اجتازت بالقرنفل (٨) وفي هذا إشارة إلى شيء مما كانت تتجمل به المرأة في ذلك الزمن البعيد ، وأنها كانت ولا تزال جد حريصة على أن تتمتع عين الرجل ، فلا تقع منها على قبائح ، ولا يشم منها إلا أطيب ريح .

ووصف يوماً من أيام لوه يوم عقر للعدارى مطيته ، وأطعمهن شواءها ،
الذى جعلن يترايمن به (١١ - ١٢) .

ثم رسم صورة عابثة لصاحبه « عنيزة » التى احتال حتى صاحبها فى
هودجها ، وما كانت تبدى من امتناع مصطنع ، خشية على راحلتها التى زعمت
أن ظهرها لا يحتمل را كين ، وأن ذلك قد يؤدى إلى عقرها (١٤) وتحدث
إليها حديثاً لا يحتمل بامرأة حرة أن تسمعه ، حتى لقد يبدو أنه يطارح بهذا
الحديث امرأة من العابثات ، أو بائعات الهوى (١٦ - ٢٠) .

ورسم صورة أخرى لنفسه وأبرزها فى صورة المهائم الذى قتله الهوى ، وأنه
أصبح أسيراً لفاطمة ، وأنها مهما تأمر قلبه يفعل ، وأنها لم تترك إلا لتثير وجده ،
وتجرح قلبه ، لأنها تعرف أثر عبراتها فى العاشق المتيم (٢٣ - ٢٦) .

وأبان عن منزلة المرأة عندهم ، وحرصهم على عفتها وكرامتها ، وقتلهم من
يحاول الدنو منها أو الاعتداء على شرفها ، لأنهم يجدون فى ذلك اعتداء على
كرامتهم ، أما امرؤ القيس فإنه يباهى بأنه استطاع أن يصل إلى بيضة الخلد
التي لا تحدث أحداً نفسه بالدنو منها ، وأنه استطاع أن يتجاوز فى وصوله إليها
وزيارته إياها أهوالاً كثيرة ، وقوماً يحرسونها ، وآخرين حراساً على قتله
لو قدروا عليه (٢٧ - ٢٨) ويظهر من الأبيات التالية بعض سمات المرأة
وعاداتها :

(١) أن النساء أو بعضهن كنَّ يغطين أنفسهن بالمرط - وهو يشبه
الملاء التى لا يزال يلبسها بعض النساء فى أيامنا - وكانت منقوشة بنقوش تشبه
رحال الإبل ، يقال : رحل الثوب ترحيلاً إذا فعل به ذلك . ويروى « مرجل »
بالحيم ، وهو ضرب من البرود ، يقال لوشيه الترجيل (٣٢) .

(٢) أن من أوصاف المرأة التي يؤثرونها أن تكون ضامرة البطن ممتلئة الساق (٣٤) وستأني أوصاف أخرى للمرأة المحببة إليهم .

(٣) أن بعضهن كن ينظفن أجسادهن ، ويصبغن ترائهن ، والترائب جمع تريبة ، وهي موضع القلادة من الصدر ، وكانت مادة الصبغ هي « السجنجل »^(١) وهو الزعفران (٣٥) .

(٣) أن أحسن ألوان بشرة المرأة عندهم هو أن تكون بيضاء مشوبة بصفرة . فقد شبه امرؤ القيس المرأة بيكر المقانة البياض بصفرة (٣٦) والمراد به بيضة النعامة ، لأن بياضها مخلوط بصفرة .

(٤) وأنهن كن يلبسن القلائد يحلن بها جيادهن (٣٨) .

(٥) وأن شعرهن كان أسود اللون كثيفا ، وكن يضفرنه ويشددنه على رؤوسهن بخيوط (٣٩ و ٤٠) .

(٦) وأن من علامات النعمة أن تصادف المرأة وفتات المسك على فراشها الذي باتت عليه ، وأن تنام عليه إلى وقت الضحا ، وأن تكون مخدومة لانتطق لادم حاجتها إلى أن تقوم من نومها قبل طلوع الشمس لقضاء حاجتها ومواليها (٤٢) . أما معلقة طرفة فقد بدأها بذكر المرأة أيضا ، ووصف أطلال ديارها ، وشارك امرأ القيس في استيقاف الصحب والبكاء على تلك الأطلال (١ و ٢) ثم وصف مراكبها حين رحيلها (٣ - ٥) .

وفيها وصف للمرأة العربية كما رآها في شفتيها حوة — وهي حمرة ضاربة إلى السواد — وفي عينها كحل ، وعنقها طويل ، وقد حلت جديها بمقدين أحدهما من اللؤلؤ والآخر من الزبرجد ، وابتسمت بثغر تضرب حمرة شفتيه

(١) رواية أبي عبيدة « ترائبها مصقولة بالسجنجل » وفسر « السجنجل » بأنه الزعفران وروايه غيره « ترائبها مصقولة كالسجنجل » على التشبيه بالسجنجل ، وهو عندهم المرأة وأصله روى .

إلى سواد ، كأنه أقحوان نبت في كثيب من الرمل لم يخالطه تراب ، وفي ثمرها بريق كأنه الشمس كسته ضوءها ، ولها وجه مشرق كأن الشمس أعارته ثوبا نقيا خالصا من العيوب ، ليس فيه غصون ولا شقوق لأنها فتية ، وليست مسنة أومريضة (٦ - ١٠) .

وفي بيت منها (٤٤) إشارة إلى ما كانت تصطنع الجارية من الفتنة لسيدها ، فقد شبه طرفة وهي تتبخر في مشيتها بجارية عرضت على أهل مجلس ، فقامت تتبخر ، وترخي أذيالها ، لترى سيدها أذيالها البيض ، لأن سيدها إذا كان في المجلس كانت أشد مبالغة في التبخر وسحب الأذيال ، لتسرق فؤاده وتستدعى رضاه .

وفيه إشارة إلى الجوارى المغنيات ، ووصف لبعض أحوالهن في مجالس الشراب يمتنع الشرب بالخانن ومعايشتهن . يذكر طرفة أن نداماه على الشراب يبيض الوجوه أطهار الأعراض ، أنسابهم خالصة صافية من كدر الرق ؛ وأن القينة ، وهي الجارية المغنية ، تبرد بينهم وقد سترت جسدها ببرد ومجسد ، والمجسد هو الثوب المصبوغ بالجداد وهو الزعفران ، والمجسد أيضاً هو الثوب الذي يلي الجسد ، وهو الشعار ، وهو واسع الجيب ، وهو الحبل الذي يخرج منه الرأس ، وإذا كان الجيب واسعا بان العنق ، وانكشف معه شيء من الصدر ، فالندامى يرون عنقها وبعض صدرها ، وإذا مستها أحد من الندامى لم تمتنع عنه ، فهي موالية ، وإذا مست أحداً منهم لم تزعجه بمسها وهي ناعمة الجسم ، وقال بعضهم إن جس الندامى هو ما طلبوا من غنائها ، يقول طرفة : إن هذه الجارية حاذقة عارفة بما يطرب إليه الندمان من التناء ، فهي تغنيهم به ، على رسلها في تؤدة ، وبصوت فيه لين وفقر ، لم تشدد فيه ، ولم ترفه بقوة فتزعج السامعين ، وإذا

رددت صوتها في حلقها وترنمت فيه خلتها نوحاً قد دن أولادهن ، فمن يبيكين عليهم ، أو نساء قن في ماتم يبيكين على هالك ، يريد أنها قادرة على تصريف صوتها (٤٨ — ٥١)

ومن أمانى طرفه سبقه العاذلات بالشرب ، ويفهم من ذلك أن النساء كنّ ينسكرن على رجالهن شرب الخمر ، أو الإسراف في احتساؤها (٨٥)

وكانت المرأة كما تحلى عنقها بالعقود تحلى رجلها بالبرين ، وهى الخلاخيل جمع برة ، ويقال أيضاً للحلقة التى تكون فى أنف البعير برة وبرين ، وكذلك كانت تحلى يدها بالماليج ، جمع دملج ودملوج المعاضد ، وهى الأسورة التى تلبسها النساء فى أيديهن (٦١) .

وكانت المرأة هى التى تقوم بهيئة الطعام ، وطهوه ، وتقديمه للرجال (٩٤) . وكانت المرأة تبكى الرجل إذا مات وتولول عليه ، وكانت نشق جيبها إذا نجحت فى عزيز عليها ، يقول طرفه : إذا متّ فأذكر بنى بما أستحقه من الثناء ، وشقى ثيابك حزناً علىّ ، ولا تعدلى بنى فى البكاء والحزن والنعى رجلاً ليس هم فى العلا وإدراك الحمد كهى ، ولا نفعه كنفعى ، ولا شهوده لمتنديات القوم وميادين الحروب كشهودى (٩٥) .

أما معلقة زهير فقد ابتدأها بذلك التقليد الذى جرى عليه أصحاب المعلقات من ذكر المرأة ووصف أطلالها ، فذكر « أم أوفى » زوجته التى وجد ليبتها ، وندم على فراقها ، ووصف داراً لها بالرقنتين لم يبق من أطلالها إلا ما يشبه مراجيع الوشم فى نواشر المعصم ، ثم وصف رحيلاً ، وصراكب فطنها ، ومنازلها فى طريق رحيلاً ، وما وردت من مياه ، وما نصبت من خيام (١ — ١٥) وذلك أهم ما فى معلقته مما ذكر فيه المرأة ، ثم انتقل إلى غرضه الأسمى من ذكر الحرب ، ووصف أهوالها

وما فعل عظيما غطفان اللذان تحملا ديات القتلى في أموالهما ؛ ليكفّا الناس عن القتال وإراقة الدماء .

وبدأت معلقة ليبد بذكر عفاء الديار وتوحشها بعد أن خلت من أناسها ، والدعاء بسقيها بأمدار الربيع حتى تمضل رباها ، وتخضر وهادها ، ويعاودها من جمال المنظر مانقده من خلوها من أنيسها وارتحالها عنها . وتحدث عن أشواقه التي أنارتها نساء الحى حين ركبهن هوادجهن ، وارتحلن عليها ، وكانت الهوادج قد غطيت بنوع من البسط يسمى « الزوج » وجعلت فوقها الستور الرقيقة التي حليت بالرقم والنقوش ، ولقد تحملن جماعات فكلأتهن في هوادجهن على رحالهن بقرات وحش في حسن العيون ، أو ظباء وجرة عاطفات على أولادهن (١٢ — ١٥) ثم عاتب نفسه على بقاء حبه لنوار التي هجرته وجفته ، وجاورت أهل الحجاز فلا أمل في وصلها ، ووجد أن خيرا من التحلل بالأمانى الكاذبة التعلق بالواقع ، فليصرف حنينه ووفاءه إلى ناقته الباقية على الود ، المبينة له على جوب القفار (١٦ — ٢١) فانطلق إلى وصفها المستقصى الذي أشرنا إليه فيما سبق ؛ حتى عاد إلى « نوار » يذكرها بأنه قادر على القطيعة قدرته على الوصل ، وأنه لا يقيم في موطن الذل ، بل يرتحل عنها مهما يكن في ارتحالها من الشر والمخاطرة (٥٥ — ٥٦) ثم انصرف إلى الحديث عن فتوته ونصاييه في شرب الخمر ، وإسرافه في السكر ، ومقاصرته في سبيل إطعام الأرامل واليتامى .

والمرأة في مطلع معلقة عمرو بن كلثوم أيضا ، ولكنها هنا جارية تسقى الندمان الصَّبُوح ، ولا تضنّ عليهم بجنون الأندرين ، وهى قرية بالشام كثيرة الخمر ، ثم استوقف أخرى ليحدثها بيوم وقعة كربة أقر بها بنوعها عيونهم ، وظفروا بآمالهم في النيل من هدوئهم ، ويسألها عن سر ظعنها أهو فراق حبيبها ،

أم خيانة من لم يخونها (٩ - ١١) .

ثم ينتقل إلى جملة من أوصاف المرأة التي يستحسنونها ، وهي أوصاف مادية ، فذراعاها ممتلئتان لحماً ، كأنهما ذراعا ناقة بيضاء لم تلد بعد ، وبشرتها خالصة البياض ، وهي مع ما تتمتع به من حسن وجهال ومنعة حصان ، وهي طويلة القامة في غير أبيس ، وكأن ساقها ساريتان من العاج أو الرخام (١٣ - ١٨) ووصف حزنه لفرأفها الذي فاق حزن ناقة أضلت حوارها ، فكررت الحنين عليه ، وفاق حزن المعجوز التي ولدت تسعة من الأولاد ، وثكلتهم جميعاً (١٩ - ٢٠) ويقتب هذا بمحدثه الطويل عن شجاعة قومه ، وحسن بلائهم في الحروب .

وذكر من عادة العرب في القتال ما كانوا يعمدون إليه من محبة نساءهم ، يقفن خلفهم في ميادين الوغى ، ويشهدن عن كذب صراع الأبطال ، ليشجنهم على الإقدام والاستبسال ، وقد أخذن على أزواجهن عهداً إذا اقتحموا غمار الحرب ، ولاقوا الأبطال ، ليأسرن الأبطال ، ويستلبن ما عليهم من السلاح والدروع والبيض ، وقد قن يمشين غير عجلات ، ويتأيلن مرحاً كما يتأيل الشارب الثمل ، وهن يافن الخيول ، ويقلن لرجلهن : لستم أزواجنا إن لم تمنمونا ، تحريضاً لهم على الصديق في القتال ، وقد جمن إلى جمال الخلق كرم الأصل والعفة (٨٢ - ٨٩) .

وكذلك بدأ عنتره مطلقته بتحفة دار عبلة ، والوقوف على أطلالها ، كما فعل غيره من أصحاب العلاقات ، ووصف ظفنها ، ثم وصف ما يفوح من طيبها الذي شبهه بما يفبث من فارة المسك ، أو الروضة الأنف التي أمطرتها كل سحابة غزيرة الماء ، حتى امتلأت ودانها ...

وفها مايدل على أن المرأة كانت تغطى وجهها دون الرجال (٣٩) وعلى

أنهم كانوا يكونون عن المرأة بالشاة (٦٦) كما كنى امرؤ القيس عنها ببضة الخلد (٦٧) .

وبدا الحارث معلقة بذكر « أمماء » التي آذنته بيديها (١) ونار « هند » التي أوقدتها بين العميق فشخصين ، فلاحات كما يلوح الضياء ، فرآها فوق جبل خزازي بين هذين الموضمين ، فطمع في اصطلائها ، فلما علم أنها بعيدة يئس منها ، وقال : هيات منك الصلاء (٦ - ٨) ثم انصرف إلى الفخر بقومه بنى بكر ، ووقائهم التي أبلا فيها أحسن البلاء على النحو الذي سبق .

ومن كل هذا تنضح منزلة المرأة عندهم ، فقد ذكروها حبيبة ، وزوجة ، وجارية ، وقينة ، وذكروا من صفاتها الشجاعة ، وتحريض الرجال على القتال ، وذكروا أوصافها المحبة إليهم في الخلقة والخلق على النحو الذي فصلناه في السكلمات الشجاعة .

عادات العرب في المملقات :

وفي المملقات إشارات إلى عادات العرب وتقاليدهم ، ومن هذه العادات ما يمد من أصول الأخلاق وعلامات المروءة ، كالنجدة ، وحماية الجار ، وإغاثة المستغيث ، والشجاعة ، وصيانة المرأة وحمايتها ، وقرى الضيف .

ومنها ما تنفر منه الأخلاق السكرية كالاعتداء على الحرمات ، والديب إلى النساء ، وشرب الخمر ، والميسر ، والتهور ، والإسراع إلى الفتنة .

وقد سبق كثير من وصف بعض تلك العادات ، وبقي أن نشير إلى ما لم نتذكر منها مما ورد ذكره في المملقات :

المحرم :

ففي بعض المعلقات وصف لها ، ووصف لها لجالس شربها ، وتصوير لأخلاق
الندمان الذين يجالسون على الشراب ، وذلك عند الشعراء ذوي الفتوة ، الذين
يرون في احتسابها علامة السيادة واليسار والشباب ، وأولئك الشعراء الذين
تردد ذكر الخمر في معلقاتهم ، واتخذت فيها مكانا بارزا ؛ طرفه بن العبد ، وعمرو
ابن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، وليبيد بن ربيعة .

أما طريقة فقد ذكر من مفاخره ، وسمات يساره وفتوته ، أنه دائم التردد
على حوانيت الخمارين ، وأنه هائم بها هيامه بحافل الرجال :

فإن تبغى في حلقة القوم تلقى وإن تلتسنى في الحوانيت تصطد (٤٦)

والحوانيت جمع حانوت ، وهو المحل الذي يباع فيه الخمر ، يقول إنه صاحب
جد كما هو صاحب لمو ، فن طلبه في نادي قومه حيث يجتمعون المشورة وجده
بينهم ، ومن طلبه في الحانات وجده مع جماعة الشاربين .

ووصف نداماه على الشراب ، وما في مجلس الشراب من الأنىس

والطرب :

ندامى بيض كالنجوم وقينه ———— تروح علينا بين برد ومُجَسَّد (٤٨)

رحيب قطاب الجيب منها رفيقة يحس الندامى بضعة المتجرد (٤٩)

إذا نحن قلنا أسمعنا انبرت لنا على رسلها مطروفة لم تشدد (٥٠)

إذا رجعت في صوتها خات صوتها تجاوب آظار على رُبْع ردى (٥١)

وفي هذا صورة للعانات وحوانيت الخمارين عندهم ، التي كان يتردد عليها
العابثون من الشبان ، يشربون ويسمرون على ألحان القيان ، فقد وصف نداماه

بأنهم كرام ، بيض الوجوه ، طاهرة أعراضهم ، تتردد بينهم جارية بقميص مصبوغ
وهي واسعة الجيب ، يرون عنقها ، وبمض صدرها ، وإذا مسّها أحد الندامى لم
تنتع عنه ، فهي مواتية ، أو إذا مسّت أحداً منهم لم تزعجه بمسّها ، لأنها رفيقة
رفيقة ، وهي حاذقة عارفة بما يطرب إليه الندمان من الفناء ، فهي تطربهم به ؛ وإذا
كألوا لهذه القينة غنيا ، أخذت تغنيهم على رسلها في رقة وتودة ، وإذا ردّت
صوتها في حلقها وترنّت فيه خلتها نوحاً فقدن أولادهم فهنّ يبكين عليهم ،
أو نساء قن في مآثم يبكين على هالك .

ويبدو في قصيدة طرفة أن البيئة كانت تنسكر على شبانها شرب الخمر ،
وأن العشائر كانت تنكره أن يتردى فتيانها في معاورة الخمر ، فيضيعوا أحسابهم
وأموالهم ، ولذلك كانوا ينفرون منهم ويتحاشونهم ، إظهاراً لسخطهم وتأديبا
لفتيانهم العابثين . يقول طرفة :

وما زال نشرابي الخمر ولذتي وبيعي وإنفاق طريقي ومتلدي (٥٢)

إلى أن تحامتنى المشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبّد (٥٣)

يقول : مازلت أشرب الخمر ، وأشتغل بالذات ، وأبيع من أجلها كل
قديم أو حديث من مالي ، حتى تجنبني أهلي ، وتحاموا مخالطتي ، وأفردوني عنهم
كما يفرد البعير الأجرب الذي يمنع من دخول معاطن الإبل ، لئلا تسرى عدواه
إلى غيره .

ويذكر طرفة أمانيه في الحياة ، التي لولاها لم يحرص على تلك الحياة ، وأولى
تلك الأمانى ، سبقه اللوائيم إلى شربة من خمرة كيت - والكيت الخمر التي
في لونها سواد وحمرة - متى مزجت بالماء ظهر الزبد والرغوة على سطحها :

فهنن سبقن العاذلات بشربة كيت متى مائتل بالماء تزبد (٥٨)

يريد أن بكوره في شرب الراح والناس نيام ، قبل أن تستيقظ عيون اللوام ، كان من أول ما يحرص عليه من ملاذ هذه الحياة .

أما عمرو بن كلثوم فيبدو أن الخمر والهيام بها ، قد أنسته عادة الجاهليين وتقاليدهم في ذكر الدمن والآثار في مطالع قصائدهم ، ولذلك شغل بالخمر من أول بيت في معلقته :

ألاهي بصحنك قاصحينا ولا تنقي خور الأندرنيا (١)

مشعشة كأن الحص فيها إذا مالها خالطها سخينا (٢)

يقول لجاريته : قومي من نومك ، واسقينا الصُّبُوح ، وهو شرب أول النهار ، بقدحك العظيم ولا تدخرى خمر « الأندرين » التي يحرصون عليها ، والأندرين^(١) قرية بالشام كثيرة الخمر ، ووصفها بأنها مشعشة ، أى رقيقة من العصر أو من المزج ، كأن الحص فيها ، والحص هو الورس ، بأصرها أن تصبح خمر ممزوجة بالماء ، وكأنها قد خالطها الورس ، وإنما جعلها كذلك لأنها إذا مزجت بالماء اكتست ثوب صفرة ، كما قال الآخر :

وحمرًا قبل المزج صفراء بعده بدت في لباسي نرجس وشقائق

حكمت وجنة المشوق صرفًا فسأطوا عليها مزاجًا فاكتست لون عاشق

ثم قال إن الخمر إذا خالطها الماء وشربتها كفا أسخياء وزاد سخاؤنا على ما كان عليه قبل . ثم وصف الخمر بصفتين : الأولى : أنها تميل بشاربها عن حاجته وتصرفه عن هواه حتى ينساه . والأخرى : أنها تبعث على الكرم والبذل والسماحة ، حتى إن البخیل الحريص على ماله إذا شربها سخط يده ، وأهان ماله ببذله :

(١) قال ياقوت : أندرين اسم قرية بينها وبين حلب مسيرة يوم للراكب ليس بعدها حمارة ، وهي الآن خراب ، ولما عفى عمرو بن كلثوم بقوله « ولا تنقي خور الأندرنيا »

تَجَوُّرُ بَذَا اللَّبَّانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَازَقَهَا حَتَّى يَلِينَا (٣)
تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أَمَرْتُ عَلَيْهِ لَمَّا لَهُ فِيهَا مُهِينَا (٤)
وفى الأبيات الثلاثة التى ألحقها بعض الرواة بهذه المعلقة^(١) يعاتب أم عمرو
التي صرفت الكأس عنه إلى غيره ، وهو أحقّ بها ، لأنه يجلس عن يمينها ،
ومن عاداتهم فى آداب الشراب أن الكأس تدار على اليمين ، وهو عارف بتلك
الآداب ، فقد شرب الخمر فى مجالس كثيرة ، وفى بلاد متعددة ، شربها فى بعلبك^٢
وشربها فى دمشق ، كما شربها فى قاصرين . ثم يقول إن المنية لا بد ستدركه
فلا خير فى الكف عن اللعب ، أوفى الإمساك عن الخمر :

وإنّا سوف تدركنّا المناسيا مقدّرة لنا ومقدّرينا (٨)

وفى بيت من أبيات هذه المعلقة تصوير لمشية الشارب ، وهو يترنم من أثر
الخمر ، إذ شبه نساءهم وهنّ يمشين الموينى ويتمايلن مرحاً بما كان يرى
من تمايل الشارب التمل :

إذا مارحن يمشين المُوَيْنَى كما اضطربت متونُ الشاربينا (٨٦)
ذلك ما ورد فى معلقة عمرو بن كلثوم من إشارات إلى الخمر وشربها ومزاجها
وآداب الشرب وهيئة الشارب .

أما عنقرة بن شداد فإن فى معلقته ما يدلّ على أنه كان شغوفاً بها ، يعاقرها
وينفد فيها ماله . وأول ما يقابلنا من ذكر الخمر فى هذه المعلقة تشبيهه الذباب
الذى انفرد فى الروضة الأنف ، بشارب الخمر وهو طرب يترنم ، ويرجع الصوت
بينه وبين نفسه :

وخلا الذبابُ بها فليس يبارحُ غرداً . كفعل الشاربِ المقرنم (٢٢)

(١) انظر هامش (٢) فى صفحة (١٧٠) من هذا الكتاب .

أما الآيات التي ذكر فيها الخمر قصداً فهي أربعة آيات وإلى بينها :

ولقد شربتُ من المدامة بعدما ركدَ الهواجرُ بالمشوف المُلَمَّ (٤٢)
 بزجاجةٍ صفراء ذات أسرٍ قرنت بأزهرٍ في الشمالِ مُقَدَّم (٤٣)
 فإذا شربتُ فإني مستهلكٌ مالى وعِرضى وافرٌ لم يُكَلِّمْ (٤٤)
 وإذا صَحَوْتُ فما أقصّر عن ندَى وكأملت شمائل وتسكرتى (٤٥)

يقول إنه يشرب الخمر بعد ركود الهواجر ، أى حين تركد الشمس وتقف
 ويقوم كل شيء على ظله ، والركود السكون ، ويعنى بذلك وقت الظهيرة ، لأن
 هذا الوقت وقت راحة واستجمام لا وقت عمل ونصب ، وهو يشرب الخمر بالمشوف
 أى يدفع فيها ديناراً مجلواً . ووصف زجاجة الخمر بأنها صفراء ، أو وصف الخمر
 نفسها بأن لونها أصفر ، وفي تلك الزجاجة طرائق وخطوط ، جعلت مع إبريق
 من الفضة أو الرصاص مقدّم ، أى مشدود فيه بخرة ، أو عليه القدم ^(١) يصفى
 به . وإذا سكر سخا ، وبذل من ماله ، وإذا صحا من سكره فعل مثل ذلك ، لأن
 السكرم خلق فيه ، أما عرضه فإنه أبداً كامل ، لا يناله ما يعاب به أو يذم
 من أجله .

وفي معلقة لببذ ذكرياته عن أيام شبابه السّالفة التي كان فيها من معاقري
 الخمر ، وقد ضمن تلك الذكريات ستة آيات من معلقته ، وفيها يقول :

بل أنت لا تدرين كم من ليلةٍ طلقٍ لذبذٍ لهوها ونِدامها (٥٧)
 قد بتَّ سامرها وغاية تاجرٍ وافيتُ إذ رفعتُ وعزَّ مُدامها (٥٨)
 أغلى السِّبَاء بكل أدكن عاتقٍ أو جَوْنَةً قدِحتُ وفُضَّ ختامها (٥٩)

(١) القدم بكسر الفاء ، وقد تفتح ، بمعنى الصفاة ، يقال إبريق مفدوم ومقدم أى عليه
 القدم .

وغداة ريجٍ قد وزَّغَتْ وقرّةٌ قد أصبحتُ بيد الشمال زمامها (٦٠)
بصّوح صافية وجذبٍ كرينةٍ بموترٍ تأتأله إيهامها (٦١)
بادرتُ حاجتها^(١) الدجاجَ بسُخْرَةٍ لأعلّ منها حيث هبّ نيامها (٦٢)

يذكرها بما صرّ عليه من أيام اللهو واللذة ، وما نال فيها من غبطة وسرور
والليلة الطلقة هي التي لا برد فيها ولا ريج ولا مطر ، والندام الندامة ، كم كان
يسمر مع خلانه ليلا ، وكما ابتاع من الخمار خمر غالية الثمن نادرة الوجود ،
أراد أنه لا يسقى نداماه إلا أحسن أنواع الخمر الذي يشتريه بالثمن الغالى ،
ولا يشتري من الخمر القليل ، بل يحمل كل رقة لم تمسه يد ، وكل خاية
قد فضّ ختامها فسالت وغرف منها . وربّ غداة باردة قد هبت فيها ريج
الشمال فزادت في بردها ، دفع عن نفسه وندمائه بردها بالشراب وسماع صوت
المود تعزف عليه امرأة عوادة تحسن الضرب به وتجيده . إن اشتغاله بمثل ذلك
اللهو يجعله لا يحس بالبرد الذي تسوقه ريج الشمال ، ومباكرته هذا الشرب
والقصف قبل أن تصبح الديكة وتصيح في وقت السحر ، تلك المباكرة هي التي
نفت عنه عذل العذار إذ أنه ينتهب لذته وهم نيام .

أما معلقة امرئ القيس فقد ذكرت الخمر فيها في بيت واحد ، وهو قوله :
كَانَ مَكَائِي الْجَوَاءَ غُدِيَّةً صُبْحَنَ سُلَافًا مِنْ رَحِيقِ مُفَلَقَلٍ
فقد جعل الطيور وهي السكاكي من شدة مرورهن بصفاء السماء بعد المطر

(١) السباء شراء الخمر ، وأراد بالأدكن الرق الذي في لونه دكنة ، والماتق المتبق
أو الذي لم ينتهجه أحد ، والجولة الحامية السوداء ، وقدحت غرفت ، والقرة البرد ، وزعت
كففت ورددت ، والكرينة ذات الكران وهو البربط ، والموتر المود لأن له أوتارا ، وتأتأله
تصاحبه ، وحاجتها الضمير فيه لنفس .

الذى غرقت في أقاليمه السباع كأنما شربن سلافا من رحيق مفلفل^(١) .
والسلاف : هو ما سال من عصير العنب قبل أن يعصر ، والخمرة منه أجود
ما تكون .

والرحيق : هو صفوة الخمر .

والمفلفل : الذى أقيمت فيه توايل ، أى فهو يلذع لذع الفلفل ، وإنما وصف
الرحيق بكونه مففلا ، لأنه إذا كان كذلك كان أشد تأثيراً في الإسكار . والمراد
أن هذا المطر أضحك وجه الأرض بالنبات والأزهار ، وأطلق السن الأطيوار
فرددت ألسنها منتشية كأنها سكارى .

وليس في معلقة زهير بن أبى سلمى أدنى إشارة إلى الخمر ، لأنه رجل عقل
وحكمة ، وفي معلقته كثير من الدلائل على إيمانه بالله ، والبعث والنشور ، والثواب
والعقاب ، وترفعه عن مقارفة الصفائر .

وكذلك ليس في معلقة الحارث بن حلزة شيء من ذكر الخمر ، أو وصف
مجالسها ، أو شيء يتعلق بمعارفته إياها .

وفي هذا ما يدل على أن شرب الخمر عندهم لم يكن ظاهرة اجتماعية عند
العرب ، وإنما كان ذلك وقفاً على جماعة من الفتيان المستهترين بشربها من شبابهم .

فضائل العرب النفسية :

وفي المعلقات كثير من الآثار التى تدل على تقديرهم للفضائل النفسية ،
وتسكنها من نفوسهم ، ولذلك مجدوا تلك الفضائل ، وفخروا بها لأنفسهم ،
ونسبوا إليها أسلافهم ، ولا يكون شيء من ذلك إلا إذا كان لهذه الفضائل
كثير من التقدير العميق لها في نفوسهم ، وهذا ما يؤكد أنه ترادف تلك الفضائل
في المعلقات ، حتى لم تخل واحدة منها من الإشادة بتلك الفضائل والفخر بها .

(١) قال صاحب اللسان إن الفلفل معروف لا يثبت بأرض العرب ، وقد كثر بحه في
كلامهم ، وأصل السكامة فارسية . ووحدته فافله .

ففضيلة الكرم ، وهى من أمهات فضائل النفس ، لأنها الفضيلة التى ينزل بها صاحب المال عن ماله للفقير المحتاج إليه . وحرص الإنسان على المال طبيعة فى النفوس ، لأنه قوام حياته ، والوزر له من أحداث الزمان ، وينزل بمقتضاها صاحب الطعام عن طعامه ، ليبدله للجائع الذى لا يجد ، ولعل صاحب الطعام فى أشد الحاجة إليه ، ولعله بعد هذا البذل من قوته محتاج لمن يبذل له من قوته . تلك الفضيلة كان لها شأنها فى المجتمع الجاهل ، وكان طبيعة الحياة فى ذلك المجتمع البدوى ، وفى تلك الصحراء التى لا يزورها الفيث إلا لماماً ، هى التى أملت عليهم ذلك الخلق ، فالعربى يعرف أنه إن وجد اليوم أسباب الرغد فإن ذلك إلى أمد ، وأن الأيام وظروف الحياة ستسلمه بعد قليل إلى الجذب الذى يصبح معه فى حاجة إلى العون ، يقدمه إليه غداً من كان فى حاجة إليه أمس ؛ ولذلك فقد كان يحسّ بهول ذلك الشبح ، شبح الحاجة ، الذى يهدده فى غده ، ولذلك تراه حريضاً على أن يسلف من الفضل ما يكون له ديناً فى ذمة التاريخ ، وفى أعناق الرجال .

ولذلك باهى شعراء المعلقات بالجوّد بالمال والمتاع ، كما جادوا بالطعام ، والتمس بذلك المؤمنون منهم بالله ثواب الله والدار الآخرة ، والتمس به غيرهم النفع فى أيام الشدة والمسغبة . أو الجاه الذى يطير ذكركم فى الآفاق ، ويظهرهم فى أخلاق السكرام ، والسكرام دائماً هم السادة بين أقوامهم .

وليس عقر امرئ القيس ناقته للعذارى إلا مظهرأ من مظاهر طبيعة الكرم التى لا تقف عند حد ، لأنه سيفقد راحلته ، ويضطر إلى طلب العون ممن يردفه فوق راحلته (١١ - ١٥) وكذلك صيده الذى عثى فيه نفسه وفرسه ، ثم قدمه بعد ذلك لطهاء اللحم الذين اشتغلوا بشية على الحجر ، وطبخه فى القدور ، ليقدم كل ذلك زاداً لطاهي الطعام (٧٢) .

أما طريقة فقد غالى بتلك الفضيلة حتى تجاوز أعلى غاياتها ، وصور نفسه

في صورة الفنى المتلاف الذى لا يبقى على ما يصل إلى يديه من مال أو متاع ،
ويقول عن نفسه :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد (٤٥)
أى لا أنزل بحيث ينحى مكانى على طالب عرفى أو طالب نصرتى ، بل أنزل
بحيث يرانى كل من يطلبنى ، فن استضافنى أضفته وتمعنه بقراى ، ومن
استنجدنى أنجدته وليت نداه ، ومن شأن أهل الكرم والمروءات أن يعرضوا
أنفسهم لمثل هذا ، وذلك فرق ما بين الكرام والاثام .

وفى آيات من الحكمة نرى طرفة يذكر العلة فى إشاره الطريق التى اختارها
لسلوكه فى الحياة ، وإتلاف ما تصل إليه يده من المال :

أرى قبر نحام بخيل بماله كعبه غوى فى البطالة مفسد (٦٤)
ترى جنوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفائح منضد (٦٥)
أرى الموت بعثام الكرام ويعطى عقيلة مال الفاحش المتشدد (٦٦)

إن الشحيح والمصرف اختلافهما فى حال الحياة ، فأما فى الموت فهما سيان ،
فالبخيل لا يمنع الموت عنه ما ادخره من المال ، بل إن الموت بسطو على المدم
الذى بدد ماله فى حياته ، كما بسطو على الموسر الذى استطاع أن يجمع بيخله
الأموال والمتاع ، وإن ترى فرقا بين قبريهما ، فعلى كل منهما كومتان من تراب
فوقهما أحجار صلاب عريضة ، والحذر لا يدفع الموت ، فحرص الكريم على
حياته لا يرد عنها يد الحمام ، وحرص البخيل على ماله لا يدفع عنه المهالك ،
وإذا كان الأمر كذلك فخير للإنسان ألا يرض بنفس ولا مال . ومن تلك المعانى
نستبين أن طرفة فى إتلافه ماله ومال غيره لم يكن يفعل ذلك اعتباطاً ، وإنما كان
صاحب رأى وفلسفة فى الحياة بما هدته إليه تجاربه ونظراته .

وصورة أخرى صورها طرفة لكرمه ، وأنه كان يرتكب فى سبيله ما كان

أجدر به أن يوصف بأنه حماقة من حماقات طرفة ، حين يصور إبلًا نائمة مشى
بينها يلتمس بغيراً يذبحه للندمان أو للضيغان ، فتثور ثقلها من مخافته وتمر به
منها ناقة ضخمة سمينة قد جفت ضرعها فخرتها ، ويصيح شيخ في وجهه : قد أنبت
بداهية ، لذبحك هذه الناقة التي لا يذبح مثلها الضيف ! يقول لمن حوله : ماذا
ترون بهذا الرجل الذي ظلمكم وتعمد إيذاءكم في أكرم أموالكم ؟ يريد
منهم أن يكفوه ، وإلا لم يترك لهم شيئاً ، ثم عدل الشيخ عن هذا ، وقال : دَعُوهُ
فإن النصيح لن يزيد إلا عناداً وإصراراً ، وإنما ردُّوا مائدً من الإبل ، لثلا
يعقره أيضاً (٨٩ - ٩٣) إن ذلك الشيخ لم ينكر على طرفة كرمه لضيفه ،
وإنما أنكره عليه تهوره في سبيل ذلك الكرم ، وعدم توفيقه في اختيار ما يصلح
قري لأولئك الضيف .

أما زهير بن أبي سلمى فقد خص بالكرم عظيمى غطفان : الحارث بن عوف
وهرم بن سنان ، اللذين تداركا عبساً وذبيان بعد ما أفنى بعضهم بعضاً ، وتحالفوا
على الحرب حتى الموت ، ووقع بينهم الشؤم ، حتى كاد يبيداهم عن آخرهم :

وقد قلنا إن ندرك السُّلم واسماً بمال ومعروف من القول نَسَلَمَ (٢٠)
فأصبحنا منها على خير موطنٍ بعيدين فيها من عقوق ومأثم (٢١)
عظيمين في عليا معدٍ هديتما ومن يستيح كنزاً من الجدي عظم (٢٢)
تُعفى الكلامُ بالثنين فأصبحت ينجّهما من ليس فيها بمجرم (٢٣)
يُنَجِّها قومٌ لقوم غرامةً ولم يُهريقوا بينهم ملءَ محجم (٢٤)

وذلك ضرب من الجود يصح أن يسمى « الجود الجماعى » أى الجود القدى
سببه الجماعة ، والحرص على وحدتها وقوتها ، ولو أدى ذلك إلى أن يفقد الجواد
متاعه وأمواله في سبيل أمن الجماعة ، وسلامة أرواحها ، وقد سجل زهير هذا

الجود الجماعى لهذين الرجلين فى هذه المعلقة . وهى ظاهرة اجتماعية مبكرة فى هذه البيئة العربية ، وفى ذلك الزمن البعيد ، وصورة للفرد الذى لا ينظر إلى نفسه وإلى خاصته بقدر ما ينظر إلى الجماعة التى ينتسب إليها .

والحقيقة أن هذه الظاهرة فى الحياة الجاهلية تعبر أقوى تعبير عن مدى التجاوب بين الفرد والجماعة ، فالجماعة تصون أفرادها ، وتدفع عنهم اعتداء المعتدين ، وتغزو من أجلهم ، وتغير على غيرها جلباً للمغانم التى ينعم بها الأفراد ، والجماعة هى التى تتأثر لقتلها ، وهى التى تدفع القفل والدية عن الجناة من أبنائها .. هذا هو موقف الجماعة من الأفراد .

أما موقف الأفراد من الجماعة ، فإنه تجاوب تام ، فهم الذين يسرعون إلى نجدها ، وهم الذين يهودون بأرواحهم لحايتها ، وللشعراء منهم هم الذين يرسلون الشعر الحى يدافعون به عن أحسابها وأنسابها ، ويبدلون به من خصومها وأعدائها ، ويذيعون محامدها ومفاخرها . والسراة هنا يحملون فى أموالهم آثام جنائات لم يرتكبوها ، ويلثمون جراحاً لم ينسكتوها . وهذا هو التفاعل التام بين الفرد والجماعة ، والتكافل التام أيضاً بين الجماعة والفرد ، ومظهر للشركة بينهم فى السراء والضراء .

يقول زهير لذيнок العظيمين إنسكاً قلتما إن نتمكن من الصلاح ببذل المال نسلم من الحرب ومن إراقة الدماء ، فبذلتما الأموال ، وأصبحتما بعيدين عن كل وصف بالعقوق أو قطع الأرحام ، فعرفت عظمتكما فى أشراف القبائل ، فلقد محوتما الجروح بالثمين من الإبل التى دفعت دية ، كرمأ منكما وفضلا ، لإصلاح ذات البين ، وصلة الأرحام .

أما معلقة لبليد ففيها من ذكر الكرم ، وفيها من تصوير الكرام وخلقاتهم ما يدل عليه ويوضحه قوله :

وجزور أبسار دعوت لحنفهما بمضائق متشابهة أعلامها (٧٣)
أدعو بهنّ لمأقر أو مطفل بذلت لجيران الجميع لحامها (٧٤)
فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تباله مخصباً أهضامها (٧٥)
تأوى إلى الأطناب كلّ رذية مثل البلية قاصص أهضامها (٧٦)
ويكئلون إذا الرياح تناوحت خلجاً تمده شوارفاً أيتامها (٧٧)

وهو تصوير يوقفنا على أسلوب من أساليبهم في الكرم، وفي تيسير الطعام للمعجزين عن كسبه؛ وذلك أنهم كانوا يقامرون على الإبل، وكان القامر منهم ينحر ما كسبه، ليقدمه طعاماً لأولئك المحتاجين. يقول ليبد: رب جزور قوم مقامرين قرتهم عليها، وأخذتها منهم بقداح متشابهة للعلامات، لاتتميز على اللامس، تنلق الرهن، وتمنعه الفكك، ثم دعوت الناس إليها. وكان يدعو بهذه القداح ليقامر بها من أجل امرأة عاقر لا تحمل، وأخرى ذات ولد ليس لها من يعولها، فهو يقامر ليحصل لها على ما ياكلانه، ثم يفرق ما يبقى على جيرانه فالضيف والجار الغريب الذي يقيم في جوارهم إذا نزل بهم صادفا عندهم من الخيرات والفواكه والرطب ما يصادف النازل في «تباله» من الخيرات، يشير بذلك إلى سعة يدهم واعتنائهم بضييفهم وجارهم، والحفاوة بهما، وللبالغة في إكرامهما. ومن أظهر علامات السماحة ما ذكرنا من أن كل امرأة لا تقدر على العمل عليها أخلاق ثياب، فصارت أشد الجهد والحاجة لاستطيع الحركة، كأنها ناقة عقلت على قبر صاحبها، فهي لا تبرح من مكانها حتى تموت، إن هذه المرأة ومثيلاتها لا يجدن ملجأً يلجأن إليه إلا داره التي يجدن فيها ما ينشدن من القرى والطعام؛ حتى يقول: إنه إذا أقبل الشتاء، واشتد البرد، واختلفت الرياح وضاعت المعيشة على الفقراء والمعدمين، ومن ليس لهم من يعولهم من

الأيام بذلنا للناس جفاناً كأنها في السمة الخلعجان قد رصف فوقها اللحم ، وزدنا فيها كلما نقصت . فترى الأيتام يشرعون فيها أيديهم ، ويأكلون منها ما يكفيهم وما يزيل مسغبتهم .

وغر عمرو بن كلثوم بأن العرب يعترفون اقومه بالشرف والسيادة ، وأنهم المطعمون غيرهم إذا ما وجدوا إلى هذا الإطعام سبيلاً ، وأنهم قادرون على الانتقام إذا حاول الاعتداء عليهم معتدٍ ؛ وذلك في إحدى الروايتين « وأنا المطعمون إذا قدرنا . . »

وغر عنزة بأنه دائم البذل في جميع حالاته ، فإذا سكر بذل وأعطى ، وإذا صحا من سكره فعل مثل ذلك ، لأن السكرم خلق فيه ، أما عرضه فإنه أبداً كامل مصون ، لا يناله ما يعاب به ، وما يذم من أجله ، وذلك في قوله :

فإذا شربت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم (٤٤)
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكأ علقت شمائلى وتسكرى (٤٥)

وهكذا صورت العلاقات فضيلة السكرم التي تخاق بها العربى ، وغالى بها العرب إلى حد الإسراف ، فأنفقوا الأموال ، وأطعموا الطعام ، واحتملوا في أموالهم ديوات القتلى الذين لم يكن لهم يد في قتلهم ، مع فسوة الطبيعة عليهم ، وجذب أرضهم بالنبات ، وبخل سمائمهم بالغيث ، وفي هذا ما يكبر صفائهم ، ويجعلها مثلاً من روائع الأمثال .

أما فضيلة الشجاعة عند العرب فقد أصبحت مضرب الأمثال في العالمين ، ولقد كان العربى في الجاهلية يسترخص أغلى ما يملك ، وهو حياته ، في سبيل حريته ، وفي سبيل الحفاظ على حرمة وكرامته ، ورب كلمة أنف العربى سماعها ،

جعلته يسرع إلى سيفه ، ليهوى به على رأس من حاول النيل منه بالقول أو بالفعل ، ثم تشتمل نار حرب ضروس تأكل اليابس والأخضر ، وكانت تلك الحياة هي التي علمتهم الشجاعة ، والصبر على القتال ؛ إذ كان صبيانهم يشبون في بيئات ملأت صدور أهلها الأحقاد ، وتخضبت جنبات أرضها بالدماء ، فلا يسمعون إلا صهيل الخيل وصليل السيوف في ميادين الوغى ، ولا يرون إلا النار لآبائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ينتظر منهم النهوض به . ولذلك كانت الشجاعة أهم صفاتهم ، كما كانت نجدة المستنجد بهم ضريبة عليهم ، لأنهم في كثير من الأحيان يضطرون إلى الاستنجد بغيرهم ، ليعينهم على دمائهم التي يريدون الثأر لها ، وحقوقهم التي يعملون على استخلاصها من أيدي أعدائهم ومغتصبهم .

والحديث عن شجاعة عرب الجاهلية يحتمل مكاناً بارزاً في شعر المعلقات ، وقد سبقت إلى ذلك إشارات كثيرة في وصف الحياة الجاهلية ، ووصف الحرب والسلام في المجتمع العربي ، وفي وصف سلاحهم وأدوات القتال عندهم ، وقد كان الحديث عن الحرب في حقيقته وصفاً لبطولتهم ومفاخرهم التي حصلوها في تلك الحروب والوقائع التي خاضوها ، وشجاعتهم وحسن بلائهم في لقاء الأبطال ، والصبر على القتال ، واتصاراتهم المترددة . وليس من سبب لطول الحروب عندهم إلا خلق الشجاعة الذي كان يجري في دمائهم ، فيمنعهم الرضا بالهزيمة ، أو النوم على وتر ، مهما أصابهم من رزايا الحرب وأهوالها ، ومهما قتلت من ساداتهم وكبرائهم ، ومهما أفنت من رجالهم ، لأن العربي لا يستسلم للهزيمة ، ولا يرضى بالهوان ، وإن كان دون ذلك بذل النفس والنفيس من الأرواح والأموال .

وربما كان ذلك العناد الذي أودى بالآلاف من العرب في الجاهلية هو الذي عطل نهضة الجزيرة العربية ، وعاق تقدمها المادي قبل الإسلام ، وصرفهم عن العمل الجاد الذي يحصلون منه على أرزاقهم التي تقيم أصلابهم .

وهاك بعض إشارات يسيرة إلى بعض مظاهر خلق الشجاعة كما عبرت عنها المملكات .

فامرؤ القيس يتجاوز في الوصول إلى صاحبه وزيارتها أهوالا كثيرة ، وقوماً يحرسونها وآخرين حراساً على قتله لو قدروا عليه ، وهو لا يبالي بشيء من ذلك (٢٨) ولم يكن من مظاهر خلق الشجاعة عند امرئ القيس في الشطر الأول من حياته غير الشجاعة في العبث ، وفي الديب إلى من يهوى ، وكان لا يستخدم حصانه إلا في الصيد والطرود .

وطرفة يمضى على مثل ناقته ، ويقطع بها عرض الفلوات التي يجزع منها غيره ، لما يخشون من الهلاك الذي يتعرض له قاطع تلك المفاوز الشاسعة (٤٠) ومن شجاعته أن الناس إذا وقعوا في شدة من الأمر ورجوا من يكشفها ، لم يجدوا غيره مليباً (٤٢) وهو لا ينزل بحيث يخفى مكانه على طالب عرفه أو طالب نصرته ، فمن استنجد به أنجده ولبي نداءه (٤٥) ويقول لمن يلومه على شهوده الحرب وحضوره مجالس اللذات : أتضمن لى الخلود إن أنا أطعك في الكف عن القتال وعن شهود اللذات ؟ ، فإن كنت لا تستطيع أن تدفع منيتي إذا حضرت فدعني أعجلها بشجاعتى وبذل مالى (٥٦) ومن أعز أمانيه التي لا يحرص على الحياة إلا من أجلها كره لإغاثة الملهوف ونجدة المستصرخ المكروب فرساً في يده انحاء قليل ، وذلك محمود عندهم في الخيل ، فإذا فحش كان مذموماً (٥٩) وهو إن يدع إلى الخطوب الجسام كان ممن يحمى فيها ويمنع وإن دم الأعداء قومه فقاتلهم بأقصى جهدهم استطاع أن يدفعهم عنهم بأقصى جهده ، ولم يأل في ردم عنهم ، وإن يشتموا عرض واحد من قبيلته أو يستوه لم يشتغل تهديدهم ، وإنما يسقيهم من حياض الموت ، لانتها كههم حرمانه ، واجترأهم عليه (٧٥ ، ٧٦) وهو قليل الاحم ليس بكثيره فيعوقه ذلك عن سرعة الحركة ، وهذا مما تمدح به العرب ، لأن أهم مفاخرهم في لقاء الأبطال

ومقارعة الأقران ، وإغاثة الملهوفين ، وقطع الفلوات ، وكل هذه الأمور لا تتيسر إلا لمن خف لجه . وهو ماض في أموره لا يثنيه شيء عنها . وهو سريع الحركة شديد الحذر كأنه رأس الحية في توقده ، وشدة تيقظه (٨٤) وقد حلف لا يزال جنبه للسيف كالبطانة للظلمة لا يزالان معاً ، يريد أنه أقسم لا يفارقه سيفه أبداً ، بل يظل أبداً متقلداً له (٨٥) .

وفي معاقبة عمرو بن كلثوم من آثار الشجاعة الشيء الكثير ، فهو يذكر ما كان من قومه الذين أشبعوا أعداءهم ضرباً وطعنًا أقروا به عيون أوليائهم (١١) وغر بأنهم يوردون الرايات بيضا ، ويصدرونها وقد احمرت بعد ما رويت من دماء أعدائهم (٢٤) وأن السادة والأبطال لا يستمعون على شجاعتهم (٢٦) وأنهم استطاعوا أن يحموا ذاطلوح والشامات وما بينهما ، وأن يطردوا الأعداء الذين لا يستطيع غيرهم تفريقهم ، لما لهم من المنعة والعزة والبأس (٢٨) وإذا فرغت الأقوام وهمت بالهروب ، وتساقطت أخبيتهم استطاع قومه أن يحموا أنفسهم ، وأن يمنعوا من يليهم ، ولا يدعونهم يرحلون بل يحمونهم ، ويقاتلون عنهم . وإذا عجز قوم عن التقدم إلى الحرب من توقع أهوالها فإن قومه قادرون على التقدم بكثيبة كأنها الجبل ذات بأس وشوكة محافظة على أحسابهم ، حتى يكتب لهم النصر والغلبة على الأعداء (٤٦) إلى كثير من هذا الفخر بالشجاعة والبسالة الذي تقدمت الإشارة إلى شيء منه فيما سبق .

ومثله عنزة ، لولا أن أكثر فخر عنزة بشجاعته ، ومن قوله في ذلك إنه حاذق بالطن لا يطعن إلا في المقاتل ، وأن جأشه دائماً ثابت ، ولذلك فهو يتحرى إصابة رمح المقاتل (٤٦) واستطرد إلى حسن بلائه في الحرب ووصف فرسه الذي تعاوره السكاة واحداً بعد واحد ، ومع ذلك ظل ثابتاً ، وأنه يدفعه لاقترام جيش الأعداء ، فإذا نسكى فيهم عاد به إلى جيش قومه (٥٠) وعنزة يفتش الحرب شجاعة ، فإذا كانت الغنيمة كف عنها عفة ، إذ أنه لا يقاتل من

أجلها (٥١) وربّ فارسٍ مدجج في سلاحه شجاع في اللقاء يكره الفرسان
منازلته لما يعلمون من بأسه ، استطاع عنقته أن يسبقه بالطنن ، وكان أحذق به منه
(٥٥) ومثل هذه الصور من الشجاعة كثير في معلقة عنقته كثرتها في معلقة
عمرو بن كلثوم .

وفي معلقة الحارث بن حلزة من آثار الشجاعة كثير مما سبقت الإشارة إليه
في الكلام عن الحرب وأيام العرب^(١) .

ومن الأخلاق العربية التي أبرزتها المملقات خلق العزة وإباء الضيم ، الذي
كان ثمرة من ثمرات الحرية التي عشقها العربي ، وأرضع لبنها في تلك البيئة الحرة ،
فقد كان العربي سيد نفسه ، لا يرضى إلا بما أسنّه قبيلته ، ولا يخضع إلا لسلطانها
وفيما عدا ذلك تراه لا يعترف بسيادة ولا يقر بسلطان ؛ إلا أن يقهر أو يغلب
على أمره ، ولسكن هيهات له أن يستكين .

وترى التحدث بهذا الخلق — خلق العزة وإباء الضيم — أكثر بروزاً في
قصائد شعراء الحماسة من أصحاب المملقات ، وأعنف بهم طرفة بن العبد ، وعمرو
ابن كلثوم ، وعنقته بن شداد ، والحارث بن حلزة . فمن ذلك في معلقة طرفة :

وإن أدع للجلى أكن من حماها	وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد (٧٥)
وإن يقذفوا بالقذع عرضك أسقمهم	بشرب حياض الموت قبل التهدد (٧٦)
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة	على المرء من وقع الحسام المهند (٨٠)
فذرني وخلقى إننى لك شاكر	ولو حلّ بيتى نائياً عند ضرغد (٨١)
فلو كنت وغلا في الرجال لضرني	عداوة ذى الأصحاب والتوحد (٩٨)
ولسكن نقي غنى الرجال جرائنى	عليهم وإقداى وصديقى ومحتدى (٩٩)

يقول : إنه إن دُعِيَ إلى الخطوب الجسام كان ممن يحمي فيها ويمنع ، ولم يأل في رد الأعداء بأقصى ما يملك من الجهد ، وإن شتموا عرضه وسبوه لم يشتغل بهديدهم ، وإنما يسقيهم من حياض الموت ، لأنها لهم حرمانه ، واجترأهم عليه . وهو لا يقبل الظلم ولا يبيت على الضيم ، حتى لو كان ذلك من أهله وذوى قربه ، إذ يرى أن المرء لأن يضرب بالسيف المهند القاطع حتى يموت خير له من أن يحتمل أذى من ذوى قرابته ، أو يرى منهم ما يسيؤوه ويؤلم قلبه . ثم يقول لمن لامه على إسرافه في الإباء وفي النيل من كل من تعرض له : دعني وما فطرت عليه ، فإنى لأدع ذلك ، ولو اضطررت إلى العزلة ، ونزلت عند ذلك الجبل « ضرغد » الذى هو أبعد ما يكون عن أهله ومنازل قومه . ثم يقول عن نفسه : إنه لو كان ندلاً ضعيفاً بين الرجال لئاله الأذى بمن له ناصر ، ومن لا ناصر له ، ولكن الذى كف عنه أذى الناس هو إباؤه وجرائته وكرمه أصله ، وصدقه فيما يتوعدهم به .

ويبدو الإسراف في خلق الإباء في قول زهير يذكر حصين بن ضمضم بن حرة ، وكان أبى أن يدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح ، وحلف ليقتلن بأخيه رجلاً من بنى عبيس :

جرى متى يظلم يماقبُ بظله سريعاً وإلاَّ يبد بالظلم يظلم (٣٩)
فهذا الأسد — وهو حصين — إن ظلم انتقم لنفسه ممن ظلمه سريعاً ، وإن لم يظلم ابتداً هو بالظلم . وقال في قوم الحارث بن عوف وهرم بن سنان :

كرام فلا ذو الضغن يدرك وتره ولا الجارمُ الجانى عليهم بمسلم (٤٧)
وصفهم بأنهم كرام عزيزو الجانب ، فمن كان له عندهم ثأر لم يدركه منهم لعزم ومنعتهم ، ومن جنى منهم جناية عليهم لم يسلموه لأولياء الجنى عليه ليقتادوا منه ، لعزم وشرفهم ، بل تقع جناية من يحنى منهم هدراً .

وقال لييد :

أو لم تسكن تدرى نوار بأننى وصال عقد حبال جدامها (٥٥)
 تراك أمكنة إذا لم أرضهم — أو يعلق بعض النفوس حمامها (٥٦)
 فقد خرج فى قوله هذا على المألوف من العشاق وذوى الصبابة الذين
 يصبرون على هجر عشاقهم ، ويرون مرم حلوا ، وهجرهم وصلا ، وبعدم قربا ،
 أما لييد فإنه قادر على أن يملك قلبه ، وعلى أن يجمع أمره ، فهو حازم يصل فى
 موضع المواصلته من كان أهلا لمواصلته ، وبقطع من قطعه ، وهو كثير الترك
 لكل مكان لا يرتضيه لإقامته ، لما قد يلحقه فيه من المذلة ، وإن علم أن فى
 ارتحاله عن ذلك المكان موته ، يريد أنه يفضل الموت فى الغربة على
 الحياة فى وطنه إذا كان فى مقامه غضاضة تلحقه . وهذا على الرغم من حرص
 الأحرار على عدم مبارحة الديار ، وإن ضاقت بهم أو جارت عليهم ؛ إلى
 أن يقول :

وكثيرة غرباؤها مجملولة ترجى نوافلها ويخشى ذامها (٧٠)
 غلب تشذر بالدحول كأنها جن البدى^(١) رواسيا أقدامها (٧١)
 أنكرت باطلها وبؤت بحقها عندى ولم يفخر على كرامها (٧٢)
 ومعناه : رب قبة كثيرة الوفود يجتمع إليها من سائر الآفاق ، ترجل نوافل
 هذه القبة ، ويخشى أن ينسب إلى أحد فيها عيب ، لأنه يسير بين الناس كأنثل
 لكثرة من فيها من شذاذ الآفاق ، وكأن تلك الوفود إبل غلاظ الرقاب ، كناية
 عن قوتهم وجسامتهم ، يقعدهم بعضهم بعضا بالعداوات التى بينهم ، وكأنهم الجن

(١) الغلب : جمع أغلب وهو الفحل الغليظ الرقبة ، وتشذروعد بعضهم بعضا ، والدحول
 جمع دحل وهو العداوة ، والباء فيه لاسمية ، أى يتوعد بعضهم بعضا ، بسبب الدحول ،
 والبدى وادلى عامر .

جراً ومضاء في أمورهم ، ولكن ليبدأ لم يقبل من أحدهم فخراً عليه ، بل أنكره في هذه القبة ، وردّه على من حاوله منهم ، وتجاوبت أصداء فخره فيها . وهو يشير بهذا إلى ما كان له مع الربيع بن زياد العبسي بحضرة النعمان بن المنذر .

أما عمرو بن كلثوم ، فقد رأينا أنه لا يقبل الذل ، ولا يرضى الهوان ، وأنه يتحدى ملك الحيرة عمرو بن هند بقوله :

أبا هند فلا تمجّل علينا — وأنظرنّا نخبرك اليقينّا (٢٣)

بأنّا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينّا (٢٤)

وأيام أننا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينّا (٢٥)

يقول للملك : لا تمجّل بانتقاصنا ، ولا تطمع فينا ، فإن من شأننا أن ندخل بالرايات غمار الحرب وهي بيض ، ونخرج منها وقد رويت بالدماء ، يريد أنهم فرسان أبطال ، لا يقيمون على ضيم ، وأن أيامهم ظاهرة بين الناس كأنها الفرة في وجه الفرس ، وهي طوال لشدة هولها ، وقد عصينا الملك فيها ، ولم ندخل في طاعته ، لعزتنا وشرفنا الذي يأتي علينا أن نكون عبيداً لغيرنا . إلى أن يقول :

ألا لا يجهلن أحد علينا — فنجهل فوق جهل الجاهلينا (٥٣)

بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقليلكم^(١) فيها قطينا (٥٤)

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا (٥٥)

تهدّدنا وأوعدنا رويداً متى كنّا لأملك مقتوينّا^(٢) (٥٦)

(١) القيل الملك دون الملك الأعظم ووجه أقبال ، والقطين الخدم ، وهم في غير هذا الموضع سكان المنزل .

(٢) المقتون الخدام واحدهم مقتوى ، وقال أبو عبيدة : مقتوى للفرد وغيره والمذكر والمؤنث سواء . وقال الفراء : الرواة والنحويون يلبثون بيت عمرو ومقتونا بالفتح ، كأنه نسب إلى مقتى ، من المقتو ، وهو الخدمة خدمة الملوك خاصة ، ثم إن الشاعر اضطر إلى تخفيف الياء ، فقال « مقتوين » يريد « مقتوين » فإذا قالوا للواحد رجل مقتوى عادوا إلى التشديد .

فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا (٥٧)
 يقول : نحن أعزة لا يعلم الناس منا غير ذلك ، فلا ينبغي لأحد أن يجهل
 علينا ، فنجهل عليه فوق جهله بنا ، ونزال منه أكثر مما ينال منا ويخاطب
 عمرو بن هند بقوله : كيف تطمع أن نكون خدماً لمن وليت علينا من الأمراء ،
 على ما تعلم من عزنا ؟ وكيف تطيع الوشاة فينا وتحتقرنا ، على ما تعلم من قلة صبرنا
 على احتمال الضيم وتحمل الأذى ؟ إلى أن يقول له : أقلل من تهديك إيانا وتوعدنا ،
 وتأن في ذلك ، فما كنا خدمة لأملك ! لقد رأيت أن كل من نازعنا أو أراد مغالبتنا
 خاب وظفرنا به ، فإن قناتنا لا تلين لكاسر ، يريد أنهم لعزهم لا يُنالون ،
 ولا يقدر عليهم أحد من البشر . ثم يقول :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطنينا (٩٨)

ألا أبلغ بنى الطاح عننا ودُعياً^(١) فكيف وجدتمونا (٩٩)

إذا ما الملكُ سام الناس خسفاً أبيننا أن نقر الذل فينا (١٠٠)

إذا بلغ القطام لنا صبيّاً تخزله الجبابر ساجديننا (١٠٤)

يصف قومه بأنه يغلبون على الفاضل من كل شيء ، فيحوزونه ولا يصل
 الناس إلى شيء مما يتخيرونه لأنفسهم ، لعزتهم وشرفهم . وإنما ضرب الماء مثلاً
 لأنه أعز شيء لديهم ، لقلته مع شدة حاجتهم إليه ، ثم يقول الملك : سل هذين
 الحيين من العرب : كيف وجدونا حين جربونا ؟ أشجعاناً أم جبناً ؟ وإنما خص
 هؤلاء بالسؤال لوقائع كانت بينهم . وإذا بلغ أحد صبياننا وقت القطام سجدت
 له جبابرة غيرنا . ومن آثار هذا الخلق في معلقة الحارث بن حلزة قوله :

أيها الناطق المرقش عننا عند عمرو وهل لذاك بقاء (٢١)

(١) بنو الطاح ودعى حيان من إباد .

لا تخلفنا على غراتك إنا قبل ماقدوشى بناء الأعداء (٢٢)
فبقينا على الشناعة تنمي لما حصون وعزة قصاء (٢٣)
قبل ما اليوم بيضت بعيون الله اس فيها تعيط^(١) وإياه (٢٤)

يقول : أيها المحسن الملك ما يفتره علينا ، ويفريه بمعاقتنا ، لا تحسب أنا
جزعون لإغرائك الملك بنا ، فقد بماوشى بنا الأعداء ، فقد مرنا على عداوة الناس
ووشاياتهم ، وليس لكذب بقاء . ولقد بقينا على بغض الناس إيانا نزداد عزة
وامتناعاً ، وبزدادون غيظاً ، لما يرون من ثبات عزنا ومكانتنا ، ونحن لا نبالي
عدوا ولا حسوداً ، فقبل اليوم عظم شأننا على الناس حتى أمعى أبصارهم .

وفي هذه الصور التي رسمها أصحاب المملكات لعزة العربي وإبائه الضيم
مايكشف عن جانب من أهم الجوانب في أخلاق العرب ، الذين امتنعوا عن
التبعية لسيد من السادة أو ملك من الملوك ، اعزازاً بكرامتهم ، وإيثاراً للحرية
التي هاموا بها ، وملكت عليهم أمرهم ، وصرفتهم في الحياة على ذلك الطراز
الذي فقدوا فيه صولة الحاكم ، ووحدة الهدف ، وقوة القانون الذي ينظم صلاتهم
ومعاملاتهم .

صور أخرى للمجتمع العربي في المملكات :

(١) صحابة الماء :

كان بعض العرب يحمون مياههم ، فلا يستقي منها ، ولا ينتفع بها أحد ، قال
امروء القيس في تشبيه صاحبه :

كبكر المقناة البيضاء بصفرة غذاها نمر للماء غير المحلل (٣٦)

(١) الفراء : من قولك غريت بالشيء أغرى به ، والشناعة : والشنآن البغض ، وتنميناً
ترفناً ، والقضاء : الثابتة المنبعة التي لاترام ، ويبيضت بعيون الناس : أعتمتها ، والباه زائدة ،
والتميط الارتفاع والامتناع ، واعتاطت رحم الناقة امتنعت عن الحمل .

يقول : إن لون هذه المرأة كالون بيضة النعامة المخلوط بياضها بصفرة ، وقد غذا هذه المرأة الماء النثير المذب الصافي ، ودل على صفاء هذا الماء بقوله « غير المخلل » فإن الماء إذا لم يكن حلالا لكل أحد من الناس ، ولم يحمله أحد ، بل كان محيا لقوم معينين ، كان أصفى لكثرتة ، وقلة ملاسة الأيدي له .

(٢) دين الجاهلية :

والمعلقات على طولها لم تعرض لدين العرب وعقائدهم في الجاهلية إلا قليلاً ، وأكثر هذا القليل ورد في معلقة زهير بن سلى ، الذى ذكر تعظيم العرب للكعبة ، وأنهم كانوا يقسمون بها لإثبات صدقهم ، وذلك فى قوله :

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِى طَافَ حَوْلُهُ رِجَالُ بَنُوهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرُحُمُ (١٧)

يَمِينًا لَنَعْمَ السَّيِّدَانِ وَوُجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ (١٨)

وفى معلقته إيمان بالله ، ووصف له بأنه يعلم السرّ والنجوى ، وإيمان بالبعث والنشور ، والثواب والعقاب ، وذلك قوله :

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمُ (٢٧)

يُؤَخِّرْ فَيُؤَخِّرْ فَيُؤَخِّرْ فَيُؤَخِّرْ فَيُؤَخِّرْ فَيُؤَخِّرْ فَيُؤَخِّرْ فَيُؤَخِّرْ (٢٨)

يقول : لا تكتموا عن الله ما فى نفوسكم من القدر ونقض الصلح ليخفى على الله ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ومهما كتم الإنسان عن الله شيئاً ، وبالغ فى كتمانة علمه الله ، فإما أن يؤخر عقابه ، أو يعجله فينتقم من صاحبه ، فكل إنسان مجزى بعمله لا محالة . ولا يعلم الغيب إلا الله :

وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمَّ (٤٩)

وفى المعلقة من ذكر الوثنية ، والإشارة إلى عبادة الأوثان شيء قليل جداً هو الذى أشار إليه امرؤ القيس فى وصفه سرب بقر الوحش :

فَنَ لَنَا مَرْبٌ كَانَ نَسَاجَهُ عَذَارَى دُؤَارٍ^(١) فِي مُلَاهِ مَذْبَلِ (٦٨)
يقول : بينما نحن في انتظار صيد إذ عنّ لنا قطع من بقر الوحش كأن إنانه
في السمّ والكتناز اللحم والتبختر في المشى ، عذارى عليهن ملاحف طويلات
الذيول تسحب خلفهنّ ، وهن يطفن حول ذلك الصنم « دُؤَار » وهو صنم كان
أهل الجاهلية إذا نأوا عن السكبة نصبوه وطافوا حوله ، تشبها بالطواف حول
السكبة .

وفيها قليل من الإشارة إلى الرهبان المنقطعين عن الناس والمشغولين عن
الحياة بمباداة الله ، وذلك في قول امرئ القيس يصف صاحبتة بالبهاء
والإشراق :

تَضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا مَنَارَةٌ مُنَمَّسَى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلٍ (٤٤)
أى أن نور وجهها يحوّ ظلام الليل ويطرده ، كما يحوّه ضوء منارة الراهب ،
وذلك أن الرهبان كان من عادتهم إذا جن الليل أن يجعلوا مصباحاً على أرفع مكان
في صوامعهم ، ليهتدى به إليهم من ضل عن الطريق ، وستره ظلام الليل عن
عيّنه . ومثل ذلك قوله :

أَصْحَاحٌ نَرَى بَرَقًا أَرِيكَ وَمِيضُهُ كَلَمِ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلٍ (٧٥)
يَضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحِ رَاهِبٍ أُمَالُ السَّلَيطِ بِالذُّبَالِ^(٢) الْمَفْتَلِ (٧٦)
أى أن هذا البرق في لمعانه وتحركه كلعم اليدين ، وفي تألقه كمصباح راهب
أميلت فتيلته بصب الزيت عليها .

(١) فيه أربع لغات فتح الدال وضما مع تشديد الواو وتخفيفها ، وقال صاحب النفاوس
(٣٢/٢) الدوار ككثتان ويضم الكعبة ، وصنم ، ويخفف .

(٢) الحبي السحاب المتراكم ، والمسكل الذى عليه الإكليل ؟ والسليط الزيت عند عامة
العرب ، وعند أهل اليمن دهن السمسم ، والذبال جمع ذبالة ، ومى الفتيلة التى تكون في السراج .

(٣) الأظلام والمقصود :

وفيها دليل على أن بعض العرب في بعض ديارهم كانوا يقيمون الحصون ، ويرفعون الأظلام أو الآجام ، وهي أيضاً البيوت المسقوفة . وذلك في قول امرئ القيس :

وتبناه لم يترك بها جذع نخلة ولا أطماً إلا مشيداً بمخندل (٨١)

وتبناه مدينة كثيرة النخل والتين والعنب بين حوران ومدينة الرسول عليه السلام ، يقول إن ذلك المطر لم بدع حصناً إلا ما كان مشيداً بحصص وصخر فإنه سلم من المطر ، والمشيّد يحتمل أن يكون المبنى بالحصص ، وأن يكون المطول .

(٤) لعب العرب :

وفيها إشارة إلى بعض اللعب التي كان يتسلّى بها صبيان العرب ، ومن تلك اللعب « المخاريق » التي ذكرها عمرو بن كلثوم ، الذي ذكر من علامات خفتهم وحذقهم بالضرب أن سيوفهم تشبه « المخاريق » بأيدي الصبيان يلعبون بها ، وذلك في قوله :

كان سيوفنا فينا وفيهم مخاريق بأيدي لاعبين (٤٣)

وذلك أنه كانت لهم لعبة تسمى « الخطرة » ، قال في القاموس : لعب الخطرة أن يحرك « المخراق » تحريكاً . وذكر صاحب الخصة أن « المخراق » مندبل أو نحوه ، يلوى فيضرب به أو يلف فيفزع به . وفي القاموس : « المخراق » المندبل يلف ليضرب به . وفي اللسان : « المخاريق » واحدها « مخراق » ماتلعب به الصبيان من الخرق المفتولة ، واستشهد بيت عمرو بن كلثوم . . وفي الحيوان للجاحظ : الخطرة أن يعمل مخراقاً ، ثم يرمي واحد منهم من خلفه إلى الفريق الآخر ، فإن عجزوا عن أخذه رموا به إليهم ، فإن أخذوه ركبوم . وفي محاضرات الراغب أن الخطرة هي أن يرمي أحد الفريقين بمخراق من خلفه فإن عجزوا عن أخذه رموا به إليهم ، فإن أخذوه ركبوم^(١) .

(١) انظر (لعب العرب) لأحمد تيمور ٢٤ .

ومن لعبهم « الخذروف » قال امرؤ القيس في وصف فرصه بالسرعة :

دزير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بخيط موصل (٦٣)
أى أن هذا الجواد سريع الجرى كأنه في سرعة عدوه خذروف الصبي
وقد أحكت كفاه فتل خيطه ، وتتابعت كفاه بإدارته ، ووصف الخيط بأنه
موصل ، لأنه إذا كان على هذه الصفة كان السكف أملك له وأقوى على إدارته ،
وكان ذلك أسرع لحركته ودورانه .

وفي القاموس أن « الخذروف » — على وزن عصفور — شيء يدوره الصبي
بخيط ، في يديه فيسمع له دوى . وفي اللسان « الخذروف » عود مشقوق
في وسطه ، يشد بخيط ويمد فيسمع له حفيف ، وهو الذى يسمى « الخرارة » . وفي
التهذيب أن « الخذروف » عود أو قصبة مشقوقة يقرض في وسطها ، ثم يشد
بخيط ، فإذا أمرت دار وسمعت له حفيفاً ، يلعب به الصبيان ، ويوصف به الفرس
لسرعته ، تقول هو يخذرف بقوامه^(١) .

ومن لعبهم « القالين » جمع قلة ، وهى خشبة يلعب بها الصبيان ، يدبرونها
ثم يضربون بها ، ويقال فى جمعها « قلات » أيضاً ؛ قال عمرو بن كلثوم :
وما منع الظعائن مثل ضرب ترى منه السواعد كالأقلينا (٩٠)
ومن ألعابهم « المفايلة » ، قال طرفة في وصف السفينة :

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم التراب المفايل باليد
والمفايلة لعبة لفتيان الأعراب ، يخيمون الشيء فى التراب ، ثم يقسمونه ،
فإذا أخطأ المخطئ قيل له : قال رأيك ! وقال صاحب اللسان : المفايلة ، والقيال :
لعبة للصبيان ، وقيل لعبة لفتيان الأعراب بالتراب ، يخيمون الشيء فى التراب ،

ثم يسمونه قسمين ، ثم يقول الخبائي لصاحبه : في أى القسمين هو ؟ فإذا أخطأ قال له : قال رأيك !

قال الليث : يقال : فيال وفيال ، فن فتح الفاء جعله اسما ، ومن كسرهما جعله مصدرا .

وقال غيره : يقال لهذه اللعبة « الطبن » و « السدر » . وأنشد ابن الأعرابي * يبتن يلمبن حوالى الطبن *

قال ابن برى : والفئال من الفأل بالظفر ، ومن لم يهمز جعله من قال رأيه ، إذا لم يظفر .

(٥) خضاب الرأس :

وفي معلة امرىء إشارة إلى أن بعضهم كان يخفض شعره بالحناء ، ليخفى شبيهه ويظهر بمظهر الشباب والفتوة . وفي ذلك يقول امرؤ القيس في وصف فرسه :
 كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حنّاء بشيب^(١) مرجل (٦٧)
 يصف فرسه ، فيقول : كأن دماء الوحوش على عنق هذا الفرس ما بقى من الحناء على الشعر الأشيب ، يريد أن دماء الصيد على نحره قد جفت وتراكت لكثرتها ، وذلك كناية عن كونه كثير السعى في طلب الصيد ، وأنه لا يفوته منها هارب . قالوا : وليس في تقييد الشيب بكونه مرجلا فائدة ، وإنما ذكره لإقامة الوزن والقافية .

وهكذا استطاعت المعلمات أن تنهض بتصوير المجتمع العربى فى الجاهلية فى شتى مناحيه ، وأكثر جهاته ، ولعل فيها من صور المجتمع ما لم نذكره لكثرتة أو لإيثارنا وضعه فى موضعه من الفصل التالى :

(١) الهاديات التقدمة من الوحش ، والنحل الموضع الذى ينحرفه ، أى يذبح ، وهو من الإنسان عمل الفلاة من العنق ، والمصاراة ما سال من الصر ، وما بقى من النمل أيضا .

الفصل الرابع

الفن الشعري في المعلقة

في استطاعتنا أن نعد شعر المعلقة هو الصورة الكاملة التي انتهت إليها تجارب الفن الشعري عند عرب الجاهلية ، بما اكتمل له من خصائص ذلك الفن كما تصوّره أولئك الشعراء في ذلك الزمن البعيد ، بعد جهود متتابعة بذلها الشعراء في الوصول بذلك الفن إلى درجة النضج والكمال .

ويبدو أن ذلك التصوّر الذي بدت صورته في شعر المعلقة كان هو التصوّر الصحيح لحقيقة الفن الشعري ، والدليل على ذلك أن تلك التقاليد التي أرسى قواعدها أولئك الشعراء كانت هي التقاليد التي سار عليها الشعر العربي في سائر العصور ، ولم يستطع الخروج عليها ، إذا استثنينا بعض الصفات العرضية التي كانت تملئها الفروق الفردية بين شاعر وشاعر ، وملابسات الظروف وعوامل البيئة ، واختلاف التجارب التي كان الشعراء يعبرون عنها في تلك العصور ، وإذا استثنينا بعض محاولات للتجديد لم تستطع أن تبعد عن تلك التقاليد ، ولم يكن لها من الأسباب ما يمكنها من الرسوخ الذي يتيح لها أن تتخذ صورة التقاليد الجديدة التي تبنى على أنقاض التقاليد القديمة التي أرسى قواعدها شعراء الجاهلية ، وبرزت صورتها الكاملة في شعر المعلقة .

وإذا كان شعراء العرب في مختلف العصور قد نظروا إلى تلك القصائد نظرهم إلى المثال الذي يحتذونه وينسجون على منواله ، فإن النقد أيضاً كانوا ينظرون إليها تلك النظرة ، ويتخذون منها نماذج للإجادة وللإتقان الفني ، وقيسون بها ما يمرض عليهم من آثار الشعراء ، ويؤلفون كتبهم في النقد على ضوء تلك

الخصائص التي فطنوا إليها في ذلك الشعر القديم ؛ لأن الدراسة النقدية ينبغي أن تبدأ من نقطة ثابتة ، وتلك النقطة الثابتة هي مجموعة التقاليد الموروثة عن رواد الأدب القدماء الذين اعترف لهم الناس بالسبق والإجادة .

وقد فسر بعض النقاد ذلك بأن المصادر الرئيسية التي يستقى منها النقد ثلاثة ، هي : فكرة الطبيعة ، وفكرة آثار السلف ، وفكرة العقل . ولا بد من الرجوع إلى هذه الثلاثة جميعاً .

ولكن ليس معنى هذا أن الأديب مطالب بأن يكون موزعاً بين هذه الثلاثة ، لأن سلطان كل من هذه المراجع مثبت لسلطان الآخرين . فالواجب أولاً أن تتبع الطبيعة ، ولكن لكي يتسنى ذلك لابد من دراسة آثار القدماء ، لأن القدماء كانوا على وفاق مع الطبيعة ، وليس هناك خلاف بين الطبيعة وبين الشعر القديم ، ودراسة شعر القدماء معناها دراسة الفن الذي ينطبق دائماً على العقل ، فإن الدرس الذي نتعلمه من القدماء هو أن الشعر يجب أن يخضع للقواعد التي عليها العقل ، فإن الطبيعة نفسها هي عين العقل ، وإذا خيل لنا أن الطبيعة تجري على غير سنن العقل فإن إدراكنا هو الذي ضل عن طريق الصواب .

والشعراء الأول قد صوروا عالماً منطوياً على العقل ، لأنهم كانوا يعرفون حقيقة الطبيعة . وقواعد الصناعة التي كانوا خاضعين لها لم تسكن مما يعلى على الطبيعة ، بل كانت مما يستمد من الطبيعة ، فهي قواعد استكشفت ولم تخترع ، وقوانين كانت الطبيعة هي التي أملتها ، فهي لا تنطوي إلا على حقائق طبيعية ، لأنها مطابقة للعقل^(١) .

وكذلك خلف الشعراء مجموعة من التقاليد منها ما يتصل بالأصول ، ونعني بالأصول تلك التي لا يسمى الكلام شعراً بدونها . فما يعتبر أصلاً موسيقى

(١) قواعد النقد الأدبي ، لاسل ابركرمي ١٦٤ .

الشعر التي تعرف بالأوزان ، وتلك الحروف التي ينتهي بها البيت الأول من القصيدة ، وتكرر في الموضع نفسه في سائر أبياتها ، والتي تسمى « القافية » . وهناك فروع تشترك في الشعر وغيره ، وإن كانت لها خصائص تختلف عنها في غيره^(١) .

وقد أطلق النقاد والعلماء على مجموع تلك التقاليد اسم « عمود الشعر » وعدوها علامة الطبع ، ومدحوا بإصابتها ، وعابوا بالخروج عليها . وقد أحصى المرزوقي تلك الخصائص التي سميت « عمود الشعر » سبعاً ، وهي :

(١) شرف المعنى وصحته .

(٢) جزالة اللفظ واستقامته .

(٣) الإصابة في الوصف .

ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات .
(٤) المقاربة في التشبيه .

(٥) التحام أجزاء النظم والنثامها على تحيّر من لذيذ الوزن .

(٦) مناسبة المستعار منه للمستعار له .

(٧) مشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية ، حتى لا منافرة بينهما .
فهذه سبعة أبواب هي « عمود الشعر » ولكل باب منها معيار^(٢) .

وقد ذكر تلك الخصائص صاحب كتاب « البرهان في وجوه البيان » بما يقرب مما ذكره المرزوقي ، في قوله : والذي يسمى به الشعر قائماً ، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسنات رانماً ، صحة للمقابلة ، وحسن النظم ، وجزالة اللفظ ،

(١) انظر كتابنا (مقدمة بن جعفر والنقد الأدبي) صفحة ٣٧٤ من الطبعة الثانية .

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٩ .

واعتدال الوزن ، وإصابة التشبيه ، وجودة التفصيل ، وقلة التكلف ، والمشاكلة في المطابقة . وأضداد هذا كله معيبة تمنعها الآذان ، وتخرج عن وصف البيان^(١) .

وتلك الخصائص إنما مأخذها الشعر القديم التي تعد « المعلقات » صورته المثلى كما أسلفنا . ولذلك اجتهد الشعراء في مراعاتها ، واجتهد النقاد في البحث عنها إذا ما أرادوا الحكم على ما يعرض لهم من آثار الشعراء الذين جاءوا بعد الشعراء الأول . على أن هذه الخصائص لم تجتمع كلها لشاعر واحد من شعراء المعلقات ، وإنما أخذت من مجموع شعرهم كله ، وفي بعض شعر المعلقات ما يتعارض هو وبعض هذه الأصول في ناحية من نواحيه ، وعدّ ذلك عيباً من عيوب الشعر ، وإنما فطن لهذا العيب بمعارضته بمثله من شعر المعلقات الذي خلا من ذلك العيب .

ومن ناحية أخرى ليست هذه الخصائص السبع هي كل ما في الفن الشعري من المحاسن وليست هي وحدها مظاهر الفنية في ذلك الفن الجميل ، بل إن إلى جانبها خصائص أخرى ، وفي المعلقات كثير من هذه الخصائص .

ولابد من تنظيم لدراسة الفنية في شعر المعلقات ، ولذلك نحاول البحث عن معالم تلك الفنية في النواحي الآتية :

(١) ناحية أغراض المعلقات وفنونها .

(٢) ناحية ألفاظها وأساليبها .

(٣) ناحية أوزانها وقوافيها .

(٤) ناحية معانيها وأخيلتها .

(١) كتاب البرهان في وجوه البيان ، المطبوع خطأ باسم « نقد النثر » ٨٤ .

١ - أغراض المعلقة وفنونها

وقد ذكرنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة أغراض كل معلقة من المعلقة السبع على حدة ، وتبعنا أبيات كل معلقة ، وما عبّرت عنه من أغراض الشعر ، ويعيننا هنا أن نجتمع تلك الأغراض ، ونوحد بينها ، وننظر إلى كل غرض منها ونتبعه في جميع المعلقة .

وقبل ذلك نشير إلى اختلاف الأدباء والعلماء والنقاد في أبواب الشعر العربي . ونقل ابن رشيق عن بعض العلماء قولهم : بنى الشعر على أربعة أركان ، وهى : المدح ، والهجاء ، والنسيب ، والرثاء .

وقالوا : قواعد الشعر أربع : الرغبة ، والرغبة ، والطرب ، والغضب . فع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرغبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجه .

وقال على بن عيسى الرماني : أكثر ما تجرى عليه أغراض الشعر خمسة : النسيب ، والمدح ، والهجاء ، والفخر ، والوصف - ويدخل التشبيه والاستعارة في باب الوصف .

وقال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سمية : أتقول الشعر اليوم ؟ فقال : والله ما أطرب ولا أغضب ولا أشرب ولا أرغب ، وإنما يحى الشعر عند إحداهن .

وقال عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي : يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح ، والهجاء ، والحكمة ، واللهو . ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون : فيكون في المديح المرائي والافتخار والشكر ، ثم يكون من الهجاء الذم والعتاب

والاستبطاء ، ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرب وصفة الخمر والخمور .

وقال قوم : الشعر كله نوعان : مدح ، وهجاء .

فإلى المدح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب ، وما تعلق بذلك من محمود الوصف كصفات المحول والآثار والتشبيهات الحسان ، وكذلك تحسين الأخلاق كالأمثال والحكم والمواعظ والزهد في الدنيا والقناعة .

والهجاء ضد ذلك كله . غير أن العتاب حال بين حالين ، فهو طرف لكل واحد منهما ؛ وكذلك الإغراء ليس بمدح ولا هجاء^(١) .

وقد بَوَّبَ أبو تمام الأشعار التي اختارها في ديوان الحماسة في عشرة أبواب هي (١) باب الحماسة (٢) باب المرائي (٣) باب الأدب (٤) باب النسيب (٥) باب الهجاء (٦) باب المدح (٧) باب الصفات (٨) باب السير والنماس (٩) باب الملح (١٠) باب ذم النساء . وأهم هذه الأبواب هي الأبواب السبعة التي ذكرها أولاً ، أما الأبواب الثلاثة الأخيرة فإنها تدخل في الأبواب السبعة السابقة .

أما الأوروبيون فإن الشعر عندهم ثلاثة أبواب :

(١) الشعر الغنائي أو الوجداني « Lyric » .

(٢) الشعر القصصي أو شعر الملاحم « Epic » .

(٣) الشعر التمثيلي أو المسرحي « Dramatic » .

والأول تعبير الشاعر عن نفسه ، ووصف أحاسيسه وعواطفه وانفعالاته .

والثاني يصور أحدنا من عصور تاريخية ، ويشرح ما يسود هذه العصور من

آراء وأفكار ومعتقدات . والثالث شعر يضعونه في قصص خيالية أو واقعية تهدف إلى المغلة ، وتوجيه الجماهير الوجهة النافعة لأنفسهم وأوطانهم ، وهذا الشعر يعتمد على الحوار والحركة ويصحبهما الغناء .

ولم نجد في الشعر العربي القديم شيئاً يدل على معرفة العرب بالشعر التمثيلي، أما الشعر القصصى على هذا الوصف الذى وصفوه به فإن له آثاراً في شعر المعلقات . وقد سبق أن فصلنا القول فيما اشتملت عليه معلقات زهير بن أبى سلمى وعنترة ابن شداد ، وعمر بن كلثوم والحارث بن حلزة من إشارات تاريخية إلى الأحداث والوقائع التى كانت بين القبائل العربية في العصر الجاهلى . وقد تناول زهير وعنترة بعض تلك الأحداث التى وقعت بين قبيلتي عبس وذبيان ، كما تناول عمرو ابن كلثوم والحارث بن حلزة بعض الأحداث التى كانت بين بنى بكر وبنى تغلب . وفي هذه القصائد وصف للصراع القبلى والمنافسة على الجدد والغلبة بين العشائر والجماعات ، وفيها حديث عن بعض الأبطال الذين أبلوا في تلك الوقائع من إسراع إلى الحرب والفتنة ، أو من سعى إلى الصلح ، وكف الناس عن القتال . كما ذكر في أثناء ذلك شىء من عاداتهم في الحرب وتقاليدهم ، وقد مضى تفصيل تلك الأحداث ، وما أبلى فيها أبطال العرب من ضروب البسالة والنجدة والبذل والتضحية .

على أن ذلك الذى تضمنته المعلقات من هذا القبيل لا يطابق مفهوم الشعر القصصى عندهم كل المطابقة كما هو في منظومات هو ميروس ؛ فإن ذكر الأبطال كان ينتج عندهم حياة البطل ، ويصف الأعمال الحميدة التى استطاع القيام بها في تفصيل وإسهاب ، وقد حيكت حول أوائك الأبطال قصص خيالية وخرافات أصبحت عقائد للناس في تلك العصور التى صورها الشعر القصصى ؛ وليس شىء من ذلك في المعلقات ، أو في الشعر العربى كله ، أو فيما حفظه الزمن واستطاع أن يصل إلينا فى الأقل . . .

ويبقى بعد ذلك أن أكثر الشعر العربي إنما هو من الشعر الوجداني في تقسيم الأوربيين ، وأن هذا الشعر موزع بين الأغراض التي ذكرها علماء الأدب العربي ونقاد الشعر . وكذلك توزع شعر المعلقات بين هذه الأبواب والأغراض والفنون ، كما سنوضح ذلك في الصفحات التالية .

(١) باب الوصف :

ولعل هذا الفرض كان أهم الأغراض التي عالجتها المعلقات ، ولم تخل منه معلقة منها ، بل إن المعلقة الواحدة تشتمل على كثير من الأوصاف لموصوفات متعددة مما وقع تحت حسّ الشعراء من مشاهد الطبيعة وصور الحياة المختلفة ، فقد وصفوا أرضهم وما فيها من الزرع والنبات والمياه ، وما على ظهرها من الوهاد والمضاب والجبال ، وما يدب عليها من صنوف الحيوان . كما وصفوا السماء وما يزينها من نجوم وكواكب ، وما يحجبها من سحب ، وما يسقط منها من غيث ، وما يلتصع فيها من برق ، كما وصفوا الليل والنهار ، ووصفوا أنفسهم في تصرف أحوالها ، وفي رضاها وسخطها .

فما جاء في المعلقات من صفات الحيوان قول امرئ القيس في وصف فرسه :

وقد اغتدى والطير في وُكُنَاتِهَا بمنجردٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ
مَكْرَرٌ مِقْرَرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عِلِ
كُمَيْتٍ بَزِلُ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُنْتَزِلِ^(١)
على الذبل جِيَّاشٌ كَأَنَّ اهْتِزَامِهِ إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمِيهِ غَلَى مِرْجَلِ^(٢)

(١) السكيت الذي في لونه كته ، وهي حرة مشوبة بسواد . حال متن الفرس وسط ظهره . الصفواء الحجر الصلب . المنترل المطر .

(٢) الذبل الذبول والمراد به هنا الضمور . جيَّاش مبالغة جاش من جاش الوادي إذا فخر ، وجاش البحر إذا اضطربت أمواجه . الاهترام صوت جرى الفرس .

مَسَحَ إِذَا مَا السَّابِغَاتُ عَلَى الْوَتَى أَزْنَنَ الْعُبَارَ بِالسَّكْدِيدِ الْمُرْكَلِ^(١)
يَزُلُّ الْعَلَامُ الْخِيفُ عَنْ صَهَوَاتِهِ وَيُلْوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ
دَرِيرٌ كَحْدَرُوفِ الْوَلِيدِ أُمْرُهُ تَقَابِعُ كَفَيْهِ بِخَيْطِ مُوَصَّلِ
لَهُ أَبْطَلَا ظَلَمِيٍّ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءَهُ سُرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَنْفُلِ^(٢)
ضَالِيعٌ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدٌّ فَرْجُهُ بِضَافٍ فُوقَ الْأَرْضِ لَيْسَ بِالْأَعْزَلِ^(٣)
كَأَنَّ عَلَى الْمُتَتِينَ مِنْهُ إِذَا انْتَحَى مَدَاكَ عُرُوسٍ أَوْ صَلَايَةَ حَنْظَلِ^(٤)
كَأَنَّ دِمَاءَ الْمَهَادِيَاتِ بَنَحَرِهِ عَصَارَةُ حَفَاءِ بِشَيْبِ مُرْجَلِ^(٥)
فَعَادَى عِدَاءَ بَيْنِ ثَوْرٍ وَنَعْمَةٍ دَرَاكَاءَ فَلَمْ يَنْضَحُ بِمَاءٍ فِيهِ سَلِ
وَرُحْنًا يَكَادُ الطَّرْفُ يَقْصُرُ دُونَهُ مَقَى مَا تَرَقَّى الْعَيْنُ فِيهِ تَسْفُلِ
فَبَاتَ عَلَيْهِ سَرَجُهُ وَجِلَامُهُ وَبَاتَ بَعِينِي قَائِمًا غَيْرَ مُرْسَلِ

فقد وصفه في هذه الأبيات وصفا مستقصيا ، ذكر فيه صلابته جسمه
وسرعته ، وقدرته على السكر والفر والاقدام والإحجام ، على حسب ما يهوى
را كبه ، ووازن بينه وبين غيره ، ووصف أجزاء جسمه ، وما يفعل برا كبه إذا

(١) المسح السحاح ، يقال : مسح الماء وغيره صبه ، ودرس سحاح كأنه يصب الجرى صبا
السابحات الخيل تعدو فتمد أعناقها تستعين بذلك على العدو كالذي يسبح في الماء . الوتى الكلال
والإعياء . السكديد الأرض المكدودة بمخافر الخيل . المركل الذي كد بمخافر الدواب من
الركل وهو الضرب .

(٢) أبطلا الظبي خاضراته . الإرخاء ضرب من العدو : التفل ولد الثعلب .

(٣) الضليع الفرس التام الخلق . الأعزل من الخيل الذي يقع ذنبه في جانب ، وذلك
عادة لاختلقة وهو عيب ، ولذلك نفاه عنه .

(٤) انتحى اعتمد على أحد شقيه . المداك حجر يسحق عليه الطبيب . الصلاة الحجر .

(٥) المهاديات المتدمات من الوحش .

كان خفيفاً وإذا كان ثقيلاً ، وبالغ في ذلك بما شاء .

وجمل طرفه من أمانيه الثلاث ركوب فرس هذه صفاته في قوله :

وكررى إذا نادى المضافُ مُحَنَّبًا كسيدِ الفضا نَبَهْتُهُ المتورِّدُ^(١)

وقال ليبد بصف فرسه التى يحمى بها حيَّه وعشيرته :

ولقد حميتُ الحىَّ تحملُ شِكَّتِي فُرُطٌ وشاحى إذ غَدَوْتُ لجامُها^(٢)

فلوتُ مرتقبًا على ذى هَبَوفٍ حَرَجَ إلى أعلامهنَّ قَتَامُها^(٣)

حتى إذا أَلَقْتُ يداً فى كافرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ النُّغُورِ ظَلَامُها^(٤)

أَسْهَاتُ وانتصبتُ كجذعٍ منيفةٍ جرداءٍ بِمَحْصَرٍ دُونَهَا جُرَامُها^(٥)

رَفَعْتُها طَرَدَ النِّعَامِ وَشَلَّهٗ حَتَّى إِذَا سَخَنْتُ وَخَفَّ عَظَامُها^(٦)

قلقتُ رحالتها وأَسْبَلَ نَحْرُها وَابْتَلَّ من زَبَدِ الحِمِيمِ حِزَامُها^(٧)

تَرَفَّى وتَطْمَنُ فى العِنَانِ وتَلْتَحِى وَرَدَ الحَامَةِ إِذْ أَجَدَّ سَحَامُها^(٨)

(١) الحنب الذى فى يده انحناء . السيد الذئب . الفضا شجر ، وذئاب الفضا أشد ما تكون ضراوة ، ولذلك يضرب بها المثل ، فيقال أخرى من ذئب الفضا . المتورد الوارد على الماء .

(٢) الشكة السلاح . فرط فرس متقدمة سابقة . الوشاح فوطه تجعل على العاتق .
(٣) المرتقب بالفتح المسكان وبالسكسر الذى يرقب أصحابه ويحهمهم . الهبة الغبرة وذو الهبة الجبل أو الأرض الغبرة . الحرج الملتصق الثابت . القتام الغبار .

(٤) الضمير فى أَلَقْتُ للشمس . الكافر الليل . أبجن ستر .

(٥) أسهات أتيت السهل . منيفة طويلة مشرفة . الجرداء النخلة التى يجردها ويغها بمحصر يضيق . الجرام الذين يقطعون ماعلى النخلة من التمر .

(٦) الطرد المحضر الشديد . سَخَنْتُ عَرَفْتُ .

(٧) قلقت اضطربت . أسبل سال . الحميم العرق ، وفى غير هذا الموضع الماء الحار .

(٨) ترفى تصعد . تطمن فى العنان تعتمد فيه . الورد الورد .

وقال عمرو بن كلثوم :

وَنَحْمَلُنَا غِدَاةَ الرُّوْعِ جُرُودٌ عُرِفْنَ لَنَا نَقَائِدَ وَافْتُلَيْنَا^(١)
وَرَدْنًا دَوَارِعًا وَخَرَجْنَا شُعْمًا كَأَمْثَالِ الرِّصَانِ قَدْ بَلَيْنَا^(٢)
وَرَثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءٍ صَادِقٍ وَنُورُهَا إِذَا مُتْنَا بَنِينَا
ووصف عنزة فرسه في أكثر من موضع في قوله موازنا بين حاله وحال
صاحبه :

نَمْسَى وَتَصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ وَأَيْتُ فَوْقَ سَرَاةٍ أَدْمَمَ مُلْجَمٌ
وَحَشِيَّتِي مَرْجٌ عَلَى عِبْلِ الشَّوَى نَهْدٌ مَرَاكِلهُ نَبِيلِ الْمُخْزَمِ^(٣)
ويصفه في مواقف القتال بقوله :

إِذَا لَا أَزَالَ عَلَى رِحَالِهِ سَابِجٌ نَهْدٌ تَعَاوَرَهُ السَّكَمَةُ مُكَلَّمٌ^(٤)
طَوْرًا يَجْرُدُ لِلطَّمَانِ وَتَارَةً يَأْوِي إِلَى حَصِيدِ النَّبِيِّ عَرَمَرَمٌ^(٥)

وقوله :

يَدْعُونَ عَنَتَهُ وَالرَّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بُرٍّ فِي لَبَانِ الْأَدَمِ^(٦)

(١) النقائد جمع نقيدة أى استنفذت من قوم آخرين . اثنتين اصطفيين واثنتين .

(٢) الدارع الذى عليه الدرع ، ودروع الخيل ما يجعل عليها من السكباء . الرصائع جمع رصيعة عقدة العنان على قذال الفرس .

(٣) العبل الضخم . الشوى الأطراف والقوام . النهدي العالى للشرف . المراكل جمع مركل موضع الركل وهو الضرب بالرجل . النبيل السمين . المخزم موضع الخزام من جسم الدابة .

(٤) تعاوره السكامة ضربه واحد بعد واحد ،

(٥) حصد القصى جيش كثير القسى . المرمرم الكثير .

(٦) الأشطان جمع شطن وهو جبل البئر . اللبان الصدر .

مازلتُ أرميهم بِشُفْرِ نَحْمَرِهِ وَلَبَّائِهِ حَتَّى تَسْرِبِلَ بِالْأَمْرِ
فَازُورٌ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بَلْبَائِهِ وَشَكَا إِلَى بَعْبَرَةٍ وَنَحْمَرٍ^(١)
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْحَاوِرَةُ اشْتَكَى وَلَسَكَانٌ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلِّى

أما الناقة فقد شغل وصفها جزءاً ظاهراً من معلقة طرفة ، وذلك فى قوله :

وَإِنِّ لَأَمْضَى الْمَتِّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِمَوْجَاءِ مِرْ قَالِ تَرَوْحُ وَتَقْتَدِى^(٢)
أُمُونٍ كَأَلْوَاخِ الْإِرَانِ نَصَائِهَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهَرُ بُرْجِدٍ^(٣)
جَالِيَّةٍ وَجَنَاءِ تَرْدِى كَأَنَّهَا سَفَفَجَةٌ تَبْرِى لِأَزْعَرَ أَرْبِدٍ^(٤)
تُبَارِى عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتَبْتُ وَظُفِيًا وَظُفِيًا فَوْقَ مَوْرِ مُعْبِدٍ^(٥)
تَرَبُّعَتِ الْقُتَيْنِ فِي الشُّوْلِ تَرْنَى حَدَائِقِ مَوَالِي الْأَمِيرَةِ أُنَيْدٍ^(٦)

(١) ازورمال . المحممة صوت الفرس كأنه الشكوى .

(٢) أمضى أفقد . الهم العزم والإرادة . احتضاره حضوره . الموجاء . الناقة الضامر .
مرقال من الإرقال وهو ضرب من المشى بين السير والعدو .

(٣) أمون مأمون عثاها . الإران تابوت الموتى كانوا يحملون فيه ساداتهم وكبراءهم .
نصائها زجرتها . اللاحب الطريق المنقاد لآخزونة فيه . البرجد كساء مخطط .

(٤) جالية تشبه الجبل فى قوة أعضائها ووثاقة خلقها . الوجناء العظيمة الوجنات . تردى
ترجم الأرض بحوافرها أو تسير بين العدو والمشى . تبرى تعرض . السفنجة النعامة . الأزعر
ذكر النعام . الأربد الذى لونه كاللون التراب .

(٥) ناجيات جم ناجية وهى السريعة فى سيرها . العتاق السكرام . الوظيف ما بين الرسغ
إلى الركبة . المور المستوى لأنه يمار عليه أى يتحرك ذهاباً وإياباً .

(٦) تربعت أقامت . القفان ثنية قف وهو ما غلظ من الأرض وارتفع فلم يبلغ أن
يكون جبلاً ، والقف وادمن أودية المدينة . الشول جمع شائلة وهى التى قل لبنها وتقلص
ضرعها . المولى الذى أصابه الولى وهو المطر الثانى من أمطار السنة ، لأنه يلى الوسمى وهو المطر
الأول . الأسرة جمع سراًفضل عمل فى الوادى . الأغيد فى الأصل الوسنان المائل العنى ، وللراد
به هنا لبن الخلق .

- تَرْيَعُ إِلَى صَوْتِ الْمُهَيْبِ وَتَتَّقِي بَذَى خُصَلِ رَوْعَاتِ أَكْلَفِ مُلْبَدٍ ^(١)
 كَانَ جَنَاحِي مَضْرَحِيَّ تَكْنُفَا حِفَاقِيهِ شَكَا فِي الْعَسِيبِ يَمْنَرِدٍ ^(٢)
 فَطَوْرًا بِهِ خَافَ الزُّمَيْلِ وَتَارَةً عَلَى حَشَفِ كَالْشَّنِّ ذَاوِرٍ مَجْدِدٍ ^(٣)
 لَهَا فِخْذَانِ أَكَلَ النَّحْضُ فِيهِمَا كَأَنَّهُمَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدٍ ^(٤)
 وَطَى مَحَالٍ كَالْحِنِيِّ خُلُوفُهُ وَأَجْرَنُهُ لَزَتْ بِدَائِي مَنَصَّدٍ ^(٥)
 كَانَ كِنَامَتِي ضَالَّةً يَكْنُفَانِهَا وَأَطْرَقَتِي نَحْتِ صَلَبٍ مُؤَيَّدٍ ^(٦)
 لَهَا مِرْفَقَانِ أَفْتَلَانِ كَأَنَّهُمَا تَمَرٌ بِسَلَمَتِي دَالِجٍ مَتَشَدَّدٍ ^(٧)
 كَفَنَطَرَةُ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رُبُّهَا لَتَكْتَنِفَنِي حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدٍ ^(٨)

(١) تريع ترجع . المهيب الداعي . ذو خصل الذنب . روعات فزعات . الأكلف من الجبال ما كانت حرته شديدة يشوبها سواد . الملبد الذي يضرب بذنبه من الهياج حتى تلبد بوله عليه .

(٢) المضرحى النسر المتيق أو الصقر الطويل الجناح . شكا غرزا . العسيب الذنب . المسرد ما يخرز به .

(٣) الزميل الرديف . الحشف الضرع البالي . الشن القربة الخلق . الذاوئى الذابل . المجدد المقطع أى الذى انقطع لبنه .

(٤) النحض اللحم المكتنز . المنيف العالى . مرمد مماس مصقول أو مطول .

(٥) الطى البئر المظوية أى المبنية . المحال فقار الظهر . الخلوف مآخيز الأضلاع واحدها خلف الأجرنة مقدم أعناق الإبل . لزت ألصقت الرأى من البعير الموضع الذى تقع عليه ظلفة الرجل فتعقره .

(٦) الكناس البيت الذى يتخذة الوحش فى أصل شجرة . الضالة شجرة الدر النهرى الأطر العطف . مؤيد مقوى .

(٧) المرفق موصل الذراع من العضد . أفتلان متباعدان عن جنبيها . العلم الدلو لها عروة واحدة . الدالج الذى عشى بالدلو من رأس البئر إلى الخوض حتى يفرغها فيه . المتشدد الشديد القوى .

(٨) لتكتنفن ليحاطن بها . القرمذ ضرب من الحجارة يوقد عليها حتى إذا فضع قرمذ به أى طلى ، وهو الذى يعرف بالجير أو الكلس ؛ أو هو الأجر .

صهاية العُثْنُونِ مَوْجَدَةٌ الْقَرَا بعيدةٌ وخذ الرجل مَوَّارَةً الْيَدِ^(١)
أَمَرْتُ يَدَاهَا فَتَلَّ شَرْزُرَ وَأَجْنَحْتُ لها عضداها في سَقِيفٍ مُسْنَدٍ^(٢)
جَنُوحٌ دَفَاقٌ عِنْدَلٌ نَمُ أَفْرِعَتْ لها كَتِفَاهَا فِي مَعَالَى مَصْعَدٍ^(٣)
كَأَنَّ عُلُوبَ النَّسَمِ فِي دَائِيَّتِهَا مواردُ مَنْ خَلَقْنَا فِي ظَهْرِ قَرْدَدٍ^(٤)
تَلَقَّيْ وَأَحْيَانًا تَبِينُ كَأَنَّهَا بذائقُ غَرٍّ فِي قَيْصٍ مُقَدَّدٍ^(٥)
وَأَتْلَعُ نَهَاضٌ إِذَا صَعِدَتْ بِهِ كَسَكَّانِ بَوْصَى بِدَجَلَةٍ مُضْعَدٍ^(٦)
وَجِجْمَةٌ مِثْلَ الْعَلَاةِ كَأَنَّمَا وَعَى الْمَلْتَقَى مِنْهَا إِلَى حَرْفٍ مَبْرَدٍ^(٧)
وَحَدَّ كَقِرطَاسِ الشَّامِيِّ وَمَشْفَرٍّ كَسَبَتْ الْهَيْمَانِي قَدَّهُ لَمْ يُجَرِّدِ^(٨)
وَهَيْمَانٌ كَالْمَاوِيَّيْنِ اسْتَكْنَتَا

بِكَمْفٍ حُجَّاجِي صَخْرَةٍ قَلْتُ مَوْرِدٍ^(٩)

(١) صهاية في ألونها صبهة . العثنون شعيرات طوال تحت حنك البعير . موجدة قوية القرا الظهر . مواردة كثيرة المور وهو الحركة .

(٢) أمرت يداها أي فتلتا فتلا محكما ، والقتل الشزر ما كان إلى فوق ، خلاف دور المنزل الإجناح الإمالة : السند الذي أئسد بعضه إلى بعض :

(٣) جنوح تعتمد على أحد شقيها . دفاق أي تدفق في سيرها . العندل الضخمة الرأس أفرعت أشرفت ورفعت . معالي مصعد أي جسم مرفوع بعيد عن الأرض .

(٤) العلوب الأنار جمع علب النزع السرينسج عريضا ليكون على صدر البعير . الدأيات خرزات مقدم الظهر . الموارد طريق الورد إلى الماء : الخلقاء الصخرة التي ليس فيها وهم ولا كسر . القردد الأرض المستوية الصلبة .

(٥) البنائقي جمع بنية لبنة القميص أو جربانه .

(٦) الأتلع العنق الطويل . النهاض كثير النهوض . البوصى ضرب من السفن . مصعد سائر

(٧) العلاة السندان . وعى انضم واجتمع .

(٨) المشفر للبعير كالشفة للإنسان . السبت جلد البقر إذا دبغ بالقرظ . لم يجرد أي من شعره

(٩) الماويتان ثنية ماوية وهي المراكاة : الحجاج العظيم الذي ينبت عليه الحاجب . القلت النقرة تكون في الصخرة .

طحورانَ عُوَارَ القذى فتراها ككحولتي مذعورة أمَ فرَقْدِ^(١)
 وصادقنا سمع التوجس للسرى لهجيس خفي^٢ أو لصوت مندَدِ^(٢)
 مؤللتانِ تعرف العتق فيهما كسامَتَي شاةٍ بحوملَ مفردِ^(٣)
 وأزوعُ نباضٍ أَحَدُ مللم كرداة صخر في صفيح مصدِ^(٤)
 وأعلمُ مخروت من الأنف مارنُ عتيقٌ متى ترجمُ به الأرضُ تزدِ^(٥)
 وإن شئتَ لم تَرُقْ ولإن شئتَ أرقلتَ مخافةً ملوى من القدِّ مُحَصَدِ^(٦)
 وإن شئتَ ساميَ واسطَ الكورِ رأيتها وعامتُ بضبيعتها نجاءً انلَفِيذِ^(٧)

وفي هذا من الدقة والاستقصاء في الوصف ما لا نرى له كثيراً من الأمثلة عند
 أمهر الشعراء الوصافين ، فقد أتى على شرح أحوال الناقة في سيرها وحركاتها ،
 وفصل أجزاء جسمها ، وشبهها بتلك التشبيهات التي تضيف إلى الوصف المقصود
 أوصافاً آخر ، لا تقل عنه جودة ولا استقصاء .

ولبيد قادر على قطع من يتلاعب بهواه ، ومن يهله إذا شاء ويصرمه إذا أراد :

(١) طحوران من الطهر وهو الدفع والإبعاد . العوار والقذى واحد وهو الرمي
 الذي يكون في العين . ككحولتي مذعورة بقرة وحشية أربعت . الفرقد ولد البقرة الوحشية .

(٢) التوجس التمع إلى الصوت الخفي . الهجس الصوت الخفي المندد العالي .

(٣) المؤال المحدد . الشاة هنا الثور الوحشي .

(٤) الأزوع الفؤاد الذكي . النباض الكثير الحركة . أحذ خفيف . مللم مجتمه الرداة
 الصخرة التي تردى بها الصخور أى تكسر بها . المصد المحكم الموثق .

(٥) أعلم أى مشعر أعلم ، والأعلم المشقوق الشفة العليا . المخروت المشقوق المارن . الان
 من قصبة الأنف . عتيق جميل . ترجم تضرب .

(٦) الإرقال بين السير والعدو . المئوى المقتول . القد سير يقدم من جلد غير مدبوغ .

(٧) الكور الرجل بأداته . عامت سبعت . بضبيعتها : بضديها . النجاء الإسراع في السير .
 الغفيدة ذكر النعام .

بطليح أسفارٍ تركن بقيةً منها فأحنق صلبها وسنامها^(١)
 وإذا تنال لحماً وتمحّصرت وتقطعت بعد الكلال خدامها^(٢)
 فلها هبابٌ في الزمام كأنها صهباء خف مع الجنوب جِهاؤها^(٣)
 ثم يأخذ في تشبيهها بحمار الوحش ، ويستطرد في وصفه ، حتى يصبح ذلك
 غرضاً آخر من أغراض معلقته ؛ إلى أن يقول :

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضجاً واجتأب أردية الشراب إكامها^(٤)
 أفضى اللبانة لا أفرط ربيبةً أو أن يلوم بحاجة لوامها
 وعنقرة يستبعد الوصول إلى ديار حبيته على مثل الناقة التي وصفها بتلك
 الأوصاف :

هل تَبْلَغَنِي درَاها شديّةً لعنت بمحروم الشراب مصرم^(٥)
 خطارة غب الشرى زيافةً تطسُ الإكام بوخذ خف ميم^(٦)

(١) الطليح : الذي أجهده السير وأهزله . أحنق : ضمير ورق .

(٢) تنال لحماً ارتفع وذهب . تمحّصرت : انكشفت عظامها . الخدام جمع خدمة سير يشد
 في رسغ البعير .

(٣) الهباب النشاط . الصهباء : سحابة في لونها صبهة أي حمرة . خف : أسرع . الجهام
 السحاب : القى لا ماء فيه .

(٤) رقص ارتفع وانخفض . اللوامع : الال . اجتأب : ليس . الإكام جمع أكمة وهي
 للسكان المرتفع .

(٥) الشدية منسوبة إلى شدن أرض باليمن . لعنت قذفت ورميت . محروم الشراب : مفرع
 لا لبن فيه . مصرم مقطوع .

(٦) خطارة من خطر البعير بذنبه إذا شال به . زيافة : من الزيف وهو التبختر . تطس
 تكسر . خف ميم : شديد الوطاء ، كأنه يُم الأرض أي يدهقها .

ثم يشبهها بالظلم ، ويستطرد في وصفه ، حتى يستأنف وصف الناقة في قوله :

شربت بماء الدُّخْرُ ضَيْنَ فأصبحتُ زوراء تنفر عن حياض الديلم^(١)
وكأنما تنأى بجانب دَفْها الـ وحشى من هَزَجِ العشيِّ مؤوم^(٢)
هر جنب كلما عطفته له غصبي اتقاها باليدين وبالفم^(٣)
أبقى لها طول السَّمار مفرمداً سداً ومثل دعائم التخييم^(٤)
بركت على جنب الرِّداع كأنما بركت على قصب أجش مهضم^(٥)
وكان رباً أو كحَيْلاً مُقعداً حش الوقود به جوانب قُقم^(٦)
ينباع من ذفرى غصوب جَسرة زبافة مثل الفتيق المكدم^(٧)
والحارث بن حلزة يستعين على همه كما استعان طرفه على همه بناقاة هذه
أوصافها :

غير أنى قد استعين على الهم (م) إذا خفت بالثوى النجاء^(٨)

-
- (١) الدحرضان : ماء ان يقال لأحدهما «دحرض» وللآخر «دسبع» فلما تناهما غلب أحدهما على الآخر . الديلم الأعداء وإن كانوا عرباً عند الأصمى ، وحياض الديلم مياه معروفة عندهم . زوراء : مائة .
- (٢) الدف الجنب . الوحشى من البهائم الجانب الأيمن ، والأنسى الجانب الأيسر . الهزج تدارك الصوت . المؤوم العظيم القبيح من الرؤوس .
- (٣) الجنب الجنوب :
- (٤) المقرم الذى لزم بعضه بعضاً كأنه مبنى بالآجر سداً عالياً .
- (٥) الرِّداع : مكان . المهضم : المكسر .
- (٦) الرب : الدبس . الكحيل القطران . المقعد الذى أوقد تحته حتى انقعد وغلظ . الوقود الحطب . حش أوقد . الققم إناه .
- (٧) ينباع ينبع . الذفران عرمان مشرفان وراء الأذنين . جسة : ضخمة . زبافة من الزيت وهو البختر . الفتيق هو الفعل . المكدم : الغليظ .
- (٨) خف : ذهب ومضى . الثوى : المقم . النجاء : الاطلاق .

بَزَفَوْفٍ كَأَنَّهَا هِفْـلَةٌ أَمَ (م) رِثَالٍ دَوِيَّةٌ سَقَفَاءُ^(١)
 آتَتْ نَبَاةً وَأَفْزَعَهَا الْفَنَاءُ (م) أَصُّ عَصْرًا وَقَدَدْنَا الْإِمَاءُ^(٢)
 فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَةِ حَ مَنِئًا كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ^(٣)
 وَطِرَاقًا مِنْ خَلْفِهِنَّ طِرَاقٌ سَاقَطَاتٌ أَلَوَتْ بِهَا الصَّحْرَاءُ^(٤)
 أُنْثِي بِهَا الْمَوَاجِرَ إِذْ كُلُّ (م) ابْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمِيَاءُ^(٥)
 وَوَصَفَ لِيَيْدِ حَمْرِ الْوَحْشِ ، وَمَا يَعْرِفُ مِنْ حَرَكَاتِهَا وَعَادَاتِهَا ، وَذَلِكَ فِي
 مَعْرِضٍ وَصَفَ نَائِتَهُ ، بَعْدَ أَنْ شَبَّهَهَا بِالسَّحَابَةِ الْجَاهِمِ الَّتِي تَصْرِفُهَا الرِّيحُ ، وَاسْتَطْرَدَّ
 إِلَى تَشْبِيهِهَا بِحَمْرِ الْوَحْشِ فِي قَوْلِهِ .
 أَوْ مُلَمَعٌ وَصَفَتْ لِأَحْقَبَ لَاحَهُ طَرْدُ الْفَحُولِ وَضَرْبُهَا وَكَدَامُهَا^(٦)
 يَمْلُو بِهَا حَذَبَ الْإِكَامِ مُسَحَّجٌ قَدْ رَابَهُ عَصِيَانُهَا وَوَحَامُهَا^(٧)
 بِأَحْزَةِ الثَّلَبُوتِ يَرْبَأُ فَوْقَهَا قَفَرَ الْمُرَاقِبِ خَوْفُهَا آرَامُهَا^(٨)
 حَتَّى إِذَا سَلَخْنَا مُجَادَى سَتَةً جَزَاءً فَطَالَ صَيَامُهُ وَصِيَامُهَا^(٩)

- (١) اَرْدَوُفُ النَّافَةِ السَّرِيمَةِ الْخَفِيفَةِ . الْحَقْلَةُ : النَّمَامَةُ . الرِّثَالُ : فِرَاقُ النِّعَامِ . دَوِيَّةٌ : مَنَسُوبَةٌ
 إِلَى الدَّوَى ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ الْبَعِيدَةُ الْأَمْثَالُ . السَّقَفَاءُ : الَّتِي فِي رِجْلِهَا انْحِنَاءٌ .
 (٢) آتَتْ أَحْسَتْ . النَّبَاةُ : الصَّوْتُ الْخَفِيُّ .
 (٣) الْمَنِينُ النَّبَارُ الْخَفِيُّ .
 (٤) الطَّرَاقُ أَطْبَاقُ النَّمْلِ . أَلَوَتْ بِهَا أَبْلَتْهَا .
 (٥) الْمَوَاجِرُ أَنْصَافُ النَّهَارِ . الْبَلِيَّةُ النَّافَةُ الَّتِي تَعْقِلُ عَلَى قَبْرِ الْمَيِّتِ حَتَّى تَمُوتَ .
 (٦) مُلَمَعٌ مِنْ أَلَمَتْ الْقِرْسُ وَالْأَمَانُ إِذَا أَثْمَرَتْ ضَرْوَعَهَا لِاحِجْلٍ وَاسْوَدَّتْ حَلْقَتَاهَا .
 وَصَفَتْ حَمَلَتْ . الْأَحْقَبُ حَمَارُ الْوَحْشِ . لَاحَهُ غَيْرُهُ . السَّكْدَمُ الْمَعْسُ .
 (٧) حَذَبَ الْإِكَامِ مَا أَحْدَوْدَبَ مِنْهَا . الْمَسْحَجُ الْحَمَارُ الْمَعْمُضُ . الْوَحَامُ الشَّهْوَةُ .
 (٨) أَحْزَةُ جَمْعُ حَزِيرٍ الْمَسْكَنِ الْغَالِيزِ . الثَّلَبُوتُ وَادِءُ أَرْضِ بَيْنَ مَنَى وَذِيَّانَ . يَرْبَأُ
 يَرْقُبُ . الْآرَامُ أَعْلَامُ الطَّرِيقِ .
 (٩) سَلَخْنَا عَلَيْهِمَا بَرْمَتَهُ ، وَالسَّالِخُ آخِرُ الشَّهْرِ . مُجَادَى سَتَةٍ : جَادَى الْآخِرَةِ لِأَنَّهُ السَّادِسُ
 مِنْ شَهْرِ السَّنَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَجَادَى خَمْسَةٌ جَادَى الْأَوَّلَى لِأَنَّهُ الْخَامِسُ مِنْهَا ، وَقَدْ كَانَ شَهْرُ جَادَى
 يَقَعُ فِي الشِّتَاءِ وَالْبَرْدُ غَيْثُ أَطْلُقُوهُ أَرَادُوا بِهِ زَمَنَ الشِّتَاءِ ، وَإِنْ لَمْ يَقَعْ فِيهِ . جَزَاءُ أَى اجْتِزَاءُ
 بِارْتِبَابِ عَنِ الْمَاءِ .

رجبا بأمرها إلى ذى مِرَّة حَصِيدٌ وَنَجَحُ صَرِيعةٍ إِبْرَامُهَا^(١)
 وزمى دوابَّرها السَّفا وتهيجتُ رِيحُ المصايفِ سَوْمُهَا وَسَهَامُهَا^(٢)
 فتنازعا سبطاً يطيرُ ظلالُهُ كدخانٍ مشعَلَةٍ يُشَبُّ ضَرَامُهَا^(٣)
 مشمولةٌ غلَّتْ بنسابتِ عَرَفَجٍ كدخانٍ نارٍ ساطعٍ إِسْنَامُهَا^(٤)
 فضى وقدمها وكانت عادةً منه إذا هي عرَدَتْ إِقْدَامُهَا^(٥)
 فوسطا عَرْضُ السَّرِيِّ وَصَدْعَا مسجورةٍ متجاورا قَلَامُهَا^(٦)
 محفوفةٌ وَسَطُ الْبِرَاعِ يُظْلِمُهَا منه مَصْرَعُ غَابَةِ وَقِيَامُهَا^(٧)
 وفى بعض المملقات وصف لبقر الوحش التى كانوا يركبون لاصيدها ،
 ويتساقطون لإدراكها ، ويشبهون بها نساءهم : ومن وصف بقرة الوحش فى معلقة
 امرئ القيس :

فَنِّ لَنَا سَرِبٌ كَأَنَّ نَاجِيَهُ عَذَارَى دُؤَارٍ فِي مَلَاءٍ مَذْبَلٍ^(٨)
 فَأَدْبَرْنَ كَالْجَزَعِ الْفَصْلَ بَيْنَهُ بِحَيْدٍ مُعَمَّ فِي الْعَشِيرَةِ مَحْوَلٍ^(٩)

-
- (١) المرة القوّة ، أى أمر محكم . حصد عكم . الصريعة العزيمة .
 (٢) الدوابر مآخير الحوافر . السفا شوك شجر البهمى ، والسفا التراب . المصايف جمع مصيف وهو الصيف . سومها مرورها . السهام ربيع حارة .
 (٣) السبط الغبار للارتفاع .
 (٤) مشمولة هبت عليها ربيع الشمال . غلّت خلط وقودها . العرفج ثبت . إسنامها ما ارتفع منها .
 (٥) عرَدت تركت الطريق وعدلت عنه .
 (٦) العرض الناحية . السرى النهر الصغير . صدعا شققا التبت الذى على الماء . المسجورة المبنى المملوءة . القلام ثبت يكون على الأنهار .
 (٧) محفوفة محاطة . البراع القصب .
 (٨) النماج الإناث من بقر الوحش . الدوار صنم كان أهل الجاهلية إذا نأوا عن الكعبة نسبوه وطافوا حوله تشبها بالظواف حول الكعبة .
 (٩) الجزع الحرز البانى ، وهو الذى فيه بياض وسواد تشبه به العين . الفصل الذى جعل بين كل خريزتين منه لؤلؤة .

فَالْحَقْنَا بِالْمَدَائِلِ وَدُونِهِ جَوَاحِرَهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزِيلْ^(١)
 فَمَادَى عِدَاءٍ بَيْنَ نَوْرٍ وَنُجْجَةٍ دِرَاكًا وَلَمْ يَنْصَحْ بِمَاءٍ فَيَسْلِ
 وَقَالَ لِيُيَدِّ فِي وَصْفِ الْبَقْرَةِ الْوَحْشِيَّةِ فِي حَالَةِ ذَعْرِهَا ، وَوَجَدَهَا عَلَى وَلَدِهَا ،
 وَوَصَفَ الطَّبِيعَةَ وَمَا تَفْعَلُ بِهَا ، وَالصِّيَادِينَ وَخُتْلُمَهُ إِذَاهَا :

أَفْطَكَ أُمَ وَحْشِيَّةً مَسْبُوعَةً خَذَلَتْ وَهَادِيَةَ الصَّوَارِ قَوَامُهَا^(٢)
 خَنَسَاهُ ضُيْعَتِ الْفَرِيرِ فَلَمْ يَرِمْ غُرُضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبُقَامُهَا^(٣)
 لِحْفَرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوُهُ غُبْسٌ كَوَاسِبٌ لَا يُمِنُّ طَعَامُهَا^(٤)
 صَادِقُنْ مِنْهَا غَرَّةٌ فَأَصْدَبَهَا إِنَّ الْمَذَايَا لَا تَطْلِشُ سِهَامُهَا
 بَاتَتْ وَأَسْبَلَتْ وَكَفَتْ مِنْ دِيمَةٍ يُرْوَى الْخَمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَامُهَا
 يَلُوحُ طَرِيقَةٌ مِنْهَا مَتَوَاتِرٌ فِي لَيْلَةٍ كَفَرِ النُّجُومِ ظَلَامُهَا
 تَجْتَنَفُ أَضْلًا قَالِصًا مُتَنَبِّذًا بِعُجُوبِ أَنْقَاءِ يَمِيلُ هَيَامُهَا^(٥)
 وَتَصُوهُ فِي وَجْهِ الظَّلَامِ مُنِيرَةً كَجَمَانَةِ الْبَحْرِىِّ سُلَّ نِظَامُهَا^(٦)

-
- (١) الجواهر جمع جاحرة وهي للتأخرة . الصرة الضجة والصيحة . لم تزيل لم تفرق .
 (٢) الوحشية البقرة الوحشية . المسبوعة التي أكل السبع ولدها . خذلت تأخرت عن
 القطيع . مادية الصوار التي تهديه أي تقدمه . الصوار القطيع من البقر . قوامها الذي تقوم به .
 (٣) الخنساء من الخنس وهو تأخر الأنف وقصره أن يبلغ الشفة . الفرير ولد البقرة .
 لم يرم لم يبرح . الشقائق جمع شقيقة الأرض الغليظة بين رملتين . الطوف الطواف . البقام صوت
 تختله البقرة اختلاسا .
 (٤) الحفر الذي أوضع مرة وترك أخرى ليعود على الفطام ، والحفر الذي عفر بالتراب .
 القهد ضرب من الضأن . غبس جمع غبسة وهي سفرة إلى سواد . كواسب تنكسب
 ما تأكل .
 (٥) تجتنف تدخل فيه وتستكن في جوفه . قالصا أي مرتفعا قد تقلص وليس بمسترسل
 المتنبذ المتفرق . العجوب جمع عجب وهو آخر كل شيء . الأنقاء جمع نقا وهو ما ارتفع من
 الرمل الهيام ما ينال من الرمل ولم يتماسك .
 (٦) الجمانة خرزة تحمل من نضة أراد بها اللؤلؤة ، ولذلك أضافها إلى البحري .

حتى إذا حَسَرَ الظلامُ وأسفرتْ بَكَرتْ نَزْلُ عن النرى أزالَمُها^(١)
 لَمِيتْ تَرَدُّدُ في نهـاءِ صُغائِدِ سَبعا تَوَامًا كاملاً أَيامُها^(٢)
 حتى إذا يئستْ وأسحقَ حالي لم يُبَلِّه إرضاءُها وفطامُها^(٣)
 ففوجئتْ رزُّ الأُنيسِ فراءِها عن ظهر غيبِ والأُنيسُ سَقامُها^(٤)
 ففدتْ كلاً الفرجين تحسب أنه مولى الخافَةِ خلفُها وأمامُها^(٥)
 حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غَضفاً دواجنَ قافلاً أعصامُها^(٦)
 فلحقن واعتكرتْ لها مَذْرِيَّة كالسمهرية حَدُّها وتَمَامُها^(٧)
 لتذودهن وأيقنت إن لم تَذُدْ أن قد أحمَّ مع الخوفِ حِمَامُها^(٨)

وفي بعض المعلقات وصف للظباء والآرام والنعام ، وإنما اكتفينا من صفات الحيوان بما مرَّ لأنه هو الذى توالى فيه الأبيات ، حتى أصبح غرضاً متميزاً بين الأغراض التى اشتملت عليها المعلقات .

وأما وصف الديار ورسومها فقد عنى به أصحاب المعلقات ، حتى صار هذا

(١) الأزالَم في الأصل قداح المسر وأراد بها هنا القوائم .

(٢) العله خفة من جزع . نهـاء جمع نهى وهو المكان الذى له حاجز ينهى الماء أن يفيض . صغائِد اسم مكان . تَوَام جمع تَوَم .

(٣) اسحق أخلق . الحافى الضرع اللان .

(٤) التوجس تسمع الصوت الخفى . الرز — ويروى بدله ركز — وهما الصوت الخفى .

(٥) ففدت من الندو ، ويروى ففدت من الندو . الفرجان ثنية فرج ، وهو الجهة . مولى الخافَةِ أولى بالخافَةِ .

(٦) الغصص السكلاب المسترخية الآذان . الدواجن المعودة على الصيد . قافلاً يابساً . الأعصام جمع عصام سير من الجلد يسكون في العنق .

(٧) اعتكرت رجعت . مَذْرِيَّة بقرة لأن لها مَدْرَى أى قرناً . السمهرية القناة الشديدة أو الرماح الطوال .

(٨) أحم قدو — ويروى أجم — أى حان وقوعه .

الوصف تقليداً جرى عليه عامة الشعراء في مطالع قصائدهم ، ومن ذلك قول
امرىء القيس في مطلع معلقته :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحوّل
فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها لما نسجتّها من جنوب وشمال
ترى بحر الأرام في عرصتها وقيمانها كأنه حب فلفل
وإني شفائي عبّرة مهراقة فهل عند رسم داري من مُوَل
وقول طرفة في مطلع معلقته :

لخولة أطلال بئرقة شهيد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقول زهير في مطلع معلقته :

أمن أمّ أو في دمنة لم تسكّم بحومانة الدراج فالتنم
ودار لها بالرقتين كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم^(١)
بها العين والأرام بمشين خلفه وأطلاوها ينهضن من كل مجثم^(٢)
وقفتُ بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفتُ الدار بعد توم
أثافي سَفْعاً في معرس رجل ونؤيا كجذع الحوض لم يتنم^(٣)

(١) الرقنان ثنية رقة وهي الروضة ، والرقنان إحداها قرب المدينة والأخرى قرب
البصرة ، أرادوا لها دار بينهما . المراجع جمع مرجوع وهو المعاد المكرر . النواشر عصب الدراج
واحدها ناشرة ، المعصم موضع السوار من الدراج .

(٢) العين البقر الوحشية واحدها عينة . الأرام الظباء الخالصة البياض ، واحدها رثم .
خلفة إذا ذهب منها فوج خلفه آخر . الأطلاء جمع طلاء ، وهو ولد الظبية والبقرة . المجثم محل
الجنوم وهو القمود .

(٣) الأثافي جمع أثفية ، وهي الحجارة التي تنصب عليها القدر . سفع سود يغاطها حمة .
معرس الرجل موضعه والمرجل القدر . الدؤى حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخله الماء
أو حفير حول الحباء يمنع دخول المطر .

فلما عرفت الدار قلتُ لربها ألا انتم صباحاً أيها الريح واسلم
وقول ليبد في مطلع معلقته :

عفت الديار محلها فقامها بمنى تأبد غولها فوجامها^(١)
فدافع الرياح عرتى رسمها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها^(٢)
دمن تجرّم بمد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها^(٣)
رُزقت مرايع النجوم وصاها ودق الرواعد جودها فرهامها^(٤)
من كل سارية وغاد مدجن وعشية متجاوب إرزامها^(٥)
فملا فروع الأبهقان وأطلقت بالجلهتين ظباؤها ونماؤها^(٦)
والعين ساكنة على أطلالها عوداً تأجل بالفضاء بهامها^(٧)
وجلا السيول عن الطلول كأنها زُرّت تجدّ متونها أقلامها^(٨)

-
- (١) المثل مكان الحلول ، والمقام موضع الإقامة . تأبد توحش . وفي القول والرجام مواضع .
(٢) الخلق القديم البالي . الوحي جمع وحي ووحى ووحاة الكتابة والمكتوب والإشارة والرسالة والمراد هنا الأول . السلام جمع سلمة الحجارة .
(٣) تجرم الشيء انقضاؤه بجملة أجزائه . الحجج السنون . حلالها وحرامها أيام السنة منها الحلال ومنها الحرام ، فالمرام القعدة والحجة والحرم ورجب ، وماعداها خلال .
(٤) المرايع الأمطار تكون في أول فصل الربيع . النجوم الأنواء ، وإنما أضافها إليها لأنها تهبّ عندها صابها أصابها . الودق المطر . الرواعد السحاب . الجو والمطر الغزير . الرهام المطر الضعيف .
(٥) السارية السحابة . المدجن المطبق قد استوعب أقطار السماء . الإرزام التصويت
(٦) الأبهقان عشب له وردة حمراء ورقه عريض . أطلقت صار لها أطفال . الجلهتان ناحيتا الوادي جعل علما على موضع .
(٧) النموذج عائد الحديثة النتاج من الأطباء وكل أئمة . تأجل تصير آجالاً ، والآجال جمع أجل وهو القطيع من بقر الوحش . البهام جمع بهم وبهجة أولاد الضأن والمز والبقر .
(٨) الزبر جمع زبور ، وهو الكتاب . تجد تعيده جديداً المتون الظهور أراد بها الكتابة

أو رجعُ واشمة أسف ثورها كففًا تعرض فوقهن وشامها^(١)
فوقفت أسأما وكيف سؤالفا صما خوالد مايبين كلامها
عرّيت وكان بها الجميع فأبكرُوا منها وغودر نؤيها وثمامها^(٢)
ومطلع معلقة عنقرة :

هل غادر الشعراء من مرقم أم هل عرفت الدار بعد توم
أعيـاك رسم الدار لم يتكلّم حتى تكلم كالأصم الأعجم
ولقد حبستُ بها طويلا ناقي أشكو إلى سُنعِ رواكد جُثم
وتحل عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالعيمان فالمتلثم
حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بمدّ أم الهيم
حلت بأرض الزارين فأصبحت عيرا على طلابك ابنة مخرم^(٣)
كيف المزار وقد تربع أهلها بصنيزتين وأهلنا بالقيلم^(٤)
ما راعى إلا حمولة أهلها وسط الديار تسف حبّ الخم^(٥)
فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الغراب الأسحم^(٦)
وفي مطلع معلقة الحارث بن حلزة :

آذنتنا بينهن أسماء ربّ ثاو يملّ منه الثواء

-
- (١) أسف زر . الثور الكحل الذي ترشه الواشمة على مواضع الفرز . الكفف دارات تكون في الوشم . الوشام غرز الإبرة في اللحم حتى يظهر الدم .
(٢) التمام ثبت ضعيف له خوس تحفى به خصاص البيوت ، واحده تمامة .
(٣) الزائرون الأعداء الذين يزأرون عليه من أجلها .
(٤) تربع أهلها نزلوا وقت الربيع . العيلم وصنيزتان موضعان .
(٥) الخمضم آخر مايبس من النبات .
(٦) الحلوبة التي تحلب . الأسحم الأسود .

بعد عهد لنا بيرة شما ، فأدنى ديارها الخلاء
 فالحياة فالصفاح فأعنا قُ فتاق فاذبُ فالوفاء
 فرياض القطا فأودية الشر بب فالشعبان فالأبلاء
 لا أرى من عهدت فيها فأبكي ١١ يومَ دلها وما يحجر البكاء (١)
 وبعينك أوقدت هند النار بعورٍ كاليلوح الضياء
 فتوترت نارها من بيد بنحزازی هبات منك الصلاة (٢)
 ووصف امرؤ القيس البرق والمطر وما يفعل بالجبال والوديان والديار والطيور
 والسباع في قوله :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلع اليدين في حمى مُكَلِّ (٣)
 يُضئُ سناءُ أو مصابيحُ راهب أُمال السليط بالذبال المفتل (٤)
 قعدتُ له وصحبق بين ضارج وبين العذيب بعدما متألى
 حل قطنٍ بالشيم أيمن صَوْبِهِ وأيسرُهُ على الستار فيذبل
 فأضحى يسح الماء حول كُتَيْفَةٍ يكب على الأدقان دوح الكنهيل (٥)
 ومرت على القنان من ففَيَانِهِ فأنزل منه المضم من كل منزل (٦)
 وتبأ لم يترك بها جذع نخلة ولا أطعاً إلا مشيداً بمنجل

(١) دلها : أى باطلا وضاعا . يحجر برد .

(٢) الصلاة : النار .

(٣) الحمى : السحاب للتراكم .

(٤) السليط : الزيت . الذبال : جمع ذبالة وهي الفئلة التي تكون في السراج .

(٥) الكنهيل : ضرب من العجر

(٦) القنان : اسم جبل لبى أسد . ففیان المطر وفيه : ما ينفذ ويرشه . الصم جمع أصم ،

وهو الوعل الجبل

- كَأَنَّ تَمِيرًا فِي عَرَانِينَ وَبِلَهٍ كَبِيرُ أَنَايسٍ فِي بَجَادٍ مَزْمَلٍ^(١)
كَأَنَّ ذِرَا رَأْسِ الْهَيْمِرِ عُذْوَةٌ مِنَ السَّيْلِ وَالْفَنَاءِ فَلَسْكَةُ مَغْزَلٍ^(٢)
وَأَتَى بِصَحْرَاءَ الْعَبِيطِ بَعَاءَهُ نَزُولُ الْبِمَايِ ذِي الْعِيَابِ الْمَحْمَلِ^(٣)
كَأَنَّ مَكَائِي الْجَوَاءِ غَدِيَّةٌ صَبِيحُنْ سُلَا مَن رَحِيقُ مُقْلَقِلٍ^(٤)
كَأَنَّ السَّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى عَشِيَّةٌ بِأَرْجَائِهِ الْقَصَوَى أَنَايِدِشْ عُنْصَلٍ^(٥)

وَيَصِفُ عُنْتَرَةً فِي مَعْلَقَتِهِ الرُّوْضَةَ وَالْمَطَرَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهَا فِي مَعْرُضٍ وَصَفٍ
تُغَرِّحُ حَبِيبَتَهُ ، وَمَا يَذْهَبُ مِنْهُ مِنْ طَيْبِ الرَّائِحَةِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ :

- أَوْ رَوْضَةً أَنْفًا تَضْمَنُ نَبْتَهَا غَيْثٌ قَلِيلُ الدَّمَنِ لَيْسَ بِمُعْلَمٍ^(٦)
جَادَتْ عَلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٌ فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالْدَرَمِ^(٧)
سَحًّا وَنَسْكَابًا فَسَكَلْ عَشِيَّةً يَجْرَى عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ^(٨)

(١) تَمِيرُ جَبَلٌ بِحَكَّةَ . عَرَانِينَ جَمْعُ عَرْنَيْنٍ ، وَهُوَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَوَّلُهُ . الْبَجَادُ كَسَاءٌ مَخْطُوطٌ مِنْ
أُكْسِيَةِ الْأَعْرَابِ .

(٢) الْمَاءُ مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ . فَلَسْكَةُ الْمَغْزَلِ الْحَقِيْبَةُ الْمُسْتَدِيرَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَى رَأْسِ الْمَغْزَلِ

(٣) بَعَاءُهُ ثَقْلُهُ وَحَدُّهُ

(٤) الْمَكَائِي جَمْعُ مَكَاةٍ بِالْمَدِّ وَالْقَعْدِيدُ ضَرْبٌ مِنَ الطَّيْرِ . صَبِيحُنْ سُلَا نَسْفَقِينَ السَّلَافِ

فِي وَقْتِ الصَّبْحِ

(٥) الْأَنَايِدِشْ أَسْوَلُ النَّبَاتِ لِأَنَّهَا يَنْبُشُ عَنْهَا وَالْوَّاحِدَةُ أَنْبُوشَةُ . الْعُنْصَلُ الْبَصْلُ الْبَرِّي

(٦) الرُّوْضَةُ الْأَنْفُ الَّتِي لَمْ يَرَعْهَا أَحَدٌ . تَضْمَنُ نَبْتَهَا غَيْثٌ أَيْ ضَمِنَ لِمَنْبَاتِ نَبْتِهَا . الدَّمَنِ
الْمَرْجِينِ وَالْبَرِّ أَيْ أَنَّ هَذِهِ الرُّوْضَةُ فِي مَكَانٍ حَرِّ الطَّيْنِ ، وَقَبْلَ الْمَرَادِ أَنَّ الْمَطَرَ قَلِيلٌ لَلْبَثِّ
لَمْ يَدْمَنْ عَلَيْهَا فَهُوَ أَطْيَبُ لِلرَّائِحَتِهَا . لَيْسَ بِمُعْلَمٍ أَيْ لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ فَيَقْصِدُ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي فَيَافٍ
مِنَ الْأَرْضِ .

(٧) الْعَيْنُ : الْمَطَرُ لَا يَنْقَطِعُ خِصَّةً أَيَّامًا أَوْ مَسَّةً . الْقَرَّةُ : السَّكْبَةُ . الْفَرَارَةُ : مُسْتَقَرُّ الْمَاءِ
فِي الْوَادِي .

(٨) السَّحُّ : صَبُّ الْمَطَرِ . التَّنْكَابُ : السَّكْبُ . لَمْ يَتَصَرَّمِ : لَمْ يَنْقَطِعْ .

وخلا الذبابُ بها فليس يبارح غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحكُّ ذراعَه بذراعِه قذح المسكب على الزناد الأجدم^(١)
أما وصف الخمر ووصف مجالس شربها فقد سبق الكلام فيه عند كلامنا
على المجتمع العربي كما صورته المعلقات ، ونجد نصوصه هناك^(٢) .

ومن أوصاف مظاهر الطبيعة في البادية ماورد في معلقة امرئ القيس من
قوله من وصف الليل ووحشته ، والشكوى مما يحسن من ثقله وتطاوله :

وليل كوج البحر أرخى سدوله على أنواع الموم ليبتلى
فقلت له لما تعطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكل كل^(٣)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل^(٤)
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مفار القتل شدت يذبل^(٥)
كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل^(٦)
وهكذا تزخر المعلقات بفن الوصف الذي تناول معظم ماوقعت عليه أعينهم
من مظاهر الطبيعة ، وألوان مشاهدتها . وفيما سقناه من الشواهد كفاية للدلالة على
عفايتهم بهذا الفن ، واقتدارهم عليه .

* * *

(١) مزج : سريع الصوت متداركة . المسكب على الشيء المقبل عليه بكليته . الأجدم
المقطوع اليد وهو صفة المسكب . الزناد حجر القداح .

(٢) انظر هذا الكتاب من صفحة ٢٦٨ إلى صفحة ٢٧٤ .

(٣) تعطى : امتد واستطال . الكل كل : الصدر .

(٤) الانجلاء : الانكشاف . الأمثل : الأفضل .

(٥) مفار القتل : محكة . يذبل : امم جبل في بلاد نجد .

(٦) مصامها : موضع وقوعها . الأمراس : الحبال . الجندل : الحجارة .

(٢) باب النسيب :

وهنا تتوارد علينا كلمات تتقارب في مفهومها، وتتشابه في دلالتها. وهذه الكلمات الثلاث هي : النسيب ، والفزل ، والتشبيب .
وتلك الكلمات الثلاث عند أكثر علماء العربية ألفاظ مترادفة ، وكلها تدلّ على التعبير عن عاطفة الحب ووصف المحبوب . قال ابن رشيق : والنسيب والتفزل والتشبيب كلها بمعنى واحد^(١) .
وعنده أن التفزل غير الفزل ، لأن الفزل هو إلف النساء ، والتخلق بما يوافقهنّ فمن جعله بمعنى التفزل فقد أخطأ .

وقال قدامة بن جعفر : إن كثيراً من الناس يحتاج إلى أن يعلم أولاً ما النسيب؟ ونحن نحده فنقول : إن النسيب ذكر اشاعر خلق الناس وأخلاقهم ، وتصرف أحوال الهوى به معهن . وقد يذهب على قوم أيضاً موضع الفرق ما بين النسيب والفزل ، والفرق بينهما أن الفزل هو المعنى الذى إذا اعتقده الإنسان فى الصبوة إلى النساء نسب بهنّ من أجله . فكأن النسيب ذكر الفزل ، والفزل المعنى نفسه . والفزل إنما هو التصانّب والاستهتار بمودات النساء . ويقال فى الإنسان إنه « غزل » إذا كان متشكلاً بالصورة التى تليق بالنساء ، وتجانس موافقاتهن حاجته إلى الوجه الذى يجذبهن إلى أن يملن إليه . والذى يملن إليه هو الشماثل الحلوة ، والمعاطف الظريفة ، والحركات اللطيفة ، والكلام المستعذب والمزاج المستغرب ، ويقال لمن يتعاطى هذا المذهب من الرجال والنساء « متشاجر » وإنما هو « متفاعل » من « الشجا » أى متشبه بمن قد شجاه الحب^(٢) .

وخلاصة قول قدامة هذا أن « الفزل » معنى ، وأن « النسيب » هو العبارة عن هذا المعنى ، وأن الفزل مؤثر ، وأن النسيب هو الأثر ، أو هو صياغة أثر

(١) الصدة ٩٤/٢ .

(٢) قد الشعر ٦٥ طبعه برهيل بليدن ، بتحقيق المستشرق س . ١ . بونيهباكر .

اللوعة التي يجدها العاشق المستهام في ألفاظ. وعبارات^(١) .

وعند بعض الباحثين أن « الفزل » هو الاشتهار بمودات النساء ، وتبهن والحديث إليهن ، والعبث بذلك في الكلام ، وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صبا .

وأما « التشيب » فهو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام ، وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ، ومساءلة الأطلال ، توخيا لتعليق القلوب ، وتقييد الأسماع ، قبل المفاجأة بغرضه من الكلام .

وأما « النسيب » فهو أثر الحب وتبريح للصبا فيما يبثه الشاعر من الشكوى ، وما يصفه من التجنى ، وما يعرض له من ذكر محاسن النساء . وهو بلا شك مظهر الرقة وينبوع السلاسة في الشعر العربي ، إذ كان حديثا عن هذه الآلام العذبة ، ودموعا تنحدر من أجفان الكلام^(٢) .

وإذا رجعنا إلى المعاني اللغوية لهذه الكلمات الثلاث في معجم كلقاموس وجدنا :

(١) « مغازلة النساء » محادثتهن ، والاسم « الفزل » ، و « التفزّل » التكلف له ، و « الفزل » المتفزل بهن^(٣) .

(٢) و « التشيب » النسيب بالنساء^(٤) .

(٣) وذكر صاحب القاموس : نَسَبَ بالمرأة نَسَبًا ونَسِيبًا ونَسِيبَةً : شَبَّ بها في الشعر^(٥) .

وهذه المعاني يلاحظ أن معنى « النسيب » فيها هو معنى « التشيب » ،

(١) انظر كتابنا (إمامة بن جعفر والنقد الأدبي) الطبعة الثانية ٣٤٤ .

(٢) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهل للأستاذ محمد هاشم عطية ١٠٧ .

(٣) القاموس المحيط ٢٤/٤ .

(٤) القاموس المحيط ٨٥/١ .

(٥) القاموس المحيط ١٣١/١ .

وأن كل واحد منهما قد عرّف بالآخر . وأن « الغزل » هو التحدث إلى النساء ، من غير اشتراط للتعبير عن ذلك في صورة من الصور الأدبية .

ولذلك تكون محاولة التفريق بين النسيب والتشبيب ، وتخصيص التشبيب بذكر المرأة في مطالع القصائد تمهيداً للفرض المقصود ، وتلقيها للمسامح لتصنى إلى ما بعده ، محاولة غير مجدية ما دام الذين قد ذكروا هذين اللفظين ووصفوا بهما الشعر لم يحاولوا التفريق بينهما ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى لم يوجد في الاستعمال اللغوي ما يشعر بالفرق بينهما . وعلى هذا فلا مناص من اعتبار اللفظين من قبيل المترادف الذى يتعدد فيه اللفظ . ويتحد المعنى ^(١) .

وكذلك استعمل النقاد كلمة « الغزل » في المعانى التى استعملوا فيها كلمتى « النسيب » و « التشبيب » . ولا فائدة ترجى من محاولة التفريق أو التخصيص ما دام المعنى واحداً في استعمالهم . وإن كان تخصيص كل لفظ بمعنى من المعانى من علامات نضج اللغة واتساعها ، ولكن الصعوبة تأتى من ناحية الاستعمال ، إلا إذا كان في استطاعتنا العودة إلى ما كان ، وتعديله على الوجه الذى يحصل به التخصيص المراد .

حقاً ، لقد أصبح ذكر المرأة في مطالع القصائد تقليداً جرى عليه الشعراء ، وفيهم من لم يعالج الحب ، ومن لم يتعلق قلبه بهوى وصباية ، وكان جديراً أن يخص هذا التقليد بقلب أو لفظ . يصطاح عليه ، وليسكن ذلك المصطلح لفظ « التشبيب » أو غيره . ولكن ما الحيلة وقد وجدنا المعنى اللغوي والاستعمال الأدبي لا يساعداننا على تحقيق هذا الأمل ؟

(١) ذكر ابن رشيق (الفمدة ١٠٢/٢) أن اشتقاق التشبيب يجوز أن يكون من الجلاء . يقال شب الخمار وجه الجارية ، إذا جلاه . ووصف ما تحته من محاسنه ، فسكن الشاعر قد أبرز هذه الجارية في صفته إياها ، وجلاها للعيون ، ومنه الشب الذى تجتلى به وجوه الدنانير ويستخرج غفها .

وعلى كل حال فإن ذكر المرأة قد شغل مكانا بارزا في أكثر الملاحظات ،
فوصف شعراؤها هوام ، وعبروا عن عواطفهم تجاه هذه المرأة ، كما وصفوا
كثيراً من محاسنها التي كانت تأخذ بقلوبهم ، ووصفوا من طولها وعرضها ولونها
وشعرها وعينيها وصدرها وطبيعتها وحديثها ما كانوا يشتهون ، كما وصفوا محنهم
عنها ، ودبيهم إليها ، في تحفظ وعفة ، وفي غير تحفظ أو عفة أيضاً . وفي سبيل ذلك
وصفوا ديارها ومقامها ووطنها ، وبكوا أطلالها ومن ذلك في معلقة امرئ القيس :

أقلم مهلاً بعض هذا التذلل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجلى
أغرك متى أن حبك قاتل وأنتك مها تأمرى القلب يفعل
وأنتك قسمت الفؤاد فنصفه قتيل ونصف بالحديد مكبل
وإن تك قد ساءت لك متى خليقة فسلى ثيابي من ثيابك تذلل^(١)
وما ذرفت عينك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل^(٢)
إلى أن يقول :

مُهَفِّةٌ بِيضَاهُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ تراثها مصقولة كالسجنجل^(٣)
كِبْرُ المَقَانَةِ البِيضِ بَصْفَرَةٍ غذاها غير الماء غير الحُلل^(٤)
تصد وتبدى عن أسيل وتثقي بناظرة من وحش وجرة مُطْفِل^(٥)

(١) الثياب ما يلبس على البدن ، والمراد هنا البدن نفسه . تنسل تبين وتباعد .

(٢) ذرفت العين : سال دمعها ، والسهمان العينان شبههما بالسهمين الرقيق واللؤلؤ من قدام اليسر . وللرقيق ثلاثة أسهم والعمل عشرة ، وجزور اليسر يقسم عشرة أقسام من خرج له هذان السهمان فقد فاز بجميع أجزائه .

(٣) مهففة غير مثقلة لطيف خصرها ضامر بطنها . المفاضة : العظيمة البطن أو المضطربة في طولها . التراث جمع تربة وهي عمل القلادة من الصدر . السجنجل المرأة رومية دمربة ، وأبو عبيدة يرويه بالسجنجل ويقول السجنجل الزعفران .

(٤) بكر القنافة أراد به بيضة النعامة لأن بياضها يخالطه صفرة قليلة . والقنافة الخلط .

(٥) الحد الأسيل الذي في طوله امتداد . المطفل التي لها طفل .

- وجيّد كجيد الرّم ليس بفاحش إذا هي نعتته ولا بمطل (١)
 وفرع يزىء المتن أسود فاحم أثبت كقنو النخلة المتمشك (٢)
 غداؤه مستشزرات إلى العسلا تفل العاقص في مثنى ومُرسل (٣)
 وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقي المذل (٤)
 وتضجى فتيئ المسك فوق فراشها ثوم الضحا لم تنتطق عن تفضل (٥)
 وتمطو برخص غير شئن كأنه أساريع ظهي أو مساويك اسجل (٦)
 تُضِيء الظلام بالمشاء كأنها منارة تُمنى راهب متبتل (٧)
 إلى مثلها يزىء الحليم صباة إذا ما اسبكرت بين دِرع ونجول (٨)
 نسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواك بمُذل (٩)
 ألا ربّ خصم فيك ألوى رددته نصيح على تمذله غير مؤتل (١٠)

(١) النص الرفع . المطل الذي لا حل فيه .

(٢) الأثيث الكثير . انقو العذق ويقال لها الكباسة . المتمشك الذي دخل بعضه في بعض أكثرته .

(٣) مستشزرات مرنفات . العاقص جمع عقيصة ، وهي الحصلة المجموعة من الشعر . المثنى الذي رد بعضه على بعض . المرسل الذي ترك على استرساله .

(٤) الكشح جانب الحاصرة . الجديل خطام يتخذ من الجلد . المخصر الدقيق الوسط . الأنبوب ما بين العقدتين من القصب . السقي السقي .

(٥) تمطو تقناول . الرخص الناعم . الشئن الغليظ الخشن . الأساريع دواب رملية . ظهي موضع . الإسجل شجرة دقيقة أغصانها في استواء .

(٦) اسبكرت اعتدات واستقامت . الدرع قبض المرأة . المجول نوب للنساء ، أو للمغيرة منهن خاصة .

(٧) ألوى شديد الخصومة . النصيح الناصح . التمذل المبالغة في الطل . غير مؤتل غير منصر .

ومن أوصاف المرأة في الملقات قول طرفة :

وفي الحى أحوى ينفصُ المردَ شادنٌ مظاهرُ سَمَطَى لُولُو وزرجدٍ^(١)
 خَذُولٌ تُرَاعَى رِربَا بِحَمِيلَةٍ تناولُ أطرافِ البَرِيرِ وترتدى^(٢)
 وتبسمُ عن أَلَمَى كَأَنَّ مَنْوَرًا تَحْمَلُ حُرَّ الرَمْلِ دِصُّ لَه نَدِ^(٣)
 سَقَتُهُ إِيَاةُ الشَّمْسِ إِلَّا لِثَانِهِ أُسِفٌ وَلَمْ تَكْدِمِ عَلَيْهِ بِأَعْدِ^(٤)
 وَوَجْهٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ رِداها عَلَيْهِ نَقَى اللُّونِ لَمْ يَتَخَذَدْ^(٥)

ومن أوصافها قول عمرو بن كلثوم في معلقته في تشبيه أعضائها ووصف

الحنين إليها :

رَبِّكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى خَلَاةٍ وَقَدْ أَمَنْتَ عَيُونََ الْكَاشِحِينَ^(١)
 ذِرَاعِي عَيْطِلٍ أَذْمَاءَ بَكْرِ هَجَانِ اللُّونِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا^(٢)
 وَنَدِيًا مِثْلَ حُقِّ الْعَاجِ رَخَصًا حَصَانًا مِنْ أَوْ كَفِّ اللَّامِسِينَ^(٣)

(١) الأحوى الظبي في ظهره حرمة تضرب إلى السواد . المرد ثمر الأراك . الشادن الغزال
 إذا تحرك واشتد واستغنى عن أمه . المظاهر الموالى بين شيئين . السمط الضبط الذى تنظم فيه
 الجواهر .

(٢) خذول ظبية خذلت صواحباتها فتخلفت عنهن وأقامت على ولدها . الزرب القطيع
 من الظباء وبقر الوحش . البرير ثمر الأراك إذا أحرك .

(٣) ألى من ألمى وهو سمره في الشفة . النور الأنحوان . الحر الخالص من كل شئ .
 الدعس الكتيب من الرمل . الندى الذى أصابه الندى .

(٤) إيأة الشمس ضوءها . اللثة اللحم الذى تنبت عليه الأسنان . أسف بأعمد أى ذر عليه .
 الكدم المض .

(٥) رداء الشمس ضوءها . لم يتخذد لم يفتشق .

(٦) الكاشح المدو لأنه يولى من عادى كشحه أى جانبه .

(٧) العيطل الطويلة من النوق . الأدماء البيضاء الخالصة البيضاء . البكر من النوق التى
 ولدت بطنًا واحدًا ، ويرى بفتح الباء وهو الشاب من الإبل . هجان الأبيض . الجنين الحمل
 ما دام في بطن أمه .

(٨) العاج عظم الفيل . رخصا طريقا ناعما . حصانا عفيفة .

ومتني لَذَنَ سَمَمَتْ وطالت روادفها تنفوه بما ولينا^(١)
 وما كفة يضيقُ البابُ عنها وكشحا قد جُنْتُ به جنونا^(٢)
 وصاربي بلنطِ أو رُخامِ يرئُ خَشَّاشُ حليهما رنيننا^(٣)
 فما وجدتُ كَوْجَدِي أُمُّ سَقْبِ أَضَلَّتْهُ فَرَجَعَتْ الحَنِينَا^(٤)
 ولا شمطاه لم يترك شفاها لها من تسمية إلا جيننا^(٥)
 تذكرتُ الصَّبَا واشتقتُ لما رأيتُ حُولَهَا أَصْلًا حَدِينَا^(٦)

ومنها ما وصف به عنقرة صاحبته عجلة في أبيات متفرقة من معلقته :

دارُ لَانِسِيَةٍ غَضِيضٍ طَرَفُهَا طَوْعُ العِنَاقِ لَذِيذَةِ التَّبَسُّمِ
 إِذْ تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ وَاضِحٍ عَذْبٍ مَقْبَلُهُ لَذِيذُ المَطَمِ^(٧)
 وَكأَمَّا نَظَرْتُ بَعِيْنِي شَادِنٍ رَشًا مِنَ الفَزَلَانِ لَيْسَ بِتَوَامٍ^(٨)
 وَكَأَنَّ فَارَةَ تَاجِرٍ بِقِسْمَةٍ سَبَقَتْ عَوَارِضُهَا إِلَيْكَ مِنَ الفَمِ^(٩)
 تَمَنِّي وَتَصْبِيحَ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ وَأَيُّتُ فَوْقَ مَرَاةِ أَدَمَ مُلْجَمٍ

(١) لَذَنَ لينة، وهو صفة موصوف عذوف أي فامة لَذَنَ. سمعت طالب، تنوء ثمض في تناقل.

(٢) المأكة رأس الورك.

(٣) السارية الأسطوانة. البلنط العاج.

(٤) السقب الذكر من أولاد الناقة. أضلته فقدته.

(٥) الشمطاه المجوز، والشمط يبيض شعر الرأس.

(٦) الحولة الإبل التي يحمل عليها. أصلا عتيا، قيل إنه مفرد، وقيل هو جمع أصيل.

حدينا حديثها الحداة.

(٧) تستبيك تذهب بملك. ذو غروب أي تفر ذو غروب. وهو جمع غروب، وغرب كل

شيء حده. واضح أبيض، والوضح البياض.

(٨) الشادن ولد الطي، والرشا الطي إذا تحرك ومشى، ليس بتوأم أي ولد مفردا

فالغناية به أم وأكل.

(٩) الفارة وعاء المسك. أتاخر هنا المطار. القسيمة سوق المسك، أو العير التي تحمل

المسك. الموارض الضواحك أراد بها الأسنان كلها.

(٣) باب الفخر

وهذا الغرض من أهم الأغراض التي برزت في الملاحظات ، إذ كان من طبيعة العربي التباهى بما أوتي من كثرة المال والعدد ، وبقدرته على البذل والإنفاق وحماية الأولياء ، والنيل من الأعداء ، كما كان من طبيعته الزهو برفعة الآباء والأجداد ، وبما حصلوا من أسباب السيادة والمجد ، ليصل المجد الطارف المكتسب بالمجد التليد الموروث .

ومن الممكن أن يقسم ذلك الفخر قسمين :

القسم الأول : الفخر بالنفس :

ويبدو هذا في اعتداد الشعراء بقوتهم وفنوتهم وكرمهم ونجدتهم ، وفي حديثهم عن الشجاعة التي خاضوا بها معامع القتال ، وانهصروا بها على أعدائهم في صدق وصبر وثبات .

وقد فخر امرؤ القيس بما يلائم حياته اللاهية ، وبأنه استطاع أن يسبي من النساء من كانت قليلة الرغبة في الرجال ، وبأنه يستطيع الديب إلى حيث يهوى من غير خشية أو إشفاق من الأحراس الحراس على مقنله إن هم رأوه في مثل حالته من الاعتداء على الحرمات . وذلك من شأن أرباب الفراغ والهوى والخلاعة من طبقة المترفين الذين لا يشغلهم شيء من جد القول والعمل ، وهو ما مثله معلقته بأسرها ، فكأنها لهو وصيد ، ووصف مستهص للهوى وصيده .

وفخر طرفة بأنه الفتى المرجو لكشف النعمة إذا بحث القوم عن الذي يستطيع كشفها .

إذا القوم قالوا: مَنْ فَتَى؟ خلعت أنى عُنيت فلم أكل. ولم أتبلد

وبأنه لا يخفى عن طالب نجدة أو طالب عطاء ، خيئاً التمسته وجدته ،
 فى حلقة القوم حيث يجتمعون للشورى ، أو فى حوانيت الخمارين للهو والقصف .
 ولست بحلال التسلع مخافةً ولكن متى يسترفد القوم أرفد^(١)
 فإن تبغى فى حلقة القوم تلقى وإن تلمسنى فى الحوانيت تصطد^(٢)
 وبأن شهرته طبقت أحياء العرب ، فأصبح يعرفه الفقراء كما يعرفه السادة ،
 ويعرفه الصعاليك كما يعرفه المياسير ، أما الأولون فلا حسانه إليهم ، وأما الآخرون
 فلندامته لهم على الشراب :

رأيت بنى غبراء لا ينكرونى ولا أهل هذاك الطرف المدد^(٣)

وبأنه إن دعى إلى الخطوب الجسام كان ممن يحمى فيها ويمنع ، وإن دم
 الأعداء قومه فقاتلهم بأقصى جهودهم دفعهم عنهم بأقصى جهده ؛ وهو يتغنى
 ببسالته فى قوله :

وإن أذعَ للجلئى أكن من مُحامتها وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد
 وإن يذفوا بالقذع عرضك أسقمهم بشرب حياض الموت قبل التهذد
 أنا الرجل الضربُ الذى تعرفونه خشاشٌ كراس الحية المتوقد^(٤)
 فأليتُ لا ينفك كسحى بطانة اعضب رقيق الشفرتين مهند^(٥)

(١) التلاع مجارى الماء من رهوس الجبال إلى الأودية . يسترفد القوم يطلبون رفده أى عطاءه .

(٢) الحوانيت بيوت الخمارين ، والحوانيت أيضاً الخمارون .

(٣) الغبراء الأرض ، وبنو غبراء الفقراء المحاوج . الطرف قبة من جلد . المدد

المدود بالأطاب .

(٤) الضرب الخفيف . الخشاش الرجل الماضى .

(٥) الكسح : الجنب . العضب : السيف القاطع . شفرتا السيف : حذاه . المهند :

للسوب إلى الهند .

إذا ابتدر القومُ للسلّاح وجدّني منيعاً إذا بَلَّتْ بقاءه يدي^(١)
 كما تنفى طرفه بكرمه ، وفخر بنداماه وقينته ، وكره إذا نادى المضاف ، وطلبه
 المتعة في جرم الدجن ؛ مما سبقت الإشارة إلى كثير منه .

وفخر ليبد بحزمه ، وقدرته على وصل من يواصله ، وقطع من يهجره :
 أو لم تسكن تدرى نوار بآني وصّال عقد حبال جذاها
 تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يمتلق بعض النفوس حامها
 ثم يفخر بمقاومته الحمر ، وقدرته على شراء أندرها وأغلاها ، وأنه في الغداة
 الباردة يدفع عن نفسه وندمائه بردها بالشرب والطرب^(٢) ، كما يفخر بمقاومته
 على الإبل من أجل الفقراء الذين لا يجدون من يكسب لهم^(٣) .
 وأكثر ما في معلقة عنزة فخر بنفسه ، وبما أبدى من ضروب البسالة في
 ميادين الوغى ، وبشر به الحمر ، وإتلافه ماله فيها وفي العطاء في حال سكره وفي حال
 صحوه :

أبني على بما علمت فأبني سهل مخالفتي إذا لم أظلم
 فإذا ظلمتُ فإن ظلمي باطلُ مرّة مذاقته كطعم العلقم
 ولقد شربتُ من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف الملم
 فإذا شربت فأبني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
 وإذا صحت فما أقصرى عن ندى وكأ علمت شمائل وتكرمي

(١) ابتدروا السلاح عجلوا إليه وتبادروا . النيع الذي لا يوصل إليه . بت ظفرت
 وتمكنت . قائم السيف مقبضه .

(٢) الأبيات (٥٧ — ٦٢) من المعلقة ، وانظر صفحتي ٢٧٢ و ٢٧٣ من هذا الكتاب .

(٣) الأبيات (٧٣ — ٧٧) من المعلقة ، وانظر صفحة ٢٧٩ من هذا الكتاب .

وعنترة من فرسان العرب المحدثين ، وقد فخر بهذه الفروسية ، كما فخر بها امرؤ
القيس ، غير أن فروسية عنترة كانت في اقتحام الصفوف والسكر على الأعداء ،
على حين أن فروسية امرئ القيس كانت في الصيد والقتل . ومن قول عنترة
موازننا حال حبيبته علة بحاله :

تمسى وتصبح فوق ظهر حشيةٍ وأبيت فوق سرة أدم ملجمـ
وحشيتي سرج على عبل الشوى نهدي مراكله كله نبيل الحزمـ
إلى أن يقول :

هلاً سألت الخيل يا ابنة مالكٍ إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
إذ لا أزال على رحالة ساجٍ نهدي تعاوده السكاة مكلمـ
طوراً يجرّد للطعان وتارة يأوى إلى حصد القسي عرمرـ
ويفخر بنشيانه ميادين الوغى ، وعفته عن المغام التي يكسبها ، إذ أنه
لا يحارب من أجلها ، ولكنه يحارب شجاعة وزياداً عن الحى والجماعة التي
يفتسب إليها :

بخبرك من شهد الواقعة أنتى أغشى الوغى وأعف عند المنمـ
فأرى مقام لو أشاء حويتها فيصدنى عنها الحيا وتكرميـ

القسم الثانى : الفخر بالجماعة :

وكما كان العربى حريصاً على إبداء مفاخره ، فإنه أكثر حرصاً على بعث
مفاخر قومه ، والإشادة بها ، إذ كان تمجيد الفرد لنفسه تمجيداً للجماعة التي
يفتسب إليها ، كما كان تمجيد الجماعة زيادة في ميراث الشرف عند الأفراد ،
ووصولاً للأجناد بعضها ببعض ، طريقها وتليدها ، موروثها ومكتسبها . ولذلك كان

الفخر بالقبيلة من الأغراض البارزة في شعر المعلقات ، حتى إن بعض شعراء المعلقات نسوا أنفسهم ، ولم يتحدثوا عن محمّدة واحدة كسبواها ، أو مجد حصوله ، ولكنهم آثروا الحديث عن أسلافهم ، ورأوا مجد الجماعة فوق مجد الفرد ، وأن الأجداد لا يلدون إلّا ما جدّاً .

ولا ينسى طرفة بعد أن فخر بنفسه كما فخر أن يؤكد فخره بنفسه إلى بيت محدود مقصود من بيوتات العرب ، وبأنه في الذروة والسمام من بيوت قبيلته ، وذلك في قوله :

وإن يلتقى الحى الجميع تلاقى إلى ذروة البيت الرفيع المصمّد^(١)
ومن فخر ليبد بقومه :

إنا إذا التقت الجماع لم يزل منا لزاز عظيمة جشامها^(٢)
ومقسّم يعطى العشرة حتّمها ومنمذمر^(٣) لحقوقها هضامها^(٤)
فضلاً وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنّامها^(٥)
من معشر سنّت لهم آباؤهم ولكل قوم سنّة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالمهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامها^(٦)

(١) الحى القبيلة . الجميع المجتمع . ذروة كل شيء أعلاه . المصمّد المقصود الذى يقصده الناس بمجوانجهم .

(٢) لزاز عظيمة أى يلز بها ليدلّ عليها . جشامها من التجشم ، وهو تكلف ما فيه عسر .

(٣) المنمذمر ، قال الأصمعى : المنمذمر الذى يضرب بعض حقوق الناس ببعض ف يأخذ من هذا ويعطى هذا ، وقال أبو عبيدة : هو الذى لا يعصى ولا يرد . الهضام الذى ينقص قوماً ويعطى قوماً بتدبير ، وقد وثق به فى ذلك .

(٤) معناه يفعل ذلك رغبة فى الفضل ، وذو كرم مرفوع على معنى ومنا ذو كرم . السمع السهل الأخلاق . كسوب رغائب أى يفتنهما من أعدائه ، أو يكسب الرغائب من المحامد .

(٥) لا يطبعون أى لا تدنس أهراسهم . لا يبور فعالمهم أى لا يهلك .

وإذا الأمانة قُتِمَتْ في معشرٍ أوفى بأوفٍ حفظنا أفسامها
فبنوا لنا بيتاً رقيقاً تمسكه فمما إليه كملها وغلأمها^(١)
وهم السعاة إذا العشرة أفضمت وهم فوارسها وهم حكامها^(٢)
وهم ربيع المجاور فيهم والمرمات إذا تطاول عامها^(٣)
وهم العشرة أن يبطئ حاسد أو أن يميل مع العدو لثامها^(٤)

أما عمرو بن كلثوم فإن جلّ فخره إنما هو بقبيلته ، و بالأباء والأجداد الذين
ينتسب إليهم والذين وصفهم بالكرم والشجاعة ، والقدرة على الثأر لأنفسهم ،
والصبر في لقاء الأعداء ، والنصر الذي يحرزونه في كل لقاء ، وأكثر قصيدته
مجال فسيح للاستشهاد ، ولكننا نكتفي هنا ببعض فخره الذي يتصل بوصف
للمارك الحربية ، وما أبلى فيها قومه ، كقوله :

نطاعن ماتراخي الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشنا
بسمر من قنا الخطي لذنير ذوابل أو ببيض بميلينا^(٥)
كان جهاجم الأبطال فيها وسوق بالأماز برتمينا^(٦)
نشق بها رهوس القوم شقا ونخلها الرقاب فتختلينا^(٧)
ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يميننا

(١) فبنوا : بنى الأباء . السمك : الارتفاع .

(٢) أفضمت حل بها أمر عظيم فظيع .

(٣) هم بمنزلة الربيع في الخصب لأن جاورهم ، والمرمات الاتي لأزواج لهم ، والواري قد مات أزواجهن .

(٤) هم العشرة التي لا يقدر حاسد أن يبطئ الناس عنهم بسوء قول منهم .

(٥) الخطي منسوب إلى الخط مرفأً بالبحرين ، لذ لينة ، ذو ابل فيها بعض يسلم تحف . كل الجفاف فتشق إذا طعن بها .

(٦) الوسوق جمع وسق وهو الحمل ، الأماز جمع أمز ، وهو مكان غليظ ذو حصي .

(٧) نخلها الرقاب ، أي نجعلها كالغلا وهو الحشيش . تختلن تقطن .

وَعَمَّنْ إِذَا عَمَادُ الْحَيِّ خَرَّتْ عَلَى الْأَحْقَاضِ نَمْنَعُ مِنْ يَلِينَا^(١)
نَجَذَ رَهْوَسَهُمْ فِي غَيْرِ بَرٍّ فَمَا يَدْرُونَ مَاذَا يَتَّقُونَا
كَأَن سَيُوفِنَا فِينَا وَفِيهِمْ نَحَارِيقُ بِأَيْدِي لَاعِبِينَا^(٢)
كَأَن ثِيَابَنَا مَنَا وَمِنْهُمْ خَضِبْنَ بِأَرْجُوَانٍ أَوْ طَلِينَا^(٣)
إِذَا مَاعِي^٤ بِالْإِسْنَافِ حَيٌّ مِنَ الْهَوْلِ لِلشَّبَةِ أَنْ يَكُونَا^(٥)
نَصَبْنَا مِثْلَ رَهْوَةٍ ذَاتِ حَدٍّ مَحَافِظَةً وَكُنَّا السَّابِقِينَا^(٦)
بِشْبَانٍ يَرُونَ الْقَتْلَ مَجْدًا وَشَيْبٍ فِي الْحُرُوبِ مَجْرَبِينَا
حُدَيَّا^٧ النَّاسِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا مَقَارَعَةً^٨ بَيْنَهُمْ عَنْ بَنِينَا^(٩)
فَأَمَّا يَوْمَ خَشِينَا عَلَيْهِمْ فَتَصْبِیحُ خَلِينَا عُصْبًا^(١٠) تُبِينَا^(٧)
وَأَمَّا يَوْمَ لَا نَخْشَى عَلَيْهِمْ فَنَمْنَعُ غَارَةً^(١١) مَتَلَبِّينَا^(٨)
رَأْسٍ مِنْ بَنِي جُشَمَ بْنِ بَكْرِ نَدَقَ بِهِ السَّهْوَةَ وَالْحَزُونََا^(٩)

(١) الأحقاض جمع حفص وهو المتاع .

(٢) النحاريق جمع مخراق وهو ثوب يفتل ويأهب به . وانظر ما سبق في صفحة ٢٩٢ .

(٣) خضبن صبغن . الأرجوان صبغ أحمر شديد الحرارة . والمراد بالثياب العذبات التي تربط بأطراف الرماح .

(٤) ماعى عجز . الإسنان الإقدام . الهول الرعب . المشبه أن يلتبس الأمر عليهم فلا يطلون كيف يتوجهون له .

(٥) رهوة اسم جبل . ذات حد ذات قوة . شيب جمع أخيب .

(٦) حديا اسم من التعدى طلب المباراة . المقارعة المضاربة .

(٧) عصبا — جمع عصبة — جماعات . الثبوت الجماعات من الناس أو الخيل غير متفرقة ، مفرد هاتبة بضم التاء .

(٨) أمعن فى الأمر أبعد فيه وأوغل . التلبس التحزم بالسلاح والاستعداد للأمر .

(٩) الرأس الحى لا يحتاج إلى معونة ، أو الرأس رئيس القوم وسيدهم . السهولة الأرض الحزون جمع حزن بفتح الحاء وسكون الزاى : الأرض الغليظة الوعرة ، والمراد الضعاف من الناس والأشداء منهم .

وَيَنْقُلُ عَمْرُو بْنُ كَثُومٍ مِنْ هَذَا الْفَخْرِ بَيْسَالَةَ قَوْمِهِ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ الَّذِينَ وَرَثُوا أَسْجَادَهُمْ :

فَهَلْ حَدَّثَتْ فِي جُشَمَ بْنِ بَكْرٍ بِنَقِصٍ فِي خُطُوبِ الْأَوَّلَيْنَا
وَرَثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بْنِ سَيْفٍ أَبَاحَ لَنَا حِصُونَ الْمَجْدَيْنَا^(١)
وَرِثْتُ مُهْلَهْلًا وَالْخَيْرُ مِنْهُمْ زَهِيرًا نَعَمْ ذُخْرُ الدَّاهِرَيْنَا
وَعَتَابًا وَكَلْثُومًا جَمِيعًا بِهِمْ نَلْنَا تَرَاثَ الْأَكْرَمَيْنَا
وَذَا الْبُرَّةِ الَّذِي حَدَّثَتْ عَنْهُ بِهِ نَحْمَى وَنَحْمَى الْمُحْجَرَيْنَا^(٢)
وَمَنَا قَبْلَهُ الدَّاعِي كَلِيبُ فَأَيُّ الْمَجْدِ إِلَّا قَدْ وَلَيْنَا

وهؤلاء رجال يعرفهم العرب بالنجدة والإمراع إلى القتال غير مباينين بأهوال الحروب ، حتى لقد وصفهم أبو عمرو الشيباني ووصف قبيلة تغلب بن وائل بأنها كانت من أشد الناس في الجاهلية . وقالوا : لو أبطأ الإسلام قليلا لأكلت بنو تغلب الناس^(٣) ! وكان علقة بن سيف هو الذي أنزل بني تغلب الجزيرة ، وكان مهلهل صاحب حرب وائل التي تسمى حرب البسوس أربعين سنة ، وهو جد عمرو بن كَثُومٍ من قبل أمه ، وكان زهير جدّه من قبل أبيه ، وكذلك عتاب ، وكعب بن زهير الذي لقبوه بذي البرّة ، لأنه كان على أنفه شعر خشن فشبّه بالبرّة التي تكون في أنف البعير .

وبمثل ذلك الفخر الذي فخر عمرو بن كَثُومٍ فخر الحارث بن حلزة لسان بني بكر بن وائل ، الذي فخر بأن قومه لا يخشون صولة الملوك ، ولا يرهبون سعاية السعاة بقبيلته إليهم ، لأن لهم عزة ثابتة يعرفها العرب لهم ، وتحميتهم من السعاة ومن بطش الملوك :

(١) أباح حصون المجد فتحها وجعلها مباحة لنا . الدين القلبية والقهر .

(٢) المحجرون الذين قد أُلْجُوا إلى الضيق ، والبرّة في الأصل الحلقة التي تجعل في

أنف البعير .

(٣) شرح القصائد المشعر للتبريزي ٢١٥ .

أيها الناطق المرقش عُنَّا عند عمرو وهل لذاك بقاء^(١)
 لا تخلفنا على غراتك إنَّا قبل ماقد وشى بنا الأعداء^(٢)
 فبقينا على الشنأة تنمى لنا حصون وعزة قعساء^(٣)
 قبل ما اليوم بيضت بعيون الذئب اس فيها تعيط وإباء^(٤)
 وكأن المنون تردى بنا أرز عن جونا ينجاب عنه الماء^(٥)
 مكفهرًا على الحوادث لائر نوه للدهر مؤيد صماء^(٦)

ويفخر بموقف قومه في أيام الفتنة التي أغارت فيها بعض أحياء العرب على بعض ، حتى فزعت الأحياء ، وعمها الرعب ، وثبت قومه في مواقف الشدة ، بل إنهم استطاعوا الإغارة على الأحياء المنيعة ، فظفروا بها وسبوا نساءها :

هل علمت أيام ينتهب الناصب من غواراً لكل حتى عواء^(٧)
 إذ رفعنا الجبال من سعف البحار رين سيراً حتى نهاها الحساء^(٨)
 ثم ملنا على تميم فأحرمه لنا وفيها بنات مرّة إماء^(٩)

(١) المرقش الزين القول بالباطل ليقبل منه الملك باطله .

(٢) و (٣) و (٤) سبق شرح معاني ألفاظها في هاش (١) ص (٢٨٩) .

(٥) تردى ترمى ، الأرعن الجبل الذى له أنف يتقدمه ، الجون الأسود ، ينجاب عنه أى ينشق عنه ، الماء السحاب الرقيق .

(٦) المكفهر الغليظ المتراكب . بعضه على بعض . ومنه اكفهر فلان إذا نظر بغيظ ، لا تروته لا تنتصه ، المؤيد الشديد الأيدى أى القوة ، ويعنى بالمؤيد الداهية ، والسماء التى لا تسمع يربد سدة الجبل ، وأن الحوادث لا تؤثر فيه .

(٧) الفوار مصدر غاور القوم غواراً ، إذا غار بعضهم على بعض ، والمواء الصباح مما يتزل بهم من الإغارة .

(٨) السعف أغصان النخلة ، ويعنى بالسعف النخل لأنه منه . رفعنا الجبال فى السير أى سرنا سيراً رفيماً — ويروى ركبنا الجبال — نهاها نهايتها .

(٩) أحرمنا دخلنا فى أشهر الحرم ، وهى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والحرم ، ورجب ، وكانت العرب لا يستحلون فيها قتالا ، مر هو أبو تميم .

لا يقيمُ العزيزُ بالبلدِ السَّمِ ل ولا ينفعُ القليلُ النِّجاءُ^(١)
ليس ينجي موائلا من حِذارٍ رأسُ طودٍ وحرّةٌ رَجَلاءُ^(٢)
فلكنّا اذلك الناسَ حتّى ملكَ للنذرِ بن ماء السماء

ولم يقف فخر العارث بن حلزة عند الزهو ببسالة قومه وقدرتهم على الدفاع
عن أنفسهم ومواليهم ، والإغارة على أعدائهم ، واستطاعتهم النهب والسبي ،
والثبات في أوقات الرعب والفرع ، بل تجاوز هذا الفخر إلى الزهو بما قدم قومه
إلى الملوك الذين كانوا يستجدون بهم ، فيجدون عندهم النجدة التي ترد أطماع
الطامعين في ملكهم ، كقوله فيما أسدوا إلى عمرو بن هند :

من لنا عنده من الخير آيا ت ثلاثٌ في كلّمن القضاء
آبةٌ شارِقُ الشقيقة إذجا .وا جميعاً لكلّ حيّ لواءُ^(٣)
حول قيسٍ مستلثمين بكبش قرظيّ كأنه عبلاءُ^(٤)
وصتيت من العوانك لانة ماءُ إلا مبيضةً رعلاءُ^(٥)
فردّ دنامُ بطمن كما يح رجُ من خربةٍ المزاد للماء^(٦)

(١) النجاء الحرب .

(٢) الموائل الذي يطلب موئلا يهرب إليه . الطود الجبل . الحرّة كل موضع فيه حجارة سود . الرجلاء الصلبة الشديدة .

(٣) بنو الشقيقة قوم من بني شيان جاءوا بغيرون على إبل لعمرو بن هند ، وعلمهم قيس ابن معد يكرب ، فردّتهم بنو بشكر وقتلوا فيهم . شارِق جاء من قبل المشرق .

(٤) المستلثم الذي ليس الامة وهي الدرع ، قرظي منسوب إلى البلاد التي يكثر فيها القرظ وهي اليمن . العبلاء هنا الهضبة البيضاء .

(٥) الصتيت الجماعة . العوانك نساء من كندة من الملوك . المبيضة التي توضع بياض العظم . الرعلاء الضربة المسترخية اللحم من الجانبين .

(٦) خربة المزاد فم المزادة الأسفل ، وهي المزلاء مصب الماء من القرية في أسفلها .

وحملناهم على حزم نهـلا ن شـلا لا ودُمى الأنساء^(١)
 وجبهناهم بطـمن كا تـهَزُ في جَمَّة الطوى الدَّلاء^(٢)
 وفعلنا بهم كا علم الله وما إن للحائنين دماء^(٣)
 ثم حبراً أعنى ابن أمّ قطام وله فارسيّة خضراء^(٤)
 أسد في اللقاء وزد هموس وريع إن شمرت غبراء^(٥)
 وفككتنا غل امرى القيس عنه بعد ما طال حبسه والعناء
 وأقدناه رب غسان بالذـ لذكرها إذ لا تكال السماء^(٦)
 وأتيناهم بنسمة أملا لك كرام أسلابهم أغلاء^(٧)
 ومع الجون جون آل بنى الأو س عنود كأنها دفواء^(٨)
 ماجرنا تحت المجاجة إذ وآ ت بأقفائها وحرّ الصلاة^(٩)

-
- (١) الحزم والحزن ما غلظ من الأرض والجبال . نهلان جبل . شلالا هرابا . الأنساء جمع نساعرق في الساق الأسفل .
- (٢) الجبه أسوأ الرد . تنهز تحرك . جمّة الطوى معظّم الماء فيه ، والطوى البئر للطوية .
- (٣) الحائنين الذين حان حينهم وجاء أجلهم ، وليس لهم دماء أى لا يطالب بها ، ويروى « دماء » بالذال وهو بقية النفس .
- (٤) له فارسية خضراء أى كتيبة سلاحها من عمل فارس ، والخضراء الكتيبة يكثر سلاحها فتكون كأنها خضراء .
- (٥) هموس الخيال الذى يخنى وطأه حتى يأخذ فرسته . الفراء السنة القليلة المطر .
- (٦) أقدناه نأرنا له . لا نكال الدماء من كثرتها ، أو لأنها ذهبت هدرا فليس فيها قود .
- (٧) أى أتيناهم بنسمة ملوك غالیه أسلابهم .
- (٨) الجون ملك من ملوك كندة ، وهو ابن عم قيس بن معد يكرب ، وكان غزا بنى بكر فقاتلته بنو بكر وهزمته ، وأخذوا ابنه وجاءوا به إلى المنذر . العنود : الكتيبة المحكمة .
- (٩) المعاج الفبار الذى شيره الخيل بسنابكها . بأقفائها بأعجازها . الصلاة النار .

وهكذا تفيض أكثر المملقات بهذا اللون من الفخر بالشجاعة والإقدام ،
ولا سيما مملقات طرفة وعنزة وعمر و الحارث .

(٤) باب الحكمة

وهو غرض من الأغراض التي يوحى بها طول التجارب ، وممارسة الأحداث ،
والخلوص منها بنتيجة من النتائج يرضى عنها الناس ويقبلونها ، لأنهم يرون هذه
التجارب في أنفسهم وفي ذويهم وفيمن رأوا وعرفوا من الناس ، وفي أحداث
الحياة وتقلباتها وتصرفها بالبشر .

وطول التجربة سبب من أسباب الحكمة التي تجري على اللسان ، أو تصاغ
في قالب شعري أو في عبارةثرية ، كما أن فطنة المرء ودقة إحساسه بما حوله ،
وتأثره العقلي أو العاطفي من عوامل إرسال الأقوال الحكيمة التي تقع موقعها
من قلوب البشر وعقولهم .

وعلى هذا فليس من الضروري أن يكون أصحاب الحكمة من المسنين
الذين مدت لهم الحياة في حبال العمر ، ولامن الذين اصطبقوا بصيغة تلك الأحداث
أو شاركوا فيها ، وإنما تكفي النفس الحساسة ، والبصيرة النافذة التي نستطيع
أن تنفذ إلى أغوار النفوس وأسرار الحياة وأخلاق البشر ؛ وإن قصرت
بأصحابها الأعمار .

وفي بعض المملقات أمثال كثيرة لتلك الحكم التي وقعت موقعها من نفوس
العرب في الجاهلية ، ثم تراوها الناس وحفظوها ، واتخذوا منها أمثالا جرت
على ألسنتهم ، وتنقلت في العصور المختلفة ، وبذلك عاشت في الزمن لأن كل إنسان
يرى فيها طبيعة نفسه ، وكأن الشاعر إذ تحدث إنما كان يتحدث بلسانه ، لأنه
كان يعبر عن شعوره ، وعن شعور كل إنسان .

وتظهر الحكمة أكثر ما تظهر في معلقى طرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى ،
أما الأول فلنبوغه للبكر ، وشدة حساسيته بما حوله ، وأما الآخر فلذكورة
ما شهد من الأحداث ، وكثرة ما عرف من أخلاق الناس وعنادهم وبنيهم ، فقد
شهد خيانات وحروباً ، كما شهد صلحاً ونقضاً ، ورأى دماء نسيلا ولا يقادها ،
ورأى قصاصاً على الجرائم التافهة ، ورأى جوداً وتضحية وبذلاً ، كما رأى شحاً
وجبناً وغدراً . واستطاع أن يستخلص من كل أولئك الحكمة البالغة ، وأن يصوغ
المثل السائر الذى حفظته الأجيال وتغنت به إذا ما عرض لها مثل الأسباب التى
أدت إلى صوغه فى عبارات محكمة رصينة .

ومن أبيات طرفة التى تتصل بها الفرض قوله :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فإن كنتَ لا نستطيع دفع منبى فدعنى أبادرها بما ملكت يدي
وهى من حكم الحياة التى يؤمن بها أمثاله من أولئك الشبان الذين عكفوا
على اللذات غير مبالين بالحياة ، ولا حريصين على مالٍ أوجاه ، لأنهم عرفوا
أن مقامهم فى تلك الحياة قصير ، وأنه ليس لحى بقاء .

وقوله فى مصير الإنسان ، وأن الموت بسوءى بين الناس جميعاً ، وأن
قبر الكريم المسرف على نفسه لا يقل عن قبر البخيل الشحيح الحريص على
النفس والمال والمتاع :

أرى قبر نحامٍ بخيلٍ بماله كقبر غوىٍّ فى البطالة مُفسدٍ^(١)
ترى جثوتين من ترابٍ عليهما صفائحٌ صُمٌ من صفيحٍ منضدٍ^(٢)

(١) النحام البخيل . النوى الذى يقع هواه .

(٢) الحثوة التراب المجموع . الصم الصلبة . المنضد الذى تضد بعضه على بعض .

أرى الموت يعقام الكرامَ ويصطفى
أرى العيش كنزاً ناقصاً كلَّ ليلةٍ
لعمركَ إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى
مضى مابشاً يوماً به يقذهُ لحنفه
عقيلةٌ مال الفاحش المتشدد^(١)
وما تنقص الأيامُ والدهرُ ينفدُ
لكا لطول المرخى وثنياءه باليد^(٢)
ومن يكُ في حبل المنيّة ينفدُ
نم يقول :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى
ستبدى لك الأيامُ ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له
لعمرك ما الأيامُ إلا معارة
عن المرء لانسأل وأبصر قرينه
ومن الحكمة المأثورة والمثل السائر قوله :

وظلم دوى القربى أشدُّ مضاضةً
ومن أبيات الحكمة في معلقة زهير في قصور الإنسان عن علم ما في غده ،
وجعله بنهاية أجله ، واضطراره للصناعة في بعض أموره ، وأثر المعروف والبر
في النفوس ، وفي أخلاق أكثر الناس ، وفي أن الظلم طبيعة فيهم :

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله
رايت المنايا خبط عشواء من تصب
ولكنني عن علم ما في غدٍ عم
نمتته ومن تخطى يعمز فيهم

(١) يعقام يختار . العقيلة في الأصل المرأة الكريمة النفيسة ، ثم استعمل في الكريم من كل شيء من الذوات والمال .
(٢) الطول الجبل ، وثنياء ما نقي منه ، وبغال : هما طرفاه لأنهما يثنيان . وقوله « ما أخطأ الفتى » أي في إخطائه الفتى ، أي في أن يطول عمره .

ومن لم يصانع في أمور كثيرة
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
ومن يؤف لا يذمم ومن يهد قلبه
ومن هاب أسباب المنايا يتلننه
ومن يجعل المعروف في غير أهله
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه
ومن لم يذذ عن حوضه بسلاحه
ومن يقترب بحسب عدوا صديقه
ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وكان ترى من صامت لك ، معجب
لسان الفقى نصف ونصف فؤاده
وكانت هذه الأبيات المتتابعة في الحكمة السائرة من أم ما امتازت به
تلك المعلقة ، كما كانت من أم الأسباب في شهرة صاحبها وذبوع صيته في تاريخ
الشعر العربي .

(١) النسم البعير بمنزلة الظفر للانسان .

(٢) لا يتجمجم لا يتردد .

(٣) الزجاج جمع زج ، وهو الحديد التي تكون في أسفل الرمح ؛ والعوالى جمع عالية
وهى أعلى الرمح . واللهزم السنان الماضية النافذة ، وهذا تثيل أى من لا يقبل الأمر
الصغير يضطر إلى أن يقبل الأمر الكبير . وقال أبو عبيدة : معنى هذا أن من لا يقبل الصلح
وهو الزج الذى لا يقاقل به فإنه يطبع الحرب وهو السنان الفقى يقاقل به .

(٥) باب المديح :

وإذا استبعدنا الشعر الكثير الذى قيل فى ثناء الشاعر على آبائه وأجداده ،
وتغنيته بأجداد قبيلته مما يدخل فى باب الفخر على الوجه الذى سلف ، ألفينا الشعر
الذى يحسب فى باب المديح من المعلقات قليلاً ؛ بل إننا على التحقيق لا نجد
إلا فى معلقة واحدة هى معلقة زهير ، وذلك فى مديحه عظيمى غطفان الحارث
ابن عوف وهرم بن سنان اللذين تحملاً ديات القنلى فى أموالها ليكفأ قبيلتى
عبس وذبيان عن القتال ؛ ذلك للمديح الذى يقول فيه :

سعى ساعيا غيظ بن مُرَّةَ بعد ما تَبَزَّلَ ما بين العشيِّ بالدمِ^(١)
فَأَقْسَمْتُ بالبيت الذى طاف حوله رجالُ بنوهِ من قُريشٍ وجُرُومِ^(٢)
يَمِينًا لَنَنْعَمَ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا على كُلِّ حالٍ من سَجِيلٍ ومُبَرَمِ^(٣)
تداركتما عبساً وذُبيان بعدما نَفَاتُوا ودَقُّوا بينهم فطر مَنَشِمِ^(٤)
وقَدَ قَلَمْتُمَا إِنْ نُدْرِكَ السَّلَمَ واسعاً بَمالٍ ومعروفٍ من القولِ نَسَلِمِ
فَأَصْبَحْتُمَا منها على خيرِ مَوْطِنٍ بعيدَينِ فيها من عقوقٍ ومَأْتَمِ

(١) الساعيان الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، وقبل الحارث بن عوف وخارجة
ابن سنان ، ساعيا فى الديات ، ومعنى ساعيا عملاً صالحاً ، وغيظ بن مرة من ولد عبد الله
ابن غطفان ، تبزل تشق ، وهذا تشبيل أى كان بينهم صاحب فتشقى بالدم ، فعنى ساعيا غيظ
ابن مرة فأصلحاه .

(٢) يعنى بالبيت السكبة ، وجرهم كانوا ولاية البيت قبل قريش .

(٣) المرم الأمر المحكم ، والسجيل غير المحكم ، وأصل السجل والمرم أن المرم يقتل
خيطين حتى يصيرا خيطاً واحداً ، والسجل خيط واحد لا يضم إليه آخر .

(٤) قالوا إن منشم امرأة عطارة فتجاف قوم فأدخلوا أيديهم فى عطرها ، ثم خرجوا إلى
الحرب فقتلوا جميعاً ، فتشاءمت العرب بها ، وضربوا بطرها المثل .

عظيمين في عليا معدة هديتنا ومن يستبج كنزاً من المجد ينظم
تغنى الكلوم بالثنين فأصبحت ينجمها من ليس فيها بمجرم^(١)
ينجمها قوم لقوم غرامة ولم يهرقوا بينهم ملء مجمم^(٢)
فأصبح يجرى فيهم من تلادكم مقام شتى من إقال مزئم^(٣)
والسبب في قلة المديح في المعلقة أن أصحابها كما رأينا كانوا من السادة
الأشراف ، أو من الفتيان أولى الحمية والأنفة ، وهؤلاء كانوا لا يقولون الشعر رغبا
ولا رهبا ، ولا يطلبون به عطاء ولا كسبا ، والمديح إنما يكثر ويجود مع وجود
الرجبة .

وكذلك لم يحتل المهجاء منزلته بين أغراض الشعر في المعلقة ، إلا ما جاء
منه عرضاً في مجال الفخر بأنفسهم وأقوامهم ، والتعريض بأعدائهم وخصومهم .

٢ — ألفاظ المعلقة وأساليبها

قد يكون من العسير أن ننتج ألفاظ المعلقة كلها نعتاً واحداً ، يصدق عليها
جميعاً ، فإن الاختلاف ظاهر بين لغة المعلقة ، بل إن المعلقة الواحدة تختلف
ألفاظها بين الخشونة والركة ، وبين الجزالة والسلاسة ، وكذلك تختلف فيما بينها
من حيث شيوع الغريب والحوثي في بعضها ، أو في مواضع منها ، أو في أجزاء
من المعلقة الواحدة .

(١) تنفى أى تحمى الجراح بالثنين من الإبل تؤدى ويحملونها نجومًا .

(٢) لم يهرقوا لم يصبوا ، والمجهم آلة الحجامة .

(٣) التلاد المال الموروث ، الإقال الفصلان الواحد أفيل والأثني أنية . المزم غل معروف

نسب إليه ، والزئيم علامة كانت تجعل على ضرب من الإبل كرام ، وهو أن يشق طرف
أذن البعير ويقتل .

ومرجع هذا الاختلاف هو تعدد الأغراض في تلك القصائد . ولا شك أن اللغة الشعرية تختلف على حسب ما تؤدّيه من المعاني والأغراض . فالألفاظ التي تصلح للوصف تختلف عن الألفاظ الصالحة للفخر ، أو الصالحة للنسيب . ثم إن هذه اللغة تختلف من شاعر إلى شاعر على حسب طبيعة كل منهما ، وإمعانه في الحياة المتبدية ، أو قربه من الحياة المتحضرة ، ففي طبيعة بعض الناس خشونة وفي حياتهم شظف ، وهؤلاء لا تطاوعهم الألفاظ الرقيقة ، كما أن في طبيعة بعضهم وفي حياتهم نعماً وترفً ، ولذلك رقت ألفاظهم ، وعذبت لغتهم طوعاً من غير تكلف أو استكراه .

وإذا كنا قد قلنا بأن شعر المملقات هو الصورة المثلّي للشعر عندهم ، فمن الممكن القول بأن لغة الشعر في المملقات هي الصورة المثلّي للتعبير الشعري عندهم أو اللغة الأدبية كما كانوا يتصورونها ، وهي خلاصة اللغة التي كانوا يستعملونها في التعبير عن مختلف حاجاتهم .

وهذه اللغة الأدبية تتمثل فيها خصائص اللغة العربية في إبان نضجها وأوقات ازدهارها ، وهي اللغة التي نزل القرآن الكريم بالمهذب منها ، الذي تلافى ما فيها من العيوب ، ليكون صالحاً لكل زمان ومكان ، وكذلك الحديث النبوي ، والشعر العربي الذي اختلفت لغته وصلته بالشعر الجاهلي على حسب القرب أو البعد من العصر الذي أنشد فيه ، أو القرب أو البعد عن الحياة البدوية ، ف لغة ذي الرمة مثلاً ، وهو من شعراء عصر بني أمية ، لا تبتعد عن لغة هذا الشعر الجاهلي الذي نجد صورته في المملقات ؛ وذلك لأن حياته لم تبعد كثيراً عن حياة العرب في باديتهم الأولى

وفي ألفاظ المملقات ما يصح أن ينعت بالفراغة أو الحوشية ، ولكنهما وصفان غير أصيلين فيها . والدليل على ذلك أننا لم نثر على قول قديم ينقد هذا الشعر

بفراجه أوحوشيته في البيئة التي قيل فيها هذا الشعر ، أو في السنين القريبة من ذلك العصر . وإنما وجد هذا النقد في العصور التالية التي لانت ألسنتها وتهذبت لغتها بفعل الحضارة ، وتأثير القرآن الكريم الذي عدت ألفاظه وأساليبه نمطاً رفيعاً للتعبير مع خلوه من تلك الألفاظ التي توصف بالحوشية ؛ وكان ذلك سبباً من أسباب إعجازه ، وسمراً من أثمار تفوقه على أساليب الفحول المذكورين بالسبق والإجادة .

وعلى هذا يمكن القول بأن الغرابة والحوشية وصفان اعتباريان ، لا وصفان أصيلان ، فإن تلك الألفاظ التي تنعت بأحد النعتين أو كليهما^(١) إنما كانت بالنسبة إلى العصور المتأخرة ، أو العصور المتحضرة . وإنما يكون ذلك النقد في محله لو أن الجاهليين الذين قيل فيهم هذا الشعر أحسوا بشيء من الغرابة أو الحوشية ؛ واللغة كأثر حتى ينمو ويتغير ويتطور ، ويضيف وينفي ، وكذلك يتغير الذوق اللغوي العام ، كما يتغير الذوق الفني العام من بيئة إلى بيئة ومن زمان إلى زمان ؛ فليس حكم المحدثين على لفظ بالغرابة أو الحوشية بمقتضى هذا الحكم نفسه عند الأقدمين .

ومع ذلك فإن أكثر ما في ألفاظ العلاقات مما يصح أن يوصف بأحد هذين الوصفين يرجع إلى أنه كان أسماء لمسميات لم نعد نستعملها ، وأسماء لمواضع لم نعد نراها ، ولنبات وأجزاء الحيوان لم نعد نألفها ، ولم ندم ملازمتها كما كان أولئك الأقدمون يدعون صحبتها ، ولا يفارقونها في ظنهم أو إقامتهم .

(١) لم يفرق القدماء بين « الغريب » و « الوحشى » من الألفاظ بل ذكروها مقترنين في عيوب اللفظ ، وعندى أن الغريب ما خفى معناه ، لأنه ليس من لغة العصر التي يستعملها الأدباء ، وليس من لغة أوساط الناس ، فإذا ورد لم يفهم معناه في يسر وسهولة ، وقد يتسنى الفهم بسؤال عالم اللغة ، أو بالرجوع إلى معجم من معاجمها . أما الوحشى فإن استبشاعه ناشئ عما فيه من نقل في الحروف التي بنيت منها الكلمة ، فإذا نطق فطقت مستكراها ، ولذلك لم يتكرر في كلام أصحاب اللغة ، وإنما نطقه البداءة الجفافة منهم ، فإذا سمعه غيرهم كرهوه واستهجنوه ، وعلى هذا يكون عيب الغريب في معناه ، وعيب الوحشى في لفظه ، وقد يجتمع الميبان في اللفظ الواحد .

وتورد فيما يلي أسماء يعرفها عرب الجاهلية ومن بعدهم تمام المعرفة ، وقد يحمل أكثرها غيرهم لأنهم لاعد لهم بها ، ومن ذلك :

(١) منه أسماء المواضع والبلد والجبال :

الأبلاء : ح ٤ — اسم بئر^(١) .

الأنذرين : ك ١ — قرية بينها وبين حلب مسيرة يوم للراكب .

البحرين : ح ٣٣ — اسم جامع لبلاد على ساحل البحرين بين البصرة وُحمان من جزيرة العرب ، وُحمان آخرها ، ومدينتها هجر ، وبينها وبين البصرة خمسة عشر يوماً ، وبينها وبين عمان مسيرة شهر .

البدى : ل ٧١ — واد لبنى عامر بنجد .

برقاء نطاع : ح ٥٣ — قرية من قرى اليمامة .

بعلبك : ك ٧ — مدينة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام .

بيشة : ل ١٥ — اسم واد من أودية تهامة .

تبالة : ل ٧٥ — بلدة باليمن كثيرة الفواكه والمثل .

توضيح : س ٢ ، ل ١٤ — كتيب أبيض بين كئبان حر بالهضاء قرب اليمامة .

واسم قرية من قرى اليمامة .

تياء : س ٨١ — بلد في أطراف الشام ، من أمهات القرى .

ثبير : س ٨٢ — اسم جبل ، وهي أربعة أنبذة : ثبير غيناء ، وثبير الأعوج ،

وثبير الأحذب ، وثبير حراء .

(١) رتبنا هذه الأسماء على حسب الحروف الهجائية مراعى الحرف الأول في الترتيب ، ورمزنا الهمقات التي ورد فيها الاسم بحرف يدل على كل معلقة ، احترازاً من التكرار ، وكذلك أشرنا إلى كل بيت بذكر رقه في المعلقة ، وقد اخترنا لكل معلقة حرفاً يدل عليها على النحو الآتي :

س = معلقة امرئ القيس . ط = معلقة طرفة . ز = معلقة زهير . ل = معلقة ليلى .

ك = معلقة عمرو بن كلثوم . ع = معلقة عنزة . ح = معلقة الحارث بن حلزة .

الثلثون: ل ٢٧ - ماء لبنى ذبيان ، أو واد ، أو أرض بين طي وذبيان .

نهلان: ح ٧٤ - جبل ضخم بالعالية ، وقيل في بلاد بنى نمير .

نهد: ط ١ - جبل ، أو موضع في ديار بنى عامر .

الجلان: ل ١٨ - جبلا طي ، وهما أجا وسلمى .

جرثم: ز ٧ - ماء لبنى أسد بن القنان وترمس .

الجلهتان: ل ٦ - مكانان في حمى ضرية^(١) .

الجواء: س ٨٥ ، ع ٤ و ٧ - موضع بالصَّمان ، واد في ديار بنى عيس أو أسد .

الحجاز: ل ١٧ - في الأصل جبل ممتد يحجز بين غور تهامة ونجد .

الحزن: ع ٧ - طريق بين المدينة وخيبر ، وهو من منازل بنى يربوع .

الحساء: ح ٣٣ - مياه لبنى فزارة بين الربذة وفحل ، يقال لمكانها ذو حساء .

حومل: س ١ ط ٣٥ - موضع بين إمرة وأسود العين .

الحياران: ح ٣٨ - بلدان . وقيل موضع ، وحيار بنى القمقاع بينه وبين حلب .

يومان ، وهو صقع من برية قنسرين^(٢) .

خزازی: ك ٦٨ ، ح ٨ - وخَزَاز أيضاً ، جبل يازاء حمى ضرية ، وقيل جبل

بطخفة^(٣) في طريق البصرة إلى مكة ، وينسب إليه يوم للعرب .

الخط: ك ٣٦ - أرض تنسب إليها الرماح ، وهو خط عُمان في سيف البحرين ،

والسيف كله الخط .

(١) ضربة صقع واسع بنجد ينسب إليه الحمى ، ينزل به حاج البصرة بن الجديدة وطخفة .

(٢) قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة ، كانت عامرة آهلة ، فلما غلب الروم على حلب في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة خاف أهل قنسرين وجلوا عنها وتفرقوا في البلاد ، ولم يبق بها إلا خان تنزله القوافل [انظر مراصد الاطلاع ١١٢٦/٣] .

(٣) طخفة بكسر الطاء وفتحها موضع طريق البصرة إلى مكة ، وبه يوم للعرب .

الخلصاء : ح ٢ - بلد بالدهناء^(١) ، وأرض بالبادية فيها عين ماء لعبادة بالحجاز .
دائرة جبل : س ١٠ - الدارة رمل مستدير قدر ميلين تحفه الجبال ، ودائرة
جبل موضع بعينه في ديار الضباب فيما يواجه ديار فزارة .

دجلة : ط ٢٩ - النهر العظيم الذي يشق بغداد .

الدُّحْرُضَان : ع ٣٢ - ماءان ، يقال لأحدهما « دحرض » والآخر « وشيع »
فلما ثناهما غاب أحدهما على الآخر ، وهذان الماءان بين سعد وقشير ،
قيل هما وراء الدهناء .

الدَّخُول : س ١ - واد في أودية العُلمية بأرض الحِمْيَاة ، وبئر عميرة كثيرة الماء .

دَد : ط ٣ - اسم واد .
الدراج : ز ١ - موضع بالعالية^(٢) .

دمشق : ك ٧ - البلد المشهور ، قصبة الشام .

ذو طلوح : ك ٦٨ - اسم موضع للضباب في مشاكلة حمى ضَرِيَّة ، وقيل في حَزْن
بنى يربوع بين الكوفة وفيد . ذو العشرة : ع ٣١ - موضع بالعمان .

ذو الحجاز : ح ٤١ - موضع سوق برفة ، كانت تقوم به في الجاهلية ثمانية أيام .
الرَّجَام : ل ١ - جبل طويل أحمر ، وهضبات حمر بلاد بني عامر .

رخام : ل ١٨ - موضع في جبال طي .
الرَّذَاع : ع ٣٦ - اسم ماء .
الوقتَان : ز ٢ - روضتان بناحية العمان .

رياض القطا : ح ٤ - رياض بعينها ، يكثر فيها استنقاخ الماء ودوامة ، فعشب
فتألفها الطير .

(١) الدهناء : الرادى الذى في بلاد بني تميم ببادية البصرة في أرض بني سعد يسمونه
الدهناء ، يمر في بلاد بني أسد فيسمونه منمع ، ثم في غطفان فيسمونه الرمة ، وهو بطن
الرمة الذى بطريق مكة في طريق قيد إلى المدينة ، وهو وادى الحاجر يمر في بلاد مله فيسمونه
حائل ، ثم يمر في بلاد كلب فيسمونه قراقر ، ثم يمر في بلاد تغلب لىسمونه سوى ...

(٢) العالية كل ما كان من جهة نجد من المدينة قراها وعمارتها إلى تهامة العالية ، وما
كان دون ذلك السافلة . وقيل عالية الحجاز أعلاها بلداً ، وأشرفها موضعاً ، وهى بلاد واسعة .
وقيل العالية ما جاوز الرمة إلى مكة .

الريان : ل - ٢ جبل في ديار طي ، وواد في حمى ضرية في أرض كلاب ، وجبل في بلاد بني عامر .

الستار : س ٨٧ - جبل بأجأ ، وناحية بالبحرين ذات قرى كثيرة لبني امري ، القيس ، وجبل في ضرية .

سقط اللوى : س ١ - موضع بين إمرة وأسود العين ، وأسود العين جبل ، وهو من منازل بني كلاب .

الشوبان : ز ١٠ ، ١٤ - واد ، وأرض ، وجبل . الشام : ط ٣١ .

الشامات : ك ٢٨ - على ثلاثة فراسخ من ناحية الجبل ، والجبل كورة بمحمص . شخصان : ح ٧ - اسم أكمة لها شعبتان .

شدن : ع ٢٦ - موضع باليمن تنسب إليه الإبل الشدية .

الشربب : ح ٤ - واد في ديار بني سليم . الشعبان : ح ٤ - أكمة لها قرنان ناتئان .

شماء : ح ٢ - هضبة في حمى ضرية . الشيم : س ٧٨ - جبل بنجد .

الصاقب : ح ٢٨ - جبل ضخيم ، تلقاء ملحمة .

صحراء النبيط : س ٨٤ - هي الحزن ، وهي أرض بني يربوع ، والنبيط أكمة يرتفع طرفاها ويظمن وسطها . صعائد : ل ٤٥ - اسم موضع .

الصفاح : ح ٣ - موضع بين حنين وأنصاب الحرم .

الصمان : ع ٧ - أرض غليظة دون الجبل لبني حنظلة ، وجبل في أرض تميم أحمر .

صوائق : ل ١٩ - جبل بالحجاز قرب مكة لهذيل .

ضارج : س ٧٧ - موضع باليمن .

ضرعد : ط ٨١ - جبل ، وقيل حرة في بلاد غطفان ، وقيل ماء لبني مرة وقيل أرض لبني هذيل وبنو غاضرة .

طلخام : ل ١٩ - اسم موضع . طي : س ٤٣ - بلد قريب من ذي قار .

عاذب : ح ٣ - اسم واد أو جبل . عدولى : ط ٤ - قرية بالبحرين .

العذيب : س ٧٧ - ماء عن يمين القادسية لبني نعيم ، بينه وبين القادسية أربعة أميال : العراق : ز ٣٣ . العقيق : ح ٧ - عقيق عارض بالجمامة ، واد واسع . العلاء : ح ٦٠ - مكان قريب من العوصاء .

العلياء : ح ٦ - هي العالية ، وهي الحجاز وما يليه من بلاد قيس . عنبرتان : ع ١٢ - عنبرة موضع بين البصرة ومكة ، وبئر لبني عامر بن كرز ، وواد من أودية الجمامة .

العوصاء : ح ٦٠ - قرية من العلاء أو العلياء ، وهي أقرب أرض أنزلها النعمان ميسون بعد أن قتل أباهما .

الغول : ل ١ - جبل ، وقيل ماء معروف للضباب بجوف طخفة به نخل .

الغيلم : ع ١٢ - اسم موضع . فئاق : ح ٣ - اسم موضع

فردة : ل ١٨ - ماء بالثلبوت لبني نعام ، واسم جبل في ديار طيء .

فيد . ل ١٧ - بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة ، وهي بقرب أجا أحد

جبل طيء . قاصرين : ك ٧ - بلد كان بقرب بالس على الفرات .

قطن : س ٧٨ - جبل بنجد في بلاد بني أسد .

القفان : ط ٥ - مثنى قف ، وهو ما ارتفع من الأرض وغلظ ، وهو علم لواد من أودية المدينة .

القنكان : س ٨٠ ، ز ٨ - جبل لبني أسد . كتيفة : س ٧٩ - من مياه عمرو بن كلاب .

مأسل : س ٧ - اسم موضع . المنثم : ز ١ ، ع ٧ - موضع في أول أرض الصمان .

المنثم : ز ٤٢ - موضع بين اللوى وجهرم . الجيهر : س ٨٣ - جبل لبني فزاة .

محبجر : ل ١٨ - موضع في ديار طيء ، وجبل في ديار بني بروع ، وفي ديار بني

كلاب ، وفي بلاد عذرة ، وفي ديار نعيم .

الحياة : ح ٣ - هضبة أسفل من أبان الأسود ، لبني أسد .

المقراة : س ٢ - قرية من نواحي الجمامة .

ملحة : ح ٢٨ - اسم موضع تلقاء جبل للصاقب .

منى : ل ١ - جبل مما حول ضريبة .

نجد : ك ٣١ - الأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام .

وادي الرمس : ز ١١ - ديار لطائفة نمود ، وقيل قرية باليامة يقال لها فالج .

وجرة : س ٢٧ ، ل ١٤ - من طريق مكة من البصرة ، بينها وبين البصرة

أربعون ميلا ليس بينها منزل ، فهي مربي للوحش .

وحاف القهر : ل ١٩ - القهر أسفل الحجاز مما يلي نجداً من قبل الطائف ،

والوحاف جمع وحفاء ، وأصله أرض فيها حجارة سود ، وليس بحجرة .

الوفاء : ح ٣ - أرض . يذبل : س ٥١ - جبل مشهور بنجد .

اليامة : ك ٢٢ - بلد كبير فيه قرى وحصون وعيون ونخل . اليمن : ط ٣١ .

(٢) ومن أسماء الشجر والنبات :

الأثل : ل ٥١ - نوع من الطرفاء ، الواحدة أثلة .

الإسحل : س ٤٣ - شجرة دقيقة أغصانها في استواء ، تشبه بها الأصابع دقة

واستواء . الأنحوان : س ١٨ - الباننج .

الأنبوب : س ٢١ - البردى ، قال ابن الأنباري : البردى الذي ينبت وسط

النخل ، وهو نبت يعمل منه الحصر .

الأيهقان : ل ٦ - جرجير البر ، الواحدة أيهقانة .

البرير : ط ٧ - ثمر الأراك إذا أدرك .

البام : ل ١١ - نبت ضعيف له خوص ، أو شبيه بالخوص ، تحشى به خصاص

البيوت ، واحدة ثمامه .

الحص : ك ٢ الزعفران . الحفاء : س ٦٧ .

الحنظل : س ٤ ، ٦٦ . الخروع : ط ٦١ .

- الخم : ع ١٤ - آخر ما يبيس من النبات ، واحدة خمخة ، وروى بماءين غير معجمتين ، ومعناها واحد . الخيلة : ط ٧ - الروضة المشبة .
- الدرين : ك ٦٩ - الحشيش اليابس . السرحة : ع ٦٥ - الشجرة الطويلة .
- السف : ح ٣٣ - أغصان النخلة ، واحدها سفة .
- السفا : ل ٣٠ - شوك شجر البهمى ، والبهمى من أحرار البقول رطباً ويابساً ، تنبت ويخرج لها شوك مثل شوك السنبيل ، فإذا عظمت البهمى كانت كلاً برعى حتى يصيبه المطر من غمام مقبل ، فينبت من تحته حبه الذى سقط .
- من سنبله . السقي : س ٤١ - النخل المسقى .
- السورة : س - شجرة عظيمة لها شوك . الضال : ط ٢١ - شجر الصدر البرى .
- المشعر : ط ٦١ - شجر فيه حُرّاق لم يقتدح الناس فى أحسن منه ، ويمشى فى الحاد لآينه .
- العرفج : ل ٣٢ - نبت . العظم : ع ٦٤ - نبت يختضب به .
- الملقم : ع ٤١ - الحنظل ، والنبة المرة .
- العندم : ع ٤٧ - شجر عظام ، ورقه كورق اللوز ، وساقه أحمر .
- العنصل : س ٨٦ - البصل البرى ، ويعرف بالأسقال وبيصل الفار ، ويعمل منه خل عنصلان شديد الحموضة .
- العهن : ز ١٣ - القطن مصبوغاً وغير مصبوغ .
- الفلقل : س ٣ - حب شجر هندى .
- الفنا : ز ١٣ - شجر له حب أحمر ، وهو الذى يقال له غنب الثعلب .
- القتاد : ك ٢٩ - شجر له شوك لا يس إذا هاج ، من ذلك قولهم « دون ما يروم خراط القتاد »

القرظ : ح ٧١ - شجر عظام لها سوق غلاظ ، واحده قرظة .

القرنفل : س ٨ ، ١٧ - زهر طيب الرائحة .

القَلَامُ : ل ٣٤ - نبت يكون على الأنهار ، وقيل هو القصب .

الكتان : س ٥٢ . السكّالُ : ز ٤١ - العشب .

السكنبيل : س ٧٩ - شجر عظام ذات شوك . المرّد : ط ٦ - نر الأراك .

النور : ط ٨ - الأقحوان النبات في الأرض المسهلة .

النخلة : س ٨١ . البراع : ل ٣٥ - القصب .

(٣) ومن أسماء الحيوانات والوحش والطير ونعوتها :

الأحقب . ل ٢٥ - حمار الوحش .

الأحوى : ط ٦ - الظبي في ظهره حمرة تضرب للسواد .

الأدم : ع ٢٤ ، ٧٩ - فرس عنقزة ، والأدم الأسود .

الأرّام : س ٣ ، ز ٣ ، ل ١٤ ، ٢٧ - جمع رثم ، وهو الظبي الخالص البياض .

الأربد : ط ١٤ - ذكر النعام الذى لونه كلون التراب .

الأزعر : ط ١٣ - ذكر النعام الذى لا شعر له .

الأساربع : س ٤٣ - جمع أسروخ ، وهى دواب تكون في الرمل ظهورها

ملس . الأسد : ز ٣٨ ، ح ٧٨ .

الأطلاء : ز ٣ ، ل ٧ - أولاد الظبية .

الأظفار : ط ٥١ - جمع ظفر العاطفة على غير ولدها المرضعة له .

الأعلم : ط ٣٧ ، ع ٤٦ - الجمل ، وكل جمل أعلم ، لأن مشفره الأعلى مشقوق .

الإفال : ز ٢٥ - الفصلاّن ، واحدها أفيل للمذكر وأفيلة للأنثى .

الكلف : ط ١٦ - من الجبال ما كانت حمرة شديدة يشوبها سواد ليس بخالص .

البرك : ط ٨٩ ، ٩٣ - الإبل الكثيرة . البعير : س ١٥ ، ط ٥٣ .

بكر لقناة : س ٣٦ - بيضة النعامة .

البلية : ل ٧٦ ، ح ١٤ - الناقة التى يشد رأسها إلى يديها ، وتجمل عند قبر صاحبها

حقى توت ، فإذا ماتت حفروا لها ودفنوها ، وربما أحرقوها بالنار يزعمون أنه يحشر معها .

البهام : ل ٧ - جمع بهم وجمع بهمة ؛ وهى أولاد الضأن والعز والبقر .

التتفل : س ٦٤ - ولد الثعلب . الثور : س ٧١ - الذكر من بقر الوحش .

الجداية : ع ٦٩ - من الظباء بمنزلة الجدى من الغنم ، ما أتت عليه خمسة أشهر أو ستة . الجرد : ك ٧٩ - من الخيل القصيرة الشعر .

الجمال : ح ٣٣ . البجاد : ك ٨٧ .

الحزقة : ع ٢٩ - الفرقة من الإبل . الحامة : ل ٦٩ .

الحوار : ط ٩٤ - ولد الناقة . الحية : ط ٨٤ . الخفيدد : ط ٣٩ - ذكر النعام .

الخليل : ك ٢٧ ، ٤٩ ، ع ٤٨ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ح ٢٠ ، ٥٧ ، ٦٨ .

الدجاج : ل ٦٢ . الدباب : ع ٢٢ .

الذئب : س ٥٤ - والذئاب : ع ٥٧ .

الرَّبع : ط ٥١ - الفصيل تتج فى الربيع ، وهو أول النتاج ، فإن تتج فى آخره فهو هبع . الربض : ح ٥١ - جماعة الغنم .

الرشأ : ع ١٧ ، ٦٩ - الظبى إذا تحرك ومشى .

الرنال : ح ١٠ - فراخ النعام ، واحدها رأل .

الرنم : س ٣٨ - الظبى الخالص البياض .

الزفوف : ح ١٠ - الناقة السريعة الخفيفة ، والزيف عدو النعام إذا أمرع .

السباع : س ٨٦ ، ع ٩١ . السرحان : س ٦٤ - الذئب .

السفنجة : ط ١٣ - النعامة . السقب : ك ١٩ - الذكر من أولاد الناقة .

السقاء : ح ١٠ - النعامة فى رجلها انحناه .

السَّيد : ط ٥٩ - الذئب . الشادن : ط ٦ ، ع ١٧ ، ولد الظبى .

الشاة : ط ٣٥ ، ع ٦٦ ، ٦٨ - كناية عن المرأة .

- الشول : ط ١٥ - جمع شائلة ، وهى من النوق التى قلّ لبنها ، وارتفع ضرعها .
 الشيفم : ع ٨٤ - الفتى الطويل الجسم . من الإبل والخيول والناس
 الصوار : ل ٣٦ - التقطيع من بقر الوحش .
 الطي : س ٦٤ - والظباء : ل ٦ ، ١٤ .
 المعصم : س ٨٠ - جمع أعصم ، وهو مافى ذراعيه من الوعول والظباء ، والوعول
 التيومس الجبلية .
 المعير : س ٥٤ ، ح ١٨ - الحمار الميطل : ك ١٤ - الطويلة من النوق
 العين : ز ٣ ، ل ٧ - البقر الوحشية ، واحدها عيناء ، سميت بذلك لسمعة عيونها .
 الغراب : ع ١٥ .
 الفحول : ل ٢٥ - جمع غفل ، وهو الذكر من كل حيوان .
 الفرقد : ط ٣٣ - ولد البقرة الوحشية .
 الفقيق : ع ٣٨ - الفحل الذى لا يركب ولا يحمل عليه .
 قلص النعام : ع ٢٩ - أولاد النعام ، واحدها قلوص .
 القهد : ل ٣٨ - ضرب من الضأن تصفر آذانهن وتعلوهن حمرة .
 السكلاب : ك ٢٩ .
 الكهاة : ط ٩٠ - الناقة الضخمة السمينة .
 المضرحى : ط ١٧ - الذير العتيق يميل لونه إلى البياض ، أو الهقر الطويل الجناح
 المطية : س ١١ . والمطى : س ٥ ، ط ٢
 المسكاكى : س ٨٥ - جمع مكاء ، ضرب من الطير .
 المهر : ع ٨٨ . الناقة : ع ٣ النسر : ع ٩١ . النعام : س ٦٤ . والنعام : ل ٦٧ .
 النعجة : س ٧١ - والنعاج : س ٦٨ ، ل ١٤ الأنثى من بقر الوحش .
 الهقلة : ح ١٠ - النعام ، والذكر هقل .
 الوحشية : ل ٣٦ . الهموس : ح ٧٨ - الأسد ، ويسمى هموساً لأنه يهمس
 همساً ، أى يمشی مشياً بخفة فلا يسمع صوت وطئه . الورد : ح ٧٨ الأسد .

(٤) ومن أعلام الرجال والنساء :

- الأبناء : ح ٤٩ . ابن أم قطام : ح ٧٧ هو حجر .
ابنا بغيض : ع ٨٧ عبس وذبيان . ابنا ريعة : ع ٧٥ .
ابنا ضمضم : ع ٨٩ هرم وحصين ابنا ضمضم المزيان ، قتلها ورد بن حابس
العبيسي ، وكان عنترة قد قتل أباهما من قبل فسكانا يتوعدانه .
ابن الحزم : ز ٤٣ — وفي رواية ابن الحزم بالخاء المهملة . ابن نهيك : ز ٤٢
ابنة مخرم : ع ٩ . ابنة معبد : ط ٩٥ — ابنة أخى طرفة بن العبد .
ابن هند : ح ٥٩ — هو عمرو بن هند .
أبو هند : ك ٢٣ — عمرو بن المنذر الأكبر ، وهو أبو المنذر أيضاً .
ابن يامن : ط ٤ — ملاح من أهل هجر ، أو تاجر ، ويروى « أو من سفين
ابن نيتل »
الأحلاف : ز ٢٦ — أسد وغطفان وطى ، لأن خزاعة لما أجلت بنى أجلت
بنى أسد عن الحرم خرجت مخالفت بنى طى ثم غطفان .
أحر عاد : ز ٣٢ — قدار عافر الناقة ، قال الأصمى : أخطأ زهير في هذا لأن
عافر الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من ثمود فلما طمعت فجعله من عاد ، وقال المبرد
هذا ليس بفاسط ، لأن ثمود يقال لها عاد الأخيرة ، ويقال لقوم هود عاد
الأولى ، والدليل على هذا قوله تعالى « وأنه أهلك عاد الأولى » .
الأرقام : ح ١٦ — قبيلة من بنى تغلب ، سموها « الأرقام » لأن عيونهم شبهت
بعيون الحيات ، والأرقام واحدها « أرقم » فكانوا معروفين بهذا .
إرم : ح ٦٨ — والدعاء الأولى أو الأخيرة .
أسماء : ح ١ — صاحبة الحارث بن حلزة .
أم أوفى : ز ١ — امرأة زهير بن أبي سلمى .

- أم الحويرث : س ٧ - هي هر ، أم الحارث بن حصين بن ضمضم الكلبي .
 أم عمرو : ك ٦٠٥ .
 امرؤ القيس : ح ٨٩ - ابن المنذر بن ماء الماء ، وهو أخو عمرو بن هند لأبيه .
 أم الرباب : س ٧ - امرأة من كلب . أم الهيثم : ع ٨ - كنية عبلة .
 امرؤ القيس : ح ٧٩ - هو ابن المنذر بن ماء الماء .
 الأوس : ح ٨٢ - بنو الأوس من كندة .
 إياد : ح ٤٩ - إياد بن نزار ، قبيلة كانت تنزل سنداد ، وهو نهر بين الحيرة إلى الأبله .
 بنات مُرّة : ح ٣٤ - هو أبو يثم . بنو بكر : ك ٧٣ . بنو رزاح : ح ٥٣ .
 بنو الطماح : ك ٩٩ . بنو عتيق : ح ٤٦ . تغلب : ح ٥٨ .
 تميم : ح ٣٤ ، ٥٢ . جرم : ز ١٧ - كانوا ولاية البيت قبل قر يش .
 جشم بن بكر : ك ٥١ ، ٦٠ ، ٨٩ . جندل : ح ٥٠ .
 الجون : ح ٨٢ - ملك من ملوك كندة وهو ابن عم قيس بن معد يكرب .
 حجر بن أم قطام : ح ٧٧ .
 الحداء : ح ٥٠ - قبيلة من بني ربيعة ، ويقال : هو رجل من ربيعة .
 حصين بن ضمضم : ز ٣٤ - من بني مرة .
 حنيفة : ح ٤٥ - قبيلة من قبائل العرب .
 خولة : ط ١ - امرأة من بني كلب ، شرب بها طرفة . دعى : ك ٩٩ .
 الديلم : ع ٣٢ .
 ذي البرة : ك ٦٤ - هو كعب بن زهير ، رجل من ربيعة ، قيل له « ذو البرة »
 لأنه كان على أنفه شعر خشن فشبه بالبرة وهي حلقة تكون في أنف
 البعير . زهير : ك ٦٢ - جد عمرو بن كلثوم من قبل أبيه .
 شارق الشقيقة : ح ٧٠ - فرم من بني شيبان جاءوا يغيرون على إبل عمرو بن هند
 وعليهم قيس بن معد يكرب .

- طسم : ح ٤٩ - طسم وجديس قبيلتان من قبائل عرب الجنوب .
- المباد : ح ٤٧ - قبائل شقي من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية ، ونزلوا الحيرة .
- عبس : ز ١٩ - قبيلة من قبائل العرب ، وعبس وذبيان هما ابنا بنيض .
- عبله : ع ٤ ، ٧ صاحبة عنزة . عتاب : ك ٦٣ - جد عمرو بن كلثوم .
- علقمة بن سيف : ك ٦١ - رجل من سادات تغلب . عمرو : ع ٧٠ .
- عمرو : ح ٢١ ، ٦٥ ، ٦٦ - هو عمرو بن هند ملك الحيرة .
- عمرو بن أم أناس : ح ٨٤ - هو عمرو بن حجر الكندي ، وجده هو عمرو بن هند .
- عمرو بن هند : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ . من ملوك المناذرة بالحيرة . وهند هي بنت عمرو بن حجر آكل المراد .
- عنيزة : س ١٤ .
- العواتك : ح ٧٢ - نساء من كندة من الملوك .
- غسان : ح ٨٠ - في الأصل اسم ماء نزل عليه بنو مازن من الأزد وبنو جفنة ، فسموا به .
- الغلاق : ٥٧ رجل من بني يربوع بنى حنظلة من تميم .
- غيظ بن مرة : ز ١٦ - من ولد عبد الله بن غطفان .
- قاطمة : س ٢٢ .
- قرط بن أعبد : ط ١٧ - رجل من قوم طرفة .
- قريش : ز ١٨ .
- قضاعه : ك ٣١ ، ح ٤٨ - قبيلة من قبائل العرب قيس : ح ٥٠ - قوم من تغلب .
- قيس : ح ١٧ - هو قيس بن معد يكرب .
- قيس بن خالد : ط ٨٢ - من بني شيبان .
- كلثوم : ك ٦٣ - هو كلثوم بن مالك بن عتاب ، وهو أبو عمرو بن كلثوم .
- كليب : ك ٦٥ - كليب بن ربيعة من سادات تغلب ، الذي أثار مقتله حرب البسوس .
- كندة : ح ٤٤ - قبيلة من قبائل العرب .
- مالك : ط ٧٠ - ابن عم طرفة .
- المالكية : ط ٣ - منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة .
- محارب : ح ٤٥ - قبيلة من قبائل العرب . المري : ل ١٧ - المنسوبة إلى قبيلة مرة .

- معبد : ط ٧٣ - أخو طرفة .
 معد : ز - ٢٢ ، ك ٤٠ ، ٩٣ .
 صرة : ع ٧٥ .
 المنذر : ح ٥٩ ، ٨٠ ، هو المنذر بن ماء السماء .
 المنذر بن ماء السماء : ح ٣٧ .
 مفشم : ز ١٩ - امرأة عطارة ، تحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها ، ثم خرجوا
 إلى الحرب فقتلوا جميعا ، فقتلوا العرب بها .
 المهلهل : ك ٦٢ - صاحب حرب وائل التي تسمى حرب « البسوس » وهو أخو
 كليب ، وجد عمرو بن كلثوم من قبل أمه .
 ميسون : ح ٦٠ - بنت ملك من ملوك غسان ، قتل النعمان أبها .
 نوار : ل ١٦ ، ٥٥ - صاحبة لبيد .
 نوفل : ز ٤٣ .
 هند : ح ٦ - صاحبة الحارث بن حلزة .
 وهب : ز ٤٣ .

(٥) ومعى الصفات والسكنيات :

- الأتلع : ط ٢٩ - العنق الطويل .
 الأرض : ح ٢٥ - الجبل .
 الإرمي : ح ٦٨ - المنسوب إلى إرم جد عاد وابن سام بن نوح .
 الأروع : ط ٣٦ - الفؤاد الذكي الذي يتوقد فطنة .
 الأزهر : ع ٤٣ - الإبريق الأبيض من فضة أو رصاص .
 الأسودان : ح ٧١ - التمر والماء ، وإنما قيل لهما أسودان أحدهما أبيض
 لأن العرب تغلب أحد الاسمين على الآخر .
 الأسيل : س ٣٧ - الخلد الأسيل الذي في طوله امتداد .
 الأصفر المضبوط : ط ١٠٣ - القدح الذي وضع على النار ، فغيرت منه ، وأثرت فيه .
 الأملئ : ط ٨ - الفخر الموصوف بالملئ ، وهو سمرة في الشفة .
 أم رئال : ح ١٠ - النعامة ، والرئال فراخ النعام ، واحدها رئال .
 أم سقب : ك ١٩ - الناقة ، والسقب الذكر من أولادها .

- الأمون : ط ١٢ - الناقة للمأمون عذارها .
- الأفقاء : ل ٤٢ - جمع نفا ، وهو الرمل الذى ارتفع طولا ، أو هو الكتيب الذى لم يخالطه غيره .
- البكر : ع ٢٠ - السحابة التى لم تعطر بعد ، فهى أكثر ماء ، وفى رواية « جادت عليها كل بكر حرة » .
- البهكنة : ط ٦٠ - المرأة الغضة الناعمة الشابة . البيت : ز ١٧ - الكعبة .
- البيض : ك ٣٦ - السيوف . بيضة الخدر : س ٢٧ - المرأة .
- الثياب : ع ٥٨ - كناية عن القلب « فشككت بالرمح الأعم ثيابه » .
- الجدراء : ل ٦٦ - النخلة التى انجرد كرسبها وليفها .
- الجزور : ل ٧٣ - الناقة التى جزرت أى نحررت .
- الجسرة : ع ٣٨ - الناقة الضخمة القوية .
- الجلى : ط ٧٥ - الخطة العظيمة التى يجلى وقعها ويعظم خطرها .
- الجمالية : ط ١٣ - الناقة تشبه الجمل فى قوة أعضائها ، ووثاقة خلقها .
- الجنوح : ط ٢٦ - الناقة التى تعتمد على أحد شقيها .
- الحائق : ل ٤٦ - الضرع الملائن .
- حامى الحقيقة : ع ٦٠ - الرجل الذى يحمى ما عليه أن يحميه .
- الحزاورة : ك ٩٢ - جمع حزوّر وهو الغلام الشديد .
- الحصد : ل ٢٩ - رأى الحكم . الحلوبة : ع ١٥ - الناقة المحلوبة .
- الحليل : ع ٤٦ - الزوج .
- الحذول : ط ٧ - الظبية خذلت صواحباتها ، فتخلفت عنهن .
- الخضراء : ح ٧٧ - الكتيبة يكثر فيها السلاح ، فتكون كأنها خضراء .
- الخطارة : ع ٢٧ - الناقة تخاطر بذنبها تحركه وترفعه ، تضرب به حاذيها ، والحاذان حافتا الإليتين .

الخنساء : ل ٣٧ - البقرة الوحشية التي تأخر أنفها في وجهها وقصر .

الدالج : ط ٢٢ - الذي يأخذ الدلو ويمشي بها من رأس البئر إلى الحوض ، حتى يفرغها فيه .

درير : س ٦٣ - حصان سريع المشى ، كأنه يدر الجرى درا .

الدفاق : ط ٢٦ - الناقة التي تتدفق في سيرها .

الدفواء : ح ٨٢ - الكتبية المنعنية على ما تحتها ، يعنى أنها منمطفة على ملابها تقاتل عنه وتذب دونه ، والأدق من القرون المنحني .

الدلاص : ك ٧٦ - الدرع المحمكة . الدواجن : ل ٤٩ - الكلاب المعودة على الصيد

الدوارع : ك ٨٠ - الخيل التي عليها الدروع ، ودروع الخيل ما يحمل عليها من الكساء .
الديمة : ل ٤٠ - المطر الذي يدوم .

ذو البرة : ك ٦٤ - رجل من تظاب ، كان على أنفه شعر يلتوى كأنه البرة ، وهي الحلقة .

ذو التمام : س ١٩ - الصبي تعلق في عنقه خرزات تمنع عنه العين .

ذو خصل ط ١٦ - : الذنب .

ذو غروب : ع ١٦ - الثغر ، وغروب الأسنان حدها .

ذومرة : ل ٢٩ - الرأى القوى . ذو هبوة : ل ٦٤ - الجبل ذو الغبار .

الرتبذ : ع ٦١ - الرجل السريع الضرب بالقداح .

رحبية الفرعين : ع ٥٧ - الدلو الواسعة .

رخص : س ٤٣ - الأنامل الغضة الطرية .

الرذية : ل ٧٦ - المرأة التي قد أرذاها أهلها أى ألقوها لعجزهم عن إطعامها وعجزها عن السعى والسكسب لنفسها .

الرواعد : ل ٤ - السحاب جمع راعدة ، والرعد صوتها ، يصفقها الريح بعضها في

بعض فيحصل من تصادمها واحتكاكها هذا الصوت الذي يسمع منها .

الزفوف : ح ١٠ - الناقة السريعة الخفيفة ، والزيف عدو النعام إذا أسرع .

- الزهراء : ح ٥٥ - الناقة البيضاء .
- الزرافة : ع ٢٧ و ٣٨ - الناقة تتبختر في مشيتها .
- الساج : ع ٤٩ - الحصان السريع . السابعة : ك ٧٦ ، ع ٦٠ - الدرع الطويلة .
- السارية : ل ٥ - السحابة تسمى ليلا . السبط : ل ٣١ - الغبار الممتد .
- السقاء : ح ١٠ - النعامة ، في رجلها انحفاء . السم : ك ٣٦ - الرماح .
- السمهرية : ل ٥٠ - الرماح الطوال ، يقال إنها منسوبة إلى «سمهر» اسم رجل كان يقوم الرماح .
- الشادن : ط ٦ - الفزال إذا تحرك فاشتد ، واستغنى عن أمه .
- الشامة : ح ٥٥ - الناقة السوداء . الشاة : ع ٦٦ و ٦٨ - كناية عن المرأة .
- الشنن : س ٤٣ - الكف الغليظ الخشن .
- الشدنية : ع ٢٦ - الناقة نسبة إلى « شدن » موضع باليمن .
- الشقاق : ل ٣٧ - جمع شقيقة ، وهي أرض غليظة بين رملتين .
- صادقتا سم : ط ٣٤ - الأذنان . الصافية : ل ٦٠ - الحجر التي لا قذى فيها .
- الصباح : ل ٦٠ - الحجر تشرب أول النهار .
- صدق الكموب : ع ٥٦ - القناة الصلبة ، والكعب ما بين كل أنبوتين .
- الصقواء : س ٥٩ - الحجر الصلب . الصم : ل ١٠ - الديار لا تجيب للسائل .
- الصهباء : ل ٢٤ - السحابة التي في لونها صبهة أى حمرة .
- ضليع : س ٦٥ - الحصان التام الخلق الغليظ الألواح الكثير المص .
- طليح أسفار : ل ٢٢ - الناقة ، والطليح هو الذي أجهد السير وأهزله .
- الطوى : ح ٧٥ - البئر المطوية . الظعائن : ز ٧ - النساء في هواجهن .
- العافر : ل ٨٤ - المرأة التي لا تلد . العباء : ح ٧١ - المضبة البيضاء .
- العتاق : ط ١٤ - الإبل الكرام . العشوزنة : ك ٥٨ - القناة الصلبة الشديدة .
- العهم : س ٨٠ - الوعول المعتصمة بأعلى الجبال .

- العنبد : ط ٢٦ - الناقة الضخمة الرأس . العنود : ح ٨٢ - الكتبية الهيكلة .
 العنيف : س ٦٢ - الراكب الذى ليس له رفيق بركوب الخيل .
 العوارض : ع ١٨ - منابت الأضراس ، واحدها عارض ، وأراد الأسنان كلها .
 الموجاء : ط ١١ - الناقة الضامر .
 العين : ل ٧ - البقر الوحش ، جمع عيناء ، وهى الواسعة العين .
 العين : ع ٢٠ - المطر لا يقلع خمسة أو ستة أيام . الغادى : ل ٥ - السحاب ينشأ غدوة .
 الغانية : ع ٤٦ - المرأة ذات الزوج المستغنية بزوجها ، ثم قيل للشابة غانية سواء
 أكانت ذات زوج أم لم تكن .
 الغُبس : ل ٣٨ - الغناب التى لونها كلون الرماد ، وهو بياض فيه كدرة .
 الغضف : ل ٤٩ - الكلاب المسترخية الأذان .
 غلب : ل ٧١ - جمع أغلب ، وهو الفحل الفليظ الرقة .
 الغوى : ط ٦٤ - الرجل الضال الملتكب عن طريق الصواب .
 الفاحش : ط ٦٦ - الرجل البخيل . الفارسية : ح ٧٧ - السلاح من عمل فارس .
 الفراخ : ع ٧٧ - جمع فرخ ، وفرخ الرأس الدماغ .
 قاصمة الظهر : ح ٥٦ - المصيبة التى تسكسر الظهر لشدها .
 القراضبة : ح ٦١ - الصعاليك .
 قريب بين المنسمين : ع ٢٨ - ظليم قريب بين المنسمين ، ومنسماء ظفراه
 المقدمان فى خفة . القرينة : ك ٦٦ - الناقة تقرن إلى غيرها .
 القناة : ك ٥٧ - عود الرمح .
 القهد : ل ٣٨ - ولد البقرة الأبيض ، أو هو الأبيض الذى يحاط بياضه صفرة أو حمرة .
 قيد الأوابد : س ٥٧ - الحصان السريع الذى يمنع الوحوش من الإفلات .
 القينى : ز ١٥ - الرجل المنسوب إلى بلقين ، وهم حى من اليمن تنسب إليهم الرحال .
 الكافر : ل ٦٥ - الليل . الكبش : ح ٧١ - الرجل العظيم النبيل .

- كثيرة غر باؤها : ل ٧٠ - : يقصد بها قبة النعمان بن المنذر .
الكديد : س ٦١ - الأرض المكدودة بمحوافر الخيل .
كيت : س ٥٩ - الحصان في لونه حمرة مشوبة بسواد .
الكهاة : ط ٩٠ - الناقة الضخمة السمينة .
الكواسب : ل ٣٨ - الذئاب التي تسكب الصيد .
اللاحب : ط ١٢ - الطريق لا حزنونة فيه .
لزاز عظيمة : ٧٨ - الرجل الذي يلزم الأمر العسير حتى يذله .
اللاوامع : ل ٥٣ - الآل يراه الإنسان في الضحا كأنه يرتفع وينحط .
المتبسم : ع ٥٤ - الثغر . المتروم : ع ١ - الثوب المرقع .
المتنزل : س ٥٩ - المطر . المتوحد ط ٩٨ - الرجل المنفرد الذي لا أصحاب له .
المتنقف : ع ٥٦ - الرمح المصلح المقوم . المثقل : س ٦٢ - الراكب الثقيل .
الحنطب : ط ٥٩ - الفرس الذي في يده انحناء .
الحخوف : ل ١٣ - الهودج المغطى .
الحخوفة : ل ٣٥ - العين حفت بالقصب نابتا فيها ، وأصله أنه ينبت في أحفتها
أى جوانبها .
الححول : س ١٩ - الذي أتى عليه حول .
الححول : س ٦٩ - الصبي الكثير الأخوال .
مدبر : س ٥٨ - الحصان . المدجج : ع ٥٥ - الفارس الذي يتوارى بسلاحه
المدرية : ل ٥٠ - البقرة ذات القرون . مدّ النهار : ع ٦٤ - أوله .
المرايع : ل ٤ - الأمطار تكون في أول فصل الربيع .
المرتقب : ل ٦٤ - الموضع الذي يرقب فيه .
المرقال ط ١١ - الناقة تسرع في سيرها .
المركل : س ٦١ الذي كبد بمحوافر الدواب ، من الركل ، وهو الضرب .

المرّية : ل ١٧ - المرأة منسوبة إلى قبيلة مرة .

المسبوعة : ل ٣٦ - البقرة التي أكل السبع ولدها .

المستكنة : ز ٣٥ - الخطة التي يكنها الإنسان في صدره ، ويخفيها عن غيره .

المسحج : ل ٢٦ - الحمار المعضض الذي عضضته الحمار .

المسجورة : ل ٣٤ - العين المملوءة ، وقيل إنها من الأضداد . قال أبو زيد :

المسجور يكون المملوء ، ويكون الذي ليس فيه شيء .

المسح : س ٦١ - الذي كأنه يصب الجرى .

المشعلة : ل ٣١ - النار التي أشعلت .

المشمولة : ل ٣٢ - النار التي أصابها ريح الشمال فهي تلتهب .

المشوف : ع ٤٢ - الدينار المجلو . مصرع الغابة : ل ٣٥ - القصب المائل .

المطفل : س ٣٧ - ذات الطفل . المطفل : ل ٧٤ - المرأة ذات الطفل .

المحفر : ل ٣٨ - ولد البقرة تريد فطامه فتمنعه من اللبن ، فإذا خافت عليه نقصان

رجعت فأرضعته ، ثم قطعت عنه ، حتى يأنس بذلك .

المعلم : ع ٤٢ - الدينار الذي فيه كتابة . المعلم : س ٦٩ - الصبي الكثير الأعمام

المخالق : ل ٧٣ - القداح التي تطلق الرمن أي نجعله مطلقا لا يمكن فككاكه .

المخدّم : ل ٧٩ - الرجل يرمى الكلام بعضه على بعض يستخف به ، لا يصلحه ،

ولا يتأق فيه .

المفايل : ط • - الفقى لاعب الفيال أو صانعه ، وهي لعبة لهم كانوا يكمون التراب

أو الرمل ثم يخبثون فيه خبيثا ، ثم يشق المفايل بيده الكومة قسمين ،

فيقول : في أي الجانبين خبأت ؟ فإن أصاب غلب ، وإلا قيل له :

قال رأيك ! .

المقدم : ع ٤٣ - الإبريق الذي عليه القدم ، وهو المصفاة .

مفر : س ٥٨ - الحصان . مقبل : س ٥٨ - الحصان .

المقبّل : ع ١٦ - النفر .

المقرمذ : ع ٣٥ - السنام الذى لزم بعضه بمضا كأنه مبنى بالآجر .

مكر : س ٤٨ - الحصان . الملبد : ط ١٦ - الجمل يضرب إلبذنبه من الهياج .

للمع : ل ٢٥ - الأتان أشرقت أطباؤها باللبن واسودت حلتاها .

المنجرد : س ٥٧ - الحصان قصير الشعر .

المنيفة : ل ٦٦ - النخلة المنيفة الطويلة المشرفة .

مولى الأسرة : ط ١٥ - المسكان الذى يفضل غيره ، وقد أصابه الولى وهو المطر

الثانى من أمطار السنة ، لأنه يلى الوسمى ، وهو المطر الأول .

المولى : ط ٧٨ ، ٧٩ - ابن الم . الناجيات : ط ١٤ - الإبل السراع .

الفاظرة : س ٣٧ - العين . النحام : ط ٦٤ - الرجل الهخيل .

النفاذ : ك ٧٩ - الخيل التى استنفذت من قوم آخرين .

النهد : ع ٤٩ - الحصان الغليظ . الهاديات : س ٦٧ - المتقدّمات من الوحش

هادية الصوار : ل ٣٦ - البقرة التى تتقدم قطع البقر .

الهيام : ل ٤٢ - الرمل اللين ، الذى ينهال ولا يتماسك .

الهيكل : س ٥٧ - الحصان العظيم الجرم .

الواكف : ل ٤٠ - المطر يكف من السحابة .

الوييل : ط ٩٠ - الوييل العصا ، وقيل هى خشبة القصارين ، وكل ثقيل وييل .

الوجناء : ط ١٣ - الناقة العظيمة الوجنات ، لفضل قوة فيها .

الوحشية : ل ٣٦ - البقرة الوحشية . اليلندد : ط ٩٠ - الشديد الحصومة .

(٦) ومن أجزاء الجسم فى الانعام والحيوان :

الإيهام : ل ٦٠ . الأتلع : ط ٢٩ - العنق الطويل .

الأزلام : ل ٤٤ - فى الأصل قذاج الميسر ، وقد أطلقها ليبد على القوائم .

الأعلم : ط ٣٧ ، ع ٤٦ - المشفر .
الأنف : ط ٣٧ .

الأبطلان : س ٦٤ - أبطلا الظبي خاضعته
البنان : ع ٥٩ ، ٦٤ .

الترائب : س ٣٥ - جمع تريبة ، وهي محل القلادة من الصدر .

الندى : ك ١٥ . الثغر : ع ٥٤ ، س ١٨ . الثنايا : س ١٨ .

الجران : ط ٢٠ - مقدم عنق البعير . الجفن : ح ٣٠ . الجلود : ك ٧٧ .

الجمجمة : ط ٣٠ . الجاجم : ك ٣٧ . الجناحان : ط ١٧ .

الجيد : س ٣٨ ، ٦٩ ، ع ٦٩ . الجوف : س ٥٤ .

الحجاج : ط ٣٢ - العظم الذى ينبت عليه الحاجب .

الحيزوم : ط ٥ - الصدر ، وجمعه حيازيم .

الخافية : ع ١٥ - واحدة الخوافى ، وهي الريش دون الريشات المشر من

مقدم الجناح . الخد : س ٣٧ ، ط ٣١ . الخف : ع ٢٧ .

الدأى : ط ٢٠ - من البعير جمع دأية ، وهي الفقار ، وكل فقرة من فقار العنق

والظفر دأية .

الدأيات : ط ٢٧ - منتهى الأضلاع فى الظهر أو فى الصدر

الدف : ع ٣٣ - هو الجنب .

الدم : ز ٩ ، ١٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٣ ، ل ٥٢ ، ع ٥٣ ، ٩٠ .

الدماء : س ٦٧ ، ج ٧٦ ، ٨٠ . الدوابر : ل ٣٠ - مآخير الحوافر .

الذراع : ع ٢٣ ، والذراعان : ك ١٤

الذفريان : ع ٣٨ - عرقان مشرقان وراء الأذنين .

الذقن ، الأذقان : س ٧٩ . الذنب = ذو خصل : ط ١٦ .

الرأس : س ٢٤ ، ٣٤ ، ٨٣ ، ط ٣٩ ، ٨٤ ، ع ٣٠ ، ٦٤ .

الرموس : ك ٢٨ ، ٤٢ ، ٩٢ . الرجل : ط ٢٤ . الرقاب : ك ٣٨ .

الروادف : ك ١٦ . الساق : س ٤١ ، ط ٩١ . الساقان : س ٦٤ .

السديف : س ١٣ ، ط ٩٤ - شحم السنام . المرأة : ع ٢٤ - الظهر .

- السنام : ل ٢٢ . السواعد : ك ٩٠ . الشحم : س ١٢ .
 الشدق : ع ٤٦ . الشفتان : ع ٧١ . الشق : س ٢٠ .
 الشلو : ل ٣٨ - شلو كل شيء بقيته . الصدر ، الصدور : ح ٥٢ .
 الصُّلب : س ٤٩ .
 الصَّهْوَة ، الصَّهْوَات : س ٦٢ - صهوة الفرس محل اللبد منه .
 الضُّبَّاعان : ط ٣٩ - هما المضدان .
 الطرف : س ٧٣ ، ع ٥ . الظفر ، الأظفار : ز ٣٨ .
 الظهير : س ٢١ ، ط ١٢ ، ٢٧ ، ح ٥٦ .
 الحشون : ط ٢٤ - شعيرات طوال تحت حنك البعير .
 المعجز ، الأعجاز : س ٤٩ . العسيب : ط ١٧ - منبت الذنب من الجلد والعظم .
 المضد ، المضدان : ط ٢٥ . العظام : ل ٦٧ .
 العين : س ٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ز ١٢ ، ح ٣٠ - العينان : س ٢٦ ، ط ٣٢ ،
 ع ١٧ ، ح ٦ والعيون : ك ١١ ، ح ٢٤ . الندائر : س ٤٠ .
 الفخذان : ط ١٩ . الفرج : س ٦٥ - الفضاء بين رجلي الفرس ويديه .
 الفرع : س ٣٩ - الشعر .
 الفريضة : ع ٤٦ - المضعة في مرجع الكتف ترعد عند الفزع ، الفرائض : ط ١٠٢ .
 الفم : ١١ ، ٣٤ ، ٧١ .
 فودا الرأس : س ٣٤ - جانباً الرأس . الفؤاد : س ٣٤ ، ٤٦ .
 القدم ، الأقدام : ل ٧١ . القَرَآ : ط ٢٤ - الظهر . القفا : ك ٥٩ .
 الأقفاء : ح ٨٣ . اللقب : س ٢٣ ، ٢٦ ، ز ٤٥ . الكاهل : س ٥٣ .
 الكتفان : ط ٢٦ . الكشح : س ٣٤ ، ٤١ ، ط ٨٥ ، ك ١٧ ، ز ٣٥ .
 الكف : ط ١٠٣ ، ع ٥٦ . الكفَّان : س ٦٣ ، الأكف : ك ١٥ .
 الكلكل : س ٤٩ - الصدر . اللبان : ع ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ . اللَّبْد : ز ٣٨ .

- الائة ، اللثات : ط ٩ . اللحم : س ١٢ ، ٧٢ ، ز ٦٢ . اللسان : ز ٦٢ .
 المأكنة : ك ١٧ - رأس الورك . المتبسم : ع ٥ . المآين : س ٥٩ .
 المتنان : س ٦٦ ، المتون ك ٧٨ ، ٨٦ . الحال : ط ٢٠ - فقار الظهر .
 المخلخل : س ٣٤ - موضع الخللخال من الساق . المرفقان : ط ٢٢ .
 المشفر : ط ٣١ . المعصم : ع ٥٩ ، ز ٢ . المقيبيل : ع ١٦ .
 المنسم : ز ٥١ والمنسمان : ع ٢٨ - الظفران المتقدمان في الخف . الناب ، الأناب : ز ٥١ .
 الناطرة : س ٣٧ . النحر : س ٩ ، ٦٧ ، ل ٦٨ ، ع ٨٠ ، ٨٨ .
 النساء ، الأنساء : ح ٧٤ - عرق في الساق الأسفل .
 النواجد : ع ٦٢ - الأسنان الضواحك . وهي التي تبدو عند الضحك ،
 والأكثر الأشهر أنها أقصى الأسنان .
 النواشر : ز ٢ - عصب الذراع من باطنها وظاهرها . الوجه : ١٠ ، ل ٤٣ .
 الوحشى : ع ٣٣ - الجانب الوحشى هو الجانب الأيمن من البهائم .
 الوظيف : ما بين الرسغ إلى الركبة .
 اليد : ط ١ ، ٢٤ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ز ١١ ، ل ٦١ ، ٦٥ ، واليدان :
 س ٧٥ ، ط ٢٥ ، ع ٣٤ ، ٤٧ ، ٦١ - الأيدي ك ٢٢ ، ٤٣ ، ح ٥٣ .



وإذا نظرنا في هذه المجموعة من الألفاظ ألفينا الغريب منها هو تلك الألفاظ
 التي لم تعد مألوفة في الاستعمال ، لأنها أسماء مواضع لا عهد لنا بها ، أو أعلام تغير
 أكثرها ، أو نبات أو حيوان لم نعد نراه في بيئاتنا ، أو أسماء رمال وتلال اختلفت
 أطوالها وأبعادها ، ولم نعد نعيش فيها ، وكذلك وجدنا في هذه الألفاظ أسماء لأجزاء
 من الخيل والإبل التي كان العرب يلزمون فيها في عيشهم وحلهم وترحالهم ، وكانت
 تلك الملازمة هي السر في معرفتها على جهة الاستقصاء والتفصيل ، على حين أن
 ذوى الثقافة اللغوية والأدباء لم يعد لهم ذلك الإلف بالحيوان الذي يدعو إلى المعرفة

السكاملة الشاملة ، وهذا هو السر فيما يبدو من غرابة تلك الألفاظ التي لم تكن على هذا النحو من الغرابة عند الجاهليين ، أو عند الذين عاشوا في مثل حياتهم البادية . أما الذين سكنوا في القرى والحوضر ، وزاولوا الحرف والصناعات المختلفة ، فقد نأوا عن استعمال تلك الألفاظ التي لم يعودوا يجدونها في حياتهم ، ولذلك جهلوا دلالاتها ، وصعب عليهم الوقوف على معناها ؛ واضطروا إلى الكشف عنها في معاجم اللغة ، أو سؤال العارفين بها .

وعلى ذلك يمكن القول بأن ألفاظ المملقات فيها غرابة ، ولكن بالنسبة إلى المتأخرين . وكذلك يمكن القول بأن في كثير من ألفاظها جفاء وخشونة يبعدها عن أذواق أهل العصور المتأخرة . والسبب في ذلك الجفاء وتلك الخشونة هو جفاء حياة الجاهليين وخشونة عيشهم ، وقسوة الطبيعة في بيئاتهم ؛ ولذلك رأينا في تلك الألفاظ ما تركب من حروف قوية ، كحروف الإطباق والقلقلة وكحروف الجهر وبعض أحرف الحلق ، مما كان له أثر في وصف تلك الألفاظ بالجزالة والقوة التي قد ينفر منها ذوق الذين تحضرت لغتهم ، وجنحت إلى الرقة والسلاسة والعدوبة . ولكن الحكم بأن جميع ألفاظ المملقات على هذا الوصف لا يخلو من التوسع ، فإن في تلك الألفاظ ما يمكن أن يوصف بالعدوبة والرقة أيضاً ، وذلك الاختلاف راجع كما أسلفنا إلى اختلاف الأغراض التي عالجتها المملقات ، واختلاف حظ أصحابها من التحضر أو التبدد .

أما الأساليب فإنها هي أساليب العربية الصحيحة التي احتذاها المعبرون عن عواطفهم وانفعالاتهم وأمانيتهم من الذين جاءوا من بعدهم ، إذا أرادوا التعبير الأدبي عن أى معنى من المعاني التي تعرض لهم ، وليس من السهل الحكم على تلك الأساليب بمخالفة أصول التعبير ، لأن الذين وضعوا هذه الأصول إنما استقوها من هذا الشعر وأمثاله مما أثر من كلام الجاهليين ، واتخذوا من أساليبه مقاييس قاسوا بها أساليب المتأخرين ، وحكوا عليها بما تقتضيه هذه المقاييس بالصحة أو بالخطأ .

وكان الكلام الفصيح عندهم ، هو الكلام الجازى على كلام العرب القدماء الموصوفين بالفصاحة أو بالبلاغة ، وفي مقدمتهم أصحاب المعلقة .

ويقلب على أساليب المعلقة الإيجاز وحذف الفصول .

ومن خصائصها مخاطبة الرسوم ، ومساءلة الأطلال والدمن ، وخطاب الحيوان ، والتحدث عن مشاعره ، وقد خاطب امرؤ القيس الليل (٤٨ - ٥٠) وحيا زهير الرّبع في قوله :

فلما عرفتُ الدار قلتُ لربّهم — ألا انتم صباحاً أبها الرّبعُ واسلم —
ووقف ليبد يسأل الأطلال ، وهو يعرف أنه لن يظفر منها بجواب :

فوقفتُ أسألها كيف سؤالنا صمّا خوالداً ما يبين كلامها
وتحدث عنقرة إلى الرسوم ، حتى اختلط عليها أمرها :

أعيالكَ رسمُ الدار لم يتركلمُ حتى تركلمُ كالأممِ الأعجم —
ولقد حبستُ بها طويلاً ناقى أشكو إلى سفعٍ روا كدَ جُثم —
حتى حيّاها ، ونعى جوابها :

يا دار عبلةً بالجواء تركلمى وعى صباحاً دار عبلة واسلمى
وصوت محاولة حصانه الشكوى إليه من هول الموقعة ، ومما ناله من الجراح :

فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بـمـبرة ونمحم
لو كان يدرى ما المحاورَةُ اشتكى ولسكان لو علم السكلام مكلمى
ولم يكتف بذلك حتى طلب إلى حبيبه أن تسأل الخيل ، لتخبرها عن شجاعته وحسن بلائه في الحروب :

هلاً سألت الخيل يا ابنة مالكٍ إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلّمى

أما المحسنات البديعية وضروب الصناعة فقد ألّم بها أصحاب المعلقة ، وفتنوا إليها من غير توقيف ، وذلك لأنهم أحسوا بفطرتهم الفنية بأن الأدب فن ،

والفن مجال التأنيق ، وكانت أداتهم في هذا الفن الشعرى هي الألفاظ والأساليب ، ولا شك أن الشعر في تحوير ألفاظه ، وتنسيقها ، ومراعاة موسيقى الألفاظ ، وموسيقى القافية ، كان خبير مظهر للصناعة الأدبية ، والتأنيق الفنى في التعبير .

ولذلك كان حسب الشعر مافيه من نظام القصيدة ووحدة الوزن والقافية ليكون مظهرًا للفنية في صناعة الشعر ، ولكن بعض الشعراء اهتموا إلى ضروب أخرى من الصناعة ، واستعملوها في قصد واعتدال ، لا يلاحظ فيه أثر العمل أو التكلف في طلب الصنعة ؛ ومع ذلك فإن تلك الصنعة تبدو في فنون قليلة من فنون البديع التي أحصاها المتأخرون ، ووضعوا لها الألقاب والمصطلحات ، وغالى كثير من أدبائهم في استعمالها ، حتى ظهر على أعمالم الأدبية مسحة التكلف ذلك التكاثر الذى زهد الناس في أدبهم ، بل زهدم في البديع نفسه الذى أصبح معناه في أذهان كثير من الناس طلاء على غير بناء ، وإخفاء لمعالم القبح في الأفكار ، وستر الضعف في المعاني .

ومن الفنون البديعية التي وقعت في الملاحظات : التصريع ، والترصيع ، والتجنيس ، والمطابقة . وسنعرض للفنين الأولين في أثناء تعرضنا للأوزان والقوافي .

ومن « التجنيس » الذى وقع في الملاحظات على قلة قول طرفة :

وإن أدعَ للجلِّ أكن من حُحاتها وإن يأنك الأعداء بالجهد أجهد
وقوله :

بلا حدثٍ أحدثته وكحديثٍ
هجأى وقذى بالشكاة ومُطرَدى
وقول زهير :

وورَّكن في السُّوبانِ يعلون متنه عليهنَّ دَلَّ النِّعامُ المتنمَّ
وقول لبيد :

محفوظةٌ وسَطُ البراعِ يظلمها منه مصرَّع غابة وقيامها

أنتك أم وحشية مسبوحة خذات وهادية الصوار قوامها
وقوله :

وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفى بأوفر حفظنا قسامها
وقول عنبرة :

علقتها عرساً وأقتل قومها زعما لعمرو أبيتك ليس بمزعم
ومما ورد فيها من «المطابقة» ، وهي الجمع بين الأضداد ، قول امرئ القيس :
مكرمة مفرمة مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السبل من عل
وقوله :

ورحنا يكاد الطأرف يقصر دونه متى ما ترق العين فيه تسفل
وقوله :

على قطن بالشيم أين صوبه وأيسرته على السدار فيذبُل
وقوله طرفة :

وما زال نشرابي المحور ولذتي وبيعي وإنفاق طريفي ومثلي
وقوله :

لعمرك ما أمرى على بغمه نهاري ولا ليلى على بسر مد
وقوله :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد
وقول زهير :

جعلن القنآن عن يمين وحزاة وكم بالقنآن من محل ورم
وقوله :

يمينا لغمم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبهم

وقوله :

يُوَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيَدَّخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يَجْعَلُ فَيَنْقَمَ
وقوله :

وَمَنْ لَمْ يُدْذَرْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يَهْدَمُ وَمَنْ لَا يُظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمَ
وقوله :

وَكَأَنَّ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجَبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّسْكُمِ
وقول لبيد :

دِمْنٌ تَجْرُمُ بَعْدَ عَهْدِ أَنْيَسِهَا حَجَجٌ خُلُونِ حِلَالُهَا وَحِرَامُهَا
وقوله :

فَاقْطَعِ لُبَانَةً مِنْ تَعَرَّضَ وَصْلُهُ وَلَشَرُُّ وَاصِلِ خَلَّةٍ صِرَامُهَا
وقوله :

مُخْفُوفَةٌ وَسَطِ الْيَرَاعِ يَظْلِمُهَا مِنْهُ مُصَرَّعٌ غَابِةٍ وَقِيَامُهَا
ومنها قول عمرو بن كلثوم :

وَإِنْ غَدَا وَإِنْ الْيَوْمَ رَهْنٌ وَبَعْدَ غَدٍ بَمَا لَا تَعْلَمِينَا
وقوله :

بَأَنَّا نُورِدُ الرِّايَاتِ بَيَاضًا وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا

فقد طابق فيه بين « الإبراد » و « الإصدار » . وفي هذا البيت أيضاً ما يسميه البديعيون « التدبيج » الذي يلحقونه بالطباق ، ويعرفونه بأنه الجمع بين الألوان في معنى من المدح أو غيره بقصد التورية أو السكناية . والجمع هنا بين البياض والحمرة يراد به السكناية عن شجاعتهم ، وأنهم لا يقيمون على ضم .
ومما ورد في معلقته من « المطابقة » أيضاً قوله :

بشبان يروُنَ القتلَ مجدّاً وشيِبَ في الحروبِ مجرتينَا
وقوله :

رأسٍ من بني جُشَمَ بن بكر ندقُ بِهِ السُّهولَةَ والحزونا
وقوله :

وكنا الأيمنينَ إذا التقينا وكان الأيسرينَ بنو أيتنا
وقوله :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشربُ غيرُنَا كدراً وطينا
وقول عنتره :

نَمْسِي وتصبحُ فوقَ ظهرِ حشيةٍ وأبيت فوقَ مَرَاةٍ أدمَ مُلجِمِ
وقوله في ابني ضمضم :

الشامي عِرضي ولم أشتُمهما والنَّاذِرِينَ إذا لم القهما دمي
وقول الحارث بن حلزة :

إنْ نبشْتُم ما بينَ مِلْحَةٍ قَالِصًا قِبَ فيه الأمواتُ والأحياءُ
وقوله :

لا يقيمُ العزيرُ بالبلدِ السَّم لَ ولا ينفَعُ القليلُ النَّجَاهُ
وتفويض الملاحظات بذلك الفن الذي يسميه البلاغيون « التناسب »
أو « مراعاة النظير » إذ كان الأدب بعامة والشعر بخاصة مظمراً للتناسب
والمطابقة بأوسع ما اشتمل عليه هاتان السكامتان من المعاني .

كما أن في كثير من أعجاز الأبيات وأواخرها كثيراً من ذلك الفن الذي
يسمونه « التذييل » من أمثال قول عنتره * ليس السكر يم على القنا بحجرم * وقول
زهير * ومها يُكتم الله يَعْلَم * وقول لبيد * إن المنايا لا تحاشِ سهامها *

وقد استعمل القدماء هذا البديع بقصد واعتدال ، وإلى هذا أشار عبد الله
ابن المعتز في مقدمة كتاب « البديع » الذي يقول فيه بعد أن نسب تسمية هذه

الفنون بالبديع إلى المحدثين : ليعلم أن بشاراً مسلماً وأبا نواس ، ومن تقيّلهم
وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر في أشعارهم ، فعرف
في زمانهم ، حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ، ودل عليه .. وإنما كان يقول
الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم
قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى
فادراً ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل^(١) .

٣ — أوزان المعلقة وقوافيها

أما الأوزان فقد اهتمت إليها أولئك الشعراء بوحى من فطرتهم ، ونظّموا
في تلك الأجر الشعرية بأذانهم للموسيقية الرفهة التي كانت تصحح أخطاءهم
فسكانوا يضبطونها تلقائياً ، إذا انحرفوا عن مواقع النغم ، أو وقعوا في شذوذه
الذي تنكره أذواقهم وأمعانهم ، كما كان لطول التجربة وكثرة المعاناة أثرها
في هذا الضبط والتصحيح ، من غير معلمين يوقفونهم على مواضع الخطأ والصواب .

ولا شك أن أولئك الشعراء بطبيعتهم كانوا أكثر الناس إحساساً بموسيقى
الشعر وتأثرأبها ، وليس من الطبيعي أن يلقنوا أصول هذه الصناعة من عامة
الناس أو من علمائهم ، لأن التقنيين العلمى ووضع القواعد التي تنظم هذه
الصناعة لم يكن لها وجود في تلك البيئة البدائية ، وإنما وضعت تلك القوانين
ونظمت القواعد فيما بعد في عصور الحضارة ، باستقراء تلك الأبيات والقصائد
التي وضع الشعراء فيها بأنفسهم تقاليد هذا الفن وأصوله .

ولم يكن أصحاب المعلقة هم الذين اخترعوا هذه الأوزان التي نراها
في قصائدهم ، وإنما كانت تلك الأوزان وغيرها من تقاليد الشعر ثمرة للتجارب
الكثيرة التي عبر بها فن الشعر عند اللوهو بين من أبناء الأمة العربية في عصور

(١) كذباب البديع لابن المعتز : ص ١٦ — طبعة الحلبي ١٩٤٥ م .

موغلة في القدم قبل نشأة أصحاب الملقات . وليس هذا المجال مجال البحث في أولية الشعر وتطوره من الهداء إلى الرجز إلى المقطعات ، وانتهائه إلى تلك القصائد الطويلة المحكمة . وقد سبق أن قررنا أن الشعر الذي نقرؤه في الملقات كان الصورة المثلّي للفن الشعري كما تصوره العرب ، أو بعبارة أخرى كان هذا الشعر هو التجربة الأخيرة لهذا الفن بعد أن باتت معالمة بعد المرور بتجارب كثيرة على أيدي عدد كبير من الشعراء ، منهم من عرفه التاريخ ، وكثير منهم طوى ذكركم الزمن .

وإذا طبقنا المعارف العروضية التي نظمها المحدثون على أوزان الشعر في الملقات ، ألفينا تلك الأوزان قد توزعت بين أربعة من محور الشعر ، هي : الطويل ، والكامل ، والوافر ، والخفيف :

فما جاء منها من بحر الطويل :

(١) معلقة امرئ القيس . (٢) معلقة طرفة . (٣) معلقة زهير .

وما جاء منها من بحر الكامل :

(١) معلقة ليبيد . (٢) معلقة عنتره .

وما جاء منها من وزن الوافر : معلقة عمرو بن كلثوم .

وما جاء منها من بحر الخفيف : معلقة الحارث بن حلزة .

وقد ألزم كل شاعر من شعراء الملقات الوزن الذي تخيره في كل بيت من أبيات قصيدته ، ولم يخرج على ذلك الوزن في أي بيت من أبياتها ؛ أي أن الوحدة الموسيقية قد روعيت تمام المراعاة في سائر أجزاء كل قصيدة ، مع الطول المالحوظ في كل تلك القصائد ، ومع تعدد الأغراض في كل قصيدة منها .

ومن مبالغاتهم في مراعاة الوزن لجوؤهم إلى ملاحظة التوازن بين أجزاء بعض الأبيات ، وهذا فن من فنون البديع سماه قدامة « الترصيع » تشبيهاً له بترصيع الجوهر في الحلي ، وأساسه أن يكون في المنشور ، وقد مثل له قدامة فيه

يقول بعضهم « حتى عاد تمر يضك تصريحاً ، وصار تمر يضك تصحيحاً » وعرفه بأن الفائز « يتوخى في كل جزأين متواليين أن يكون لهما جزآن متقابلان يوافقانهما في الوزن ، ويتفقان في مقاطع السجع ^(١) .

وهو في المنظوم « أن يتوخى فيه تصوير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به ، أو من جنس واحد في التصريف ^(٢) » . ومما جاء من هذا الفن في الملاحظات قول امرئ القيس في وصف فرسه :

مَكَرَّ مِغَرَّ مُقْبِلٍ مُذْبِرٍ مَعَا كَجَلُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ غَلٍ
وقوله في وصف ثمر حبيبته :

بَشَرٍ كَمَثَلِ الْأَقْحَوَانِ مَنْوَرٍ نَقِيٍّ الثَّنَائِيَا أَشْنَبٍ غَيْرِ أَثْمَلٍ ^(٣)
وقوله في وصف أصابع يدها :

وَتَعْطُو بِرُخْصٍ غَيْرِ شَتْنٍ كَأَنَّهُ أَسَارُيْعُ ظَبِيٍّ أَوْ مَسَاوِيكُ إِسْجَلٍ
وقوله في وصف بقر الوحش :

فَأَذْبَرْنَ كَالْجَزَعِ الْفَصْلِ بَيْنَهُ بِحَيْدٍ مُعِمٍّ فِي الْمَشِيرَةِ مُخَوِّلٍ
وقول طرفة في وصف ناقته :

جُحَالِيَّةٍ وَجَنَاءَ تَرْدِي كَأَنَّهُمَا سَفَنَجَةٌ تَبْرِي لِأَزْعَرَ أَرْبَدٍ
وقوله في الهجاء :

يَعْلَى عَنْ الْجُلَى سَرِيحٍ إِلَى الْخَنَاءِ ذُلُولٍ بِأَجَاعِ الرِّجَالِ مُلْهَدٍ
وقوله لببدي في الفخر بأمانة قومه :

وَإِذَا الْأَمَانَةُ قَسَمْتُ فِي مَعْشَرٍ أَوْفَى بِأَوْفَرِ حَظَّنَا قَسَامُهَا

(١) جواهر الألفاظ ٣ — مطبعة السعادة : القاهرة ١٩٣٢ م

(٢) انظر نقد الشعر ١٤ — مطبعة بريل : لندن ١٩٥٦ م .

(٣) الشنب محررة — كما في القاموس — ماء ورقة وعذوبة في الأسنان ، أو هطيط فيها ، أو حدة الأنياب . والتعل على وزن قفل وجبل السن الزائدة خلف الأسنان ، أو دخوله سن تحت أخرى في اختلاف من المنبت .

وقول عنقرة في وصف أطلال حبيته :

حُيِّتَ من طَلَلٍ تقادم عهدهُ أَفْوَى وأَقْفَرَ بعدَ أمِّ الهَيْثَمِ
وقوله :

ولقد نزلت فلا تَظَلِّي غَيْرَهُ مِنِّي بمنزلة الحبِّ المُكْرَمِ
وكقوله في وصف الناقة :

خَطَارَةُ غِيبِ الشَّرَى مَوَارَةُ تَطِسُ الإِكَامَ بوَخذٍ خَفٍّ مِثْمِ
وقول الحارث بن حلزة :

إن نبشتم ما بين ملحمة فالصَّا قَبٍ فيه الأمواتُ والأحياءُ
وقوله :

لا يقيمُ العزيزُ بالبلدِ السَّمَّ ل ولا ينفعُ القليلُ النجاءُ
قال قدامة « إن هذا الفن يوجد في أشعار كثير من القدماء المجيدين من
الفحول وغيرهم، وفي أشعار المحدثين المحسنين منهم » .

وكان حسب الشعر ما وضع في حده من اللفظ والوزن والقافية والمعنى ، وكان حسب
الشاعر على هذا الحد ألفاظه المختارة ، ووزنه المتسق ، ومعناه المبتكر ، وقافيته المستوية .
أما الترصيع فإنه مبالغة في التنسيق والتجميل والتأنق . وهو يحسن إذا اتفق
له موضع في البيت يليق به ، فإنه ليس في كل موضع يحسن ، ولا على كل حال
يصلح ، ولا هو أيضاً إذا تواتر واتصل في الأبيات كلها بحمود ، فإن ذلك إذا
كان دلَّ على تعمد ، وأبان عن تكلف ، والشاعر الجيد هو من لا تلاحظ في شعره
تعمل الصنعة أو تكلف الصياغة^(١) .

أما القوافي التي قامت عليها أواخر الأبيات في كل معلة من المعالقات ،
والتي عرفها العلماء بأنها الحروف من آخر البيت إلى أول متحرك ساكن ،

(١) انظر كتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبي) ٢٢١ — الطبعة الثانية ١٩٥٨ .

أو هي عبارة عن الساكنين اللذين في آخر البيت مع ما بينهما من الحروف المتحركة ومع المتحرك الذي قبل الساكن الأول ، فقد انتظمت في الملقات ، ولم يخرج على مقاييسها التي وضعها المروضيون وعلماء القوافي فيما بعد إلا القليل الذي يكاد لا يذكر ، وهي حروف ممدودة جانب فيها بعض الشعراء ما عرف من الوحدة المطلوبة في تلك القوافي . فحرف الروى وهو الحرف الذي بنيت عليه القصيدة ونسبت إليه واحد لم يتغير في كل قصيدة . وقد ألزم امرؤ القيس حرف اللام ، وطرفة حرف الدال ، والزم زهير وليد وعنترة حرف الميم ، والزم عمرو بن كلثوم حرف النون ، كما ألزم الحارث حرف الهمة ، ولم يخرج واحد منهم عن حرف الروى الذي اختاره لمطقتة .

وكان هذا الالتزام هو الذي جعل القافية تدخل في مفهوم الشعر وحدة عند العرب ، واعتبارها عنصراً من عناصر الشعر الأصلية فيه ، حتى غالى بعض شعرائهم فيما بعد ، فألزم نفسه بما لا يلزم من عدد حروفها .

ودعاهم الحرص على وحدة الموسيقى الحرص على حركة الروى ، وعدوا الخروج عليها عيباً من عيوب القافية ، عابوا به الشعراء ، وسموا هذا العيب « الإقواء » . نقل ابن قتيبة عن أبي عمرو بن العلاء أن « الإقواء » هو اختلاف الإعراب في القوافي ، وذلك أن تكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة ، كقول النابغة :

قالت بنو عامر : خالوا بنى أسدٍ يابؤسٌ للجبلِ ضرّاً لأقوامٍ^(١)
تبدو كواكبهُ والشمسُ طالعةٌ لا النورُ نورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ
وكان يقال إن النابغة الديبائي وبشر بن أبي خازم كانا يقويان^(٢)

(١) خالوا بنى أسد : تاركوهم ، يقال : خلاه إذا تاركه .

(٢) الشعر والشعراء ٤٢/١ . ونقل ابن قتيبة أن بعض الناس يسمي هذا العيب

(الإكفاء) ويزعم أن الإقواء نقصان حرف من فاصلة البيت ، كقول حبل بن نضلة ، وكان أسر بنت عمرو بن كلثوم ، وركب بها القلوز ، واسمها النوار :

وليس في المملقات من هذا العيب من عيوب القافية إلا بيت واحد ، هو قول الحارث بن حلزة :

فلكننا بذلك الناسَ حتَّى مَلَكَ المنذرُ بنُ ماء السماء

وهذا يؤكد ما قلناه من أن المملقات كانت نهاية التجارب في صياغة هذا الفن الشعري ، فإن بيتاً واحداً وقع فيه هذا العيب قليل يكاد لا يذكر ، مع أن قدامة بن جعفر ينصّ - بعد أن عرّف الإقواء على النحو السابق - على أن الإقواء في شعر الأعراب كثير جداً ، وفيمن دون الفحول من الشعراء ... ثم يقول : وقد ارتكب بعض فحول الشعراء الإقواء في مواضع^(١). وقال صاحب القاموس : يقال : أقوى الشعرَ خالف قوافيه برفع بيت وجر آخر ، وقلت قصيدة لم بلا إقواء^(٢)

وكذلك التزم أصحاب المملقات « الوصل » وهو حرف اللين الناشئ من إشباع حركة الروى كالياء الناشئة من إشباع الكسرة في معلقة امرئ القيس ومعلقة طرفة ومعلقة زهير ومعلقة عنتره ، والواو الناشئة من إشباع الضمة في معلقة الحارث ، والألف الناشئة من إشباع الفتحة في أكثر قافية عمرو بن كلثوم ؛ ومن « الوصل » أيضاً الماء التي تلي حرف الروى ، سواء أكانت ساكنة أو متحركة ، كما في معلقة لبيد :

عفت الديار محلّها فقامها بمنى تأبّد غولها فرجامها

فإن هذه المعلقة رويها الميم والماء وصل ، قد التزم لبيد الروى وهاء الوصل والألف الناشئة عن حركة هاء الوصل التي يسميها العلماء « الخروج » والألف

= حنت نوار ولات هنا حنت وبدا الذي كانت نوار أجنت
لما رأيت ماء السلا مشروباً والقرن يصير في الإناء أرنث
سمى إقواء ، لأنه نقص من عروضه قوة - وكان البيت يستوى بأن يقول « مقصرباً » .
يقال أقوى الجبل ، إذا جعل بعض قواه أغلظ من بعض .
(١) نقد الشعر ١٠٩ . (٢) القاموس المحيط ٣٨١/٤ .

التي قبل حرف الروى ، التي يسميها العلماء « الرّذف » . كل ذلك قد التزمه
ليبد ، ولم يخرج عليه في قافية أى بيت من تلك القصيدة الطويلة .
وقد وقع عمرو بن كلثوم في عيب من عيوب القافية ، ذلك العيب الذى
يسمونه « السّناد » وهو اختلاف ما راعى قبل الروى من الحروف والحركات ،
وذلك في قوله في وصف الدرع :

إذا وُضعتْ عن الأبطال يوماً رأيتَ لها جُلُودَ القومِ جُونًا
كَأَنَّ متَوَهَّجَ متونٍ غُدرٍ تصفّقُها الرياحُ إذا جَرَيْنَا
ونعملُنا غداةَ الرّوعِ جُرْدٌ عُرْفَنَ لَنَا نقائِذَ وافتُلِينَا

ففي قوله « جَرَيْنَا » سناد ، يسمى « سناد الحذو » وهو عيب من عيوب
القافية ، لأن حركة الراء الفتحة ، وحركة ما يماثلها الضمة فيما قبلها « جونا »
والكسرة فيما بعدها « افتُلِينَا » . والفتحة مع الضمة متباعدتان ، والفتحة مع
الكسرة متباعدتان أيضاً ، أما الضمة مع الكسرة فإنهما متقاربتان ، ولذلك
لم يعدوا اجتماعهما عيباً .

ومن عيوب الإعراب بسبب الوزن ما ذكره ابن قتيبة^(١) من أن ليبدأ في قوله :
تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَمْتَلِقُ بَعْضَ النَفُوسِ حَمَامُهَا
قد اضطر إلى أن يسكن ما كان ينبغي له أن يحركه ، وذلك في قوله « يمتلق »
لأنه يريد : أتركُ المكان الذى لا أرضاه إلى أن أموت ، ولا أزال أفعل ذلك ،
و « أو » هاهنا بمنزلة « حتى » .

ومن محاسن القوافى ما يسمى « التصريع » وهو أن يكون مقطع المصراع
الأول في البيت الأول مثل قافيته ، وهذا الفن قد التزمه جميع أصحاب المعلقة ،
ولذلك قال قدامة إن الفحول والمجيد من الشعراء القدماء والمحدثين كانوا
يتوخون التصريع ، ولا يكادون يعدلون عنه ، وربما صرّعوا أبياتاً آخر من

القصيدة بمد البيت الأول . وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره ، وأكثر من كان يستعمل ذلك امرؤ القيس لحله من الشعر^(١) فمن ذلك قوله :

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
نم أتى بعد ذلك بأبيات فقال :

أفأطلم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجلى
نم أتى بأبيات بعد هذا البيت فقال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمل
ومن ذلك ما فعل عمرو بن كلثوم الذى ابتدأ معلقته بقوله :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خور الأندرينا
نم أتى بعد ذلك بأبيات فقال :

قفى قبل التفرق يا ظمينا نخبرك اليقين ونخبرينا
نم أتى بأبيات كثيرة بعد هذا البيت ، حتى قال :

إذا لم نحمن فلا بقينا لشيء بمدهن ولا حيناً
وكذلك فعل عنتره ، فوالى بين بيتين مصرعين فى أول المعلقة ، وذلك فى قوله :

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهم
أعياك رسم الدار لم يتكلم حتى تكلم كالأمم الأعجم
نم أتى بيت غير مصرع ، وأتبعه بقوله :

يادار عبلة بالجواء تكلمى وعى صباحاً دار عبلة واسلمى
وهذا التصريح يعد من أمارات إجادة الشاعر وتعلقه بفنّه ، وأن موسى
اللفظ تلازمه ، ويدل على أن الشاعر قد حدّد القافية التى سببى عليها قصيدته .
ومن جهة السامع فإن التصريح بإعداد لأذنه ، وتمهيد لحسه لمعرفة هذه القافية

وتقبلها . والترصيع في المنظوم نظير التسجيع في كل كلام منشور ، فكما أن الكلام المسجع تدل فاصلة الفقرة الأولى على فاصلة آليتها ، فكذلك يكون عجز النصف الأول من البيت الأول مؤذنا بقافيته ، ومتى عرف التصريع عرفت القافية . والشاعر المجيد هو من يعدّ أذنك لتقبل انطه ، ليعد عاطفتك للتأثر بمعانيه . وإنما يذهب الشعراء المطبوعون المجيدون إلى ذلك — كما يرى قدامة — لأن بنية الشعر إنما هي التسجيع والتقفية ، فكلمة كان الشعر أ كثر اشتمالاً عليه كان أدخل له في باب الشعر ، وأخرج له عن مذهب النثر .

وبعض النقاد لا يرى هذا التصريع مختاراً إذا تكرّر في القصيدة ، ويرى أن التصريع وغيره من محاسن الكلام والشعر إنما يحسن منها ما قلّ وجرى مجرى اللمعة واللمحة ، وأما إذا تواتر وتكرّر ، فليس ذلك عندهم مختاراً . ويمثلون لذلك بالخال يحسن في بعض الوجوه ، ولو كان في الوجه عدة خيلان لكان قبيحاً ، ويكون في بعض النقوش يسير من سواد أو حمرة ، أو غيرها من الألوان ، فيحسن المزاج والنقش بذلك القدر من اللون ، فإن زاد لم يكن حسناً ، وتسحقن غرة الفرس وهي قدر مخصوص ، فإن كان كله أبيض ، أو زاد ذلك القدر من البياض لم يحسن^(١) .

وأحسن ابن رشيق التعليل للتصريع وتكريره بعد البيت الأول ، فقال إن سبب التصريع مبادرة الشاعر القافية ، ليعلم في أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منشور ، ولذلك وقع في أول الشعر ، وربما صرع الشاعر في غير الابتداء وذلك إذا خرج من قصة إلى قصة ، أو من وصف شيء إلى وصف شيء آخر ، فيأتى حينئذ بالتصريع إخباراً بذلك ، وتنبهاً عليه^(٢) .

٤ — معاني المعلقة وأختيلها

من أهم ما تمتاز به معاني الشعر في المعلقة أنها معان فطرية ألفها الشعراء

(٢) انظر كتاب العمدة ١/ ١١٥ .

(١) انظر سر الفصاحة ١٨٠ .

من واقع حياتهم وما زاولوه بأيديهم ، ورأوه بعيونهم ، وسمعوه بأذانهم ، من آثار الطبيعة الحية ، وآثارها الجامدة أيضاً . وقد تفاعلت شاعر يتهم بكل مظاهر تلك الحياة ، كما تفاعلت بالأحداث التي وقعت فيها ، وتكونت منها تجارب وعواطف وانفعالات ، عبّروا عنها في تلك القصائد الطويلة .

ومن أهم خصائص هذا الشعر الصدق والصراحة في التعبير عن تلك الأحاسيس والعواطف والانفعالات ، ولم يحاول شاعر من الشعراء أن يخفي شيئاً من مشاعره أو عواطفه أو انفعالاته ، بل عرضها كل واحد منهم عرضاً صريحاً صادقاً . وكان ذلك الصدق أنراً من آثار الحرية التي كان يتمتع بها الجاهلي في تلك الحياة الحرة الطليقة التي لا تعترف بالسدود ولا تعرف القيود .

ونلاحظ أن ذلك الصدق في كثير من أبيات معلقة امرئ القيس التي عبّر فيها عن شيء من تجاربه الماجنة ، في غير تعفف ولا استحياء ، ووصف فيها بعض مضاراته ، ودبيبه إلى العبت في خفية عن الرقباء .

ونلاحظه أيضاً في كثير من أبيات معلقة طرفة التي وصف فيها إسراره على نفسه في انتهاب المتع ولذاذات العيش في غير حذر من المستقبل ، أو إشفاق من العذل والتأنيب .

ومن آثار الصدق والصراحة أيضاً ذلك الزهو الذي تجاوز حدود الفخر في معلقة عمرو بن كلثوم على ملك من ملوك الحيرة ، والتعريض بذلك الملك ، وإظهار التمرد على ساططانه وسلطان أتباعه .

ومن آثاره أيضاً ما كان من الحارث بن حلزة الذي ذكر لقومه كثيراً من الأيادي على ذلك الملك وآبائه ، حين ردوا عنهم طمع الطامعين في ملكهم ، وأعانهم على النيل من أعدائهم .

وتلك روح البداوة التي هامت بالصراحة ، وتعشقت الحرية في العمل وفي القول والتفكير ، في غير مبالاة بمن لا يرضيهم هذا القول ، أو ذلك العمل ،

ولا بمثل الواجب والأخلاق التي قد تحدت من هذه الحرية ، والعقول التي قد تنكرها ، والأذواق التي قد تنفر منها .

وتلك هي الفطرة التي تنفر من التجميل ، وتنأى عن التكلف في استرضاء البيئة والمجتمع .

ومن أوصاف هذه المعاني أنها معان بسيطة ، لأنها عالجت حياة بسيطة ساذجة في طبيعتها ، وفي طبيعة الأحياء الذين لم يعرفوا الضلوع في شيء من طعائمهم أو شراهم أو أسلوب حياتهم ، وذلك ما يميزها عن حياة الحضارة التي تتعدد مسالكها ، وتتعدد شعابها ، وتزداد فيها حاجات النفس والعقل ، فلا يعود الفرد يكفى بالقليل من حاجات العيش الذي يقيم صلبه ويبقى على حياته ، وإنما يجد في تسخير الطبيعة وتذليل عقباتها ، والإمعان في التفكير الذي يوصله إلى إشباع رغائبه من مطالب الحياة التي لا تنفص ، ثم ينطبع كل ذلك في عقله ، ويتسلط على تفكيره ، ويؤثر في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، ولذلك اتسم أدب الحضارة بالتمقيد ، والميل إلى الإغراب والمبالغات المسرقة التي خلا منها أكثر أدب القدماء .

ولذلك كان شعر الملقات مرآة انصكست فيها مظاهر الحياة الجاهلية ، وظهرت فيها هضابها وجبالها ووديانها وعيونها ، وصور سمائها ونجومها ، وسحبها وأمطارها ، وأنواع نباتها وصنوف حيوانها ، وحياة الحروب التي خاضوها بخيلها وسيوفها ورماحها ودمائها . ولم يخرج ذلك الشعر عن تلك المقاصد التي قصدوا إليها ، والمشاهد التي وقعت عيونهم عليها ، كما أعرب عن عواطفهم وانفعالاتهم ، وعبر عن شعور اللذة والألم ، والرضا والسخط ، والحب والبغض . ولذلك كانت الواقعية أظهر خصائص هذا الشعر الذي عبر عن الحقيقة أصدق تعبير .

وقد خلا شعر الملقات من المبالغات الممقوتة والدعاوى الباطلة ، ولم يصف إلا ما رآه ، ولم يتفاعل إلا بما عرفه ، ولم يؤلف صور الخيال إلا من مجموع

ما رأى وعرف ، مع البعد عن النلو والإسراف الذى تلحظه فى أشعار المتأخرين الذين عاشوا فى عصور الحضارة .

كما يمتاز شعر المعلقات بأنه قريب التناول ، بعيد عن النزعات الفلسفية ، وعن التعمق فى فهم أسرار الكون والكائنات ، والبحث فى أسرار الطبيعة وما وراء الطبيعة ، اللهم إلا أفكاراً عارضة عن الموت والبعث والجزاء مما سمعوه عن أهل الديانات ، أو كان نتيجة لإدراكهم نهاية الحياة مما رأوا بأنفسهم عن مصير الحياة فى أسلافهم ؛ ولا يحسب شئ من ذلك من آثار الفلسفة ، أو التعمق فى محاولة فهم ظواهر الحياة ، والبحث عن أسرارها .

والناظر فى معانى المعلقات وأخيلتها يجدها معانى مادية وأخيلة قريبة مما يعرفه أصحابها فى تلك البيئة الجاهلية ، فامرؤ القيس يشبه نفسه وقد دمعت عيناه ، بنافق الجنظل الذى يشقه ليستخرج حبه (٤) ورأحة المسك التى تنبعت من أردان أم الحويرث وجارتها أم الرباب تشبه رائحة نسيم الصبا وقد مرت على القرنفل واكتسبت منه طيباً (٨) وشبه شحم راحلته التى عقرها للعذارى بأطراف الإبريسم الأبيض (١٢) ويشبه ما تفعل عينا فاطمة بقلبه إذ تملك عليه كل جهاته بمن يفوز بأجزاء الجزور ، وتلك صورة من صور الحياة عندهم ، والسهمان هما الرقيب والمعلّى من قدامح الميسر^(١) فللرقيب ثلاثة أسهم والمعلّى سبعة أسهم ، وجزور الميسر يقسم عشرة أقسام ، فمن خرج له هذان السهمان فقد فاز بجميع أجزاء الجزور (٢٦) .

أما حبييته فقد شبهها ببوضة الخدر (٢٧) وببوضة النعام (٣٦) وتراثبها

(١) القدامح الراجعة عندهم سبعة . هى : الفذ ، والنوم ، والرقيب ، والحلس ، والنافس . والمسل ، والمعلّى . وللفذ واحد ، وكل قدامح مما يليه يزيد واحداً على ما قبله ، فللمعلّى سبعة ؛ ومجموع أنصبة القدامح الراجعة ثمانية وعشرون نصيباً . أما القدامح الغارمة فهى : النبح ، والسفيح ، والوغد .

المصقولة بالسجنجل (٣٥) وناظرتها بناظرة وحش وجرة (٣٧) وجيدها بجيد الرثم
(٣٨) وشعرها بكباسة النخلة (٣٩) وساقها بأنبوب السقي (٤١) وجانب خاصرتها
بمخاطم البعير (٤١) وأناملها النضة بالأساريع وأصابعها بأغصان الإسحل (٤٣).
وشبه الليل بموج البحر (٤٨) وبالجل ذي الصلب والمعجز والكلكل (٤٩)
حتى ما رآه في السماء ونجومها شبهه بما يراه على الأرض ، فالثرى كالوشاح
الذى يفصل بين خرزه ، لتفاوت قليل بين كواكبها ، فكأنها خرزات الوشاح
فصل بينها شيء آخر (٢٩) والنجوم لا تزال مواضعها كأنها شدت يذبل بكل
مغار الفتل (٥١) والثرى كأنها علفت في مواضعها بأمراس كتان وصلت بحجر
ثابت (٥٢) .

كما شبه الوادى الواسع بحجوف العير (٥٤) وحصانه بجمود صخر أنزله السيل
من عل (٥٨) ولبده يزل عن ظهره كما يزل المطرفوق الصخر الأملس (٥٩) وصوت
جريه كصوت غليان المرجل (٦٠) وهو بدر بالجري كخدروف الوليد (٦٣)
وخاصرتاه كخاصرتى الظبي ، وساقاه كساقى النعامة ، وعدوه كمدو الذئب وعدو
ولد الثعلب (٦٤) وكأن جانبي صلبه إذا اعتمد على رجليه الحجر الذى يدق عليه
الطيب للعروس ، أو الحجر الذى يكسر به الحنظل (٦٦) كما شبه دماء الوحش
على عنق هذا الفرس بما بقى من الحناء على الشعر الأشيب (٦٧) ونعاج بقر
الوحش بالـمـذارى يطفن حول الصنم (٦٨) وشبههن فى نفورهن بالجزع
المفصل (٦٨) .

وشبه البرق فى تحركه ولعانه بلع اليدين ، وفى تألقه بمصباح راهب أميات
فتيلته بصب الزيت عليها (٧٥ ، ٧٦) وشبه جبل ثبير فى أوائل المطر بكبير قوم
تزمل بكساء مخطط (٨٢) وأعلى رأس الهجير صبيحة ذلك المطر مما جلبيه السيل
إليه وأداره بجوانبه بالخشبة التى تطيف بالمنزل وتحيط به (٨٣) وحله الذى ألقاه

بصحراء القبيط بما ينشر التاجر البائى مما فى عيابه من الثياب ليعرضها على من يريد شراءها (٨٤) ومكاكى الجواء وقد أصابها المطر بشارب الصبوح (٨٥) والأسود وقد غرقت فى سيول ذلك المطر بأصول البصل البرى .

هذا ما اشتملت عليه معلقة امرئ القيس وحدها من فن التشبيه ، وإنه لكثير ؛ وإن هذه التشبيهات مع كثرتها لم تخرج عن دائرة التشبيهات المادية القريبة .

وأكثر ما فى معلقة طرفة على هذا النحو من المعانى والأخيلة المادية ، فقد شبه ما بقى من أطلال خولة بما بقى من الوشم فى ظاهر اليد (١) وشبه مراكبها بالسفن العظام (٣) وشبهها بالفرزال الأحوى الطويل العنق (٦) وثغرها الذى تضرب حمرة شفقيه إلى سواد بأقحوان نبت فى كتيب من الرمل لم يخالطه تراب (٨) وهو فى بريقه كأن الشمس كسته ضياءها (٩) ووجهها المشرق كأن الشمس أعارته ثوباً ثقياً (١٠) .

وحين أخذ فى وصف الناقة ، عبر عن عظمة جسمها وضعامته ، فشبه عظامها بألواح التابوت ، وشبه الطريق الذى تسلكه بالكساء المخطط ، لأن فيه من آثار أقدام الإنسان وحوافر الدواب وأخفاف الإبل المتتابعة ما هو كالمخطوط التى فى الثوب المخطط (١٢) وشبهها بالجل فى قوة أعضائها ووثاقة خلقها ، وبالنعامة التى عرضت لظلم فى سرعتها (١٣) ومنبت ذنبها فى البياض بمناحى نمر أبيض (١٧) وشبه ضرعها البالى بالقربة الخلق (١٨) ولخذيها فى السمن بياضى قصر عظيم (١٩) وأضلاعها المتصلة بفقارها بالقصى (٢٠) وإبطيها فى السعة بيتين من بيوت الثور الوحشى ، وأضلاعها بالقصى المعطوفة تحت صلب محكم (٢١) ومرفقيها البعدين عن جنبها بسقاء قوى حمل بكل يد دلوا ومشى بهما وقد باعدهما عن جنبه فارتفع بذلك مرقاه عن جنبه (٢٢) وشبهها فى

ضخامة جسمها وحسن خلقها وتراصف أعضائها بقنطرة رجل رومى بالغ فى
 صنعها وتقوية بنائها (٢٣) وشبه آثار النسع فى جلدها بآثار طرق مورد على
 صخرة ملساء فى أرض صلبة (٢٧) وغنقها الطويل بسكان السفينة (٢٩) ورأسها
 فى صلابته بالسندان (٣٠) وخدها فى نعومتها بقرطاس الشامى ، وشفتها بجلد
 مدبوغ (٣١) وعينها بالمرآتين اللامعتين فى كهفين وقد أحيطتا بعظمين كأنهما حجر
 القلت (٣٢) وبعضى البقرة الوحشية التى أربعت (٣٣) وشبه أذنيها بأذنى الشاة
 (٣٥) وقلبها الذكى بحجر المرداة (٣٦) وإسراعها فى السير بإسراع ذكر النعام
 (٣٩) وشبهها فى التبخر فى مشيتها بالجارية ترخى أذناها وتتبختر أمام سيدها (٤٤) .
 أما انداماه فقد شبههم بالنجوم (٤٨) وشبه صوت القينة بصوت النوق
 تبكى أولادهن (٥١) وشبه نفسه حين تحامته العشرة بالبعير الأجرب (٥٣) وشبه
 حصانه بذئب الغضا المتورد (٥٩) ورجلى المرأة ويديها بالشجر والخروع (٦١)
 والموت بصاحب الدابة يرخى لها رسنها لترعى وطرفه بيده فهو قابضها لا محالة
 (٦٨) وشبه اليأس بالموت (٧٢) وشبه نفسه فى الخفة والمضاء برأس الحية (٨٤) .
 وفى مطلقة زهير : تشبيه ديار أم أو فى بالرفقتين بما يبقى على ظاهر اليد من
 الوشم (٢) وما يفرش من الثياب بالدم فى الحرة (٩) وإصابة المقصود باليد التى
 لا تخطئ القم (١١) وفقات المهن بحب الفنا فى تفرقه (١٣) والحرب تستأصل
 المحاربين بالرحى تعرك ثفالها (٣١) وشبه حصين بن ضمضم بالأسد ، والسلاح
 بالأظفار ، واستعارهما لها (٣٨) .

وفى هذه المعلقة كثير من صور التمثيل ، كتمثيله المنايا نمت من تصيبه ،
 وبطول عمر من نخطئه حتى يهرم ، بالناقة العشواء تسير بالليل على غير هدى (٥٠)
 وتمثيله من كانوا فى صلاح من أمرهم ، ثم صاروا إلى حرب تستعمل فيها السلاح
 وتسفك الدماء يقوم رعوا خيلهم زمنا ، فلما ظمئت أوردوها مياه كثيرة (٤٠)

وتمثيله من لا يحامل الناس ويدار بهم في أكثر أموره معهم فيصيبونه بما يكره
بمن يعض بالضرس ويوطأ بالنسم (٥١) والذي يمد في الفرار من المنية بمن
يحاول أن يرقى أسباب السماء بسلم (٥٥).

وفي معلقة لببببب الرسوم الباقية بالكتابة الباقية على الأحجار (٢)
والطلول التي غسلت الأمطار ما كان متراكما عليها من التراب بالكتب التي
غابت فيها الكتابة ، لبعدها بالكتاب ، والسيول بالأقلام تجدد كتابة
تلك الكتب (٨) وبالأشمة عمدت إلى وشم ضعف أثره على اليد فرجعت وأعادته
بذر النثور على داراته كأنه جديد (٩) وجماعات النساء على هواجهن يقرات
وحش في حسن عيونهن ، وبظباء وجرة عاطفات على أولادهن (١٤) والرحال
في ضخامتها بأثلاث منعطفات وادى ببشة وأحجاره الضخمة (١٥) وشبه الناقة
في خفتها بالسحابة (٢٤) والغبار بدخان النار (٣١ ، ٣٤) والبقرة الوحشية كلما
تحركت بالليل أشرق لونها بالدرة انقطع سلكها (٤٣) والقرن بالرمح (٥٠)
واستعار الرقص للارتفاع والانخفاض (٥٣) واستعار لريح الشمال يداً (٦١) وشبه
للفرس منتصبه بالنخلة المشرفة (٦٦) والمرأة البائسة بالناقة التي شدت على قبر
صاحبها (٧٦) وشبه قومه للناس بالربيع الذي يحبى ميت الأرض (٨٧).

وتفيض معلقة عمرو بن كاثوم بأمثال هذه التشبيهات ، فقد شبه الماء الذي
تمزج به الحجر بالورس (٢) لأنها إذا مزجت بالماء اكتست ثوب صفرة . وشبه
ذراعى المرأة بذراع ناقة بيضاء لم تلد بعد (١٤) يريد أنها سمينة وأن بشرتها
خالصة البياض . كما شبه نديها بحق العاج بياضاً واستدارة (١٥) ولما كان حق
العاج يابساً خاف أن يسبق إلى الوهم أن نديها الذي شبه به يكون كذلك ،
ففناه بقوله « رخصاً » أى غصاً ناعماً طرياً ، ثم قال إن هذا الندى لم تمسه يد
لامس ، وأن صاحبته غفيفة . وشبه ساقها بساريتين من عاج أو رخام إذا
تحركا سمع لخليهما رنين (١٨) وشبه وجدده بها بوجود ناقة أضلت حوارها فرجعت

الحنين (١٩) ويوجد العجوز لم يترك لها الدهر أحدا من أولادها التسعة (٢٠) ومثل اليمامة وقد بعدت عنهم ، وحال دونها السراب ، فقراءت لهم مرتفعة بالسيوف المسلولة من أغهادها ، وقد خيالها السراب كذلك (٢٢) وغر بأنهم إذا حاربوا قوما طحنوهم كما تطحن الرحى الحنطة (٣٠) وجعل قري أعدائهم الحرب الطاحنة (٣٣) وشبه رموس أولئك الأعداء إذا سقطت عن أجسادهم بأحمال إبل سقطت في أرض ذات حجارة (٣٧) وسيوفهم بالمخاريق في أيدي صبيانهم ، لأنهم مهرة حذقوا حملها والضرب بها (٤٣) وثيابهم لكثرة ما وقع عليها من الدماء كأنها خضبت بالأرجوان (٤٤) وشبه الدروع في تدرجها وحسن نسجها بطرائق الماء إذا هبت عليه الريح (٧٨) والنسوة إذا مشين غير مجلات وتمايلن مرحا بالخمور ينمايلون (٨٦) واليد في سرعتها في الضرب بالقلين التي يلعب بها الصبيان . وكذلك تفيض معلقة عنقبة بكثير من التشبيات كما شبه ناقته أو أطلال حبيبتها بالقصر (٦) وشبه الإبل الحلوبة في - وادها وكثرتها بخوافي الغراب الأسود (١٥) وريح حبيبتها بريح قارة المسك (١٨) وريح الروضة الأنف (١٩) وتغريد الطيور في الروضة بقرم الشارب المقترن (٢٢) والذباب إذا سنّ إحدى ذراعيه بالأخرى برجل أجذم قعد يقدح نارا بذراعيه (٢٣) وشبه نفسه على ظهر الناقة بمن يكسر الإكام بحف ظليم صلب (٢٨) والنعام تستجيب لذلك الظليم بمجامعات الإبل تجتمع إذا أهاب بها الراعي (٢٩) وهذا الظليم كأنه مركب جمل خيمة فالنعام يحاذينه ليتطلان به (٣٠) وشبهه في صفر رأسه بالعبد الأسود (٣١) وشبه قوائم الناقة بدعائم الخيام (٣٥) وبالناقة من الحدة والنشاط ما كأن هراحتي إبطها ينهشها (٣٣) وشبه عرقها الذي يسيل من رأسها بالدبس والقطران جعل في ققم وأشعلت تحته النار (٣٧) وظلمه غير المستساغ بالعلقم في صراره (٤١) ورشاش الطعنة النافذة بالعندم في الحرة (٤٧) ورأس القليل وبنانه وقد جلتها الدماء كأنما خضبا بالعظم (٦٤) وهو

في طول قامته كالمرحة العظيمة (٦٥). وشبه جيد حبيبته بحمد الجدابة (٦٩) وشبه
الرماح بالحبال التي ترسل في البئر (٧٩).

وشبه الحارث النار التي أوقدتها هند فينت ديارها بالاضياء الذي يغمر السكون
ويبدد الظلمات (٦) كما شبه ناقته السريعة بالنعامة طويلة الساقين ذات
الأولاد (١٠) وشبه الغبار الدقيق التي تثيره بقوائمها بما يشاهد في شعاع
الشمس بالدخان إذا نظرت إليه من كوة (١٢) ومثل المنية ترميهم بمصائبها
بمن يرى جبلا فلا يضيره ولا يؤثر فيه (٢٥) وشبه من يصبر على احتمال الأذى
من يغمض عينه على القذى (٣٠) ومن يحمل جريرة غيره بالجل تعلق أحوال
غيره على ظهره (٤٧) ومن يؤخذ بذنب غيره بالطباء تؤخذ بذنب الشاة (٥١)
والعماليك بالأفقاء^(١) لحمارهم (٦١) والدماء التي تنزف من الجراح بالماء
القذى يسيل من المزادة (٧٢) كما شبه تحرك الرماح في أجسامهم بالدلاء تحرك في
البئر لتمتليء (٧٤) والسكنية المنعمة على قائدها بالقرون المنحنية على رأس
الحيوان (٨٢).

ذلك أكثر مافي المثلقات من التشبيهات ، وهي تعطى صورة واضحة
لمعانيها ، ونستطيع من استقراء هذه الصور وما يماثلها أن نرى :
(١) أنها تشبيهات قريبة ، لا تحتاج إلى تعمق في فهمها ؛ وأنها تمتاز بالبساطة
والسهولة .

(٢) وأن معانيها معان مادية مما تقع عليه الحواس .
(٣) وأن منتزع هذه المعاني هي البيئة التي عاشوا فيها ، بما فيها من سماء
ونجوم ، وسحاب ومطر ، ونبات وحيوان ، وسائر ما يجدون في حياتهم البدوية .
وبذلك استطاع هذا الشاعر أن يمد كثيرا من الثغرات التي يجدها الباحث
في تاريخ الأمة العربية قبل الإسلام ، حين لا يجد ما يساعده على تحقيق غرضه من

(١) الأفقاء جمع لقي ، وهو الشيء المطروح الذي لا يكثر به لبقارته .

الآثار الشاخصة ، أو النقوش البارزة ، أو الكتابة الباقية التي صورت حياة غيرهم من الأمم ، واعتمد عليها المؤرخون ، وأخذوها مصدراً للمعلومات التي استطاعوا الاهتداء إليها . ولذلك نهض هذا الشعر بكثير من الحقائق عن الأمة العربية التي لم يستطع أن ينهض بها غيره من مصادر التاريخ .

ولا يوصف أكثر تلك المعاني بالسرقة ، فقد كان أصحاب الملاحظات من الأئمة الذين فجروا عيون الشعر ، واستخرجوا معانيه ، واتبعهم فيها الذين جاءوا من بعدهم من الشعراء . قال أبو عبيدة . يقول من فضل امرأ القيس . إنه أول من فتح الشعر واستوقف ، وبكى في الدمن ، ووصف مانيها . . وهو أول من شبه الخيل بالعصا والقوة^(١) والسباع والطباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف . وقال أبو عبيدة : إن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد ، يعنى في قوله في وصف الفرس « قيد الأوابد » فتبعه الناس على ذلك . . وأول من قال « فعادى عداء » « فاتبعه الناس . وكذلك وجدنا مثل هذه الكلمات في وصف أولئك الفحول .

والإشارة إلى أولئك الفحول وابتسكارهم لمعاني الملاحظات تقتضينا الإشارة إلى ما توارد عليه امرؤ القيس وطرفة بن العبد ، في قول الأول :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لانهلك أسى وتجلد
وقول الآخر :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لانهلك أسى وتجلد

فقد اتفقا في البيتين على هذا النحو ، ولم يغير طرفة إلا لفظ القافية الذي جعله طرفة « تجلد » موضع « تجمل » في بيت امرئ القيس .

وهذا لون من السرقات ، سماه النقاد « وقوع الحافر على الحافر » وأجمعوا

(١) القوة العقاب الأتقى ، أو الحفيظة السريعة .

على رفضه والنهوين من شأن قائله ، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا أبو عمرو بن العلاء الذى يقول فى هذين البيتين « عقول رجال توافت على أسننها » .

ولا نستطيع أن نقر هذا التوافق أو التوافق أو الالتقاء عند كثيرين من الآخذين ، إذا كنا عارفين على وجه التحقيق أن المأخوذ منهم سابقون فى الوجود والحياة على الذين شابهت أقوالهم أو أعمالهم الأدبية أو بعضها أعمال أولئك السابقين . والتوافق على هذا النحو بين المتعاصرين أكبر الظن أن مرجعه سوء حفظ أولئك الرواة ، الذين يختلط عليهم الأمر فينتقلون من شاعر إلى شاعر ، إذا وجدوا تقارباً فى الاتجاه أو فى الموضوع ، أوفى الفكرة المعبر عنها . ومرجع ذلك فى الحقيقة إلى الغفلة والنسيان ، وكثرة ما يسمعون وكثرة ما يرون لشعراء مختلفين ؛ وأغلب الظن أن راوى القصيدتين واحد ، وربما يشفع له فى ذلك الخلط أن القصيدتين من بحر واحد هو « بحر الطويل » وقد قدم كلا الشاعرين قصيدته بحديث عن الأطلال والديار ، فأطلال امرئ القيس بسقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة ، وأطلال خولة ببرقة نهمدتلوح بكباقي الوشم فى ظاهر اليد ، وكما ناسب الاستيقاف عند تلك الربوع الخاوية بعد ذكرها عند امرئ القيس ، ناسب ذلك عند طرفة أيضاً .

إنها ظنون فى عقل الراوى وفى خلد الناقل يسرت له الرواية ، كما يسرت له أيضاً استبدال حرفين فقط فى لفظ القافية بحرفين ينسجمان مع القافية . إن التفكير المنطقي لا يمنع جواز ذلك النسيان والغفلة من الراوى .

كما لا يمنع أن يكون الوم من طرفة نفسه ، فمن المحتمل أن يكون قد سمع بيت امرئ القيس ، ووعاه فى عقله الباطن ، ثم نسيه ونسى صاحبه ، فلما صاغ قصيدته وضع هذا البيت فى ذلك الموضع معتقداً أنه بيته ، وما هو بيته ، ولكنه الوم ووحدة الغرض ، وسياق الحديث ، هو الذى دعاه إلى ذلك الزعم ، وإيس لذلك كبير خطر ، فإن ذلك المعنى أصبح من المعانى السائدة التى لا كتبها لأسفة

الشعراء الجاهليين بل لحولهم ، وبين أيدينا قصيدة طرفة بأسرها ، وهي تفيض
بآيات الشاعرية الناضجة ، وفيها من المعاني المبكرة مالا يعجز صاحبها عن الإتيان
بمعنى امرئ القيس في غير لفظه ، وفي غير معرضه وكسوته إن أراد .

أما أن يكون اللفظ هو اللفظ ، والترتيب هو الترتيب ، من غير اختلاف في
كلمة أو حرف سوى حرفي القافية ، فذلك ما ننكر التوارد فيه والاتفاق عليه ،
إذ أننا نرى جواز التوارد في الفكرة والمعنى والعاطفة ، ولا نراه في الصورة والأسلوب
ولا ننكره في لفظ أو لفظتين ؛ إذا كانتا خاصتين بالمعنى أولا يعبر عنه إلا بهما
أو بأمثالهما . ومثل ذلك الذي قلناه في امرئ القيس وفي طرفة يمكن أن يلتصق
عذرا في أمثال تلك النصوص .

أما « موقع الحافر على الحافر » كما يقولون ، أو « عقول الرجال تتوافق على
السنتها » فسنأخذ براهيق هذه الصورة الكاملة التي جمعت الفكرة وصورتها ،
لأنه ينشأ عن التسليم بهذا للبدأ أن المعنى واللفظ مقترنان في الذهن ، وأنهما
كذلك في جميع الأذهان ، وقد يكون ذلك في لفظ واحد : اسم ذات ، أو اسم
معنى ، ولكنه لا يكون كذلك في العبارة عن المعاني المركبة أو جملة من العواطف
أو الانفعالات المتنقلة ، أو الحياة العقلية التي يسرى تيارها متتابعا^(١) .

وقد ذكر أن طرفة أخذ بيته في وصف ناقته :

أُمُونِ كَأُلُوحِ الْإِرَانِ نَسَأَتْهَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ رُجْدٍ
من قول امرئ القيس في غير المعلقة :

وَعَفَسَ كَأُلُوحِ الْإِرَانِ نَسَأَتْهَا عَلَى لَاحِبٍ كَالْبُرْدِ ذِي الْخَبَرَاتِ^(٢)
ومعنى البيتين واحد ، والاختلاف بين ألفاظهما قليل .

* * *

(١) انظر الفصل الخامس من كتابنا (السرفات الأدبية) صفحة ١٥٢ وما بعدها .

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٨١/١ — والعنفس الناقة القوية شبيهة بالصخرة
الصماء أصلايتها ، والإران خشب صلب يشد بهضه إلى بهض ، نسأتها زجرتها ، وسفتها بالنساء
وهي الصماء ، واللاحب الطريق الواضح ، البرد ذو الخبرات من ثياب الين الموشاة . .

والناظر في معاني المعلقات يجدها في كثير من الأحيان غير مرتبة الترتيب المنطقي الذي ينشده التأخرون، وكثيراً ما يجد الشاعر قد ترك المعنى الذي كان أخذاً فيه ، وانتقل إلى معنى آخر استطراداً ، ثم يعود إلى ما كان فيه . ولذلك كان من الممكن مجازاة القائلين بأن من اليسير على الناظر في هذا الشعر أن يقدم بيتاً ويؤخر آخر عن موضعه ، ولا يجد ما يحول بينه وبين ما يريد شيء قد يضيع المعنى أو يفسده ، إن هو قدم أو أخر بيتاً أو عدداً من الأبيات . والسبب في ذلك هو تعلق الأذهان بالجزئيات ، وعدم التفكير في الربط بين الأفكار والمعاني ، ووصل كل جزء منها بما يتصل به . على أننا في الواقع نجد شيئاً من ذلك أو قريباً منه في وصف بعض صنوف الحيوان التي عرض بعض أصحاب المعلقات لوصفها ، كما في وصف الفرس لامرئ القيس ، ووصف الناقة في معلقة طرفة ، وفي معلقة لبید أيضاً ، وذلك لعنايتهم الفاتنة بالحيوان ، وهذين الحيوانين بالذات ، لطول ملازمتهم لهما ، وعظم نفعهما لهما في الظعن والإقامة والصيد والحروب . ولكننا مع ما نجد من الاستقصاء في وصف الحيوان لا نجد ما يفسد المعاني بتقديم بعض الأبيات على بعض .

وقد أصبح بدء القصائد بذكر الرسوم تقليداً من تقاليد الشعر الجاهلي ، وجرى عليه أصحاب المعلقات ، ولم يشذ عن هذا التقاليد إلا عمرو بن كلثوم الذي بدأ معلقته بذكر الخمر ، وقد علل لذلك ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء بأن « مقصد القصيد إنما ابتداء فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكي وشكا ، وخاطب الرّبع ، واستوقف الرفيق ، ليحتمل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها ، إذ كان نازلة العمدة في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لا تنقلهم عن ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلال ، وتنبههم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصباغة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعى به إصفاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لا يثبط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً

منه بسبب ، وضار بما فيه بهم » .

إذن فطبيعة الحياة نفسها هي التي جعلت هذا الغرض في مقدمة ما عالج الشعراء من الأغراض كما كانت سائر الأغراض أيضاً مما أوحى به الطبيعة التي عاش فيها أولئك الشعراء وأخلصوا لها ، واستقوا معانيهم منها ، واشتقوا أخيلتهم مما يرونه في جنباتها الواسعة . وكذلك كان الانتقال من غرض إلى غرض موافقاً لطبيعتهم ، وملاماً لنظرتهم القريبة العاجلة التي لا تصبر على التأمل والفحص عن تلك المشاهد أو الخواطر غالباً . وكان من الطبيعي ألا نشد في هذه القصائد « وحدة الموضوع » التي ينشدها الدارسون والنقاد في هذه الأيام فيما يعرض عليهم من الأعمال الأدبية ، لأن لكل عصر طبيعته ، ولكل جماعة ذوقها العام الذي ينبع من تلك الطبيعة . ومن خصائص الذين يعيشون في عصور الحضارة الدقة في البحث والاستقصاء ، ومحاولة عدم الخروج عن جادة الموضوع ، سواء أكان ذلك في مجال البحث العلمي أم كان في الأعمال الفنية ، ثم إن تقدم العلوم وتنظيم مناهج البحث فيها من أهم ما يدعو إلى طلب الوحدة في الموضوع ، وحصر ذهن في دائرة لا تتعداها ، حتى يكون الإتقان العلمي أو الإتقان الفني ، وحتى لا يجد المطلع نقصاً يعيب به صاحب العمل ، وذلك لأن الموهوبين في النواحي العلمية أو الفنية يحاولون دائماً أن يظهروا بالانفراد ، وأن توصف أعمالهم بالكمال حتى لا يجد المعقب معه ثغرة ينفذ منها إلى الغض من العمل ، أو النيل من صاحبه ، والسمة من أهم الأسباب التي تعوق عن تحصيل الكمال المنشود . ولم يكن الأقدمون يحسون بهذه الأفكار التي يحس بها الذين عاشوا في عصور الحضارة ، لأن تلك المعاني كانت بكرة ، فحاولوا أن يحصلوا منها ما يستطيعون ؛ من غير محاولة للاستقصاء أو التدقيق ، ولذلك قيل إن معاني الشعر عند الأقدمين كانت غير نهائية ، وهي عند المحدثين نهائية ، ومعنى ذلك أن كل غرض من الأغراض التي عالجها القدماء يمكن أن يعالجه المتأخرون ، لأن عرض الأقدمين كان أشبه بالإشارة والإجمال ، أما عرض المتأخرين فإنه عرض يميل إلى التفصيل والتدقيق والاستقصاء .

الخاتمة

وبعد هذه الجولة في تلك الآثار الخالدة في التاريخ الأدبي للأمة العربية أرجو أن أكون قد وفقت إلى تحقيق ما صبوت إليه من الدراسة الموضوعية لفن المملقات الذى تناولته من أكثر جهاته ، ومهدت السبيل لخدمة النص الأدبي والاعتماد عليه في محاولة التعرف على أولئك الذين أنشئوه ، والبيئة التى عاشوا فيها ، والظواهر الطبيعية والاجتماعية التى بانَت معالمها فى الأعمال الأدبية .

ولست أزم أنى أثبت على كل ما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع الذى جعلت آفاقه تتسع أمامى كلما تقدمت فى البحث ، وأوغلت فيه ؛ وكانت محاولتى دائماً أن أثنى عنان القلم الذى كان يحاول أن يلم بكل صغيرة وكبيرة تتصل بهذا الموضوع ، ولم أشعر فى أية مرحلة من مراحل البحث بما قد يشعر به الذين يكتبون فى الموضوع الواحد من الضيق بقيوده ، والتزامهم بمحدوده .

وأعتقد أن هذه الدراسة تفتح كثيراً من أبواب الدراسات أمام المختصين فى فنون المعرفة المختلفة ، فإن علماء التاريخ يستطيعون تحقيق كثير من الأعلام ، وتمحيص الوقائع والأحداث التى يجدون فى ثنايا المملقات إشارات إليها ، بما يجدون فى مصادر التاريخ الأخرى . ويستطيع علماء الجغرافيا أن يستعينوا بها فى وصف طبيعة الجزيرة العربية ، وتحديد مواقع المنازل والجبال والهضاب والوديان ، ورسم خرائط تفصيلية تعين مواقعها ، وتشير إلى ما بقى منها وما اندثر . وكذلك يجد علماء النبات والحيوان مجالاً لدراسة ما عرضت له المملقات من صنوفها .

وعلماء اللغة يستطيعون بمحصر الألفاظ التى استعملها أصحاب المملقات دراسة كثير من الظواهر اللغوية فيها ، ومعرفة الألفاظ العربية والدخيلة ، كما يستطيعون تتبع هذه الألفاظ ، والبحث عن حياتها فى الزمن ، وما أبقاه الاستعمال ، وما أماته الإهمال ، واحتفاظ كل لفظ بمعناه ، أو ما أصابه من تصرف العصور فى ذلك المعنى ، أو إبعاد

له عن دلالاته بالتوسع أو المجاز ، أو إشراك معنى غيره معه في الدلالة عليه ، وبقاء اللفظ جامداً ، أو اشتقاق ألفاظ أخرى منه .

ذلك بعض ما تثيره هذه الدراسة من الأفكار والدراسات التي ذكرت منها ما يتسع له نطاق هذا البحث .

والحمد لله على ما هدى إليهِ ، وأعان عليه ، له الحمد في الأولى والآخرة ، نعم المولى ونعم النصير

بروق المحرطبان

استدراك

وقعت بعض الأخطاء المطبعية القليلة نشير إلى بعضها فيما يأتي :

- | | |
|---------------------------------|------------------------------------|
| كلمة إذا ، وصوابها إذ . | في السطر الثاني من الصفحة ٦ |
| كلمة بهذه ، وصوابها بهذا . | وفي السطر السادس من الصفحة ٢٦ |
| كلمة كان ، وصوابها إذا كان . | وفي السطر الأول من الصفحة ٤٤ |
| كلمة المم ، وصوابها المعمد . | وفي السطر التاسع من الصفحة ١٢٨ |
| كلمه غولا ، وصوابها وغلا . | وفي السطر التاسع من الصفحة ١٣٠ |
| كلمة طرفة ، وصوابها لبيد . | وفي السطر الحادى عشر من الصفحة ١٥٩ |
| كلمة الجون ، وصوابها الجونجون . | وفي السطر الثامن عشر من الصفحة ١٩٦ |
| كلمة عنون ، وصوابها عنود . | وفي السطر الثامن عشر من الصفحة ١٩٦ |

الفهرس

الصفحة

الموضوع

المقدمة ٨ - ٣

الشعر الجاهلي - منزله عند العرب - المملقات بين الشعر الجاهلي -
خطة البحث .

الفصل الأول

المملقات (٩ - ٥٧)

كلمة في المصطلحات الأدبية - أصحاب المملقات وقصائدهم - رأى صاحب
المقد ، والزوزنى ، وأبي زيد ، والتبريزي ، وأبي جعفر النحاس ، وابن خلدون
(٩ - ١٢) .

مصطلحات أخرى : السبع الطوال - المذهبات - السموط - المشهورات
- القصائد المشهورة - السبعيات - السبع الجاهليات (١٢ - ١٨)
سبب تسميتها «المملقات» - رأى ابن الكلبي ، وابن عبدربه ، وابن رشيق ،
وابن خلدون ، والبغدادى ، وأبي جعفر النحاس ، وابن الأنبارى ، وياقوت
(١٨ - ٢٢) .

إنكار خبر التعليق ، رأى الرافعي : نسبة جمعها إلى حماد - نسبة خبر
تعليقها إلى ابن الكلبي ، رأى نولدكي - إنكار القصائد جملة وإنكار كتابتها
وتعليقها - رأى الدكتور طه حسين (٢٢ - ٢٦) .

مناقشة الآراء السابقة - الاختلاف في جمع القصائد السبع - خزانة النعمان
- المملقات الثواني - الرد على أبي جعفر النحاس - الطمن في رواية
حماد - (٢٦ - ٣٨) .

حجج منكرى التعليق : أمية العرب - عدم ذكر كتابها وكيفية تعليقها
على الكعبة - عدم ذكر شيء عن المملقات في أخبار تجديد بناء الكعبة -
تقديم العرب للكعبة - مناقشة هذه الآراء - التشكيك في أمجاد
العرب (٣٩ - ٥٧) .

الفصل الثاني

شعراء المملكات (٥٨ — ١٩٩)

المملكات السبع وأصحابها — أصحابها عند صاحب المجهرة — عند التبريزي —
المجمع عليه منهم (٥٨ — ٦١) .

(١) امرؤ القيس ١٠٩ — ٦٢

منزلته بين الشعراء — نسبه — حياته — هل كان امرؤ القيس شخصية خيالية؟
— امرؤ القيس في التاريخ والأدب — شاعرية امرؤ القيس (٦٢ — ٨٢)
معلقة امرؤ القيس — أهميتها — توثيقها — سبب إنشادها — مناقشة
هذا السبب — أغراضها — ما أقحم عليها — مناقشة المشككين فيها —
نص المعلقة (٨٢ — ١٠٩)

(٢) طرفة بن العبد ١٣٠ — ١٠٩

طبقته عند ابن سلام — رأى النقاد في منزلته — تاريخ حياته — وفاته
المبكرة — أخلاقه (١٠٩ — ١١٩)
معلقة طرفة — سبب إنشادها — السبب بين أغراض القصيدة — أغراض
المعلقة — نص المعلقة (١٢٠ — ١٣٠)

(٣) زهير بن أبي سلمى ١٣١ — ١٥١

منزلته بين فحول الطبقة الأولى — شاعريته — العناية بشعره — حياته
وأخلاقه (١٣١ — ١٤٤)

معلقة زهير — سبب إنشادها — حرب داحس والغبراء — دعوته للسلم
— أغراض المعلقة — نص المعلقة (١٤٤ — ١٥١)

(٤) ليبد بن ربيعة ١٥١ — ١٦٤

منزلته بين الشعراء — حياته وشعره — إسلامه (١٥١ — ١٥٨)
معلقة ليبد — خصائصها في الغرض والأسلوب — أغراضها — نص المعلقة
(١٥٨ — ١٦٤)

(٥) عمرو بن كلثوم ١٦٤ — ١٧٦

الموضوع

الصفحة

منزلته بين شعراء الجاهلية — نسبه — حياته وأخلاقه — بينه وبين عمرو بن هند (١٦٤ — ١٦٧) .

معلقة عمرو بن كلثوم — شهرتها — سببها — أغراضها — نص المعلقة — (١٦٧ — ١٧٦) .

(٦) عنتره بن شداد ١٧٦ — ١٨٧

منزلته بين شعراء الجاهلية — نسبه — حياته — شجاعته وعشقه — (١٧٦ — ١٧٦) .

معلقة عنتره — سبب إنشادها — مطلعها — أغراضها — نص المعلقة — (١٨٠ — ١٨٧) .

(٧) الحارث بن حلزة ١٨٧ — ١٩٧

منزلته بين شعراء الجاهلية — حياته — منزلته من قبيلة بكر بن وائل — (١٨٧ — ١٩٠) .

معلقة الحارث — صلتها بمعلقة عمرو بن كلثوم — إنشادها في مجلس عمرو بن هند — أغراضها — خصائصها — نص المعلقة (١٩٠ — ١٩٧) .

الفصل الثالث

المجتمع العربي كما صورته المملكات (٢٠٠ — ٢٩٤)

تصوير المملكات للمجتمع العربي في مختلف مناحيه — المواقع والجبال (٢٠٢) الجو والرياح والمطر والنجوم (٢٠٧) نبات الصحراء (٢١٣) حيوان البادية (٢١٥) الحياة الجاهلية في المملكات (٢٣٢) حياة الحرب والسلام (٢٣٧) أدوات القتال (٢٥٥) المرأة العربية في المملكات (٢٦٠) عادات العرب في المملكات (٢٦٨) الخمر (٢٦٨) فضائل العرب النفسية (٢٧٤) صور أخرى للمجتمع العربي في المملكات : حماية الماء (٢٨٩) دين الجاهلية (٢٩٠) الآطام والحصون (٢٩٢) 'لعب العرب (٢٩٢) خضاب الرأس (٢٩٤) .

الفصل الرابع

الفن الشعري في المملقات (٢٩٥ — ٤٠٠)

المملقات هي الصورة الكاملة للفن الشعري عند العرب — تقاليد المملقات وحياتها في الزمن — شعر القدامى وشعر المحدثين — عمود الشعر (٢٩٥ — ٢٩٨) .
(١) أغراض المملقات وفنونها : ٢٩٩ — ٣٤٥

فنون الشعر العربي وفنونه عند الأوربيين — غلبة الشعر الغنائي في شعر العرب — حظه من الشعر القصصي (٢٩٩ — ٣٠٢) .

فنون الشعر في المملقات : باب الوصف (٣٠٢) باب النسيب (٣٢٢) باب الفخر (٣٢٩) باب الحكمة (٣٤٠) — باب المديح (٣٤٤) .

(٢) ألفاظ المملقات وأساليبها ٣٤٥ — ٣٧٨

التباين في ألفاظ المملقات — أثر التبدى والتحضر — الفراة والحوشية وصفان غير أصيلين في ألفاظ المملقات — ما يؤلف وما لا يؤلف من الألفاظ — المواقع والجمال والمياه — أسماء الحيوان ونعوته — أسماء النبات — أعلام الرجال والنساء والقبائل — الصفات والكنيات — سلامة الأساليب من الأخطاء — محاسن الألفاظ .

(٣) أوزان المملقات وقوافيها ٣٧٨ — ٣٨٧

أبحر الشعر التي نظمت فيها المملقات — اهتمامهم إليها بالفطرة وطول المعاناة — سلامتها من عيوب الأوزان — الترتيب — قوافي المملقات — وحدتها — عيوبها : — الإقواء في معلقة الحارث ، والسناد في معلقة عمرو بن كلثوم — فن التصريح .

(٤) معاني المملقات وأخيلتها ٣٨٧ — ٤٠٠

بساطة المعاني — المعاني المادية — البعد عن التكلف — النفور من النلو — معاني التشبيه في المملقات — المعاني المبتكرة — كلمة في توارد امرئ القيس وطرفة — بدء المملقات بالتشبيب — تعدد الأغراض في كل معلقة — الوحدة في المملقات .
الخاتمة (٤٠١ — ٤٠٢)

للمؤلف

الكتب المطبوعة

(١) معروف الرصافي :

دراسة أدبية لشاعر العراق ، وبيئته السياسية والاجتماعية .

(٢) أدب المرأة العراقية :

دراسة في الأدب النسوي، وتعريف بشواعر العراق .

(٣) أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية :

منابع بلاغته ، ومنهجه ، ومقاييسه ، وآثره في البلاغة والنقد .

(٤) دراسات في نقد الأدب العربي :

بحث في حياة النقد ، وآثار النقاد، ومناهجهم، من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

(٥) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي :

تحقيق لحياته وآثاره ، ودراسة لمنهج جديد في النقد الأدبي .

(٦) السرقات الأدبية :

بحث في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها .

(٧) البيان العربي :

دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية .

(٨) مقدمة في التصوف الإسلامي :

ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي وفلسفته في الإحياء .

(٩) معلقات العرب :

دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر الجاهلي .

مَطْبَعَةُ السَّالَةِ
٣ شارع حمودة الماؤل - عابدين